مصر الإسلامية
وتاريخ الخطط المصرية

محمد عبدالله عنان

مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الفكرية)

مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية

محمد عبدالله عنان

الغلاف:

الإشراف الفنى:
للفنان محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

مقدمة



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل - ومازلنا نتشبث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

شبّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضيء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب فى متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى فى كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد من لآلىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى تترسخ فى وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الطبعة الأولى

مصر غنية بماضيها التالد ، غنية بتاريخها القومى إبان عصور الاستقلال والسلطان والحرية . ولمصر أيام الدول الإسلامية ، تاريخ حافل بمواقف العظمة والبهاء والمجد ، تفاخر به تواريخ أعظم الشعوب والدول . ولكن هذا التاريخ القومى الباهر ، لم يكتب فى عصرنا كما يجب أن يكتب ، ولم نعن باستخراجه من صحف الماضى و سجلاته فى صور محدثة محققة ، ولا زلنا نعوّل فى استقرائه على تراث الماضى البعيد . على أن هذا التراث الحافل ، ما زالت تحجبه عنا عصور طويلة من الركود والنسيان ؛ وقلما تتجه أذهاننا المحدثة إلى تصفح هذه الآثار الخالدة ، الفياضة بمآثر تاريخنا القومى ومحاسنه فى عصور الرياسة والمجد . بل لم يشهد الضياء إلى يومنا من هذه الآثار سوى قليل مما انتهى إلينا منها ، ولا زال معظمها مخطوطاً ، مبعثراً فى مختلف الأنحاء . ومن الأسف أن الرغبة فى دراسة التاريخ القومى لم تتقدم فى يومنا تقدماً يذكر ، مع أن مصر الناهضة ، أحوج ما تكون إلى استظهار تاريخها القومى ، واستقرائه واستيحائه . فدراسة التاريخ القومى التالد ، غذاء للروح الوطنى ، ودعامة للعزة القومية ، وحافز إلى الطموح ، والمثل العليا .

وهذه صحف فى تاريخ مصر الإسلامية ، أملى كتابتها هوى يضطرم لإحياء التاريخ القومى ؛ استخرجتها من ذلك التراث الفياض الذى قلما ينفذ إلى حجبه شبابنا المتعلم ، واستعرضت فيها ناحيتين مختلفتين من نواحى هذا التاريخ . فأما الأولى ، فهى تصوير لفن من فنون التاريخ الإسلامى ، ابتدعه وسما به المؤرخون

المصريون ، أعنى تاريخ الخطط والآثار . وهو فى رأينا فن مستقل بذاته Sui generis ، من فنون التاريخ ، كان لمؤرخى مصر فضل ابتكاره ، ثم فضل تقدمه وازدهاره ، حتى غدت آثاره تكون وحدها ثبتاً حافلا فى تراثنا التاريخى. نعم ان الكتابة عن « الخطط والآثار » قد شملت جميع الأمصار الإسلامية العظيمة ، وتناولت الكوفة والبصرة ودمشق قواعد الإسلام الأولى ، كما تناولت بغداد وأمصار المغرب والأندلس ؛ ولكن تناول هذه الأمصار والقواعد العظيمة ، التى أدت أدواراً هامة فى تكوين الحضارة الإسلامية ، وكانت نماذج باهرة لعظمة هذه الحضارة وقوتها ، لم يكن بنفس الاستيعاب والتخصص اللذين تناول بهما المؤرخون المصريون « الخطط والآثار » المصرية ، وتاريخ عاصمة الإسلام فى مصر ، وتطورات أحوالها ومجتمعاتها فى مختلف العصور . فليس بين الأمصار الإسلامية العظيمة من حظيت كمصر القاهرة بمجموعة حافلة من الآثار والسير ، متصلة متعاقبة وقفت عليها ، وخصصت لتتبع نموها وتطور مجتمعاتها ، والإشادة بآثارها وذكرياتها ومحاسنها ، ورثاء محنها . واذا استثنينا بغداد التى خصص لها مؤرخها أبوبكر الخطيب مجلداً كبيراً فى تاريخه ، تناول فيه خططها وصروحها وآثارها بإفاضة[1] ، فإن قواعد الإسلام الأخرى فى المشرق والمغرب والأندلس ، لم تلق من العناية بتاريخها وخططها ، غير ما كتبه مؤرخون ، كالبلاذرى واليعقوبى والطبرى ؛ أو جغرافيون كابن حوقل والإصطخرى والمقدسى والإدريسى وياقوت الحموى ؛ أو رحّل كابن جبير وابن بطوطة ؛ أو أدباء كابن الخطيب والمقّرى[2] . فهؤلاء وهؤلاء يتناولون فى آثارهم سير العواصم الإسلامية وأحوالها فى نبذ عرضية أو فصول خاصة ؛ ولكنهم يكتفون فى الغالب بالتعميم ، ولا يقفون

---

(١) نشر هذا المجلد المستشرق سالمون ، وهو خاص بتاريخ مدينة بغداد وخططها وقصورها ومعاهدها . وهو قطعة من تاريخ بغداد المشار إليه .

(٢) البلاذرى فى كتاب «فتوح البلدان» ، واليعقوبى فى «كتاب البلدان» ، والطبرى فى «تاريخه» ، وابن حوقل فى « المسالك والممالك » ، والإصطخرى فى « كتاب الأقاليم » ، والمقدسى فى « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » والإدريسى فى « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ، وياقوت فى « معجم البلدان » ، وابن جبير وابن بطوطة كل فى «رحلته » ، وابن الخطيب فى «الإحاطة فى أخبار غرناطة » ، والمقرى فى « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » .

طويلا فى تتبع الخطط والصروح والآثار والمجتمعات ، كما يفعل المؤرخون المصريون فى استيعاب الخطط والآثار المصرية ، بكثير من التخصص والإفاضة . كذلك يرجع الفضل فى ابتكار هذا النوع من الأدب التاريخى ، إلى المؤرخين المصريين ؛ فهم أول من خصه بالكتابة والعناية ، وكان عبد الرحمن بن عبد الحكم المصرى ، الذى عاش فى أوائل القرن الثالث الهجرى ، أول مؤرخ للخطط والآثار ؛ وقد تناولها فى تاريخه فى فصل خاص ، كان أول مادة لهذا التراث ، الذى نما وازدهر على يد خلفائه من كتاب الخطط ، فى سلسلة متعاقبة متصلة بلغت ذروتها على يد المقريزى أعظم مؤرخى الخطط . وكان أول من كتب من غير المصريين ، عن الأمصار الإسلامية ، البلاذرى واليعقوبى ، وقد عاش كلاهما فى أواخر القرن الثالث ، ثم الطبرى والإصطخرى والمقدسى ، وقد عاشوا جميعاً فى القرن الرابع ؛ ثم كتب أبو بكر الخطيب عن بغداد بإفاضة فى أواسط القرن الخامس . وكتب من بعد هؤلاء من ذكرنا من الكتابُ والرُّحّل . ولكنهم جميعاً ، ما عدا أبو بكر الخطيب ، ليسوا مؤرخين إخصائيين للخطط والآثار بالمعنى الذى يطلق على المؤرخين المصريين ، ولا تجمع بين آثارهم وحدة التعاقب والاتصال التى تجمع بين آثار الخطط المصرية ؛ ومن ثم كان تاريخ الخطط والآثار ، كما قدمنا فناً فى الأدب التاريخى ، مستقلا بذاته Sui generis ، وكان فناً مصرياً ، ابتدعه المؤرخون المصريون ، وانفردوا بالتخصص والبراعة فى عرضه واستيعابه .

وأما الناحية الثانية التى عالجتها من تاريخ مصر الإسلامية ، فهى أنى تناولت منه بعض مواقف لم تلق حقها من التعريف ، وعنيت بالأخص أن أعرض منه بعض الصور والظواهر السياسية والاجتماعية والنفسية التى قلما يعنى بعرضها ، والتى تمتاز بطرافتها ، وقوة أثرها فى حياة مصر العامة . وعرضتها فى نوع من الدراسة التحليلية المقارنة ، مجردة من التفاصيل والتمهيدات العامة ، لأنى أكتبها لخاصة القراء والمتعلمين الذين يلمون بكليات التاريخ المصرى ، وأكتبها بالأخص لشبابنا المثقف الذى يتوق إلى استعراض مواقف التاريخ القومى ، فيما يلائم ثقافته المحدثة من الأساليب والصور ، كما يستعرض تاريخ أرقى الأمم وأحدثها .

وقد رجعت فى استخراج هذه الصحف ، إلى مادة غزيرة من آثار ذلك التراث الفياض ، الذى انتهى إلينا فى تاريخ مصر الإسلامية ؛ وهو تراث ما زال

يُغمط حقه ونفاسته من شبابنا المتعلم . بيد أنى حرصت على استعراضه ، والتنويه بكل ما وسعنى مراجعته واستشارته ، ما شهد منه الضياء وما بقى مخطوطاً لم يشهده ، ولا سيما فى الكتاب الأول ، تعريفاً لشبابنا المتعلم بما هنالك من آثار وكنوز فى تاريخ مصر الإسلامية ، هى أنفس ذخيرة لتاريخنا القومى ، يوم يقدر لهذا التاريخ أن يكتب بما يجب من سعة وإفاضة ، وعرض محدث ، وتحقيق مستنير منزه عن كل مؤثر وهوى .

وأرجو فى الختام ، أن أكون قد وفقت بعض التوفيق فى عرض هذه الصور من تاريخ مصر الإسلامية ، فى أثواب من التحقيق والتنسيق والجدة ، تبعث هوى فى دراسة التاريخ القومى وإحيائه ؛ ذلك عندى أسمى الجزاء .

القاهرة فى نوفبر سنة ١٩٣١

محمد عبد الله عنان

المحامى

تصدير

كتبت هذا الكتاب ، أيام الشباب ، فى بداية حياتى القلمية ، أيام كنت منصرفاً إلى البحوث المشرقية ، وإلى تاريخ مصر الإسلامية بنوع خاص . وفى خلال هذه الحقبة الطويلة التى مرت مذ صدرت طبعته الأولى فى سنة ١٩٣٢ ، حدث تطور كبير فى اتجاهاتى الدراسية ، حيث تحولت إلى دراسة تاريخ الغرب الإسلامى ، وكرست معظم جهودى للدراسات الأندلسية ، واستطعت بعون الله وتوفيقه ، أن أصدر خلال ثلاثين عاماً من الجهود المتواصلة ، موسوعة تاريخ الأندلس ، من بدايته إلى نهايته ، فى سبعة مجلدات كبيرة .

بيد أنى خلال هذا الاتجاه إلى الدراسات الأندلسية ، لم أنس تاريخ مصر الإسلامية ، فكنت من آن إلى آخر ، أكتب ما تيسر لى فيه من بحوث مختلفة : وقد اجتمع لى مذ صدرت الطبعة الأولى من مصر الإسلامية ، عدة فصول منوعة ، تاريخية وأدبية ، تبلغ نحو أربعة عشر فصلا ، منها : مصر فى عهد عمر بن الخطاب . صور من استقلال القضاء وصور من خضوعه . سفارة بيزنطية إلى مصر فى أواخر القرن الرابع الهجرى . سفارة مصرية إلى بلاط بيزنطية فى عهد المستنصر الفاطمى . عصر الخفاء فى مصر الإسلامية . العلائق الدبلوماسية بين مصر وأراجون . مصر فى خاتمة القرن السابع عشر . مصر فى أواخر القرن الثامن عشر . حلقات الأدب فى الفسطاط . معارك قلمية مصرية فى القرن التاسع الهجرى . وغيرها . وهذا عدا ما أضفناه من صفحات جديدة إلى تاريخ القاهرة المعزية ليصبح أتم وأوفى .

وإنه ليطيب لى أن أضم هذه الفصول إلى الطبعة الجديدة من « مصر الإسلامية » مضاعفة بذلك حجمها ، ومضفية عليها قيماً جديدة ، تاريخية وأدبية .

على أن تاريخ « الخطط المصرية » يبقى مع ذلك ، عماد هذه المجموعة من البحوث فى تاريخ مصر الإسلامية .

ومذ صدرت الطبعة الأولى ، كان لهذا القسم بالذات من الكتاب صداه فى

دوائر البحث الغربى ، فنوه به المرحوم العلامة المستشرق الدكتور ج . كامبفماير مدير قسم الآداب العربية بمعهد اللغات الشرقية ببرلين فى مجلة المعهد[١] . ثم نوه به من بعده المرحوم العلامة إجناتيوس كراتشكوفسكى عميد الإستشراق الروسى المعاصر فى عدة إشارات فى كتابه « تاريخ الأدب الجغرافى العربى »[٢] .

وانه لمن حسن الطالع أن تصدر هذه الطبعة الثانية من الكتاب ، وحاضرة مصر العظيمة ، القاهرة المعزية ، توشك أن تتم عمرها الألفى بالتاريخ الميلادى ، فى صيف سنة ١٩٦٩ . وإنه لما يدعو كذلك إلى الغبطة ، أن تعنى حكومتنا بالاحتفال بهذه الذكرى العظيمة فى شهر مارس القادم بإقامة ندوة عالمية يشترك فيها المفكرون والعلماء من كافة أنحاء العالم . وإنها لمناسبة طيبة أن يكون تاريخ القاهرة المعزية ، ومصادر هـذا التاريخ ، وهو ما يعنى القسم الأول من هذا الكتاب بشرحه واستيعابه ، بين أيدى القراء يستعرضون فيه خطط هذه الحاضرة العظيمة ، من حواضر الإسلام والعروبة ، وما توالى عليها من الأحداث ، وما خصت به من البحوث والدراسات .

والله يحفظ مصر الخالدة ، ويضفى عليها سابغ عونه ورعايته .

القاهرة فى رجب سنة ١٣٨٨
الموافق أكتوبر سنة ١٩٦٨

محمد عبد الله عنان

---

(١) Mitt. des Sem. für Orientalische Sprachen. Jahrg. XXXV (1933)

(٢) تاريخ الأدب الجغرافى العربى القسم الأول ص ٣٤٧ والقسم الثانى ص ٤٨١ و ٤٨٥

الكتاب الأول

الخطط في تاريخ مصر
وتاريخ مصر القاهرة

الفصل الأول

عاصمة الإسلام فى مصر

١

نشأة الفُسْطاط

تاريخ الخطط أو تاريخ الأمصار ، إنشاؤها وتطوّرها ، وتتبع معالمها ومعاهدها وآثارها ومجتمعاتها ، خلال العصور المختلفة ، من النواحى الهامة فى تاريخ الحضارات والدول ، ولا سيما فى العصور القديمة والوسطى، حينما كانت حياة المدينة ترتبط أشد الارتباط بمصاير حضارة أو دولة معينة . فتاريخ أثينة والمجتمع الأثينى يعنى تاريخ اليونان دولةً وحضارةً ؛ كما أن تاريخ رومة ومجتمعاتها فى عصور الجمهورية والإمبراطورية ، هو تاريخ الرومان والحضارة الرومانية ؛ وتاريخ قسطنطينية فى العصور الوسطى ، هو تاريخ الدولة البيزنطية وحضارتها . كذلك نرى هذه الظاهرة قوية الأثر والتطبيق فى تاريخ الإسلام والدول الإسلامية ؛ فقد كانت دمشق أيام الدولة الأموية قلب الإسلام الخفاق ، ومعقل عظمته ودعوته ، ومنبع حضارته الأولى . ورعت بغداد بعدها هذا التراث الباهر حيناً فتفتح فيها وازدهر . فلما ذوت عظمة بغداد ، حملت القاهرة هذا اللواء ، ولبثت طوال العصور الوسطى للإسلام معقلا منيعاً ، ومنارة ساطعة . وكانت قرطبة من جانبها تؤيد دولة الإسلام ودعوته ، وتبث تفكيره وحضارته فى الغرب . وتاريخ هذه الأمصار العظيمة ، وتاريخ أسرها ومجتمعاتها ، هو تاريخ الإسلام والمدنية الإسلامية .

وقد كان للخطط شأن عظيم فى التاريخ الإسلامى ، فقد تتبع المؤرخون المسلمون إنشاء الأمصار الإسلامية العظيمة ومعاهدها وآثارها ومجتمعاتها، بالتدوين والوصف . وكان لمصر والقاهرة من هذه العناية الحظ الأوفر . وقد فقدنا الكثير من هذه السير والتواريخ التى تصف عظمة القاهرة وبهاءها فى العصور الوسطى .

ولكن لا يزال لدينا اليوم منها تراث نفيس خالد. وتبدو أهمية هذا التراث بوجه خاص، متى ذكرنا أن القاهرة وحدها، من بين الأمصار الإسلامية العظيمة، لا زالت تحتفظ بمعظم مواقعها وآثارها القديمة. وبينما فقدت معظم الحواضر الإسلامية المشرقية أثوابها الزاهية التي كانت لها في العصور الوسطى، وفقدت معظم مميزاتها وخواصها القديمة، وبينما أضحت قرطبة وإشبيلية وغرناطة منذ بعيد مدنا نصرانية، ولم تبق فيها من آثار الإسلام سوى صروح قليلة وأطلال دارسة؛ إذا بالقاهرة وحدها تجمع إلى عظمتها في العصور الوسطى وإلى آثارها الإسلامية الباهرة، كل مميزات الأمصار الغربية العظيمة، وإذا الكثير من خططها ومعالمها القديمة لا يزال حيا قوى الأثر، تؤكده وتعينه آثارها الباقية.

نشأت قاعدة الإسلام في مصر وقت الفتح الإسلامي ذاته، ولكنها نشأت متواضعة جداً، ولم تكن في بدايتها أكثر من معسكر للجند الفاتح، ومركز للقيادة والإدارة؛ وأقيمت، حسبما تقول الرواية، في نفس المكان الذى أحرز العرب فيه النصر الحاسم على جيش الروم والقبط، وغنموا ملك مصر، واقترن إنشاؤها وتسميتها بنوع من الأسطورة، شأن كثير من الأمصار العظيمة. وتختلف الرواية الإسلامية في الوقت والظروف التي أنشئت فيها الفسطاط. وأقدم رواية لدينا هي رواية عبد الرحمن بن عبد الحكم[1] أقدم مؤرخي مصر الإسلامية، وهي:

«قال: حدثنا عثمان بن صالح، حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن حبيب[2]، أن عمرو بن العاص، لما فتح الإسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغاً منها، هم أن يسكنها وقال: مساكن قد كُفيناها. فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك، فسأل عمر الرسول: هل يحول بيني وبين المسلمين ماء؟ قال: يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل، فكتب عمر إلى عمرو: لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف. فتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط»[3]

وأما عن تسمية الفسطاط فيقول ابن عبد الحكم:

---

(١) توفي سنة ٢٥٧ هـ.

(٢) توفي عثمان بن صالح سنة ٢١٩ هـ، وابن لهيعة سنة ١٧٤ هـ، ويزيد بن حبيب سنة ١٢٨ هـ.

(٣) فتوح مصر وأخبارها – ص ٩١.

« قال : وإنما سميت الفسطاط كما حدثنا أبي عبدُ الله بن عبد الحكم وسعيد ابن عُفير ، أن عمرو بن العاص لما أراد التوجه إلى الإسكندرية لقتال من بها من الروم ، أمر بنزع فسطاطه ، فإذا فيه يمام قد فرخ ، فقال عمرو بن العاص : لقد تحرم منا بمتحرم ، فأمر به فأقر كما هو ، وأوصى به صاحب القصر(١) .

فلما قفل المسلمون من الإسكندرية ، فقالوا أين ننزل ، قالوا الفسطاط ، لفسطاط عمرو الذى كان خلّفه وكان مضروبا »(٢).

والمستخلص من هذه الرواية ، فوق كونها تشرح الظروف التى أنشئت فيها الفسطاط وسميت ، هو أن الفسطاط قد أنشئت بعد فتح الإسكندرية ، لتكون مركزاً للفاتحين ، وقاعدة للقيادة والإدارة . وقد تناقل مؤرخو مصر الإسلامية هذه الرواية على كر العصور ، وارتضوها شرحاً لقيام عاصمة الإسلام الأولى فى مصر . ولاريب أنها كانت رواية الكندى وابن زُولاق(٣)، وهما أول من عنى بعد ابن عبد الحكم بكتابة تاريخ الخطط ، فوضع كلاهما فيه مؤلفاً خاصاً لم يصلنا . ولكن ما انتهى إلينا من بحوثهما فى الخطط ، يدل على أنهما اتخذا مادة ابن عبد الحكم أساساً لمجهودهما . ونقل القضاعى(٤) مؤرخ الخطط من بعدهما ، نفس هذه الرواية عن قيام الفسطاط وتسميتها ، وهى رواية لم تصلنا إلا بطريق النقل ، لأن خطط القضاعى قد فقدت أيضاً ، ولا نعرف منها إلا ما نقله المتأخرون مثل ابن دقماق والقلقشندى والمقريزى والسيوطى ، وكلهم يردد نفس الرواية مع فرق فى الألفاظ والصيغ(٥) . وينقل السيوطى إلينا رواية القضاعى كاملة ؛ وفيها يحدد القضاعى تاريخ فتح مصر بمستهل المحرم سنة عشرين من الهجرة (ديسمبر سنة ٦٤٠ م) ثم يقول : « وقفل عمرو بن العاص من الإسكندرية ، بعد افتتاحها والمقام بها فى ذى القعدة سنة عشرين . قال الليث : أقام عمرو بالإسكندرية فى حصارها وفتحها ستة أشهر ، ثم انتقل إلى الفسطاط فاتخذها داراً »(٦) .

---

(١) قصر الشمع أو حصن بابليون الذى كان يمتنع به الروم . والمقصود بصاحبه هنا هو المقوقس.

(٢) فتوح مصر – ص ٩١ .

(٣) توفى الكندى سنة ٣٥٧ هـ وابن زولاق سنة ٣٨٧ هـ وسنعود اليهما .

(٤) توفى القضاعى سنة ٤٥٤ هـ وسنعود إليه .

(٥) راجع كتاب الانتصار لابن دقماق (بولاق ج ١ ص ٢ – ٣) وكتاب صبح الأعشى للقلقشندى (دار الكتب ج ٣ ص ٣٣٠) وخطط المقريزى (طبع بولاق ج ١ ص ٢٩٦) .

(٦) السيوطى – حسن المحاضرة – ج ١ ص ٧٢ (الطبعة الاهلية مصر سنة ١٣٢١ هـ) .

ويبدأ قيام الفسطاط كقاعدة ومدينة إسلامية بتوزيع « الخطط » بين قبائل الغزاة . وهنا أيضاً يقدم إلينا ابن عبد الحكم أقدم رواية عن إنشاء هذه الخطط التى كانت مهد الفسطاط . فقد اختط عمرو بن العاص مسجده الشهير فى سنة ٢١ هـ (٦٤١م) واختط أمامه منزلا ليكون داراً للإمارة ، واختط الزعماء والقبائل حول المسجد[١] . ويقول القضاعى فى نشأة خطط الفسطاط : « ولما رجع عمرو من الإسكندرية ونزل موضع فسطاطه ، انضمت القبائل بعضها إلى بعض ، وتنافسوا فى المواضع ، فولى عمرو على الخطط ، معاوية بن حُديج التُّجيبى ، وشريك ابن سمى الغطيفى ، وعمرو بن قُحزم الخولانى ، وحَيَوْيل بن ناشرة المغافرى ، وكانوا هم الذين أنزلوا الناس ، وفصلوا بين القبائل وذلك فى سنة إحدى وعشرين »[٢] .

ويفيض ابن عبد الحكم فى وصف هذه الخطط الأولى لمصر الإسلامية ، ويعين مواضع الدور والأمكنة التى اختطها الزعماء والقبائل . ولا ريب أن روايته فى ذلك أقرب الروايات إلى الحقيقة ، لأنه ولد فى الفسطاط وعاش بها ، وأدرك معظم معالمها القديمة ، وأدركت أسرته التى كانت خلال القرن الثانى للهجرة من سادة الفسطاط ، ما اندثر من هذه المعالم ، وما تعاقب بشأنها من الروايات ؛ وتلقى ابن عبد الحكم هذا التراث عن أبيه وإخوته . وإذاً ففى وسعنا بالاعتماد على رواية ابن عبد الحكم عن الخطط أن نعين مواقع الفسطاط القديمة تعييناً لا يبعد عن الحقيقة[٣] .

وفى الوقت الذى وضعت فيه خطط للفسطاط ، وضعت فى الضفة المقابلة لها على النيل خطط الجيزة ، فان بعض القبائل اختار النزول فى هذا المكان ؛ وأنشأ الفاتحون فيه فى سنة ٢١ هـ حصناً لاتقاء المفاجأة[٤] ، وتم بذلك استقرار العرب على ضفتى النيل حيثما غنموا ملك مصر ، وقامت العاصمة الأولى لمصر الإسلامية .

وتدل أوصاف الخطط وتقدير الأبعاد ، طبقاً لرواية ابن عبد الحكم ، على أن موقع الفسطاط القديمة ، كان يشغل مسطحاً طوله نحو خمسة آلاف متر ، حده من الشمال جبل يَشْكُر الذى يقع عليه جامع ابن طولون الآن ، ومن الجنوب

(١) فتوح مصر — ص ٩١ و ٩٦ .

(٢) المقريزى عن القضاعى — الخطط — ج ١ ص ٢٩٧ .

(٣) تراجع رواية ابن عبد الحكم عن الخطط فى فتوح مصر — ص ٩١ — ١٢٨ .

(٤) فتوح مصر — ص ١٢٩ .

دير الطين (أو دير ماريوحنا)[1] ، وفى وسطه جامع عمرو ، ممتداً على ضفة النيل مقابل الجزيرة التى تعرف الآن بجزيرة الروضة ، وأن عرض هذا المسطح لم يكن يزيد على ألف متر لأن النيل حدّه الغربى ، وكان مجرى النيل يومئذ على ما يظهر أقرب إلى الفسطاط من موضعه الحالى[2] .

٢
من مصر الفسطاط إلى مصر القاهرة

وقد أنشئت خطط الفسطاط حول المسجد الجامع (جامع عمرو) ، على نفس القواعد البسيطة التى اتبعت فى صدر الإسلام ، فى إنشاء الأمصار الإسلامية الأولى مثل الكوفة والبصرة ، لتكون مجمعاً لنزول القبائل الغازية ، ومركزاً للإمارة والإدارة ، وقاعدة لإتمام إخضاع البلاد المفتوحة واستعمارها . وكان إنشاء الفسطاط أول حجر فى صرح المدينة العظيمة التى عرفت فيما بعد بمصر ثم القاهرة ، وغدت منار الإسلام ومعقله ، وعروس أمصاره . غير أنه لم يتح للفسطاط فى عصورها الأولى ، ما أتيح لغيرها من قواعد الإسلام من الضخامة والبهاء ، لأنها لبثت خلال القرنين الأولين للهجرة ، عاصمة لإقليم فقط من أقاليم الخلافة ، ومنزلا للحكام المحليين ، وقاعدة عسكرية لفتوح أخرى فى الغرب والجنوب . أما الإسكندرية وهى أعظم مدائن مصر يومئذ عمارة وبذخاً ورونقاً ، فقد حافظت فى عصور الإسلام الأولى على صبغتها اليونانية الرومانية ، ولم تغلب عليها الصبغة الإسلامية إلا خلال القرن الثانى حينما ذاع الإسلام بين معظم أهلها .

ولبثت الفسطاط قاعدة الإسلام الرسمية فى مصر ، حتى منتصف القرن الرابع الهجرى . غير أنه وقع فى خططها أثناء ذلك انقلابان عظيمان ، هما قيام « العسكر » ثم « القطائع » ، وكلتاهما قاعدة أخرى أقيمت تبعا لتطور الأحوال السياسية . فأما « العسكر » فقد قامت فى سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) على أثر سقوط الدولة الأموية ، حينما فر بنو أمية إلى مصر ليمتنعوا بها وعلى رأسهم آخر خلفائهم مروان بن محمد ، فتبعتهم جيوش بنى العباس إلى مصر بقيادة صالح بن على وأبى عون عبد الملك

---

(١) دير الطين هو الاسم الذى كان يطلق قبلا على بلدة « دار السلام » الحالية .

(٢) المستشرق جست (Guest) — مجلة الجمعية الملكية الأسيوية (J.R.A.S.) سنة ١٩٠٧ ص ٤٥ وما بعدها . وفى هذا البحث شرح قيم لخطط الفسطاط الأولى ومعه خريطة تقريبية للفسطاط .

ابن يزيد ، وظفرت بمروان وكثير من آله . وكان الجانب الشمالى من الفسطاط مما يلى جبل يَشْكر قد خرب يومئذ ، وعفت معاهده وآثاره وغدا فضاء قفراً ، فنزل فيه جند بنى العباس وابتنوا قاعدة جديدة سميت « بالعسكر » وبنيت فيها دار جديدة للإمارة ، ومسجد جامع عُرف بجامع العسكر . وفى ولاية السرىّ بن الحكم (٢٠٠ – ٢٠٥ هـ) (٨١٦ – ٨٢٠ م) أُذن الناس بالبناء حول « العسكر » كثرت فيها العمارة حتى اتصلت بالفسطاط ، « وصارت « العسكر » مدينة ذات محال وأسواق ودور عظيمة»[1] . ولبثت منذ قيامها مركز الإمارة والإدارة والشرطة ، حتى ولاية أحمد بن طولون . ونزل ابن طولون لأول ولايته فى دار إمارتها وابتنى فيها مارستانا (مستشفى) عظيما ؛ وبذا عمرت « العسكر » كقاعدة رسمية لمصر الإسلامية أكثر من قرن (١٣٣ – ٢٥٦هـ) .

وفى عهد ابن طولون (٢٥٤–٢٧٠هـ) (٨٦٨–٨٨٤م) شهدت خطط الفسطاط انقلابها الثانى . وكان انقلاباً عظيماً تحولت به قاعدة مصر الإسلامية ، من مركز حربى وإدارى بسيط ، إلى مدينة ملوكية . وكان أحمد بن طولون رجلا وافر العزم والهمة ، فلم يمض على ولايته مصر عامان ، حتى رأى أن «العسكر» تضيق بحاشيته ومشاريعه ، واعتزم أن ينشىء له قاعدة تجمع بين المناعة والفخامة ، فاختار لذلك منطقة تقع فيما بين جبل يشكر حد الفسطاط الشمالى ، وبين سفح المقطم فى مكان كان يعرف وقتئذ بقبة الهواء ، وهو الذى بنيت فيه قلعة الجبل فيما بعد ؛ وفيما بين الرُّميلة تحت القلعة إلى مشهد الرأس الذى عرف فيما بعد بمشهد زين العابدين . ووضعت الخطط الأولى للقاعدة الجديدة فى شعبان سنة ٢٥٦ هـ (أغسطس سنة ٨٧٠ م) . وبنى ابن طولون قصره تحت موقع القلعة ، ومسجده الشهير الذى لا يزال قائماً إلى الآن فوق جبل يشكر ، وإلى جانبه دار للإمارة ، وفيما بين المسجد والقصر ميدان شاسع . واختط أصحابه وأتباعه من القادة والسادة والغلمان ، حول القاعدة الجديدة ، وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة الفسطاط ، وأقطعت كل طبقة وكل جماعة من الأتباع والسكان منطقة خاصة ، ومن ثم سميت العاصمة الجديدة «بالقطائع» وسميت كل قطعة بمن سكنها . «وعمِّرت القطائع عمارة حسنة ، وتفرقت فيها السكك والأزقة ، وبنيت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران ، وسميت أسواقها ... ولكل من الباعة سوق حسن عامر ، فصارت القطائع مدينة

---

(١) خطط المقريزى – ج ١ ص ٣٠٤ .

كبيرة أعمر وأحسن من الشام . وبنى ابن طولون قصره ووسعه وحسنه ، وجعل له ميداناً كبيراً يضرب فيه بالصوالجة فسمى القصر كله الميدان»(١).

وجاء بعد ابن طولون ولده خمارَوَيْه ، فعنى بتوسيع القطائع وتجميلها عناية فائقة ، وزاد فى قصر أبيه زيادات كبيرة ، وغرس فى الميدان بستاناً عظيماً تتخلله مسارح الطير ، وأنشأ له قصراً خاصاً بذل فيه من صنوف البهاء والبذخ آيات عجيبة ، وجعل فيه بركة كبيرة من الزئبق الخالص ، وإيواناً فخماً عليه قبة عظيمة ، وداراً للسباع ، وغير ذلك مما أفاض فى وصفه مؤرخو الخطط(٢) . وكانت القطائع تشغل مساحة قدرت بميل فى ميل(٣) وذلك حسبما أشار إليه ابن سعيد الأندلسى الذى زار مصر أيام الملك الصالح (٦٣٧-٦٤٧هـ) (١٢٤٠-١٢٤٩م) فى كتاب «المغْرِب» حيث قال : «وكان خارج الفسطاط أبنية بناها أحمد بن طولون ميل فى ميل يسكنها جنده تعرف بالقطائع ، كما بنى بنو الأغلب خارج القيروان رَقَّادَة . وقد خربتا فى وقتنا ، وأخلف الله بدل القطائع بظاهر مدينة الفسطاط القاهرة »(٤) .

كانت القطائع عاصمة ملوكية حقة ، تنم عن قوة الدولة الطولونية وبذخها . ولكن الدولة الطولونية لم تعمر طويلا بعد ذهاب مؤسسها القوى ، فلم يمض ربع قرن حتى اضمحلت ، وبعث الخليفة المكتفى بالله جنده إلى مصر لاستعادة سلطة الخلافة فيها ؛ فدخلوها بقيادة محمد بن سليمان فى أوائل سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٤م) واقتحموا القطائع ، وأضرموا فيها النار ، وخربوا قصورها ومعاهدها وحدائقها ؛ وقتل بنو طولون ومن إليهم من بقية هذه الدولة الزاهرة ، وأضحت القطائع أطلالا دارسة لم يبق منها غير المسجد الجامع . وكانت مأساة أليمة مروعة ، أفاض فى وصفها شعراء العصر ، فمن ذلك قول سعيد القاص من قصيدة مؤثرة يرثى بها بنى طولون :

---

(١) المقريزى فى إنشاء القطائع وتاريخها – الخطط – ج ١ ص ٣١٣ وما بعدها .

(٢) خطط المقريزى – ج ١ ص ٣١٦ – ٣١٨ .

(٣) الميل عند العرب مقدار مدى البصر ، ويقدره البعض بثلاثة آلاف ذراع ، والبعض الآخر بأربعة آلاف ذراع . والميل ثلث الفرسخ .

(٤) كتاب المغرب فى حلى المغرب . وقد نشرت بعض أقسامه . ومنه مخطوط مشوه ناقص بدار الكتب (رقم ٢٧١٢ تاريخ) فى القسم المعنون منه «كتاب الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط» (ص ١٠) وهو مما نقله المقريزى أيضاً (الخطط ج ١ ص ٣٤١) ، هذا وقد نشر القسم المتعلق بالأندلس من «المغرب» بعناية الدكتور شوقى ضيف فى مجلدين (القاهرة ١٩٥٣ – ١٩٥٥) .

تذكرتهم لما مضوا فتتابعوا ... كما ارفضّ سلك من جمان ومن شذر
فمن يبك شيئاً ضاع من بعد أهله ... لفقدهم فليبك حزناً على مصر
ليبك بنى طولون إذ بان عصرهم ... فبورك من دهر وبورك من عصر

وعادت مصر الفسطاط مركز الولاة ومقر الإمارة عصراً آخر ؛ وكان أغلب سكن الأمراء يومئذ «بالعسكر»[1] ؛ وبلغت من الضخامة والعمارة والسعة مبلغاً عظيماً يبالغ فى وصفه وتقديره مؤرخو الخطط ، ويورد بعضهم عنه روايات خرافية ، مثال ذلك ما رواه الجوّانى النسابة عن القُضَاعى ونقله المقريزى : من أنه كان بمصر الفسطاط من المساجد ستة وثلاثون ألف ، وثمانية آلاف شارع مسلوك ، وألف ومائة وسبعون حماماً . ونقل المقريزى عن القضاعى أيضاً ، وعن غيره من المؤرخين المتقدمين مثل ابن زولاق والمسبّحى[2] وغيرهما ، ممن أدركوا خطط الفسطاط القديمة قبل اضمحلالها ، روايات كثيرة عن مصر الفسطاط ، وكثرة سكانها ووفرة غناها وعمارتها ، إذا لم نستطع أن نصدقها بنصوصها ، استطعنا ، على الأقل ، أن نستخلص منها فكرة عن ضخامة المدينة الإسلامية التى قامت على خطط الفسطاط الأولى[3] ، وغلب عليها اسم مصر منذ أواسط القرن الثالث ، وأضحت فيما بعد قسماً عظيماً من القاهرة ، متمماً لضخامتها وامتدادها ، ولا زالت إلى اليوم تحمل اسم « مصر القديمة » مع خلاف يسير فى الحدود والمواقع .

وقد وصف ابن حوقل الرحالة البغدادى مدينة الفسطاط كما شهدها فى النصف الأخير من القرن الرابع الهجرى (أواخر القرن العاشر الميلادى) بقوله : « والفسطاط مدينة حسنة ينقسم النيل لديها ، وهى كبيرة نحو ثلث بغداد ومقدارها نحو فرسخ[4] ، على غاية العمارة والطيبة واللذة ، ذات رحاب فى محالها ، وأسواق عظام فيها ضيق ، ومتاجر فخام ، ولها ظاهر أنيق وبساتين نضرة ، ومنتزهات على ممر الأيام خضرة . وفى الفسطاط قبائل وخطط للعرب تنسب إليها كالبصرة

---

(١) خطط المقريزى — ج ٢ ص ٢٠١ .

(٢) توفى ابن زولاق كما قدمنا فى سنة ٣٨٧ هـ والمسبحى سنة ٤٢٠ والقضاعى سنة ٤٥٤ .

(٣) يراجع الفصل الذى كتبه المقريزى متضمناً لما قيل فى ضخامة مصر الفسطاط وعمارتها من الروايات (ج ١ ص ٣٣٠ ومابعدها) وكانت خطط الفسطاط الأولى وكذلك العسكر والقطائع قد زالت تماماً قبل عصر المقريزى بعهد بعيد وقامت مكانها مدينة مصر .

(٤) الفرسخ ثلاثة أميال عربية ، والميل كما تقدم نحو أربعة آلاف ذراع .

والكوفة ، إلا أنها أقل من ذلك . وهي سبخة الأرض غير نقية التربة ، وتكون بها الدار سبع طبقات وستا وخمساً ، وربما يسكن فى الدار المائتان من الناس ، ومعظم بنيانهم بالطوب ، وأسفل دورهم غير مسكون »[1] .

ووصفها ابن سعيد الأندلسى كما شهدها حوالى سنة ٦٤٠هـ (١٢٣٤م) فى قوله : « وهى مدينة مستطيلة يمر النيل مع طولها ، ويحط فى ساحلها المراكب الآتية من شمال النيل وجنوبه بأنواع الفوائد ، ولها منتزهات ، ولا ينزل فيها مطر إلا فى النادر ، وترابها تثيره الأرجل ، وهو قبيح اللون تتكدر منه أرجاؤها ، ويسوء هواؤها . ولها أسواق ضخمة إلا أنها ضيقة ، ومبانيها بالقصب والطوب طبقة على طبقة . ومذ بنيت القاهرة للخلفاء الإسماعيليين المتوثبين عليها من الغرب ، ضعفت مدينة الفسطاط ، وفرّط فى الاغتباط بها شدة الإفراط . وبينهما نحو ميلين . وأنشد فيها الشريف العقيلى :

تبدّت عروساً والمقطمُ تاجُها ... ومن نيلها عِقْدٌ كما انتظم الدرُّ[2]

٣
القاهرة المعزية إلى العصر الحديث

وكان قيام القاهرة أعظم وآخر انقلاب فى خطط قاعدة مصر الإسلامية ؛ وكان فاتحة عهد جديد فى تاريخ الإسلام والخلافة ، ومبدأ هذه الدول الإسلامية الباهرة ، التى استقلت بمصر ، وجعلت منها أمنع قاعدة للذود عن الإسلام وأسطع منارة فى المشرق لبث حضارته وتفكيره وهى قاهرة المُعِزّ أو القاهرة المعِزّية ، نسبة إلى مؤسسها الخليفة المعزّ لدين الله الفاطمى ، منشىء الدولة الفاطمية بمصر . وكان

(١) ابن حوقل — المسالك والممالك — ص ٩٦ (فى المكتبة الجغرافية التى أصدرها المستشرق دى جويه) ونقله المقريزى — الخطط ج ١ ص ٣٤١ — ويخصص ابن حوقل فصلا لمشاهداته فى مصر (ص ٨٧ وما بعدها) .

(٢) المغرب — فى كتاب « الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط » ، ويميل ابن سعيد إلى الذم ويشكو من ضيق مسالك الفسطاط وضيق أسواقها وكدر تربتها (ص ٣ وما بعدها فى المخطوط المشار اليه) وقد نشر القسم الخاص بمصر من المغرب بعناية المرحوم الدكتور زكى محمد حسن . وفى خطط المقريزى (ج ١ ص ٣٤١) . ونقل المقريزى عن كتاب ابن المتوج فى الخطط وصفاً دقيقاً لما كانت عليه مدينة مصر الفسطاط فى أوائل القرن الثامن الهجرى (ج ١ ص ٣٤٢) وهو ما سنعود إليه فيما بعد .

إنشاؤها عقب فتح جيوش المعز لمصر بقيادة مولاه جَوْهَر الكاتب الصقلي، وانقضاء دولة بني الإخشيد المتغلبين على مصر. وكان دخول جيوش المعز مدينة مصر الفسطاط على أرجح الأقوال في يوم الثلاثاء ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٧ يوليه سنة ٩٦٩م)(١). وتتبع الرواية مسير جوهر من المغرب، مقر الخلافة الفاطمية يومئذ إلى مصر، فتذكر لنا أن جوهرًا خرج بحملته على مصر من مدينة القيروان في يوم السبت ١٤ ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ، ووصل بجيشه الزاخر إلى أتروجة على مقربة من الإسكندرية في يوم الإثنين ١٨ رجب، ثم وصل إلى الجيزة في يوم ١١ شعبان، ودخل الفسطاط في يوم الثلاثاء السابع عشر منه. واخترق الجيش الفاطمي الظافر مدينة الفسطاط في ذلك اليوم، عند مغيب الشمس، وعسكر في الفضاء الواقع تجاهها نحو الشمال الغربي. وتحدد لنا الرواية موضع المعسكر الفاطمي، فتقول لنا إن جوهراً أقام معسكره بالرملة التي تقع حذاء جنات كافور، وهي التي كانت تحتل موقع بستان الإخشيد محمد بن طغج، وكانت صحراء خالية، وليس بها سوى دير قديم للنصارى يعرف بدير العظام، كان يقال إن به قبوراً لبعض الحواريين(٢).

وفي نفس الليلة وضع القائد جوهر، تنفيذاً لأوامر المعز، أول خطة في مواقع المدينة الجديدة التي اعتزم الفاطميون إنشاءها لتكون لهم في مصر قاعدة ومعقلاً، وحفر أساس قصر جديد، في نفس الفضاء الذي نزل فيه جيشه، فكان هذا مولد القاهرة.

وتتفق الروايات على أن القصر الفاطمي وضعت أسسه في ليلة الأربعاء ١٨ شعبان من السنة المذكورة، وبدئ ببنيانه في شهر رمضان من نفس العام، وهو

---

(١) يتفق معظم المؤرخين المسلمين على أن دخول الفاطميين مصر، كان في يوم الثلاثاء ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ. وهذه هي رواية ابن الأثير (مصر ج ٨ ص ٩٤) وابن خلكان في الوفيات (ج ١ ص ١٤٨) والمقريزي (الخطط ج ١ ص ٣٦١ و ج ٢ ص ٢٠٥) والنويري في نهاية الأرب (مخطوط دار الكتب ج ٢٦ ص ٤٠) والسيوطي (حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣). وذكر العيني في تاريخه عقد الجمان (مخطوط دار الكتب في المجلد الرابع عشر - ١ -) أن القائد جوهر وصل مصر يوم الثلاثاء ١٧ رمضان سنة ٣٥٨. ولكنه ينقل عن ابن كثير أنه وصل في ١٧ شعبان ونزل موضع القاهرة. وقد تضع بعض الروايات هذا التاريخ في ١٣ شعبان أو ١٥ أو ١٨ منه. ولكن الرواية الأولى أرجح وأقوى.

(٢) خطط المقريزي ج ١ ص ١٣٣، وتاريخ الأنطاكي ج ٢ ص ١٣٣.

القصر الكبير الذى غدا فيما بعد منزل الخلفاء الفاطميين ومقر الخلافة الفاطمية(١).

ويرى بعض المؤرخين أن خطط القاهرة ، وضعت فى ٦ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ أعنى فى نفس اليوم الذى اختط فيه الجامع الأزهر . ولكنا نرى مع المقريزى أعظم مؤرخى الخطط ، أن وضع أساس القصر الفاطمى هو مبعث القاهرة.

وقرر جوهر أن يضطلع كل أمير من أمراء عسكره بجانب من جوانب المدينة الجديدة وأن يشرف على بنائه ، وذلك وفقاً لأوامر سيده المعز ، وأن تسمى كل حارة باسم مقدمها أو الطائفة التى نزلت بها . وهكذا اختطت القبائل الشيعية حول القصر كل قبيلة خطة عرفت بها ، كزويلة ، وبرقة ، وكتامة ، وزنانة ، وصنهاجة ، ولواتة ، وغيرها . وكذلك الطوائف المختلفة مثل الجودرية والميمونية والجوانية والروم. وبدىء بالعمارة فى سائر الخطط فى شهر رمضان من نفس السنة، أعنى فى نفس الوقت الذى ابتدأت فيه عمارة القصر الفاطمى .

وسميت المدينة الجديدة بالقاهرة ، تفاؤلا وتيمناً بالنصر ، وهذا هو أرجح تفسير لتسمية المدينة الفاطمية بهذا الاسم ، وقد كان المعز لدين الله وفقاً للرواية ، هو الذى اختار هذا الاسم منذ البداية عند ما قال لجوهر حين سفره إلى المشرق : « ولتدخلن مصر بالأردية من غير حرب ، ولتنزلن فى خرابات ابن طولون وتبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا » . وفى بعض الروايات أن جوهراً أطلق على المدينة الفاطمية أولا اسم المنصورية ، فلما قدم المعز إلى مصر ، غير هذا الاسم وسماها القاهرة . ويفسر أصحاب هذه الرواية اختيار المعز لهذا الاسم على النحو الآتى : انه لما اعتزم جوهر وضع خطط القاهرة جمع المنجمين ، وطلب إليهم أن يختاروا طالعاً لحفر الأساس ، وطالعاً لرمى حجارته ، فجعلوا بخط السور قوائم من خشب ، وبين كل قائمة وأخرى حبل به أجراس ، وأفهم البناؤون أن يرموا ما بأيديهم من اللبن والحجارة ، ساعة تحريك الأجراس . ووقف المنجمون فى انتظار الساعة المرغوبة وأخذ الطالع ، فاتفق أن وقف غراب على حبل من تلك الحبال ، فتحركت الأجراس ، وظن الموكلون بالبناء أن المنجمين هم الذين حركوها ، فألقوا ما بأيديهم من اللبن والحجارة فى الأساس . فصاح المنجمون : لا لا ، القاهر فى الطالع . وفاتهم بذلك ما قصدوه . وكان غرض جوهر أن

(١) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢١٥ .

يختاروا للبناء طالعاً لا يخرج البلد عن نسل الفاطميين أبداً ، فحدث أن المريخ كان فى الطالع ، وهو يسمى عند المنجمين القاهر ، فحكموا بذلك أن القاهرة لا بد أن تخرج عن سلطان الفاطميين وأن يحكمها الأتراك ، فلما قدم المعز إلى مصر أخبروه بتلك القصة ، وكان له خبرة بالتنجيم ، وافقهم على هذا الافتراض ، وأن الترك سوف تكون لهم الغلبة على هذا البلد ، فغير اسمها ، وسماها القاهرة[1] .

وأقيم حول خطط المدينة الفاطمية سور جديد ، وكان القصد الأول من إنشائها أن تكون معقلا للفاطميين فى مصر ، لرد خطر القرامطة ، الذين سادت دعوتهم بلاد العرب يومئذ ، واجتاحوا الشأم مراراً ، وأصبحوا خطراً على مصر من جهة المشرق ، وقد أراد جوهر باختطاط المدينة الجديدة فى الموقع الذى اختاره أن تغدو حصناً فيما بين القرامطة وبين مدينة مصر ، ليقاتلهم دونها إذا ما قدموا إليها ، فابتنى السور اللبن على مناخه ، الذى نزل فيه بعساكره[2] . وكان للقاهرة عند بداية إنشائها ثمانية أبواب ، اثنان فى الناحية البحرية (الشمالية) ، هما بابا النصر والفتوح ، واثنان فى الناحية القبلية ، هما بابا زويلة ، واثنان فى الناحية الشرقية هما باب المحروق وباب البرقية ، واثنان فى الناحية الغربية ، وهى المطلة على الخليج الكبير ، هما باب سعادة وباب الفرج .

وفى وسعنا إلى اليوم أن نحدد القاهرة المعزية مما بقى إلى اليوم من آثار سورها ومعالمها القديمة ؛ فقد كانت تحد من الشمال بموقع باب النصر وما يليه ، ومن الجنوب بموقع باب زَويلة وما يليه ، ومن الجهة الشرقية بموقع باب البرقية والباب المحروق المشرفين على الجبل ، ومن الجهة الغربية بموقع باب سعادة وما يليه حتى شاطىء النيل[3] .

وهنا يحق لنا أن نتساءل متى تم بناء القاهرة ؟ وهذه مسألة لها أهميتها فى

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٣٦١ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ج ٤ ص ٤١ .

(٢) خطط المقريزى ج ٢ ص ١٨٠ .

(٣) ليست هذه المعالم مجهولة ممن يعرف أحياء القاهرة القديمة ، فواقع باب زويلة وباب النصر وهما حدا القاهرة المعزية من الجنوب والشمال لا تزال معروفة وكذلك مواقع بابى المحروق والبرقية (الدراسة الحديثة) تحدد معالم الحد الشرقى للقاهرة المعزية من جهة المقطم . وعلى ذلك يكون موضع القاهرة المعزية القديمة مما يشمل الآن الجامع الأزهر وما حوله من الأحياء والجمالية وقسما من الحسينية وباب الشعرية والموسكى إلى الخليج والسكة الجديدة والغورية وما حولها وحارة الروم وما يليها ودرب سعادة وما يليه إلى باب الخلق وامتداد ذلك غرباً نحو النيل (المقريزى – الخطط ج ١ ص ٣٥٩–٣٦٠).

احتساب أعمار المدن العريقة . فإما أن يحتسب هذا العمر بوضع خططها الأولى أى بتاريخ الإنشاء ، وإما أن يحتسب بتاريخ إكمال بنائها . ونحن إذا أردنا أن نحتسب عمر القاهرة المعزية بتاريخ إنشائها ، وهو الثامن عشر من شعبان سنة ٣٥٨هـ ، فإنها تبلغ عمرها الألفى بالحساب الهجرى فى السابع عشر من شعبان سنة ١٣٥٨هـ ، وهو الموافق لليوم الثانى من أكتوبر سنة ١٩٣٩ م . وأما بالحساب الميلادى ، فإنها تبلغ عمرها الألفى فى اليوم السادس من شهر يوليه سنة ١٩٦٩ م ، وما دام قد فاتنا أن نحتفل بعيدها الألفى وفقاً للتقويم الهجرى ، فإنه يتعين علينا أن نقوم بهذا الاحتفال وفقاً للتقويم الميلادى ، وهو ما تقرر بالفعل بصفة رسمية .

وأما مسألة الفراغ من بناء القاهرة ، فليس من الميسور أن نحدده بهذا القطع والوضوح . ويقول لنا صاحب الخطط التوفيقية بأن القاهرة قد كملت فى ثلاث سنين[1] ، وهو نص متأخر جداً ولا يستند إلى نص سابق معروف ، ويلوح لنا أنه قد وضع بتاريخ الاستنتاج الشخصى ، واستند فيه صاحبه بالأخص إلى واقعة الانتهاء من بناء الجامع الأزهر وافتتاحه للصلاة ، لثلاثة أعوام تقريباً من وضع جوهر لخطط القاهرة . وكذلك الشأن فى قول صاحب التوفيقات الإلهامية إذ يقول لنا إن الفراغ من بناء القاهرة وقع فى ذى الحجة سنة ٣٦١ هـ[2] ، وهو قول لا يعول عليه ، لأنه لا يستند إلى أى نص سابق ، فضلا عن كونه يخالف نصوصاً قديمة ذات أهمية فى الموضوع .

غير أننا من جهة أخرى نستطيع أن نحاول تحديد الفراغ من بناء القاهرة على ضوء بعض النصوص والوقائع التاريخية ، ونستطيع أن نسترشد فى ذلك ببعض الوقائع التى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بإنشاء العاصمة الفاطمية مثل بناء القصر الفاطمى ، ومقدم المعز لدين الله إلى مصر ، ونزوله بعاصمته الجديدة ، وإتمام بناء الجامع الأزهر ، جامع القاهرة الرسمى .

فأما واقعة بناء القصر الفاطمى ، فهى تعتبر فى نظرنا ، أهم الوقائع المتقدمة من حيث ارتباطها مباشرة بإسباغ صفة الإكمال على قيام العاصمة الملوكية الجديدة ، أولا لأن القصر يعتبر بحق عنوانها ، وتاج أبنيتها ، وهو المقصد الأول من إنشائها .

---

(١) الخطط التوفيقية ج ٥ ص ١ .
(٢) التوفيقات الإلهامية (ص ١٨١) .

وثانياً لأنه أريد بإنشاء القاهرة أن تكون منزل الخلافة الفاطمية ومعقلها ، ومن ثم كان القصر أول بناء وضع أساسه فيها ، ووضع فى الليلة التالية لليلة التى اختطت فيها العاصمة الجديدة ، ليكون منزل الخلفاء ، ومستودع الأموال والسلاح ، ومن حوله أنشئت خطط القبائل المختلفة .

ولبيان ذلك نقول إن القصر الفاطمى قد حفر أساسه فى ليلة ١٨ شعبان سنة ٣٥٨هـ ، وبدئ بالبناء فيه فى رمضان من تلك السنة ، ويقول لنا المقريزى فى حديثه عن القصر ، إنه فى يوم الخميس ١٢ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ ، ركب على القصر بابان ، وإنه فى سنة ٣٦٠ هـ ، أقام جوهر حوله سوراً يحيط به(١) .

وإذن فمن الواضح أن القصر الفاطمى ، وهو معقد صروح المدينة الفاطمية الجديدة ، قد تم بناؤه فى سنة ٣٦٠ هـ ، عند ما أقام جوهر حوله السور الخارجى ، وعلى ذلك ففى وسعنا أن نضع الفراغ من بناء العاصمة الفاطمية فى هذا التاريخ أعنى فى سنة ٣٦٠ هـ .

على أننا لا نقرر ذلك بطريق الاستنتاج المادى فقط ، بل نستطيع أن نؤيده كذلك بالنص التاريخى الصريح ، ثم وأن نعززه بالقرائن والوقائع .

قال المقريزى فى حديثه عن باب السعادة أحد أبواب القاهرة : « إن هذا الباب عرف بسعادة بن حيان غلام المعز لدين الله ، لأنه لما قدم من بلاد المغرب بعد بناء جوهر القاهرة ، نزل بالجيزة ، وخرج جوهر إلى لقائه ، فلما عاين سعادة جوهرا ترجل وسار إلى القاهرة ، فى رجب سنة ستين وثلثمائة ، فدخل من هذا الباب فعرف به »(٢) .

وهذا النص الذى يقدمه إلينا أعظم مؤرخى القاهرة عرضاً ، يلقى ضوءاً كبيراً على التاريخ الذى تم فيه إنشاء العاصمة الفاطمية .

ذلك أنه من الواضح أن القاهرة كانت قد انتهت إنشاء وبناء ، حينما دخلها سعادة بن حيان غلام المعز المتقدم ذكره ، ودخلها فى رجب سنة ٣٦٠ هـ ، ومعنى دلك أن الفراغ من بناء المدينة الملوكية الفاطمية ، وقع على الأرجح فى النصف الأول من سنة ٣٦٠ هـ ، أعنى أن بناء القاهرة قد استغرق عامين .

---

(١) تاريخ الأنطاكى ج ٢ ص ١٣٩ ، وخطط المقريزى ج ١ ص ٣٨٤ .

(٢) خطط المقريزى ج ١ ص ٣٨٣ .

وتؤيد وقائع التاريخ هذا النص الذى غفل المقريزى عن أن يقدمه إلينا فى موضعه المناسب تأييداً قوياً .

أولا ، لأن القرامطة ، الذين لوحظ فى إنشاء القاهرة ، أن تكون حصنا لرد هجماتهم عن داخل البلاد ، قد زحفوا على مصر بالفعل فى أوائل سنة ٣٦١ ه ، ونشبت بينهم وبين الجيوش الفاطمية بقيادة جوهر معارك هائلة فى عين شمس ، وامتنع الفاطميون أولا بمصر والقاهرة ، حينما اشتدت عليهم وطأة القرامطة ، ثم كروا عليهم ، فهزموا هزيمة شديدة ، وارتدوا نحو طريق الشأم . وظاهر أن القاهرة كانت وقتئذ قد تم إنشاؤها ، كقاعدة محصنة ، تستطيع الجيوش الفاطمية أن تلجأ إليها عند الحاجة .

وثانياً ، أن المعز لدين الله حينما اعتزم أن ينقل مركز الخلافة الفاطمية إلى مصر خرج بأهله وأمواله من دار ملكه بالمنصورية فى ٢٢ شوال سنة ٣٦١ ه ، ولبث حيناً فى مدينة سردانية بجوار القيروان لتجتمع إليه القبائل والجيوش ، ثم رحل عنها فى الخامس من صفر سنة ٣٦٢ ه ، وسار إلى مصر عن طريق برقة ، ووصل إلى الإسكندرية فى يوم السبت ٢٤ شعبان ، وبعد أن أقام بها أياماً سار منها إلى القاهرة ، ودخلها يوم الثلاثاء السابع من رمضان سنة ٣٦٢ ه ، ونزل تواً بالقصر الفاطمى الجديد[١] .

وتاريخ قيام المعز من دار ملكه القديم إلى دار ملكه الجديد ، وهو شوال سنة ٣٦١ ه ، يؤيد النص المتقدم المتعلق بإتمام بناء القاهرة تمام التأييد . ذلك أن المعروف أن جوهراً كان قبل ذلك بأشهر يكتب إلى سيده المعز باستقرار الأحوال فى مصر ، ويدعوه إلى الانتقال إليها ، وفى وسعنا أن نضع تاريخ هذه الدعوات والكتب فى أواخر سنة ٣٦٠ ه وأوائل سنة ٣٦١ ه . وفى ذلك ما يدل ضمنا على أن القاهرة ، كان قد كمل بناؤها ، وأعدت بقصرها ومرافقها لنزول الخليفة الفاطمى .

وعلى ضوء هذه النصوص والوقائع كلها ، نستطيع مع الاطمئنان العلمى ، أن نضع تاريخ الفراغ من بناء القاهرة المعزية فى النصف الأول من سنة ٣٦٠ ه ، الموافق أواخر سنة ٩٧٠ وأوائل سنة ٩٧١ م .

وإذا أردنا أن نحتسب عمر القاهرة الألفى بتاريخ الفراغ من بنائها ، فإنها تبلغ

---

(١) نهاية الأرب (المخطوط ج ٢٦ لوحة ٤٠) والأنطاكى ج ٢ ص ١٣٩ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٢٤٠ ، وابن خلكان ج ٢ ص ١٣٤ و ١٣٥ ، والمقريزى فى الخطط ج ١ ص ٣٨٥ .

هذا العمر بالتقويم الهجرى فى النصف الأول من سنة ١٣٦٠ هـ وبالتقويم الميلادى فى النصف الأول من سنة ١٩٧١ م .

* * *

قامت القاهرة مدينة متواضعة لتكون معقلا ومنزلا للدولة الفاطمية الفتية ؛ ولبثت من بعد قيامها حيناً مدينة ملوكية عسكرية ، لا تضم غير قصور الخلفاء ودواوين الحكم ، وخزائن المال والسلاح ، ومساكن الأمراء والبطانة ، ومن إليهم من الأتباع النازحين فى ركاب الغزاة . ولكن لم يمض جيل واحد حتى اتسعت جنبات المدينة الجديدة ونمت نمواً عظيماً ، وبدأت القاهرة فى ظل الدولة القوية الجديدة ، تتبوأ مكانتها من العظمة والرونق والبهاء ، فاتصلت بمصر الفسطاط ، وامتزجت المدينتان وتداخلتا ، وصارتا تكوّنان معاً مدينة من أكبر وأعظم مدن الإسلام فى العصور الوسطى ، إن لم نقل أعظمها جميعاً .

وقد كان الاصطلاح على تحديد القاهرة يختلف من عصر إلى آخر ، بعد أن استحالت من قلعة ملكية إلى مدينة شاسعة . وكانت القاهرة المعزية كما قدمنا هى مجموعة الخطط التى تقع داخل السور الذى أقامه جوهر القائد ؛ ولكن هذا السور غير مراراً أثناء الدولة الفاطمية وبعدها ، وكان أعظم تغيير طرأ على الأسوار أيام الدولة الفاطمية ، هو مشروع السور العظيم الذى أنشأه أمير الجيوش بدر الجمالى فى عهد المستنصر بالله فى سنة ٤٨٦ هـ ، وهو السور الذى ما زال يقوم من أبوابه العظيمة إلى اليوم ثلاثة ، وهى بابا النصر والفتوح فى الشمال ، وباب زويلة فى الجنوب ، وهى من أعظم الآثار الفاطمية الباقية . هذا وقد أنشئت فيما وراء الأسوار القديمة ، خطط وأحياء جديدة فخمة ، تمتد فيما بين الجامع الطولونى وقلعة الجبل إلى الجهة المقابلة على ضفة النيل ، وكذلك فيما بين جبل المقطم ذاته مما وراء بابى النصر والفتوح والجهة المقابلة من ضفة النيل[1] . وكان اسم القاهرة يطلق اصطلاحاً على المدينة الأولى فيما بين الأسوار ، وهى تقع فى وسط المنطقة العظيمة التى حددناها ؛ وأما هذه المنطقة الجديدة خارج الأسوار فكانت تعرف

(١) المقريزى - الخطط - ١ ص ٣٦٠ ، وهذا التحديد يعنى أن الأحياء التى تعرف الآن ببولاق وشبرا ومنية السيرج وما يقع بينهما طولا وعرضاً ، وكذلك المنطقة الكبيرة التى يتوسطها الآن ميدان باب اللوق كانت جميعاً من خطط القاهرة القديمة التى أنشئت خارج أسوار القاهرة المعزية . والأسماء لم تتغير كثيراً منذ عصر المقريزى إلى يومنا .

بظاهر القاهرة ؛ وهما معاً يكوّنان المدينة العظمى . وأما مصر فكانت دائماً تطلق على الفسطاط القديمة ، وما استحدث فيها قبل قيام القاهرة على النحو الذى شرحناه من قبل ؛ والمدينتان معاً هما مصر القاهرة . وكانت كلتاهما وحدها مدينـــة عظيمة .

وقال المرحوم على باشا مبارك فى تحديد مواقع القاهرة القديمة ومعالمها مايأتى :

« وشكل مدينة القاهرة فى زمن القائد جوهر كان مربعاً تقريباً ضلعه ألف ومائتا متر ، ومساحة الأرض المحصورة فيه ثلثمائة وأربعون فداناً ، منها نحو سبعين فداناً بنى فيها القصر الكبير ، وخمسة وثلاثون فداناً للبستان الكافورى ومثلها للميادين ، فيكون الباقى مائتى فدان هو الذى توزع على الفرق العسكرية فى نحو عشرين حارة بجانبى قصبة القاهرة . وكان سور المدينة الغربى بعيداً عن الخليج بنحو ثلاثين متراً . وفى سنة ست وثمانين وأربعمائة فى زمن وزارة بدر الجمالى وخلافة المستنصر بالله ، هدمْ هذا السور وبنيت الأبواب من حجر على ما هى عليه الآن ، وجعل عرض السور الجديد عشر أذرع ، وبلغت مساحة البلد أربعمائة فدان . وفى سنة ست وستين وخمسمائة فى زمن صلاح الدين الأيوبى ، شرع فى عمل سور واحد يحيط بالقاهرة ومصر والقلعة ، وبناه من الحجارة ، ومات قبل أن يكمل ، وجعل خلفه خندقاً . وطول ما بناه تسعة وعشرون ألف ذراع وذراعان بالذراع الهاشمى ، وهو قريب من اثنين وعشرين ألف متر . وبقى الأمر على ذلك إلى سنة ألف ومائتين وثلاث عشرة هجرية عند استيلاء الفرنساوية على الديار المصرية ، فقاسوا سور المدينة فوجدوه أربعة وعشرين ألف متر ، وبه أحد وسبعون بابا ، منها ما هو داخل البلد فى السور القديم ، ومنها ما هو فى السور المحيط بها . ولم تتغير مساحة البلد عما كانت عليه فى القرن التاسع من الهجرة ... وتغير شكل المدينة ؛ ومع ذلك فإن أطول شوارعها باق على أصله ، وهو الموصل من بوابة الحسينية إلى بوابة السيدة نفيسة ، وطوله أربعة آلاف وستمائة وأربعة عشر متراً . ومساحة المدينة القديمة بما فى ذلك من ميادين وحارات وشوارع ومبان ، ألف وتسعمائة وثمانية وأربعون فداناً »(١) .

---

(١) الخطط التوفيقية — ج ١ ص ٨١ . وهذه نبذة إجمالية . ولكن على باشا مبارك ، يعمد إلى تحقيق معالم القاهرة المعزية وأوضاعها وشوارعها ومبانيها القديمة ، مع تطبيقها على المعالم والمواقع الجديدة ، بتفصيل شاف (ج ١ ص ٧ — ٢٢) .

ولبثت القاهرة منذ قيام الدولة الفاطمية فى مصر عاصمة الملك والخلافة[1] ، وبلغت أيام الفاطميين من الضخامة والرونق والبهاء مبلغاً عظيماً . بل إنه لم يمض نصف قرن فقط على قيام القاهرة المعزية ، حتى كانت بقصورها ومرافقها تكون مدينة من أعظم مدن الإسلام . وكانت القصور الفاطمية قد تمت ، وبلغت منذ أوائل القرن الخامس الهجرى ، منتهى الضخامة والبذخ . وكان القصر الخليفى الكبير أو القصر الشرقى ، يقع فى وسط المدينة ، فى منطقة خالية ، وأمامه من الناحية الغربية ، يقع القصر الغربى أو القصر الصغير ، وهو الذى أنشأه الخليفة العزيز بالله ، وخصص فيما بعد لإقامة ابنته الأميرة ست الملك ، وبين الصرحين ميدان شاسع ، هو ميدان بين القصرين الشهير ، وهو الذى كانت تجتمع فيه الجيوش المسافرة أو الحرس الخليفى ، أو طوائف الشعب أيام الأعياد والأحداث العامة . وكان الجامع الأزهر وهو جامع القاهرة الرسمى ، يحتل مكانه الخالد ، الذى يقوم فيه حتى اليوم ، وسط المدينة ، فيما بين الشرق والغرب . وقد وصف لنا الشاعر والرحالة الفارسى ناصرى خسرو ، الذى زار القاهرة سنة ٤٣٨ هـ (١٠٤٦م) القصر الفاطمى الكبير بقوله : « إنه قصر شاسع تراه من خارج المدينة كأنه جبل نظراً لضخامة مبانيه وارتفاعها ، ولا يمكن أن تراه من داخل المدينة إذ تحيط به أسوار شاهقة الارتفاع ، ويقال إن هذا القصر يضم من الحشم اثنى عشر ألف نفس . ومن ذا الذى يستطيع أن يقول كم يضم من النساء والبنات . وهم يؤكدون أنه يضم ثلاثين ألف شخص . ويتكون القصر من عشرة أجنحة ، وله عشرة أبواب تفضى إلى الحرم » .

ثم يقول ناصرى خسرو إن القاهرة لها خمسة أبواب ، وهى ليست محصورة فى رقعة محصنة ، ولكن المبانى والمنازل مرتفعة جداً ، حتى أنها تبدو أعلى من الحصن ، وكل منزل وكل قصر ، يمكن اعتباره قلعة ، ومعظم المنازل تضم خمس أو ست طبقات .

وقد بنيت منازل القاهرة بمنتهى العناية والترف ، حتى ليمكن أن يقال إنها

---

(١) وضعت خطط القاهرة كما رأينا سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) ولكن الخلافة الفاطمية لم تتخذ القاهرة قاعدة لها إلا بعد إنشائها بأربعة أعوام . وقدم المعز أول الخلفاء الفاطميين من المغرب إلى مصر حسبما تقدم فى سنة ٣٦٢ هـ ودخل القاهرة فى رمضان من تلك السنة ، بعد أن تمت عمارتها فصارت منزله ومنزل الخلفاء من بعده .

قد بنيت من الأحجار الكريمة ، وليس من الآجر أوالأحجار العادية . والمنازل كلها منعزلة ، بحيث أن الأشجار القائمة فى أحدها لا تصل أغصانها إلى المنزل الآخر ، ويستطيع كل إنسان أن يهدم داره وأن يبنيها دون أن يضار أحد .

وتضم القاهرة ما لا يقل عن عشرين ألف حانوت كلها من أملاك الخليفة ، ومنها عدد عظيم يؤجر الحانوت منه بعشرة دنانير معزية فى الشهر ، والقليل منها يؤجر بأقل من ذلك . كذلك يوجد منها عدد عظيم يصعب حصره من الخانات والحمامات وغيرها من الأبنية العامة . وهذه أيضاً كلها من أملاك الخليفة ، إذ لا يسمح لإنسان أن يمتلك منزلا أو عقاراً إلا ما كان من أبنية الخليفة نفسه[1] .

هذا ما يقوله رحالة زائر عابر ، خلبت لبه روعة القاهرة المعزية . ومن ثم فإنا نستطيع أن نفهم كيف سحرت هذه العظمة ، وهذه الصروح الباذخة التى امتازت بها العاصمة الفاطمية ، ألباب المعاصرين واللاحقين من المؤرخين والكتاب من أبنائها ، وشغفت بتسطير ووصف صروحها وبذخها وبهائها ، أقلام بارعة كأقلام ابن زولاق والمسبحى والقضاعى وابن عبد الظاهر ثم المقريزى .

ولقد شهدت القاهرة فى ظل الخلافة الفاطمية ، ألواناً من العظمة والبهاء والبذخ ، قلما شهدتها فى ظل دولة إسلامية أخرى . ومع أنها نمت بعد ذلك نمواً عظيماً ، واتسعت جنباتها وأحياؤها حتى غدت فى القرن التاسع الهجرى أضعاف ما كانت عليه أيام الفاطميين ، فإنها لم تسطع بمثل ما سطعت فى عهدها الأول ، ولم تشهد مثل ما شهدت فيه من مواكب الخلافة الفخمة ، ورسومها وأعيادها الباذخة ، ولياليها وحفلاتها الباهرة . كانت القصور الفاطمية آية فى الفخامة والبهاء ، وإن الخيال ليضطرم إلى الذروة حينما يستعرض تلك الصور الرائعة التى تقدمها إلينا الروايات المعاصرة ، عن عظمة الخلافة الفاطمية وروعتها فى مظاهرها العامة ، وعن حياة الخلفاء الخاصة داخل القصر وأبهائه وأجنحته المنيفة . وقد كان القصر « الزاهر » ، وهو القصر الفاطمى الكبير ، يشرف من الغرب كما تقدم على الميدان الشاسع المعروف « بميدان القصرين » ، وهو الذى يتسع لعشرات الألوف من الجند والنظارة ، وهو ميدان شهير فى تاريخ القاهرة المعزية شهرة

---

(١) ناصرى خسرو ، رحلته وتفكيره وفلسفته وشعره (بالفرنسية) للدكتور يحيى الخشاب ص ١٠٢ و ١٠٣ .

ميدان القديس مرقص (سان ماركو) فى تاريخ البندقية . وقد لبث ميدان بين القصرين أيام الدولة الفاطمية مسرحاً لأعظم المواكب والمظاهرات الخلافية والعسكرية ، والحفلات العامة ، ولبث بعد زوال الدولة الفاطمية عصراً ، أعظم ميادين القاهرة ، وأزخرها عمارة ، وأشدها احتشاداً . وإنك لتستطيع أن تتبع كثيراً من أخبار الخلافة الفاطمية والشعب القاهرى فى ميدان ما بين القصرين ، كما تستطيع أن تتبع كثيراً من أخبار جمهورية البندقية فى ميدان القديس مرقص ، كلاهما امتزج بحياة الشعب ، واتخذ مكانته فيها .

ولا نستطيع فى هذا المقام الموجز ، أن نلم بذكر تفاصيل هذه الصروح والمنشآت العظيمة التى أقامتها الدولة الفاطمية ، من قصور باذخة ومجالس وأبهاء فخمة زينت بالذهب والجوهر ، وخزائن عظيمة لأنواع التحف والذخائر والأسلحة ، ودور للكتب كانت تضم مئات الألوف ، وبساتين ومناظر وميادين وشوارع ؛ كما لا نستطيع أن نلم هنا بذكر ما أنشأته دول السلاطين التى تعاقبت بعد الفاطميين على عرش القاهرة ، من القصور الفخمة فى قلعة الجبل وجزيرة الروضة وغيرهما ، ومن المساجد العظيمة والآثار والمدارس والمعاهد الجليلة ، والمتنزهات والميادين والطرق السلطانية ، فى مختلف العصور ، فتاريخ هذه المنشآت العظيمة التى مازالت القاهرة تزدان بكثير منها ، إنما هو تاريخ نواح فياضة شاسعة من حضارة الإسلام فى مصر ، ليست من موضوعنا ، ولا ندعى أنا نحاولها هنا ؛ وإنما نحيل القارئ على خطط المقريزى ، وبالأخص على تلك الفصول القوية الساحرة التى كتبها عن قيام القاهرة المعزية ، وعظمة الدولة الفاطمية وبذخها وبهائها ، ونقل فيها كثيراً مما كتبه المعاصرون لها مثل ابن زولاق والمسبحى والقضاعى ؛ فى تلك الصحف الباهرة دون غيرها نستطيع أن نقرأ صوراً شافية من عظمة القاهرة فى العصور الوسطى(١) .

ولبثت القاهرة قاعدة الملك والخلافة بعد ذلك أيام الدولة الأيوبية ، ثم دول المماليك . وكانت مصر القاهرة فى هاتيك العصور الزاهرة ، كالعروس بين مدن الإسلام جميعاً ، تبهر العالم الإسلامى بعظمتها وغناها ، وقوة الدول التى تتبوأ ملك مصر . وكان المجتمع القاهرى بما انتهى إليه من بذخ وترف ونعماء ، يجذب إليه

---

(١) الخطط — ج ١ ص ٣٤٢ — ٣٨٨ ، وص ٤٠٤ وما بعدها .

كابز الإسلام من كل صوب ، فيثير فيهم الإعجاب والإجلال . وقد وصف مصر القاهرة وعظمتها من غير أبنائها فى مختلف العصور كثير من أعلام الإسلام ، الذين قصدوها من المشرق والمغرب ، كعبد اللطيف البغدادى ، وياقوت الحموى وابن جبير الأندلسى [١] ، ثم الرحالة الأشهر ابن بطوطة الذى شهد القاهرة فى أوائل القرن الثامن الهجرى ووصفها بتلك الكلمات الشعرية :

« ثم وصلت إلى مدينة مصر أم البلاد ، وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة . المتناهية فى كثرة العمارة ، المتباهية بالحسن والنضارة . مجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الضعيف والقادر . وبها ماشئت من عالم وجاهل ، وجاد وهازل . وحليم وسفيه ، ووضيع ونبيه . وشريف ومشروف ، ومنكر ومعروف . تموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها . شبابها يجد على طول العهد ، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد . قهرت قاهرتها الأمم ، وتمكنت ملوكها نواصى العرب والعجم » [٢] .

ويصفها مواطنه العلامه المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون عند مقدمه إليها فى سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) بقوله :

« فرأيت حاضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ، وإيوان الإسلام ، وكرسى الملك ، تلوح القصور والأواوين فى جوه ، وتزهو الخوانق والمدارس والكواكب بآفاقه ، وتضىء البدور والكواكب من علمائه ، قد مثل بشاطىء بحر النيل نهر الجنة ، ومدفع مياه السماء ، يسقيه العلل والنهل سيحه ، ويجبى إليهم الثمرات والخيرات ثجه ، ومررت فى سكك المدينة

---

(١) يراجع كتاب الافادة والاعتبار لعبد اللطيف (الفصل الخامس من المقالة الأولى) . أما ياقوت فقد قال فى معجمه عن القاهرة : « هى أطيب وأجل مدينة رأيتها » ، وكلاهما بغدادى وفد إلى القاهرة ، الأول فى خاتمة القرن السادس الهجرى والثانى فى فاتحة القرن السابع .

وأما ابن جبير الأندلسى فقد وفد على مصر من الأندلس سنة ٥٨٧ هـ . (١١٩١ م) ، ووصف بعض آثارها ومشاهدها فى رحلته المسماه « تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الأسفار » (طبع ليدن سنة ١٩٠٧) ص ٣٥ — ٥٦ .

(٢) رحلة ابن بطوطة . وقد وفد الرحالة على مصر سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦ م) فى عهد السلطان الناصر ابن قلاوون .

تغص بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنعم ... »[١] .

ويفرد ابن سعيد الأندلسى فى كتابه « المغرب » للقاهرة فصلا عنوانه « كتاب النجوم الزاهرة فى حلىّ حضرة القاهرة » ويصفها بقوله : « والقاهرة أكثر عمارة وحشمة من الفسطاط ، لأنها أجلّ مدارس ، وأضخم خانات ، وأعظم دياراً لسكنى الأمراء فيها ، لأنها المخصوصة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها ، فأمور السلطنة كلها فيها أيسر وأكثر » . ولكن نزعة النقد تغلبه بعد ذلك فيقول : « هذه المدينة اسمها أعظم منها ، وكان ينبغى أن تكون فى ترتيبها على خلاف ما عاينته ، لأنها مدينة بناها المعز أعظم خلفاء العُبيديين » . ويذم ضيق شوارعها ، وشدة ازدحامها ثم يقول : « ولم أر فى بلاد المغرب أسوأ حالا منها فى ذلك ، ولقد كنت إذا مشيت فيها يضيق صدرى وتدركنى وحشة عظيمة ، حتى أخرج إلى بين القصرين » . بيد أنه يعود فيصف متنزهاتها ورياضها وأزهارها ولياليها المرحة ، بما ينم عن الرضا والإعجاب[٢]

ويصف المقريزى القاهرة فى النصف الأول من القرن الثامن فى قوله : « واتصلت عمائر مصر والقاهرة فصارا بلداً واحداً ، يشتمل على البساتين والمناظر والقصور والدور ، والرباع والقياسر والأسواق ، والفنادق والخانات والحمامات ، والشوارع والأزقة والدروب والخطط ، والحارات والأحكار ، والمساجد والجوامع والزوايا والربط ، والمشاهد والمدارس والترب ، والحوانيت ، والمطابخ والشون ، والبرك والخلجان والجزائر ، والرياض والمتنزهات ؛ متصلا جميع ذلك بعضه ببعض ، من مسجد تبر إلى بساتين الوزير قبلى بركة الحبش ، ومن شاطئ النيل بالجيزة إلى الجبل المقطم . وما زالت هذه الأماكن فى كثرة العمارة وزيادة العدد ، تضيق بأهلها لكثرتهم ، وتختال عجباً بهم ، لما بالغوا فى تحسينها ، وتأنقوا فى جودتها وتنميقها ، إلى أن حدث الفناء الكبير فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة فخلا كثير من هذه المواضع وبقى كثير أدركناه »[٣] .

ثم يصف قاهرة عصره فى قوله : « وتحوى مصر والقاهرة ، من الجوامع والمساجد ، والربط والمدارس والزوايا ، والدور العظيمة والمساكن الجليلة ،

---

(١) التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً (القاهرة ١٩٥١) ص ٢٤٦ و ٢٤٧ .
(٢) كتاب المغرب (المخطوط المشار اليه) .
(٣) المقريزى — ج ١ ص ٣٦٥ .

والمناظر البهجة والقصور الشامخة ، والبساتين النضرة ، والحمامات الفاخرة ، والقياسر المعمورة بأصناف الأنواع ، والأسواق المملوءة مما تشتهى الأنفس ، والخانات المشحونة بالواردين ، والفنادق الكاظة بالسكان ، والترب التى تحكى القصور ، مما لا يمكن حصره ولا يعرف ما هو قدره »(١) .

على أن مصر القاهرة لبثت خلال العصور الوسطى عرضة لسلسلة من الخطوب والمحن ، فاجتاحتها الحرب والثورة والوباء والجوع ، وقوضت صروح عظمتها وازدهارها مرة بعد أخرى . وكثيراً ما كانت مصائب الطبيعة أشد بها فتكاً من الحرب والثورة . ففى منتصف القرن الخامس الهجرى فى عصر الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، وقع بمصر وباء هائل امتد عصفه زهاء ثمانية أعوام (٤٤٦-٤٥٤ هـ) (١٠٥٤-١٠٦٢م) واقترن بالشرق والغلاء والقحط ، وأعقبته حروب وقلاقل داخلية طويلة الأمد ، فأصاب المجتمع القاهرى فى ذلك العهد ، صنوف مروعة من الشدائد والمحن ، وذوت عظمة مصر القاهرة ، وعفت صروحها ، ودرست معاهدها وخربت طرقها وميادينها ، وأقفرت من السكان . وتعرف هذه النكبة « بالشدة العظمى »(٢) . وفى أواخر أيام الدولة الفاطمية ، ثارت الحرب الأهلية فى مصر بين شاور بن مجير السعدى وزير الخليفة العاضد لدين الله ، وبين منافسه ضرغام الحاجب ، فهزم شاور بادئ بدء ، ولكنه استنصر بنور الدين زنكى صاحب الشام ، فأمده . وجرت بين الفريقين حروب طويلة انتهت بإحراق عدة أحياء خارج القاهرة فى غربها مما يلى باب سعادة(٣) ، ثم بهزيمة ضرغام ومقتله ، واستيلاء شاور على القاهرة (٥٥٩هـ - ١١٦٣م) . ثم وقع الخلاف بين شاور وبين نور الدين ، وحارب جند الشام وأحرقت أحياء أخرى من مصر ؛ واستنصر شاور بالفرنج أصحاب بيت المقدس ، وملكهم يومئذ آمورى Amaury (أو مُرِى كما يسميه العرب) فلبوا دعوته ، وجاءوا إلى مصر ، ووقعت بين الفريقين حروب شديدة ؛ واستبد شاور بالأمر أخيراً ، ولكن الفرنج بقوا فى القاهرة ونواح أخرى من مصر . ثم قصد آمورى أن يستولى على مصر ، فجمع قوات عظيمة وزحف على

(١) المقريزى - ج ١ ص ٣٦١ .
(٢) المقريزى - ج ١ ص ٣٣٥ .
(٣) المقريزى - ج ١ ص ٣٣٨ .

القاهرة ، فأراد شاور أن يرد هجوم العدو بحرق مدينة مصر ، فبث النفط والنار فى جميع أحيائها ووقع بها حريق هائل فى صفر سنة ٥٦٤ هـ (نوفبر سنة ١١٦٩م) ، واستمر أربعة وخمسين يوماً ، دُمرت فيها المدينة بأسرها ، وأضحت أطلالا دارسة وخراباً قفراً(١) . ولكن ذلك لم يغن شيئاً ، ولم ينقذ مصر من الفرنج غير تدخل جيوش الشام بقيادة أسد الدين شيركوه ، فأصلح الأمور ورد النظام ، وعاد الناس فعمروا مصر شيئاً فشيئاً ، حتى استردت قليلا من حياتها ورونقها .

وفى سنة ٧٢١هـ (١٣٢١م) فى عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وقعت بمصر القاهرة عدة حرائق ، دبرها بعض أبناء الطائفة القبطية ، انتقاماً لما أصاب كنائسهم من التخريب والنهب . وكانت حركة غامضة مريبة نفذت على يد جموع العامة ، فوثبوا بالكنائس فى العاصمة والأقاليم فهدموها ونهبوا ذخائرها ؛ فلم يمض شهر على ذلك حتى وقعت بمصر القاهرة عدة حرائق هائلة ، دمرت منها أحياء برمتها ، وشغل الأمراء والناس بإطفائها عدة أسابيع ، وكلما أخمدت فى ناحية شبت فى ناحية أخرى . وثبت من التحقيق أنها حركة متعمدة دبرت للانتقام . وفقدت مصر القاهرة فى تلك الحركة كثيراً من أحيائها الفخمة ، ودورها ومعاهدها وآثارها الجليلة(٢) .

وتوالى على مصر القاهرة إلى جانب الحروب الأهلية ، سلسلة من الأوبئة الفتاكة : فى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١م) ، وهو الوباء الذى شهده عبداللطيف البغدادى وترك لنا عن عصفه وهوله صوراً مروعة(٣) . ثم عاد الوباء فعاث فى مصر سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦م) . وفى سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨م) ، فى عهد الملك الناصر حسن ، وقع « الفناء الكبير » ، وعم دماره الشرق والغرب ، فكان من أروع المحن التى عرفتها الإنسانية . وفى سنة ٨٠٦هـ (١٤٠٣م) ، هبط النيل هبوطاً شديداً ، واستمر فى الهبوط حتى

(١) ابن الأثير (مصر ١٣٠٣ هـ) ج ١١ ص ١٢٦ — الروضتين فى تاريخ الدولتين (مصر ١٢٨٧ هـ) ج ١ ص ١٥٤ — خطط المقريزى ج ١ ص ٣٣٩ .

(٢) خطط المقريزى — ج ٢ ص ٥١٤ — ٥١٧ .

(٣) راجع كتاب الإفادة والاعتبار لعبد اللطيف (الفصل الثانى من المقالة الثانية) وسنعود إلى ذلك فى فصل آخر .

شرقت البلاد واشتد بها الجوع والغلاء والفقر ، وعانت صنوفاً أليمة من الحرمان والفاقة، ودب الخراب إلى كثير من أحياء مصر القاهرة، وعفت ميادينها ومنتزهاتها وذوى بهاؤها[1]. ولم يمض جيل آخر حتى عاد الوباء فعاث بمصر سنة ٨٤٧ هـ (١٤٤٣م) ثم تجدد فى سنة ٨٥٣ هـ ثم فى سنة ٨٦٤ . وكان الشَّرَق والغلاء والقحط ظواهر تقترن دائماً بهذه المحن فتزيد فى عصفها وفتكها ، وتكون غالباً مبعثها . وكانت مصر القاهرة كلما اجتاحتها إحدى هذه المحن ، سرت عوامل الفناء إلى مجتمعها الزاهر ، وتقوضت دعائم صروحها ومنشآتها ، وذوت محاسنها ونضرتها . ولكنها كانت تعود دائماً ، فتخرج من غمار المحن قوية باسمة ، وسرعان ما تسترد عظمتها وبهاءها .

ثم كان فتح الترك لمصر فى سنة ١٥١٦ م (٩٢٢ هـ) فنكبت مصر على يدهم بأشنع الخطوب والمحن ، وأنزلوا بمصر القاهرة عند دخولها أروع صنوف الدمار ، وبالمجتمع القاهرى أروع صنوف السفك والإثم[2] ، وفقدت عاصمة الإسلام فى مصر ، منذ الفتح العثمانى ، عظمتها وبهاءها ، كما فقدت أهميتها السياسية والاجتماعية ؛ ولبثت أحقاباً طويلة ترزح فى غمار من السبات ، لا تكاد تفيق مما يصيبها من آلام الحكم الحديد ومن بطشه وعيثه ، ولا تكاد تقوى على إنشاء المعاهد والآثار العظيمة ، بعد أن استنفد الترك مواردها ، وقوضوا دعائم ثروتها ، وبث حكمهم فى المجتمع المصرى عوامل الانحلال والدمار .

وكان الفتح الفرنسى فى نهاية القرن الثامن عشر (يونيه ١٧٩٨ — المحرم سنة ١٢١٣ هـ) فاحتل الفرنسيون مصر نحو ثلاثة أعوام (حتى أكتوبر سنة ١٨٠١) وقع خلالها كثير من الحروب والفتن ، وأصيبت مصر القاهرة فى كثير من أحيائها بأنواع الخراب والتشويه ، وشغلت هذه الخطوب والقلاقل التى امتدت بعد جلاء الفرنسيين أعواماً طويلة ، مصر عن القيام بأعمال الإنشاء والتجديد . فلما استقرت الأحوال وسادت السكينة ، واختتم النزاع على حكم مصر بانتزاع محمد على

---

(١) يشير المقريزى إلى الحوادث والمحن التى وقعت بمصر سنة ٨٠٦ هـ فى مواضع كثيرة من الخطط — راجع مثلا ج ١ ص ٥ و ج ٢ ص ٩١ و ١٠٥ و ١٠٦ و ١١١ وغيرها .

(٢) يفرد ابن إياس فى تاريخ مصر فصولا عدة لفظائع الترك وما ارتكبوه من صنوف السفك والإثم والنهب (الجزء الثالث فى حوادث سنة ٩٢٢ هـ — ص ١٤٠ وما بعدها) .

لولايتها ، عادت يد الإنشاء والتعمير تعمل من جديد فى العاصمة القديمة ، وبرزت القاهرة من غمار الخطوب والمحن التى توالت عليها أربعة قرون ، لتستقبل حياة جديدة من المجد والعظمة والبهاء . وفى نفس الوقت التى احتفظت فيه القاهرة بأحيائها ومنشآتها التاريخية وآثارها الفنية العظيمة ، قامت فى جنباتها وأطرافها أحياء فخمة محدثة ، وضواح بديعة تكاد تكوّن بذاتها مدناً كبيرة ؛ وعادت قاهرة العصور الوسطى ، تعيد فى العصر الحديث سيرتها فى زعامة مدن الإسلام ؛ وأضحت فى عصرنا تضم من الأحياء الزاخرة ، والشوارع الفسيحة ، والميادين العظيمة ، والأسواق العامرة ، والجامعات والمعاهد والمنشآت الجليلة ، والمدارس والمساجد والكنائس والمكاتب والمتاحف ، والقصور والمتنزهات والحدائق ، والفنادق والمسارح والمقاهى والملاهى ، ووسائل التجميل والنقل المحدثة ، ما تضارع به معظم العواصم الأوربية ، وما تمتاز به على كثير منها ؛ وأضحى المجتمع القاهرى فى بعض نواحيه ، يضارع بتربيته وثقافته ورفاهيته ، أرقى المجتمعات المتمدينة .

وقد غدت القاهرة مدينة ألفية . وإذا كانت القاهرة ليست هى المدينة الألفية الوحيدة بين حواضر العالم القديم ، وإذا كانت أثينة ورومة والإسكندرية تشاطرها هذا الفخر وتفوقها فى مداه ، بل تشاطرها هذا الفخر حواضر إسلامية أخرى مثل بيت المقدس ، ودمشق وبغداد وفاس ، فإنها مع ذلك تمتاز على هذه الحواضر جميعاً ، بأنها تمثل أروع عصور التاريخ جنباً إلى جنب . فالآثار الفرعونية العظيمة التى تغيض فيما وراء القرون ، تشرف عليها مجللة بروعة الخلود ، وآثار العصور الإسلامية المختلفة تنبث فى جنباتها ، وتسبغ عليها لوناً إسلامياً عميقاً ، وتزينها بكل ما ازدانت به هذه العصور المجيدة من فن وروعة وبذخ . ثم إن بشائر العصر الحديث ، وأمارات الحاضر الناضج ، وكل ألوان الحضارة المعاصرة ، بما فيها من تطور وتجديد وابتكار ، تطبعها بطابعها القوى ، فهى من هذه الناحية من أعرق وأحدث العواصم القديمة ، بل هى من هذه الناحية تكاد تفوق عواصم العالم القديم : رومة ، وأثينة ، وقسطنطينية ، ومع ذلك فإن هذا التجدد السريع لم يجردها من جلالها القديم ، ولم يخلع عنها تلك الروعة التى يسبغها تعاقب الأحقاب على الحواضر التالدة .

والقاهرة ليست مدينة عظيمة فقط ، وإنما هى كباقى حواضر العالم القديم

عنوان حضارة ومجتمع وتاريخ ، وتاريخ الأمصار العظيمة حسبما أشرنا فى بداية هذا البحث ، من أهم النواحى فى تاريخ الحضارات والدول ، ولا سيما فى العصور الوسطى ، حينما كانت حياة المدينة ترتبط أشد الارتباط بمصاير حضارة أو دولة معينة . وإذا كان تاريخ أثينة والمجتمع الأثينى يعنى تاريخ اليونان القديم دولة وحضارة، وإذا كان تاريخ رومة ومجتمعاتها فى عصور الجمهورية والإمبراطورية، هو تاريخ الرومان والحضارة الرومانية ، وإذا كان تاريخ قسطنطينية فى العصور الوسطى ، هو تاريخ الدولة البيزنطية وحضارتها ، فإن تاريخ القاهرة ، وتاريخ أسرها الملوكية ومجتمعاتها الرسمية والشعبية ، هو تاريخ مصر الإسلامية وتاريخ حضارتها فى العصور الوسطى .

ولسنا نحاول أن نؤرخ للقاهرة وخططها المحدثة ، فتلك مهمة يقصر جهدنا الضعيف عن الاضطلاع بها ، ولا يحيط بها إلا مثابرة مقريزى وبراعته ، ولا يستطيع تصويرها غير بيان مقريزى وقلمه . على أنه إذا كانت قاهرة العصور الوسطى ، قد خلبت ألباب جمهرة من أكابر الكتاب والشعراء ، فأفاضوا فى وصف عظمتها وبهائها ، بروائع النثر والنظم ، مما لا يتسع له المقام ، فإنها قد نفثت هذا السحر أيضاً إلى جمهرة من أكابر المؤرخين ، شغفوا بها على كر العصور حباً ، وهاموا باستقصاء خططها ومعاهدها وآثارها ، وتتبعوا أطوار عظمتها وازدهارها . تتبعوا أيام محنها ، بصادق التدوين والوصف . فتاريخ القاهرة : خططها هدها وآثارها ومجتمعاتها ، يملأ فراغاً كبيراً فى تاريخ مصر الإسلامية . سنأتى على طرف من مجهود أولئك الرواة والمؤرخين الأوفياء ، الذين شغفوا حباً بربوع الوطن ، فأشادوا بمحاسنه ومآثره وأيام عزه ، ورثوا محنه ومصائبه ، وخلفوا لنا من مصر القاهرة فى مختلف عصورها وأطوارها أصدق الصور وأبدعها .

الفصل الثانى

مؤرخو الخطط

١

من ابن عبد الحكم إلى المقريزى

قدمنا أن عبد الرحمن بن عبد الحكم هو أقدم مؤرخ مصرى لمصر الإسلامية[١]. وهو أيضاً أقدم مؤرخ لخطط مصر . وقد كانت روايته عن الخطط مع إيجازها ، أول مادة لهذا التراث الذى ازدهر على يد المتأخرين من كتاب الخطط ، وشغل مكانة هامة فى تاريخ مصر الإسلامية ، وارتبط أشد الارتباط بنواحيه الاجتماعية والعمرانية . وكان قيام الفسطاط ، كما رأينا ، هو الحجر الأول فى صرح المدينة الإسلامية العظيمة ، التى استحالت إلى مصر القاهرة على النحو الذى شرحناه . ولما كانت الفسطاط قد بدأت معسكراً للجند الفاتح ، ومنزلا للقبائل التى اشتركت فى الفتح ، فإن رواية ابن عبد الحكم عن الخطط ، تدور بالأخص حول المواقع التى اتخذها الزعماء والقبائل لهم مناطق ومنازل ؛ فيبين مواقع منازل الزعماء والقبائل من المسجد الجامع (جامع عمرو) ، ودار الإمارة[٢] ؛ ويصف الدور والقصور المتواضعة الأولى ، التى أقامها الزعماء ثم توارثوها ، كدار عمرو بن العاص وابنه عبد الله[٣] ، ودور حكام مصر الأوائل ، وكذلك ميادين الفسطاط ومعاهدها ومساجدها وأسواقها الأولى[٤] ؛ ويتتبع بالأخص بناء المسجد الجامع[٥].

---

(١) كتب الواقدى تاريخ فتوح مصر ، قبل أن يكتبه ابن عبد الحكم . ولكن الواقدى بغدادى ، وهو فى روايته أميل إلى القصص منه إلى التحقيق التاريخى .

(٢) فتوح مصر — ص ٩٨ .

(٣) فتوح مصر — ص ٩٦ و ٩٧ .

(٤) فتوح مصر — ص ١٠٠ وما بعدها ، وكذا ص ١٣٦ وما بعدها .

(٥) فتوح مصر — ص ١٣١ و ١٣٢ .

كذلك يصف خطط الجيزة ، التى قامت مع الفسطاط فى وقت واحد ، لتكون منزلا لمن ضاقت بهم الفسطاط من القبائل ، وحصناً لوقاية العاصمة الجديدة من الطوارئ ؛ ثم يصف القطائع ، وكيف كانت توزع الدور والأماكن على الزعماء والسادة فى مختلف الحكومات ، وما توالى على هذه الدور والأماكن من إصلاح وتغيير [١] . ويتناول ابن عبد الحكم ذلك كله ، فى نوع من الإفاضة ، خصوصاً إذا ذكرنا ما كانت عليه خطط الفسطاط الأولى من البساطة . وتحمل روايته فوق ذلك طابع التحقيق والدقة ؛ ولا غرو فهو كما قدمنا مصرى ، نشأ وترعرع بين ربوع الفسطاط الأولى ، وطوت فيها أسرته أجيالا قبله ، فورث عنها كثيراً من مواد الرواية الوثيقة التى نقلها إلينا .

وقد كانت رواية ابن عبد الحكم على كر العصور مستقى خصباً لمؤرخى الخطط. وكان أول من انتفع بها ، أبو عمر محمد بن يوسف الكندى ، وهو أيضاً مؤرخ مصرى ينتسب إلى تُجيب أحد بطون قبيلة «كِندة» الشهيرة . ولد بالفسطاط فى سنة ٢٨٣هـ (٨٩٧ م) ، أعنى بعد وفاة ابن عبد الحكم بنحو جيل ؛ وتوفى سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١م) ؛ وحفظ الحديث وعنى بتحقيق الرواية ، ودرس على ابن قُدَيد [٢] ، أحد مشاهير المحدثين والرواة فى عصره ؛ وخص بدرسه وتحقيقه نواحى هامة فى تاريخ مصر . وكان حجة ثقة فى معرفة أحوال مصر وأهلها وأعمالها وثغورها [٣] . وإذا علمنا أن ابن قديد هذا ، هو أول من نقل إلينا رواية ابن عبد الحكم عن « فتوح مصر وأخبارها » ، ونقلها عنه مباشرة [٤] ، قدرنا إلى أى حد استطاع الكندى ، أن ينتفع بهذه الرواية التى نقلها عن أستاذه . وقد وصلتنا بعض آثار الكندى ، وأهمها وأشهرها كتاب « تسمية ولاة مصر » أو « أمراء مصر » وكتاب « تسمية قضاة مصر » . والأول هو تاريخ الولاة الذين تعاقبوا على حكم مصر منذ الفتح الإسلامى حتى وفاة محمد الإخشيد (سنة ٣٣٤ هـ) .والثانى هو تاريخ القضاة الذين ولوا

---

(١) تراجع رواية ابن عبد الحكم عن الخطط وتطوراتها - فتوح مصر - ص ٩١ - ١٣٩

(٢) هو أبو القاسم على بن الحسن بن خلف بن قديد الأزدى توفى سنة ٣١٢هـ .

(٣) المقريزى عن الفرغانى فى ترجمته للكندى فى « المقفى » . ونقلها المستشرق « كينج » **Koenig** فى مقدمته للقسم الذى نشره من كتاب « تسمية ولاة مصر » للكندى (ص ١ و ٢) .

(٤) يراجع سياق الإسناد فى كتاب « فتوح مصر » (ص ١) .

قضاء مصر منذ الفتح أيضاً إلى منتصف القرن الثالث من الهجرة ؛ وهو موضوع تناوله ابن عبد الحكم من قبل ، ووقف الكندى فى روايته حيثما وقف ابن عبد الحكم ، أعنى عند ولاية القاضى بكار بن قتيبة لقضاء مصر فى سنة ٢٤٦ هـ . وهذان الأثران هما الوحيدان اللذان وصلا إلينا كاملين من ترات الكندى[١] . وفى الكتابين نبذ يسيرة عن بعض خطط الفسطاط ومنشآتها الأولى ترد فى سياق الكلام[٢]. وللكندى عدة كتب أو رسائل أخرى ، تناول فيها كثيراً من خطط الفسطاط ، منها كتاب « أخبار مسجد أهل الراية الأعظم » وكتاب « الجند العربى » وكتاب « الخندق والتراويح » وكتاب « الموالى » . وفى هذه الكتب أو الرسائل كثير مما يتعلق بتاريخ خطط الفسطاط ، ومعاهدها وقصورها وأسواقها ، هذا عدا ما ورد فيها متعلقاً بالفتح الإسلامى وأخبار الولاة والجند والقطائع . وكتاب « مسجد أهل الراية » هو تاريخ المسجد الجامع ، أو جامع عمرو ، وقد سمى بذلك الاسم لأنه أنشئ فى وسط خطط أهل الراية ، وهم بطون من بعض القبائل التى اشتركت فى الفتح ، ولم يكف عدد جندها لتكوين جماعات خاصة منها ، فاجتمعت معاً وسميت أهل الراية ، واختطت حول المسجد الجامع[٣] . ولم تصلنا رسائل الكندى هذه ، ولكن المقريزى أعظم كتاب الخطط ، ينتفع بها انتفاعاً كبيراً ، ويذكرها فى مواضع عدة من خططه ، وينقل عنها شذوراً كثيرة هى كل ما وصل إلينا منها[٤]. على أن هنالك ما يدل على أن الكندى قد ألف كتاباً خاصاً فى « الخطط » ، أعنى خطط

---

(١) وقد وصلا إلينا فى مخطوط وحيد ظفر به المتحف البريطانى ، ونشر المستشرق كينج قسما منه من « تسمية الولاة » . ثم نشرت لجنة ذكرى جب الأثرين معاً فى مجلد ضخم تولى إصداره وتحقيقه المستشرق رفن جست **R. Ouest** .

(٢) راجع كتاب الولاة ، وكتاب القضاة (طبعة المستشرق جست) — ص ٣٦ و ٣٨ و ٤٥ و ٤٩ و ١١٥ و ١٣٤ و ٢١٥ و ٢١٩ و ٢٤٣ و ٣٠٥ و ٤٠٦ — ٤٠٧ ؛ ففيها جميعاً إشارات للخطط والأماكن .

(٣) راجع أسماء هذه القبائل وظروف التسمية فى المقريزى — الخطط — ج ١ ص ٢٩٧ .

(٤) راجع خطط المقريزى — ج ١ ص ٨٨ و (٢) ص ٢٦١ و ٤٤٦ و ٤٥٥ حيث يقتبس من كتاب الأمراء . و ج ٢ ص ١٣٧ و ٢٥٠ حيث يقتبس من كتاب الموالى . و (٢) ص ٢٤٦ حيث يقتبس من كتاب مسجد أهل الراية و (٢) ١٤٣ حيث يقتبس من كتاب الجند العربى . و (٢) ص ٦٣ حيث يقتبس من كتاب الخندق .

راجع أيضاً صبح الأعشى للقلقشندى (دار الكتب) — ج ٣ ص ٣٠٢ و ٣١٠ و ٣٢٧ و ٣٣٨ و ٣٣٩ حيث يقتبس من الكندى .

مصر الأولى من عهد إنشاء الفسطاط ، وأحيائها ومعاهدها وآثارها . وهو مؤلف ينوه به المقريزى فى مقدمة خططه ، ويذكره ضمن مصادره فيقول : « أول من رتب خطط مصر وآثارها، وذكر أسبابها فى ديوان جمعه ، أبو عمر محمد بن يوسف الكندى»(١)، ثم يعود فيذكره فى ترجمة الكندى فى المقفى(٢). وكذلك تشير إليه ترجمة للكندى وردت فى مخطوط كتاب الولاة والقضاة(٣) . بيد أن المقريزى لا يقتبس فى سياق كتابه شيئاً من « خطط » الكندى ، وإن كان يقتبس كما قدمنا كثيراً من كتبه الأخرى . وقلما يشير إليها الكتاب المتأخرون ، سوى القلقشندى فإنه يذكرها وينقل عنها نبذاً يسيرة(٤). والمقريزى يخطئ فى القول بأن الكندى هو أول كتاب الخطط ، فصاحب الفضل الأول فى تدوين الخطط هو ابن عبد الحكم كما رأينا ؛ وعنه نقل الكندى . وربما لم تكن خطط الكندى أكثر من مؤلف متواضع الحجم ، تناول فيه مادة ابن عبد الحكم ، فى قليل من البسط والإفاضة ، كما فعل فى كتاب « تسمية قضاة مصر » .

وكتب بعد الكندى مؤرخان مصريان كبيران ، هما الفقيه أبو محمد الحسن ابن إبراهيم بن زولاق الليثى المصرى ، والأمير المختار عز الملك المسبّحى . وقد ولد أولهما بفسطاط مصر سنة ٣٠٦ هـ (٩١٨م) ، فهو بذلك معاصر للكندى . غير أنه عاش بعده جيلا آخر ، وأدرك قيام الدولة الفاطمية بمصر ، وإنشاء القاهرة المعزية ، وتوفى سنة ٣٨٧هـ (٩٩٧م) . ولم يذكر المقريزى ، ابن زولاق فيمن ذكر من كتاب الخطط فى مقدمة كتابه ، وليس فى سياق حديثه ما يشير صراحة إلى أن ابن زولاق قد ترك كتاباً فى الخطط ؛ غير أن ابن خلكان يقول فى ترجمته لابن زولاق : « وله كتاب فى خطط مصر استقصى فيه»(٥). فإذا صحت هذه الرواية — ونرجح صحتها — فإن ابن زولاق يكون قد تناول موضوع الخطط بنوع من الإفاضة والتوسع ؛ ولعله

---

(١) المقريزى ج ١ ص ٤ وهذا ما ذكره أيضاً صاحب كشف الظنون (طبع أوربا) ج ٣ ص ١٦٠

(٢) مقدمة المستشرق كينج لكتاب تسمية الولاة — ص ١ و ٢ .

(٣) مقدمة المستشرق كينج لكتاب تسمية الولاة — ص ١٩ .

(٤) راجع صبح الأعشى (دار الكتب) ج ٣ ص ٣٣٨ حيث يشير صراحة إلى خطط الكندى وص ٣٢٧ و ٣٢٩ حيث يقتبس منها .

(٥) وفيات الأعيان (طبع بولاق) ج ١ ص ١٦٧ ، وقد توفى صاحب الوفيات سنة ٦٨١ هـ .

استقصى فيه إلى جانب خطط الفسطاط ، خطط « العسكر» ثم خطط القطائع ، وهى مدينة بنى طولون الذين عاش ابن زولاق قريباً من عصرهم ، وأدرك آثار قصورهم ومعاهدهم الزاهرة ؛ بل لعله تناول أيضاً إنشاء القاهرة المعزية التى شهد قيامها قبل وفاته بنحو ثلاثين عاماً ، فكان بذلك أول مؤرخ لخططها . بيد أننا لم نتلق عن أثر ابن زولاق فى «الخطط» أى شرح أو اقتباس شاف . وكل ما هنالك أن بعض الكتاب المتأخرين مثل ابن خلكان ، والنويرى ، وابن حجر ، والسيوطى(١) يشيرون إلى مؤلف آخر لابن زولاق يسمى أحياناً «فضائل مصر» وأحياناً «تاريخ مصر» ؛ وأن ياقوتاً الحموى ينقل فى معجمه الجغرافى عن ابن زولاق فى كلامه عن بعض المدن المصرية ولكن دون الإشارة إلى اسم الكتاب الذى ينقل عنه(٢). ولابن زولاق آثار أخرى تلقى كثيراً من الضياء على تاريخ مصر وأحوالها فى القرن الرابع الهجرى ، منها «سيرة المعز لدين الله » ، « وسيرة الإخشيد » و « تتمة أمراء مصر» ، وهو ذيل لكتاب الكندى عن ولاة مصر(٣). وسيرة المعز فيما يظهر أهم هذه الآثار وأنفسها جميعاً . ولكن ما انتهى إلينا منه لا يجاوز عدة شذور قوية شائقة ينقلها المقريزى فى خططه عن منشآت الدولة الفاطمية ومعاهدها وقصورها ورسومها وبذخها(٤) ؛ وعدة شذور أخرى ينقلها المقريزى عن المعز فى كتاب «اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء » . وهى شذور تنم رغم قلتها عن أهمية هذا الأثر ورائق أسلوبه . أما سيرة الإخشيد فقد وصل إلينا معظمها على يد ابن سعيد الأندلسى فى كتاب « المُغرب » وفيها نبذ تتعلق بأحوال الفسطاط ومعاهدها فى هذا العصر(٥) .

---

(١) راجع ابن خلكان ج ١ ص ١٦٧ — ونهاية الأرب للنويرى (دار الكتب) ج ١ ص ٢٥٥ و ٣٣٨ و ٣٤١ و ٣٤٤ — وديباجة رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر (منشور بعناية وزارة التربية ١٩٥٧ — القسم الأول ص٢) وحسن المحاضرة للسيوطى — الديباجة و ج ١ ص ٢٦٥ .

(٢) معجم البلدان (طبع مصر) — ج ١ ص ١٥٦ و ٢٤٣ و ٢٤٨ و ٢٥١ وغيرها .

(٣) وقد وجد هذا الذيل فى مخطوط كتاب الولاة والقضاة المحفوظ بالمتحف البريطانى ونشر فى طبعة لجنة ذكرى جب .

(٤) راجع هذه الشذور فى الخطط — ج ١ ص ٣٨٥ و ٣٨٩ و ٤٣٠ و ٤٥١ و ٤٧٠ و ٤٩٣ — راجع أيضاً شذورا أخرى فى ج ٢ ص ٢٥ و ١٣٧ و ١٨١ .

(٥) نشر المستشرق تالكمقت (Tallqvist) منذ سنة ١٨٩٩ (ليدن) قسماً كبيراً من كتاب «المغرب فى أخبار المغرب» وهو المجلد الرابع منه ، وفيه اقتباس كبير من سيرة الإخشيد لابن زولاق فى الكتاب المعنون باسم « العيون الدعج فى سيرة بنى طغج » .

وأما المسبّحى — وهو الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله بن أحمد الحرّانى — فقد ولد بمصر سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٧ م) وتوفى سنة ٤٢٠ (١٠٢٩م) وكان من أقطاب الأمراء ورجال الدولة الفاطمية ؛ تولى الوزارة للحاكم بأمر الله ونال حظوة لديه ؛ وشغل عدة مناصب هامة أخرى ؛ وكان آية فى العرفان والدرس ؛ أخذ بقسط وافر فى مختلف علوم عصره ، وشغف بتدوين التاريخ ، وألف فيه عدة كتب ، منها تاريخه الكبير المسمى «أخبار مصر» ، وهو تاريخ مصر ومن حلها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء ، وما بها من العجائب والأبنية ، وذكر نيلها وخواصها ونظمها ومجتمعاتها[1] ، حتى فاتحة القرن الخامس الهجرى. وقد كان مجهود المسبحى التاريخى عظيما بلاريب ؛ فقد ذكر ابن خلكان عن رؤية ومعاينة ، أن تاريخه «بلغ ثلاثة عشر ألف ورقة»[2] . ولم يصلنا هذا الأثر الضخم[3] الذى يلقى بلا ريب أعظم الضياء على تاريخ الدولة الفاطمية فى عصرها الأول ، ولاسيا على سيرة الحاكم بأمر الله وشخصيته الغريبة الفذة ؛ ولكن الشذور التى وصلتنا منه على يد المقريزى وغيره من المؤرخين المتأخرين عن أحوال الدولة الفاطمية وقصورها وخزائنها وصروحها ، تنوه بقيمة

---

(١) الوفيات لابن خلكان — ج ١ ص ٦٥٣ .

(٢) الوفيات — ج ١ ص ٦٥٣ — ويقول ابن خلكان أيضاً : إن مصنفات المسيحى فى التاريخ وغيره بلغت ثلاثين ، ويذكر منها عدة .

(٣) يشير معظم الكتاب والمؤرخين المتأخرين إلى وجود هذا الأثر حتى القرن العاشر الهجرى . فالمقريزى يقتبس منه شذوراً عدة . وقد أشار السيوطى اليه (حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٦٥) وكذلك السخاوى (الإعلان بالتوبيخ فيمن ذم أهل التاريخ ص ١٣١) . ولم يذكره صاحب كشف الظنون . ولكن ذكر الغزيرى (Casiri) فى معجمه عن مخطوطات الإسكوريال الذى أصدره باللاتينية فى سنة ١٧٧٠ أنه يوجد فى الاسكوريال «أربعة مجلدات عن تاريخ مصر وأرضها وعجائبها مرتب حسب السنين لغاية سنة ٤١٤ هـ . تصنيف محمد بن عبد الله بن عبـــد العزيز المسيحى — كذا — (Amisihi) » . (معجم الغزيرى نمرة ٥٣١ فقرة ٢) . وليس من شك فى أن المقصود هو تاريخ مصر للمسبحى ، وذلك رغم تحريف الاسم . بيد أنه لم يرد ذكر لهذا المخطوط فى فهرس ديرنبور . ولا يوجد له فى الواقع أثر ضمن مجموعة الاسكوريال ، ولعله قد ضاع شأن كثير من الآثار التى يذكرها معجم الغزيرى . وكل ما هنالك أنه يوجد ضمن المخطوط رقم ٥٣٤ الغزيرى فصل من تاريخ المسبحى عنوانه «الجزء الأربعون من أخبار مصر وفضايلها وطرايقها وغرايبها وما بها من البقاع والآثار ، وسير من حل بها وحل غيرها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء ، آباء أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين» ويلى ذلك أنه من تصنيف الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله .... بن عبد العزيز المسبحى . ويستغرق هذا الفصل من المخطوط المشار إليه من لوحة ١٣٢ إلى ٢٨٩ من القطع المتوسط .

هذا الأثر ونفاسته ، وتدل أيضاً على أن مؤلفه قد تناول خطط مصر وآثارها ومعاهدها فى كثير من الإفاضة[١] .

ثم كتب القضاعى عن خطط مصر واستوعبها فى مؤلف خاص . وهو القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى الفقيه الشافعى . ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع وتوفى بها سنة ٤٥٤ هـ[٢] (١٠٦٢ م) . كان إماماً فى الفقه والحديث ، وتولى القضاء وغيره من مهام الدولة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى (٤٢٧ — ٨٧ هـ) . وأوفده المستنصر سفيراً إلى تيودورا إمبراطورة قسطنطينية سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م)[٣] ليحاول عقد الصلح بينها وبين مصر . واشتغل بالتاريخ أيضاً فألف كتاباً فى خطط مصر نقل إلينا المقريزى اسمه كاملا وهو « المختار فى ذكر الخطط والآثار »[٤] ؛ ولم يصلنا منه غير شذور نقلها بعض الكتاب والمؤرخين المتأخرين ، ولاسيما القلقشندى[٥] والمقريزى[٦] ؛ فإن كليهما يقتبس منه فى عدة مواطن . وقد كان لمؤلف القضاعى فى الخطط أهمية خاصة لأنه آخر رواية وصلتنا عن خطط مصر القاهرة ، قبل أن تغير معالمها فترة الشدة والوباء والخراب ، التى نزلت بمصر فى خلافة

---

(١) راجع هذه الشذور فى الخطط — ج ١ ص ١٧١ و ١٨١ و ٢٠٧ و ٢٦٥ و ٣٨٧ و ٣٨٩ و ٤٠٨ و ٤٥١ و ٤٥٧ و ٤٦٥ و ٤٦٧ و ٤٩٤ و ج (٢) ص ٤ و ٥ و ١٤ و ٢٠ و ٢٨ و ١٤٣ و ١٤٥ و ١٩٥ و ٢٨٠ و ٢٨٢ .
راجع أيضاً صبح الأعشى — ج ١ ص ٣٦٧ .

(٢) هذه هى الرواية الراجحة ، وهى رواية ابن ميسر معاصر القضاعى (أخبار مصر فى حوادث سنة ٤٥٤) ؛ ورواية ابن خلكان فى الوفيات ج ١ ص ٥٨٥ . وكذا رواية السيوطى (حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٨) . ولكن المقريزى يذكر فى مقدمة الخطط أن القضاعى توفى سنة ٤٥٧ هـ (ج ١ ص ٥) مع أنه يذكر فى ترجمته فى المقفى أنه توفى سنة ٤٥٤ متفقاً مع الرواية العامة (راجع هذه الترجمة فى مقدمة كينج « لتسمية الولاة » ص ٢٢) .

(٣) راجع تفاصيل هذه السفارة فى أخبار مصر لابن ميسر (فى حوادث سنة ٤٤٧) . وكذا فى خطط المقريزى — ج ١ ص ٣٣٥ ، وسنعود إليها فى فصل قادم .

(٤) الخطط — ج ١ ص ٥ .

(٥) راجع صبح الأعشى — ج ٣ ص ٢٩٤ و ٢٩٩ و ٣٠٢ و ٣١٠ و ٣١١ و ٣٢١ — ٢٤ و ٣٢٦ و ٣٣٨ و ٣٤٠ و ٣٧٩ و ٣٩٣ و ٤٠٣ .

(٦) الخطط — ج ١ ص ١٢٢ و ١٢٥ و ٢٠٦ و ٢٠٧ و ٢٤٧ و ٢٨٧ و ٢٩٨ و ٢٣٠ و ٣٣١ و ٣٤٣ و ٣٤٦ و (٢) ص ١٣٧ و ١٤٢ و ١٤٦ و ١٦١ و ١٧٨ و ٢٤٨ و ٢٥١ و ٢٥٣ و ٢٥٥ و ٣٣٦ و ٣٧٠ و ٤٤٥ و ٤٥٥ .

المستنصر بين سنتى ٤٤٦ و ٤٦٤ هـ ؛ وقبل أن تبعث من بعد ذلك خلقاً جديداً فى معظم خططها ومعالمها وصروحها . وهى حقيقة ينوه بها المقريزى فى مقدمة الخطط إذ يذكر كتاب القضاعى ضمن مصادره ويقول : « ومات (أى القضاعى) فى سنة سبع وخمسين وأربعمائة قبل سنى الشدة ، فدثر أكثر ماذكر ، ولم يبق إلا يلمع وموضع بلقع »(١) ، والظاهر مما نقل إلينا من كتاب القضاعى أنه تناول فيه خطط مصر وآثارها وتاريخها منذ الفتح فى نوع من الإفاضة وانتفع فى ذلك بمجهود ابن عبد الحكم والكندى وابن زولاق ، وأضاف إليه ماانتهت إليه أحوال القاهرة المعزية فى عصره . كذلك انتهى إلينا من مجهود القضاعى التاريخى أثر آخر هو « عيون المعارف » وهو على ما يصفه مؤلفه فى مقدمته ، « موجز فى ذكر الأنبياء وتاريخ الخلفاء وولايات الملوك والخلفاء إلى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة من الهجرة »(٢) . ولعله مختصر لمؤلف أكبر لم يصل إلينا .

وقد انتفع بمجهود القضاعى جمهرة من المؤرخين المتأخرين حتى أوائل القرن العاشر الهجرى . ويذكر السيوطى فيما كتبه عن فتح مصر أنه نقل رواية الفتح عن « كتاب الخطط للقضاعى » مكتوباً بخطه(٣) ؛ وعلى هذا يكون مؤلف القضاعى قد فقد فى عصر متأخر بعد أن انتفع به انتفاعاً كبيراً .

ونشأت مصر والقاهرة نشأة جديدة منذ أواخر القرن الخامس ، على يد أمير الجيوش بدر الجمالى وولده الأفضل شاهنشاه . ولا نعرف شيئاً عن تاريخ الخطط فى هذا العصر ، إلا ما ذكر المقريزى فى مقدمته ، حيث يقول : إن الذى تناول موضوع الخطط بعد القضاعى ، هو تلميذه أبو عبد الله محمد بن بركات النحوى ، المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) . فى كتاب نبه فيه على مواضع كانت أحباساً (أوقافاً) واغتصبت(٤) . ولم نعثر على أى اقتباس للمقريزى من هذا المؤلف ؛ ولكن الظاهر أنه انتفع به فيما كتبه عن الأحباس(٥) .

---

(١) الخطط — ج ١ ص ٥ .

(٢) توجد فى دار الكتب المصرية نسخة مخطوطة من هذا الكتاب ضمن مجموعة محفوظة برقم ١٧٧٩ تاريخ .

(٣) حسن المحاضرة — ج ١ ص ٧٠ .

(٤) الخطط — ج ١ ص ٥ .

(٥) الخطط — ج ٢ ص ٢٩٤ ومابعدها .

وهنا تبدأ مرحلة جديدة فى تاريخ الخطط المصرية . غير أنا لا نعرف كثيراً عما كتبه مؤرخو الخطط فى هذا العصر . ومرجعنا هنا هو المقريزى أيضاً ، وما اقتبسه فى خططه ؛ فهو يقول : إن الذى كتب بعد ذلك عن الخطط هو الشريف النسابة محمد بن أسعد الجوانى (٥٢٥ — ٥٨٨هـ) (١١٣١—١١٩٢م) فوضع كتاباً اسمه : « النقط بِعَجْم ما أشكل من الخطط » ، وهو مؤلف يقتبس منه المقريزى فى عدة مواضع ، ويقول إنه : « نبه على معالم قد جهلت وآثار قد دثرت »[١] . غير أنه يصعب علينا أن نستدل بهذا الاقتباس على حقيقية ما خصه الجوانى بالبحث والدرس[٢] ، نظراً لتباين فقراته وتشعب مناحيها .

وفى نفس الوقت الذى كتب فيه الجوانى مؤلفه عن الخطط ، أعنى أواخر القرن السادس الهجرى ، وضع كاتب نصرانى أرمنى من نزلاء مصر هو أبو صالح الأرمنى مؤلفاً ألم فيه بتاريخ الكنائس والأديار المصرية وأحياء الأقباط والنصارى ، وتاريخ القديسين والبطاركة ، وبعض أعمال الدولة وإقطاعها وخراجها . وقد انتهى إلينا جزء من هذا الأثر الذى يعالج ناحية هامة من خطط مصر النصرانية فى عصور الإسلام[٣] .

ويجب أن نلاحظ أهمية ما كتب فى ذلك العصر عن خطط مصر القاهرة ، فقد قدمنا أن المدينة الكبرى أصيبت بالخراب والدمار فى كثير من أحيائها أيام حروب شاور وضرغام فى أواخر الدولة الفاطمية ؛ ثم أحرقت بعد ذلك اتقاء لزحف الفرنج (٥٦٤هـ —١١٦٩م) . وما كادت تفيق من غمار هذه الخطوب حتى عاد الوباء فعاث فيها فى خاتمة القرن السادس وفاتحة القرن السابع ؛ وهكذا درست معالم المدينة الزاهرة مرة أخرى .

ثم عادت مصر القاهرة تستقبل عصراً جديداً من العظمة والبهاء . ففى عهد

---

(١) الخطط — ج ١ ص ٥ .

(٢) راجع هذه الشذور فى الخطط — ج ١ ص ٢٨٨ و ٢٩٦ و ٣٣٠ و ٣٣٢ و (٢) ص ٨١ و ١٦٤ و ٢٠٢ و ٢١٨ و ٤٠٩ و ٤٤٠ و ٤٤٤ و ٤٤٨ و ٤٤٩ و ٤٥٠ و ٤٥٢ و ٤٥٨ — ومن هذه أيضاً شذور من كتب أخرى للجوانى .

(٣) طبع هذا الأثر فى أكسفورد سنة ١٨٩٥ وقرن نصه العربى بترجمة انجليزية . وقد ثار أخيراً بعض الجدل حول نسبته إلى أبى صالح الأرمنى ، وقيل إنه من تأليف كاتب قبطى آخر ، وإنه وجد مخطوط آخر متمم له . ولكن الأمر ما زال قيد التحقيق .

الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ)(١٢٦٠-٧٧م)، جددت معالم القاهرة ،وزيدت معاهدها ومساجدها وبساتينها وأسواقها زيادة عظيمة . وتناول خطط القاهرة وآثارها فى ذلك العصر ، كاتب ومؤرخ بارع ، هو القاضى محيى الدين عبد الله ابن عبد الظاهر . ولد بالقاهرة سنة ٦٢٠ هـ وتوفى بها سنة ٦٩٢ (١٢٢٣ - ١٢٩٢ م) ، وولى القضاء واتصل بالبلاط اتصالا قوياً ، وتولى ديوان الرسائل للملك الظاهر ، واشتغل إلى جانب الشعر والأدب بكتابة التاريخ ، فكتب عن خطط القاهرة وآثارها ومعاهدها ومجتمعاتها ، كتابة الأشهر « الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة » . ومن الأسف أننا لم نتلق هذا الأثر النفيس وإن كان قد ذكره صاحب كشف الظنون[1] .وإنما يدل المقريزى على أهميته ونفاسته بما يقتبسه منه فى مواضع كثيرة ، من النبذ الشائقة . ويبدو من مراجعة هذه النبذ ، أن مباحث ابن عبد الظاهر تدور بالأخص حول خطط القاهرة المعزية الأولى ، وتطوراتها إلى عصره . فلا يكاد المقريزى يتناول شيئاً مما يتعلق بالقاهرة المعزية ، أسوارها وشوارعها ودروبها وأحكارها ومساجدها وقصورها ، إلا اقتبس من ابن عبد الظاهر ، وكذا شأنه فيما يكتب عن القصور الفاطمية وعجائبها وبذخها وبهائها ودواوينها ، وعن المجتمع القاهرى فى عهد الفاطميين ، ففى ذلك كله تقرأ شذوراً شائقة لابن عبد الظاهر[2]. وأغلب هذه الشذور مقتبس من كتاب « الروضة البهية الزاهرة » ، ولكن منها ما هو منسوب إلى « جامع السيرة الظاهرية » ، والمرجح أنه هو ابن عبد الظاهر ؛ لأنه عنى بجمع تاريخ الملك الظاهر[3]، وله فى سيرته منظومة شهيرة . وينوه المقريزى فى مقدمته بمجهود ابن عبد الظاهر ، ويقول « إنه فتح باباً كانت الحاجة تدعو إليه »[4]. وقد ألفى المقريزى فى هذا

(١) ج ٣ ص ٤٩٩ .

(٢) راجع هذه الشذور فى الخطط - ج ١ ص ٣٨١ و ٣٨٤ و ٣٨٨ و ٤٠٤ و ٤٠٨ و ٤٣٨ و ٤٥٨ و ٤٦٠ و ٤٦٢ و ٤٦٨ و ٤٧٠ و ٤٨٠ و ٤٨١ و ٤٨٧ و (٢) ص ٤ و ١٢ و ١٦ و ٢٠ و ٢٥ و ٨٧ و ٩٢ و ١٠٢ و ١١٤ و ١٤٤ و ٢٣١ و ٣٦٨ و ٤٦٣ .

(٣) يشير السيوطى فى ترجمة ابن عبد الظاهر إلى هذا التاريخ ، ويسميه « سيرة الملك الظاهر» - حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٧٣ ، وهوما يؤيد أنه هو نفس المؤلف الذى يقتبس منه المقريزى ويسميه «السيرة الظاهرية» ويسميه حاجى خليفة «سيرة الملك الظاهر» (كشف الظنون ج ٣ ص ٦٤١).

(٤) ج ١ ص ٥ .

المجهود مصدراً من أجل مصادره وأنفسها ، كما اتخذه بعض كتاب الموسوعات مثل القلقشندى مستقى خصباً للاقتباس فيما يتعلق بالخطط والآثار[١] .

وصل مجهودَ ابن عبد الظاهر وأتمه إلى ما قبل عصر المقريزى بقليل ، القاضى تاج الدين محمد بن عبدالوهاب بن المتوّج (٦٣٩–٧٣٠هـ) (١٢٤١–١٣٣٠م) فى كتاب « إيقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل فى الخطط » . ولسنا أيضاً نعرف عن هذا المؤلّف غير ما ذكره المقريزى عنه فى مقدمته ، إذ يقول : إنه « يبين جملا من أحوال مصر وخططها إلى أعوام بضع وعشرين وسبعمائة ، قد دثرت بعده معظم ذلك فى وباء سنة تسع وأربعين وسبعمائة ثم فى وباء إحدى وستين ، ثم فى غلاء سنة ست وسبعين وسبعمائة »[٢] ؛ ثم يقول عن الكتاب وعن مؤلفه فى موضع آخر : « وآخر ما رأيت من الكتب التى صنفت فى خطط مصر ، كتاب إيقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل ، تأليف القاضى الرئيس تاج الدين محمد بن عبدالوهاب بن المتوج الزبيرى رحمه الله ، وقطع على سنة خمس وعشرين وسبعمائة »[٣] . ويقتبس المقريزى كثيراً من ابن المتوج فيما يكتب عن خطط مصر وآثارها ومساجدها ومعالمها ، ولكنه لا يقتبس منه شيئاً فيما يكتب عن القاهرة ، مما يدل على أن مباحث ابن المتوج كانت تدور بالأخص حول خطط مصر لا القاهرة[٤] .

وكتب فى هذا الوقت بعض مؤرخين وكتاب آخرين فى تاريخ مصر وأحوالها ، وتناولوا خلال مباحثهم شيئاً من خطط مصر وآثارها . ومن هؤلاء المؤرخ ابن وصيف شاه ، المتوفى فى أواخر القرن السابع ؛ فقد تناول فى تاريخه[٥] بعض خطط

---

(١) راجع صبح الأعشى — ج ٣ ص ٣٠٣ و ٣٤٤ و ٣٤٨ و ٣٥٢ و ٣٥٤ و ٣٥٧ و ٣٦٠ و ٣٦٢ و ٣٦٤ و ٣٦٩ و ٣٧١ و ٣٨٥ و ففيها جميعاً يقتبس القلقشندى من ابن عبد الظاهر .

(٢) الخطط — ج ١ ص ٥ .

(٣) الخطط — ج ١ ص ٣٤٢ ، ويعكس المقريزى هذه التسمية فى مقدمته فيسمى الكتاب «إيقاظ المتأمل واتعاظ المتغفل» ، ولكن السيوطى يورد التسمية الأولى ، واتفاقهما تجعلها أصح .

(٤) راجع ما نقله المقريزى عن ابن المتوج — ج ١ ص ٢٧٦ و ٢٨٨ و ٢٩٨ و ٣٣١ و ٣٤٢ و ٣٤٥ و (٢) ص ٨٦ و ١١٤ و ١٥٣ و ١٨٤ و ١٩٧ و ٢٥٣ و ٢٨٢ و ٣٠٣ و ٤٢٩

(٥) فى دار الكتب نسخة فتوغرافية لكتاب ينسب إلى ابن وصيف شاه ، اسمه : « جواهر البحور ووقائع الأمور ، وعجائب الدهر » فيه ذكر فضائل مصر وما ورد فى تاريخها القديم وآثارها من الأساطير ؛ ثم تاريخ ولاتها المسلمين منذ الفتح . ولكن الظاهر أن المقريزى يقتبس من مؤلف أكبر وأوسع لابن وصيف شاه .

مصر القديمة ونيلها وخلجانها وآثارها ، وما يتعلق بذلك من الأساطير . ومنه يقتبس المقريزى فى عدة مواطن(١) . وكذا النويرى المتوفى سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٣م) فى كتاب «نهاية الأرب» ، وابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) فى كتاب «مسالك الأبصار» ، ثم القلقشندى المتوفى سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨م) فى كتاب « صبح الأعشى » . غير أن هؤلاء فى الواقع أدباء أو كتاب موسوعات لا تخصص فيها فى هذا الفن ، نقلوا فى كتبهم ما تعلق بخطط مصر عن كتاب الخطط المتقدمين ، مثل ابن عبد الحكم والكندى وابن زولاق والقضاعى وغيرهم .

ووضع ابن الجيعان المتوفى فى أواخر القرن الثامن كتاب «التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » ، وهو عبارة عن ثبت للأقاليم والبلاد المصرية ، وذكر زماماتها . وأنواع أراضيها من رزق وأحباس وغيرها ، مرتبة على حروف المعجم ، وذلك حتى سنة ٧٧٧ هـ فى أواخر عهد الملك الأشرف(٢) .

وفى أواخر القرن الثامن كتب عن خطط مصر وآثارها وصروحها ، مؤرخ مصرى كبير هو صارم الدين ابراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى المعروف بابن دقماق . ولد بالقاهرة سنة ٧٥٠ هـ ، وتوفى بها سنة ٨٠٩ ، (١٣٤٩—١٤٠٦م) . وخص الخطط بأعظم قسط من مجهوده التاريخى ، فكتب عنها مؤلفه الكبير « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » فى عدة مجلدات كبيرة لم يصلنا سوى بعضها . غير أن هذا القسم الذى انتهى إلينا ، يتضمن استعراضاً شافياً لخطط مصر الفسطاط منذ نشأتها ، وذكر أحيائها وأسواقها ورحابها ، ومساجدها ومعاهدها وأبنيتها ، وأديارها وكنائسها ومناظرها ، وتطوراتها فى مختلف العصور ؛ كما يتضمن الكلام على كثير من كور مصر وأعمالها الأخرى ، فى الوجهين القبلى والبحرى ؛ غير أنه لا يتضمن كثيراً عن خطط القاهرة(٣) . ويعتمد ابن دقماق على سلفائه من كتاب الخطط ، ولا سيما ابن عبد الحكم والكندى والقضاعى وابن المتوج . والطريف

---

(١) راجع الخطط — ج ١ ص ١٢٤ و ١٢٩ و ١٣٥ و ١٤١ و ١٧٥ و ١٨٢ و ٢١٠ و ٢١٣ و ٢٣٢ و ٢٣٧ و ٢٤١ و ٢٦٨ و (٢) ص ١٤٠ و ١٧٧ و ٤٨٠ .

(٢) عنيت دار الكتب المصرية بنشر هذا الكتاب منذ سنة ١٨٩٨ .

(٣) فى دار الكتب نسخة خطية من هذا القسم فى مجلدين . وقد طبعا فى بولاق منذ سنة ١٣٠٩ هـ. راجع فيه وصف ابن دقماق لدور الفسطاط (ج ١ ص ٥ — ١٣) ، ووصفه لأزقتها ودروبها (ص ١٤ — ٥٩) .

فى مباحثه هو ما تعلق بخطط مصر فى عصره ، أعنى فى أواخر القرن الثامن . وقد انتهى إلينا من مجهود ابن دقماق أيضاً كتاب « الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين » ، وقسم من مؤلف آخر هو « نزهة الأنام فى تاريخ الإسلام » ، وكلاهما مرتب حسب السنين[١] .

وفى خاتمة القرن الثامن أيضاً أو فاتحة القرن التاسع وضع شهاب الدين الأوحدى (٧٦١—٨١١هـ) (١٣٦٠—١٤٠٨م) كتاباً عن خطط مصر والقاهرة ، لا نعرف عنه سوى الاسم[٢] .

٢

خطط المقريزى

وهنا تبدأ المرحلة الثالثة فى تاريخ الخطط ، وهى أهم وأعظم المراحل جميعاً . فقد توالت الخطوب والمحن على مصر القاهرة فى أواخر القرن الثامن ، فذوى بهاؤها ودرست آثارها ، وغلبت عليها مناظر الخراب الموحشة ، زهاء نصف قرن . ثم استعادت العاصمة الكبيرة نضرتها ورواءها ، وارتدت فى النصف الأول من القرن التاسع ، حلة قشيبة من الضخامة والعمران والجدة . ووُهبت فى نفس الوقت أعظم مؤرخيها ، وأشدهم هياماً بها ، وشغفاً باستقصاء خططها ، وأعظمهم توفيقاً فى تخليد معالمها وآثارها ، أعنى تقىّ الدين المقريزى .

كان المقريزى زعيم هذه المدرسة التاريخية الباهرة ، التى ازدهرت بمصر خلال القرن التاسع ، وخصت تاريخ مصر بأعظم جهودها ، وتخرج فيها العينى وأبو المحاسن ابن تغرى بردى ، والسخاوى ، وابن إياس ، ومازالت آثارها بين أيدينا أعظم تراث تلقيناه فى تاريخ مصر الإسلامية . وهو تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد ،

---

(١) فى دار الكتب نسخة خطية من الأول ، ونسخة فتوغرافية من الثانى نقلت عن مخطوط مكتبة باريس .

(٢) حسن المحاضرة — ج ٢ ص ٢٦٦ ، وكذلك « الضوء اللامع » (نسخة دار الكتب الفتوغرافية) القسم الثانى ص ٤٦٨ و ٤٦٩ .

ويعرف بالمقريزى[١]، ولد بالقاهرة المعزية سنة ٧٦٦هـ[٢] وتوفى بها سنة ٨٤٥ (١٣٦٤ -١٤٤١م) . ولا يتسع المقام هنا للاحاطة بترجمة المقريزى ومجهوده التاريخى ، ولكنا نكتفى فى ترجمته بلمحة قصيرة ، ولا نتناول من مجهوده التاريخى إلا ماتعلق بتاريخ الخطط . فقد نشأ فى تلك العاصمة الكبيرة ، التى طوت قبله أجيالا من السلاطين والدول ، والتى كانت تشوق دائماً بماضيها الحافل ، وآثارها الباهرة ، طُلَعة كل مفكر وراوية ؛ وأنفق مدى حياته بين هاتيك الربوع والصروح الخالدة ، التى أوحت إليه أن يكون فيما بعد مؤرخها ومحيى ذكرياتها . ودرس فى الأزهر موئل التفكير يومئذ، على أساتذة هذا العصر وشيوخه ؛ وتخصص نوعاً فى دراسة الفقه وعلوم الدين ؛ وتقلب فى وظائف الوعظ والخطابة والتدريس فى المدارس الجامعة . ثم ولى الحسبة[٣] فى القاهرة ، وهى من مناصب القضاء الهامة يومئذ ، وتقلب من بعدها فى عدة وظائف قضائية فى القاهرة ودمشق . وكانت له حظوة عند الملك الظاهر برقوق ، ثم عند ولده الملك الناصر فرج من بعده . ثم زهد فى الوظائف العامة واستقر فى القاهرة ، وتفرغ إلى البحث والكتابة . وكان منذ فتوته يشغف بمطالعة التواريخ والسير وجمع أشتاتها . وخص مصر وأخبارها وآثارها بأعظم قسط من جهوده ومباحثه ، وكتب فى ذلك عدة مؤلفات جليلة . وكتب أيضاً فى نواح أخرى من تاريخ الإسلام ، كما كتب فى غير التاريخ . ولكن براعة المقريزى كمؤرخ تبدو بنوع خاص ، فيما كتبه عن مصر الإسلامية ، ودولها ، ونظمها ، ومجتمعاتها ، وشعبها ؛ وله فى ذلك طائفة من أنفس الآثار ، نذكر منها ما يأتى :

(١) « المواعظ والاعتبار ، بذكر الخطط والآثار » وهو المقصود فى هذا البحث وسنعود إليه .

---

(١) ذكر السخاوى فى ترجمته للمقريزى أن هذه التسمية نسبة لحارة فى بعلبك تعرف بحارة المقارزة وكان أصله (أى المقريزى) من بعلبك ، وجده من كبار المحدثين، فتحول والده (أى والد المقريزى) إلى القاهرة (التبر المسبوك ص ٢١) .

(٢) يقول المقريزى فى ديباجة الخطط (ص ٤) إنه ولد بعد سنة ستين وسبعمائة من الهجرة ولا يعين تاريخ ميلاده . ولكن السخاوى يذكر أن شيخه ابن حجر ، رأى بخط المقريزى ما يدل على أن مولده كان فى سنة ست وستين . ويضع السيوطى تاريخ مولده فى سنة ٧٦٩ (حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٦) .

(٣) كانت مهام الحسبة يومئذ تشبه فى عصرنا مهام النيابة العمومية من بعض الوجوه ، ولاسيما فى قمع بعض جرائم الغش فى الكيل والأوزان والأصناف .

(٢) « السلوك ، فى دول الملوك » وهو تاريخ دول المماليك فى مصر حتى قبيل وفاته .

(٣) « المقفى ، أو التاريخ الكبير » وهو تاريخ الأمراء والكبراء الذين حكموا مصر وعاشوا فيها ، مرتب على حروف المعجم .

(٤) « دررُ العقود المفيدة ، فى تراجم الأعيان المفيدة » .

(٥) « اتعاظ الحنفاء ، بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء » وهو تاريخ الدولة الفاطمية منذ نشأتها فى المغرب . والنسخة المعروفة المتداولة منه تقف حتى عصر المعز لدين الله . ولكن توجد منه نسخة مخطوطة أخرى فى استانبول أوفى وأكبر حجماً ، وتتناول تاريخ الخلفاء الفاطميين حتى أواخر الدولة الفاطمية بتفصيل وإفاضة .

(٦) « البيان والإعراب ، عما بمصر من الأعراب » .

(٧) « عقد جواهر الأسفاط ، فى ملوك مصر والفسطاط » .

هذا أهم ما كتبه المقريزى فى تاريخ مصر(١) . وقد شاء القدر السعيد أن نتلقى معظم هذا التراث الحافل ، وأن نتلقى بالأخص أنفس ما فيه ، وقد شهد الضياء منه إلى يومنا الكثير . ولعل كتاب « الخطط » هو أعظم وأجل هذه الآثار جميعاً ، بل هو فى الواقع أنفس خلاصة لذلك المجهود التاريخى الشاق ، الذى اضطلع به المقريزى زهاء نصف قرن ، وهو فوق ما يطبعه من براعة وابتكار وبيان ممتع ، ينم عن ذلك الحب العميق الذى كان يملأ جوانح المؤرخ نحو وطنه ومسقط رأسه ، وعما كان يحدوه من شغف الوفاء بتخليد آثار هذا الوطن ، وتدوين محاسنه وسعاداته ، ورثاء مصائبه ومحنه . وهى عواطف يفصح المقريزى عنها فى قوله فى مقدمة «الخطط» : «وكانت مصر مسقط رأسى ، وملعب أترابى ، ومجمع ناسى ، ومغنى

---

(١) للمقريزى ثبت حافل آخر من الآثار فى التاريخ وغيره ، منها : الخبر عن البشر . الإلمام ، فى من تأخر بأرض الحبشة من ملوك الإسلام . الطرف الغريبة ، فى أخبار حضرموت العجيبة . الإخبار ، عن الأعذار . الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك . التخاصم ، بين بنى أمية وبنى هاشم . الدرر المضيئة . إمتاع الأسماع ، بما للنبى من الحفدة والأتباع . إغاثة الأمة بكشف الغمة . نحل عبر النحل . المقاصد السنية ، فى معرفة الأجسام المعدنية . تجريد التوحيد . مجمع الفرائد ، ومنبع الفوائد . الأوزان والأكيال الشرعية . تاريخ النقود العربية ، الخ . وقد ذكرها السخاوى جميعا . ووصل إلينا الكثير منها . ومنها عدة بدار الكتب المصرية مخطوطة أو مصورة . وبعضها لايزال مبعثراً فى المكاتب الأوربية ولاسيما فى استانبول وجوتا وباريس والإسكوريال . وقد نشر الكثير منها فى العهد الأخير .

عشيرتى وحامتى ، وموطن خاصتى وعامتى ، وجؤجؤى الذى ربى جناحى فى وكره ، وعش مأربى فلا تهوى الأنفس غير ذكره ؛ لا زلت مذ شدوت العلم ، وآتانى ربى الفطانة والفهم ، أرغب فى معرفة أخبارها ، وأحب الإشراف على الاغتراف من آبارها ، وأهوى مساءلة الركبان عن سكان ديارها ... » .

كانت « الخطط » إذاً ثمرة هذه العاطفة المضطرمة ، وما أوحت من مثابرة وعناية وجلد . والظاهر أن المقريزى قضى أعواماً طويلة فى البحث والدرس ، وجمع المذكرات والأخبار ، قبل أن تستقر فى ذهنه فكرة تدوين «الخطط» ؛ فهو يقول فى مقدمته : « فقيدت بخطى فى الأعوام الكثيرة ، وجمعت من ذلك فوائد قل ما يجمعها كتاب ، أويحويها لعزتها وغرابتها إهاب؛ إلا أنها ليست بمرتبة على مثال ، ولا مهذبة بطريقة ما نسج على منوال ؛ فأردت أن ألخص منها أنباء ما بديار مصر من الآثار الباقية ، عن الأمم والقرون الخالية ؛ وما بقى بفسطاط مصر من المعاهد ، غير ما كاد يفنيه البلى والقدم ، ولم يبق إلا أن يمحو رسمها الفناء والعدم ، وأذكر ما بمدينة القاهرة ، من آثار القصور الزاهرة ؛ وما اشتملت عليه من الخطط والأصقاع ، وحوته من المبانى البديعة والأوضاع ؛ مع التعريف بحال من أسس ذلك من أعيان الأماثل ، والتنويه بذكر الذى شادها من سراة الأعاظم والأفاضل » .
وهكذا استخرجت « الخطط » من مادة غزيرة متباينة ، جمعت شواردها خلال أعوام طويلة ، وصيغت محتوياتها على هذا النحو الذى يصفه المؤرخ . ومن الصعب أن نعين تاريخ كتابة «الخطط» بالضبط . ولكن هنالك ما يدل على أن البدء فى كتابتها وتنظيمها كان بين سنتى ٨٢٠ و ٨٢٥ هـ . ويشير المقريزى إلى ذلك عرضاً فى موضعين :

الأول — فى كلامه عن « موضع الفسطاط قبل الإسلام إلى أن اختطه المسلمون مدينة » حيث يقول :

« قال ابن المتوج : وعمود المقياس موجود فى زقاق مسجد ابن النعمان . قلت : وهو باق إلى يومنا هذا أعنى سنة عشرين وثمانمائة »[1] .

الثانى — فى كلامه عن « مدينة مدين » حيث يقول :

« ... وكان بأرض مدين عدة مدائن كثيرة قد باد أهلها وخربت وبقى منها

---

(١) الخطط — ج ٢ ص ٤٦٣ .

إلى يومنا هذا وهو سنة خمس وعشرين وثمانمائة نحو الأربعين مدينة قائمة ..»[١].

كذلك هنالك ما يدل على أن المقريزى لبث فى تدوين الخطط والزيادة فيها تباعاً إلى سنة ٨٤٣ ﻫ أعنى قبل وفاته بنحو عامين وإليك بعض الشواهد على ذلك:

(١) فى تاريخ «الجامع المؤيدى» حيث يسوق المؤلف أخباره حتى وفاة السلطان المؤيد سنة ٨٢٤ ﻫ[٢].

(٢) فى تاريخ «المارستان المؤيدى» حيث يسوق تاريخه إلى سنة ٨٢٥ﻫ[٣].

(٣) فيما كتبه عن سلاطين عصره حيث يسوق الكلام إلى ولاية السلطان الأشرف برسباى فى ربيع الآخر سنة ٨٢٥ ﻫ[٤].

(٤) فى تاريخ «الجامع الأشرفى» حيث يسوق تاريخه إلى سنة ٨٢٧ ﻫ[٥].

(٥) فى تاريخ بعض المساجد الصغيرة حيث يسوق تاريخها إلى سنة ٨٣٠ﻫ؛ وسنة ٨٣١ وسنة ٨٣٢[٦].

(٦) فى كلامه عن قبر الليث بن سعد حيث يسوق الكلام عنه إلى ذى القعدة سنة ٨٤٠ ﻫ[٧].

أما الدليل على أن المقريزى استمر فى كتابة الخطط حتى آخر سنة ٨٤٣ ﻫ، وليس إلى سنة ٨٤٠ فقط كما يقول المستشرق جست، فهو قول المقريزى فى أخبار بعض مساجد القاهرة التى أنشئت أو جددت فى عصره:

«وتجدد فى آخر سويقة أمير الجيوش بالقاهرة جامع أنشأه الفقير المعتقد محمد الغمرى وأقيمت به الجمعة فى يوم الجمعة رابع ذى الحجة سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة قبل أن يكمل»[٨].

كذلك هنالك ما يدل على أن أجزاء كثيرة من «الخطط» قد كتبت قبل سنة

---

(١) ج ١ ص ١٨٨ — وقد ذكر المستشرق جست فى مقال له فى مجلة الجمعية الأسيوية الملكية (J.R A S.) (سنة ١٩٠٢ ص ١٠٣) عن المصادر التى اعتمد عليها المقريزى فى وضع خططه، أن الخطط كتبت بين سنتى ٨٢٠ و ٨٤٠ ﻫ معتمداً فيما يتعلق بالبدء على الإشارة الأولى وفيما يتعلق بالانتهاء على أن المقريزى يسوق ما كتبه عن قبر الليث بن سعد، إلى ذى القعدة سنة ٨٤٠ ﻫ (ج ٢ ص ٤٦٣) ولكن سنرى أن المقريزى يسوق الكتابة إلى ما بعد ذلك التاريخ.

(٢) ج ٢ ص ٣٣٠.

(٣) ج ٢ ص ٤٠٨.

(٤) ج ٢ ص ٢٤٤.

(٥) ج ٢ ص ٣٣١.

(٦) ج ٢ ص ٣٣١.

(٧) ج ٢ ص ٤٦٣.

(٨) ج ٢ ص ٣٣١.

٨٢٠ ، بعد فترة المحن والغلاء التي وقعت سنة ٨٠٦ حسبما تشير إلى ذلك مقدمة «الخطط» وكثير من فقراتها(١). والظاهر أيضاً أن معظم المباحث التي تتعلق بتاريخ مصر القديمة ، والفتح الإسلامي ، وأخبار الفسطاط وملوكها ، وغير ذلك مما لا يرتبط بمجرى الحوادث في عصر المؤلف ، قد كتب في تاريخ سابق . أما ما تعلق بعصر المؤلف كما هو الشأن في القسم الذي يشتمل على أحوال القاهرة في عصره ، فلا ريب أن كتابته أو الزيادة فيه قد لبثت إلى ما قبيل وفاة المؤلف في سنة ٨٤٥ ، على نحو ما قدمنا . بل هنالك ما يدل على أن «الخطط» كما وصلتنا تنقص عما رسمه لها المؤلف في المبدأ ؛ وذلك أن المؤلف يقرر في مقدمته ، أنه رتب مؤلفه على سبعة أجزاء : « أولها يشتمل على جمل من أخبار مصر وأحوال نيلها وخراجها وجبالها . وثانيها يشتمل على كثير من مدنها وأجناس أهلها. وثالثها يشتمل على أخبار فسطاط مصر ومن ملكها . ورابعها يشتمل على أخبار القاهرة وخلائقها وما كان لهم من الآثار ؛ وخامسها يشتمل على ذكر ما أدركت عليه القاهرة وظواهرها من الأحوال . وسادسها يشتمل على ذكر قلعة الجبل وملوكها . وسابعها يشتمل على ذكر الأسباب التي نشأ عنها خراب إقليم مصر» . ولنلاحظ أولا أن الجزء السادس يتوسط الجزء الخامس في الكتابة ، وأن المؤلف يستطرد في تناول ما بمصر والقاهرة من المساجد والمنشآت بعد تناول الجزء السادس تكميلا للجزء الخامس ، ثم يختتم بفصول عن تاريخ اليهود والقبط والأديار والكنائس . أما الجزء السابع ، الذي يقول المقريزي : إنه يشتمل على ذكر الأسباب التي نشأ عنها خراب إقليم مصر ، فليس له وجود في نسخ الخطط التي وصلت إلينا ، مع أن المؤلف يشير إلى المحن التي نشأ عنها خراب مصر في مواطن كثيرة(٢) ؛ ويتناولها من آن لآخر في شذور موجزة . وقد يرجع ذلك إلى أن المقريزي قد عدل عن كتابة هذا القسم أو لعل الموت فاجأه قبل إنجازه(٣) .

---

(١) ج ١ ص ٥ .

(٢) راجع المقدمة ج ١ ص ٥ و ج ٢ ص ٩١ و ١٠٥ و ١٠٦ و ١١١ وغيرها حيث يشير المقريزي إلى خراب كثير من احياء مصر والقاهرة على أثر «الحوادث والمحن» التي وقعت في سنة ٨٠٦ هـ.

(٣) يفترض المستشرق جست في مقاله المشار إليه أن المقريزي عدل عن عزمه في معالجة هذا القسم بعد الإشارة إليه في المقدمة . بيد إننا نستطيع أن نفترض أن المقريزي استعاض عنه بكتابة رسالته المسماة : « إغاثة الأمة بكشف الغمة » ؛ فهو يتحدث فيها بإسهاب عن أسباب خراب مصر . وقد نشرت هذه الرسالة بعناية الدكتورين مصطفى زيادة والمرحوم جمال الدين الشيال سنة ١٩٤٠ .

على أن محتويات « خطط » المقريزى ، أعظم وأغزر بكثير مما يدلى به هذا التقسيم . فهذا الأثر فوق كونه عرضاً مستفيضاً لجغرافية مصر والقاهرة والنيل القديمة ، وسيرها منذ الفتح الإسلامى ، هو مجمع فريد من صور مصر العمرانية والاجتماعية والفنية فى العصور الوسطى ، ومعرض بديع لتاريخ مصر الاجتماعى ، وأحوال المجتمع المصرى ، وظواهره النفسية والأخلاقية ، وحياته العامة ؛ وهو بذلك أثر وافر الابتكار والطرافة بما يفيض فيه من نواح فى التاريخ المصرى لم تلق حقها من الإفاضة . وإذا لم يكن المقريزى أول مبتدع لتاريخ الخطط ، فهو بلا ريب أعظم مؤرخيها جميعاً ، وأغزرهم مادة ، وأقواهم عرضاً ، وأوفرهم جلداً ومثابرة فى الاستقصاء . فهذه المدينة الإسلامية العظيمة « مصر القاهرة » ، وخططها القديمة ، وتطوراتها الجغرافية والعمرانية ، وأحياؤها وآثارها ، ومساجدها ومدارسها ، وقصورها ورياضها ، وكل ما احتوت من بذخ وبهاء وفن ، تشغل فراغاً عظيماً فى « الخطط » ؛ وما حى فيها وما شارع أو سوق ، وما صرح أثرى أو معهد أو قصر ، إلا وفاه المقريزى حقه من الوصف والتاريخ . وهذا التراث العمرانى والفنى الخالد ، تراث المدنية الإسلامية فى مصر ، يعرضه لنا المقريزى فى صور قوية باهرة ممتعة . وهو يتتبع فيما يكتب شجون الحديث ؛ فإذا ملك أو أمير أو كبير يقترن اسمه بذكر هذه الصروح والآثار الخالدة ، وإذا حادث أو واقعة أو نادرة ترتبط بسيرتها ، فإنه يستقصى كل ما تعلق به أو بها من الأخبار ، فينتقل بقارئه من المسجد والقصر ، إلى الأمير ، ومن الأمير إلى الحرب ، ومن الحرب إلى المآدب والرياض . وهو خلال ذلك كله يعنى بعرض صور هامة من تاريخ مصر السياسى والاجتماعى والاقتصادى والفكرى ؛ ويقدم إلينا المجتمع القاهرى فى أثوابه المختلفة ، زاهية وقاتمة ؛ ويعنى بشرح النظم السياسية والإدارية والاقتصادية التى توالت على مصر ، ورسوم البلاط القاهرى فى عصوره المختلفة ، وأحوال الخلفاء والسلاطين فى الحياة العامة والخاصة ، ومواكبهم ومآدبهم وأخلاقهم وأطوارهم ، وأحوال المنشآت العامة كالثكنات والسجون والمعاهد والمدارس والمساجد والزوايا والتكايا وغيرها ، وحياة الشعب الخاصة ، وعادات الأفراد وتقاليدهم وأحوالهم ، فى المعاملات والملبس والمأكل والأفراح والأتراح والجد والهزل ؛ كل ذلك فى بيان قوى واضح ، وأسلوب شائق ممتع يخلب الألباب .

هذا وصف موجز لما تعرضه «خطط» المقريزى. وقد لبث هذا الأثر الخالد على كر العصور موضع التقدير والإعجاب من كل مؤرخ ومفكر، وما يزال، إلى يومنا من أنفس المصادر فى تاريخ مصر الإسلامية. ولكن مجهود المقريزى عُرِّض للانتقاص من أحد أعلام عصره، بل أنكر عليه فضل وضعه وابتكاره، ونسب إلى النقل والتزييف. والقائل بهذه التهمة الغريبة هو شمس الدين السخاوى[1]؛ نسبها إلى المقريزى فى مؤلفاته أكثر من مرة، وحمل عليه بشدة، ورماه بالادعاء والضعف والسقط. والسخاوى من أقطاب التفكير والنقد فى القرن التاسع. ولكن سنرى أن هذه الحملة القاسية التى وجهها إلى المقريزى، أبعد ما تكون عن النزاهة والحق، وأنها بالعكس يطبعها التحامل والتناقض، ويدحضها المنطق والحقائق المادية.

قال السخاوى فى ترجمته للمقريزى[2] ما يأتى:

« واشتغل كثيراً، وطاف على الشيوخ، ولقى الكبار، وجالس الأئمة فأخذ عنهم ...، ونظر فى عدة فنون، وشارك فى الفضائل، وخط بخطه الكثير، وانتهى، وانتقى، وقال الشعر والنثر وأفاد ».

وقال بعد أن عدد مؤلفاته: « بلغت مجلداته نحو المائة، وقد قرأت بخطه، أن تصانيفه زادت على مائتى مجلد كبار، وأن شيوخه بلغت ستمائة نفس. وكان حسن المذاكرة بالتاريخ، لكنه قليل المعرفة بالمتقدمين، ولذلك كثر فيهم وقوع التحريف والسقط ... وكانت له معرفة قليلة بالفقه والحديث والنحو، واطلاع على أقوال السلف، وإلمام بمذاهب أهل الكتاب، حتى كان يتردد إليه أفاضلهم للاستفادة منه، مع حسن الخلق، وكرم العهد، وكثرة التواضع، وعلو الهمة لمن يقصد ... كل ذلك مع تبجيل الأكابر له، إما مداراة له خوفاً من قلمه، أو لحسن مذاكرته.

« وكان كثير الاستحضار للوقائع القديمة فى الجاهلية وغيرها. وأما الوقائع الإسلامية، ومعرفة الرجال وأسمائهم، والجرح والتعديل، والمراتب والسير، وغير ذلك من أسرار التاريخ ومحاسنه، فغير ماهر فيه ... »[3].

---

(١) ولد السخاوى سنة ٨٣١ هـ. وتوفى سنة ٩٠٢ هـ. (١٤٢٧ - ١٤٩٧ م).

(٢) أورد السخاوى هذه الترجمة فى كتابيه: «الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع» (نسخة دار الكتب الفتوغرافية، المجلد الأول - القسم الثالث ص ٥٣٣) و « التبر المسبوك فى ذيل السلوك » (طبع بولاق ص ٢١).

(٣) وردت هذه الفقرة الأخيرة فى « الضوء اللامع » فقط ولم ترد فى « التبر المسبوك ».

هكذا يتردد السخاوى فى ترجمته للمقريزى بين المديح والذم ، وبين التقدير والانتقاص ؛ على أنه لا يقف عند هذا التعميم بل يذهب إلى صوغ التهم المعينة فيقول فى سياق حديثه :

« وأقام ببلده (أى المقريزى) عاكفاً على الاشتغال بالتاريخ ، حتى اشتهر ذكره ، وبعد فيه صيته ، وصارت له فيه جملة تصانيف كالخطط للقاهرة ، وهو مفيد لكونه ظفر بمسوّدة الأوحدى ، فأخذها وزادها زوائد غير طائلة » .

ثم يكرر السخاوى هذه التهمة فى كتاب وضعه فى أواخر حياته سنة ٨٩٧هـ . بمكة هو : « الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ أهل التواريخ » فيقول : « وكذا جمع خططها (أى مصر القاهرة) المقريزى ، وهو مفيد . قال لنا شيخنا : إنه ظفر به مسودة لجاره الشهاب أحمد بن عبد الله بن الحسن الأوحدى ؛ بل كان بيض بعضه فأخذها وزاد عليه زيادات ونسبها لنفسه »(١) .

فمن هو الأوحدى هذا الذى نُسب المقريزى إلى اختلاس أثره ؟

لقد ذكرنا أنه من كتاب القرن الثامن (٧٦١ – ٨١١ هـ) ، وأنه ألف كتاباً فى «الخطط» لا نعرف عنه سوى الاسم . ونزيد هنا ما ذكره السخاوى فى ترجمته حيث يقول : «وبرع (أى الأوحدى) فى القرآن والأدب ، وجمع مجاميع ، واعتنى بالتاريخ وكان لهجاً به ؛ وكتب مسودة كبيرة لخطط مصر والقاهرة ، تعب فيها وأجاد ، وبيض بعضها ؛ فبيضها التقى المقريزى ونسبها لنفسه مع زيادات ... ... وفى ترجمته فى عقود المقريزى(٢) فوائد ، واعترف بانتفاعه بمسوداته فى الخطط ، وأنه ناوله ديوان شعره »(٣) .

وذكره السيوطى ضمن مؤرخى مصر ، وقال : إنه « كان لهجاً بالتاريخ ، ألف كتاباً كبيراً فى خطط مصر والقاهرة ، وكان مقرئاً أديباً ، ومات فى جمادى الأولى سنة ٨١١ »(٤) .

وهكذا ينسب السخاوى تهمة الاختلاس إلى المقريزى أينما سنحت له فرصة الكتابة ، وأينما جاء ذكر الخطط .

---

(١) الإعلان بالتوبيخ – نسخة دار الكتب المخطوطة ص ١٥٧ . والمطبوع ص ١٣١ .

(٢) أى كتاب المقريزى المسمى « درر العقود المفيدة » الذى سبقت الإشارة إليه .

(٣) الضوء اللامع – القسم الثانى ص ٤٦٨ و ٤٦٩ .

(٤) حسن المحاضرة – ج ٢ ص ٢٦٦ ؛ وظاهر أن السيوطى يلخص من أقوال السخاوى .

ويجب أولا لتمحيص هذه التهمة ، أن نستعرض المصادر التى اعتمد عليها المقريزى فى كتابة « خططه » ، لأنه لم ينس أن يشير إلى هذه المصادر فى مقدمته حيث يقول : « وأما أى أنحاء التعاليم التى قصدت فى هذا الكتاب ، فإنى سلكت فيه ثلاثة أنحاء : وهى النقل من الكتب المصنفة فى العلوم . والرواية عمن أدركت من شيخة العلم وجلة الناس . والمشاهدة لما عاينته ورأيته . فأما النقل من دواوين العلماء التى صنفوها فى أنواع العلوم ، فإنى أعزو كل نقل إلى الكتاب الذى نقلته منه ، لأخلص من عهدته ، وأبرأ من جريرته ؛ فكثيرا ممن ضمنى وإياه العصر ، واشتمل علينا المصر ، صار لقلة إشرافه على العلوم ، وقصور باعه فى معرفة علوم التاريخ وجهل مقالات الناس ، يهجم بالإنكار على ما لايعرفه ، ولو أنصف لعلم أن العجز من قبله ،وليس ماتضمنه هذا الكتاب من العلم الذى يقطع عليه ، ولا يحتاج فى الشريعة إليه ؛ وحسب العالم أن يعلم ما قيل فى ذلك ويقف عليه . وأما الرواية عمن أدركت من الجلة والمشايخ ، فإنى فى الغالب والأكثر أصرح باسم من حدثنى ، إلا أن لا يحتاج إلى تعيينه ، أو أكون قد نسيته ، وقل ما يتفق مثل ذلك . وأما ما شاهدته فانى أرجو أن أكون ، ولله الحمد ، غير متهم ولا ظنين »(١) .

ثم يتبع المقريزى ذلك بكلمة عن كتاب «الخطط»،يشير فيها إلى جهود الكندى والقضاعى وابن بركات النحوى والجوانى وابن عبد الظاهر وابن المتوج ، ويذكر أن ابن المتوج كان آخر من كتب قبله عن الخطط ، وأنه يصل فى كتابه إلى ذكر أحوال مصر وخططها ، إلى أعوام بضع وعشرين وسبعمائة . على أن المقريزى لا يقف عند هذا التعميم فى ذكر مصادره ، بل يعود فى سياق كتابه ، فيذكرها بأدق تخصيص وأوضحه ، فلا يكاد ينقل رواية أو واقعة أو وصفاً ، إلا أسنده إلى مصدره ومؤلفه . فأما أخبار فتوح مصر وتاريخها قبل الإسلام فيرجع فى معظمها إلى ابن عبد الحكم ، وابن يونس ، والمسعودى ، وابن وصيف شاه . ويرجع فى أخبار الفسطاط الأولى ، إلى الكندى ، وابن زولاق . وفى وصف النيل وغيره من الموضوعات الجغرافية إلى المسعودى . وفى عصر الدولة الفاطمية ، وهو من أبدع أقسام الخطط ، يرجع المقريزى بالأخص إلى ابن زولاق والمسبحى وابن المأمون

(١) ج ١ ص ٦ .

والجوّانى ؛ وقد عاشوا جميعاً فى عصر الفاطميين ، وكتبوا عن مشاهدة ومعرفة وثيقة . وفيما يلى ذلك من أخبار مصر والقاهرة ، يرجع المقريزى إلى القاضى الفاضل ، وابن عبد الظاهر ثم ابن المتوّج . وهكذا يستقى المقريزى مادته تباعاً من سلسلة متصلة من المصادر ، تبدأ بابن عبد الحكم المتوفى فى سنة ٢٥٧ هـ ، وتنتهى بابن المتوج المتوفى فى سنة ٧٣٠ هـ ؛ مسنداً كل اقتباس إلى مؤلفه بمنتهى الصراحة والدقة(١) .

على أنه إذا كان من الصعب أن نجد فى هذه الأقسام المسندة إلى مصادرها الوثيقة أثراً أو لمحة مما يؤيد اتهام السخاوى لمؤلف الخطط ، فإنه يصعب أيضاً أن نجد ما يؤيد هذا الاتهام فى بقية الخطط ، أعنى ما تعلق بأخبار مصر القاهرة خلال القرن الثامن وأوائل القرن التاسع ، أو بعبارة أخرى ، فى العصر الذى أدرك المقريزى شيوخه ، ثم عاش فيه . والمقريزى صريح فى أنه اعتمد على من أدرك « من شيخة العلم وجلة الناس » . وأما العصر الذى عاش فيه المقريزى فهو يمتد من أواخر القرن الثامن إلى أواسط القرن التاسع ، ويشغل فى الخطط حيزاً كبيراً . وقد عاصر المقريزى من ملوك مصر عشرة متعاقبين ، وأدرك مرحلتين كبيرتين فى تطوّر مصر القاهرة والمجتمع المصرى : الأول : فى أواخر القرن الثامن حيث كانت مصر القاهرة بعد ما أصابها من وباء وعفاء ، ترتدى ثوباً جديداً من الحياة ؛ والثانية : بعد المحن التى توالت عليها بين سنتى ٨٠٦ و ٨١٢ هـ . من وباء وغلاء وشرّق ، حيث عادت ثانية تسترد عمرانها وبهاءها . وقد أفاض المقريزى فى أخبار هذين العصرين وأحوالها وآثارهما . وكان المقريزى بحكم الوظائف التى تولاها ، وحظوته لدى بعض الملوك الذين عاصرهم ، متمكناً من سبل البحث والتحرى والاستطلاع والمعاينة . ونفس الوقائع المادية هنا تهدم تهمة السخاوى من أساسها . ذلك أن الأوحدى الذى نسب المقريزى إلى اختلاس أثره ، قد توفى كما رأينا فى أوائل سنة ٨١١ ، وقد بدأ المقريزى كما رأينا بكتابة « خططه » بين سنتى ٨٢٠ و ٨٢٥ واستمر فى كتابتها حتى سنة ٨٤٣ هـ ، أعنى قبل وفاته بنحو عامين ، فليس من الممكن عقلا أن يكون المقريزى قد نقل عن الأوحدى شيئاً يتعلق بأحوال هذه المرحلة ، والأوحدى قد توفى قبلها ولم يدرك شيئاً منها .

---

(١) راجع مقال المستشرق جست المشار إليه فهو يستعرض مراجع المقريزى ومصادره بإسهاب ويقرنها بتعليقات مفيدة (J.R.A.S.) سنة ١٩٠٢ — ص ١٠٣ .

وما كتبه المقريزى عن خطط مصر والقاهرة منذ أوائل القرن الثامن إلى قبيل وفاته يشغل من مؤلفه أكثر من النصف ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن المقريزى يقتبس من أسلافه كتّاب الخطط وغيرهم ، بطريق الإسناد ، شذوراً تعد بالمئات ، كان ما تبقى مما يمكن أن يكون موضع الاتهام جزءاً يسيراً جداً ، يصعب علينا أن نعتقد أن المقريزى ، وهو إمام عصره فى التاريخ والرواية ، كان بحاجة إلى اختلاسه ، خصوصاً وقد استعرض تاريخ مصر من قبل فى عدة مؤلفات جليلة تشهد بفائق مقدرته وبراعته .

وقد رأينا أن السخاوى يرجع الرواية فى اتهام المقريزى إلى شيخه فى كتاب « الإعلان بالتوبيخ » ، وإن كان يوردها من عنده فى « الضوء اللامع » ، فيقول فى إسناد التهمة : « قال لنا شيخنا إنه (أى المقريزى) ظفربه (أى الخطط) مسودة لجاره الشهاب أحمد بن عبد الله بن الحسن الأوحدى ، بل كان بيض بعضه فأخذها وزاد عليه زيادات ونسبها لنفسه » . وشيخ السخاوى المراد هنا هو القاضى ابن حَجَر العسقلانى المحدث والمؤرخ الكبير[١]، معاصر المقريزى وصديقه[٢]؛ وإذاً فصدر الاتهام الحقيقى طبقاً لهذا القول هو ابن حجر شيخ السخاوى ، وعنه ينقل السخاوى التهمة ، ويرددها فى مختلف المواطن . ولكن إليك ما يقوله ابن حجر عن المقريزى ومجهوده التاريخى ، وهو مما أورده السخاوى فى ترجمته أيضاً :

وقد ذكره شيخنا فى القسم الأخير من معجمه الذى وقف صاحب الترجمة عليه بقوله : وله (أى المقريزى) النظم الفائق ، والنثر العابق ، والتصانيف الباهرة ، خصوصاً فى تاريخ القاهرة فإنه أحيا معالمها ، وأوضح مجاهلها ، وجدد مآثرها ، وترجم أعيانها » .

ويذكر ابن حجر أيضاً فى ديباجة كتابه « رفع الإصر عن قضاة مصر » المقريزى ضمن مصادره ، ويصفه بقوله : « رفيقى الإمام الأوحد المطلع تقى الدين المقريزى ... »[٣] .

والواقع أن مهاجمة السخاوى لأكابر عصره ، وانتقاصه لأقدارهم ، ونقده

---

(١) راجع مقدمة السخاوى فى «الضوء اللامع» حيث يوضح أن المراد بشيخه دائماً هو القاضى ابن حجر
(٢) ولد ابن حجر سنة ٧٧٣ وتوفى سنة ٨٥٢ هـ .
(٣) راجع ديباجة رفع الإصر المنشور بعناية وزارة التربية ١٩٥٧ ص ١ .

لجهودهم ، لم تقف عند المقريزى ولم تقتصر عليه ؛ فنراه فى « الضوء اللامع » يهاجم طائفة كبيرة من أعلام هذا العصر ومؤرخيه ، بل لم ينج ابن خلدون نفسه من لومه وتعريضه(١). وقد أثار السخاوى بحملاته هذه دوائر التفكير فى عصره ، ونشبت بينه وبين غير واحد من أعلام العصر ، معارك قلمية ملتهبة ، ولا سيما جلال الدين السيوطى ؛ فقد اضطرم الجدل بينهما حيناً ، وتبادلا مر الحملات والتهم ، ونسب كل منهما الآخر إلى الاختلاس والنقل ؛ ووصف السيوطى معجم السخاوى فى مقامة شديدة كتبها للرد عليه فى قوله : « ما ترون فى رجل ألّف تاريخاً جمع فيه أكابر وأعياناً ، ونصّب لأكل لحومهم خِواناً ، ملأه بذكر المساوى وثلب الأعراض ، وفوّق فيه سهاماً على قدر أغراضه ، والأعْرَاض هى الأغراض »(٢) .

وهكذا يبدو اتهام السخاوى للمقريزى وانتقاصه لجهوده التاريخى باطلا ، يطبعه التحامل والتناقض ، وتدحضه الحقائق والوقائع المادية ؛ بل يبدو السخاوى أشد تحاملا وتناقضاً إذا علمنا أنه ، وهو ينتقص جهود المقريزى ويزيفه ، لا يرى بأساً من الاعتماد عليه والتنويه به فى مقدمة « الضوء اللامع » .

ولم يلق هذا الاتهام كبير اهتمام فى دوائر البحث الحديث ، غير أن الأستاذ بروكلمان Brockelmann قد أشار إليه فى ترجمته للمقريزى فى دائرة المعارف الإسلامية(٣) ، حيث وصف «الخطط» بأنها أهم آثار المقريزى ، ثم قال : « ولكن الظاهر أنه نقل معظم ما لم ينسب النقل فيه ، عن كتاب للأوحدى ، ظفر به على قول السخاوى ، وهو قول حسن التأييد » . ويعتقد المستشرق جست من جهة أخرى ، أن المقريزى قد نقل فى خططه شذوراً من الأوحدى دون الإسناد إليه(٤).

---

(١) تراجع فى الضوء اللامع تراجم ابن خلدون ، وأبى المحاسن بن تغرى بردى ، والبقاعى ، ففيها أمثلة واضحة من تحامل السخاوى .

(٢) أسمى السيوطى هذه المقامة : « الكاوى على تاريخ السخاوى » وهى مخطوط بدار الكتب (رقم ١٥١٠ أدب) . وسوف نتناول هذه المعارك القيمة فى فصل خاص .

(٣) Ency. de L'Islam - Art. Makrizi .

(٤) المستشرق جست فى مقدمته لكتاب تسمية الولاة والقضاة للكندى (ص ٤٨) ، بيد أنه فى مقاله المشار إليه فيما تقدم (J.R.A.S.) سنة ١٩٠٢ ص ١٠٣ وما بعدها ، يبحث مصادر المقريزى فى الخطط ويحللها تحليلا وافياً ، ويشيد بجهوده ، وينوه بأهميته ونفاسته .

على أن الأستاذ بروكلمان لم يقدم دليلا لتأييد هذا الرأى ، وقلما يشاركه فيه أحد ممن كتبوا عن المقريزى ومجهوده . وبالعكس فإن البحث الحديث يكبر مجهود المقريزى ويحله المقام الأول فى تراث التاريخ الإسلامى .

بقى فرض واحد يمكن الأخذ به ، وهوأن المقريزى ربما انتفع ضمن مصادره بمجهود الأوحدى ؛ وهو ما يشير إليه السخاوى فى ترجمة الأوحدى حيث يقول: «وفى ترجمته فى عقود المقريزى فوائد . واعترف (أى المقريزى) بانتفاعه بمسوّداته فى الخطط» . هذا إذا سلمنا بصحة نسبة هذا الاعتراف للمقريزى لأنه لم يصل إلينا من عقود المقريزى – أو درر العقود المفيدة – سوى قطعة ضئيلة . وقد نميل إلى التسليم بهذا الفرض ، بل هو فى رأينا يقوى الريبة فى اتهام السخاوى لأن هذا الاعتراف ، إن صح ، فإنما يشهد لصاحبه بالأمانة والصراحة . وشتان ما بين الاختلاس والانتفاع .

ومن جهة أخرى فإن ما لعل المقريزى قد انتفع به من «مسودات» الأوحدى لا يعدو اليسير التافه بالنسبة لمجموع الخطط . فقد رأينا فى استعراض مصادر المقريزى أن ما كتبه عن خطط عصره ، وما اقتبسه بطريق الإسناد ، يستغرق معظم مجهوده فى الخطط ، وأن الباقى المرسل مما لا نسبة فيه يشغل فيها قسما صغيراً جداً ؛ ومع ذلك ففى وسعنا أن نتعرف فى هذا القسم أيضاً على كثير من المصادر التى نقل عنها المقريزى بطريق التلخيص والاقتباس ، ومعظمها يرجع إلى مجهود ابن عبد الحكم والكندى وابن زولاق .

والخلاصة أن هذا الاتهام الذى يلح السخاوى فى نسبته لمؤرخ الخطط ، لا يثير فى نظرنا ذرة من الريب ، فى عظمة المجهود التاريخى الذى تقدمه إلينا « الخطط » ، وفى روعته وطرافته .

إن السخاوى كاتب ومحدث ومؤرخ بارع ، ونقادة لاذع ، قوى البيان والحجة . ولكن التحامل ، وربما الافتراء ، يشوب هنا نقده ، والظواهر والأدلة تنهض كلها لتهدم زعمه .

يقول العلامة المستشرق الروسى إجناتيوس كراتشكوفسكى ، معلقاً على هذه المسألة الشائكة : « هذا وقد وجد رأى السخاوى عن المقريزى بعض

التعضيد لدى جولدسيهر ، وبروكلمان ، بيد أن هذا لا يعنى بأى حال اعتبار كتاب « الخطط » اختلاساً لكتاب الأوحدى ، وقد أخضع تلك المسألة كلها لتحليل دقيق وفريد ، العلامة المصرى المعاصر محمد عبد الله عنان ، وخرج من ذلك بنتائج حازت القبول لدى الجميع »(١)

٣

الخطط بعد المقريزى

كانت خطط المقريزى أبدع عنوان لهذا السحر الذى نفثته مصر إلى بنيها ، وذروة هذه الجهود التى بذلت منذ ابن عبد الحكم للإحاطة بخططها وربوعها وآثارها . وكانت عظمة المدن والآثار ، فى عصور المجد والاستقلال ، توحى بتدوين أخبارها والإشادة بعظمتها ومحاسنها ؛ فلما اضمحلت دولة السلاطين الباذخة وضعفت مواردها ، تضاءلت تلك الهمم التى كانت تقيم روائع المنشآت والمعاهد ، ولا تفتر عن تجميل العاصمة الإسلامية الكبرى . ولم يلق تاريخ الخطط بعد المقريزى حتى العصر الحديث ، شيئاً من ذلك التخصص والاستيعاب اللذين امتاز بهما قبل عصر المقريزى ، بل اقتصر على نواح معينة من الخطط ، أو على نبذ ومختصرات اشتقت من المتقدمين .

وقد انتهى إلينا عدة من هذه الآثار التى عرضت إلى نواح من الخطط ؛ منها كتاب فى التعريف عن المشاهد والمزارات اسمه : « تحفة الأحباب ، وبغية الطلاب ، فى الخطط والمزارات ، والبقاع المباركات » . وهذا الكتاب ينسب تأليفه إلى محمد بن أحمد الحنفى السخاوى من علماء أواسط القرن العاشر الهجرى . وهو غير الحافظ الكبير شمس الدين السخاوى المتوفى سنة ٩٠٢هـ (١٤٩٧ م) . وعلى أى حال فإن كتاب « تحفة الأحباب » ، وهو المقصود بهذا البحث ، هو كما يدل اسمه ، دليل لخطط المشاهد والمزارات والبقاع المقدسة ، وبالأخص فى فى مصر القاهرة ؛ وفيه وصف لأحياء مصر القاهرة التى تقع فيها هذه المشاهد ،

(١) « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » المترجم إلى العربية بقلم الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم - القسم الثانى — ص ٤٨٥ .

كمشهد الحسين ، ومشهد الإمام الشافعى ، والمشهد النفيسى ، وغيرها من المشاهد والمزارات التى وُسمت بميسم التقديس والبركة ؛ ووصف لكثير من شوارع القاهرة وآثارها من جوامع ومساجد ومدافن وزوايا وروابط وأسبلة ، فى عصر المؤلف ، أعنى فى أوائل القرن العاشر. ولهذا المؤلف عن المشاهد والمزارات أهمية خاصة ، لأنه تناول طائفة كبيرة من المشاهد والمدافن والزوايا الصغيرة والخاصة ، التى لم يعن بها المقريزى فى خططه ، ولا يزال الكثير منها باقياً إلى اليوم بحيث نستطيع بالرجوع إلى معالمه ،أن نحدد كثيراً من مواقع القاهرة القديمة وأحيائها وشوارعها . وقد استعان على باشا مبارك فى «خططه» بهذا الأثر ، على ضبط كثير من معالم الخطط والأحياء القديمة . فهو فى الواقع حلقة اتصال هامة بين خطط القاهرة القديمة ، وخططها الحديثة[1].

ومن هذه الآثار التى تعرض لنواح من الخطط دون التخصص والاستيعاب ، كتاب : «حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » لجلال الدين السيوطى . وهو عبد الرحمن بن الكمال أبى بكر بن محمد ؛ ولد بالقاهرة ، حسبما روى فى ترجمته سنة ٨٤٩ ، وتوفى سنة ٩١١ هـ (١٤٤٥ — ١٥٠٥ م) . وكان آية عصره فى الدرس والحفظ ؛ برع فى علوم الدين براعة فائقة ، كما برع فى الأدب والتاريخ . وألف فيها جميعاً عشرات الكتب والرسائل ، وذكرها جميعاً فى ترجمته[2]. وأشهر مؤلفاته التاريخية كتاب «حسن المحاضرة» ، وهو مجموعة لنواح عدة من تاريخ مصر السياسى والاجتماعى والأدبى ، وبعض خواصها وعجائبها وآثارها ، ملخصة عن آثار المتقدمين ،ولاسيما ابن عبد الحكم والكندى وابن زولاق والقضاعى ؛ وذكر من دخلها من الصحابة والتابعين ؛ وذكر أمرائها وحفاظها وفقهائها وعلمائها وأدبائها ؛ ثم ذكر نيلها وبعض مدنها ونواح من خطط مصر القاهرة وآثارها ، ولا سيما الجوامع وأمهات المدارس والخوانق . كل ذلك بطريق التلخيص والإيجاز . على أن السيوطى لم يأت بجديد فيما ذكره من أخبار الخطط والآثار ، ولم يزد عن تلخيص ما أورده بشأنها سلفه المقريزى .

(١) يوجد من كتاب « تحفة الأحباب » بدار الكتب نسختان خطيتان . وقد طبع أيضاً على هامش الجزء الرابع من كتاب « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » للمقرى .

(٢) تراجع ترجمة السيوطى لنفسه فى كتاب حسن المحاضرة — ج ١ ص ١٥٥ وما بعدها .

ونستطيع أن نعدد من هذه الآثار أيضاً ، كتاب : «نشق الأزهار فى عجائب الأقطار» لابن إياس مؤرخ الفتح العثمانى (٨٥٢–٩٣٠هـ) (١٤٤٨–١٥٢٣م) وهو مزيج من التاريخ والجغرافيا ، يتحدث فيه كما يقول فى مقدمته عن «عجائب مصر وأعمالها وما صنعت الحكماء فيها من الطلسمات المحكمة ، وطرف يسير من سير ملوكها القدماء ، وما صنعوا من الأبنية المحكمة فى مصر وغيرها من البلاد ... ... وأخبار النيل والأهرام ، وعجائب البلاد التى من أعمال مصر وخططها وأقطارها » . ويسمى الكتاب فى نسخة دار الكتب الخطية « خريدة العجائب ، وبغية الطالب » ، وذكرت محتوياته على صفحة العنوان بما يلى : « فيه ذكر عجائب مصر وأعمالها ، وما صنعت الحكماء فيها من الطلسمات المحكمة ، وأخبار الملوك السابقة ، وأخبار النيل وعجائبه ، وأخبار البلدان ، والبحار ، والأشجار ، والجزائر ، والجبال ، والعيون ، والأبيار ، والدور والكنائس والقصور » . ويتناول ابن إياس فيه طرفاً من أخبار اليمن والحجاز والهند والأندلس ورومة وأخبار بعض آثارها وصروحها . والكتاب فياض بالأساطير والخرافات القديمة التى رددها المتقدمون ، ولا يدخل من ذلك فى باب الخطط سوى ما كتبه ابن إياس عن بعض الواحات والآثار المصرية ؛ بيد أنه فى ذلك ناقل فقط لا يأتى بجديد ، ولا يعنى بتحقيق أو تمحيص ، وليس لأثره أية أهمية فى تاريخ الخطط[1].

وفى أواسط القرن الحادى عشر ، وضع شمس الدين محمد بن أبى السرور البكرى الصِّديقى (١٠٠٥ – ١٠٦٠ هـ) (١٥٩٦ – ١٦٥٠ م) ، مختصراً لخطط المقريزى ، أسماه « قطف الأزهار ، من الخطط والآثار»[2] . وقال فى مقدمته : إنه رأى تسهيلا للبحث عما أورده المقريزى من سير الخطط والآثار فى إسهاب وإطناب « أن يقتطف أحاسنه مع بعض زيارات زادها ليحسن سبك معانيه » ؛ ورتبه على نحو خطط المقريزى تقريباً ؛ فتكلم عن أصل تسمية مصر ، وعن نيلها

---

(١) راجع نسخة دار الكتب الخطية (رقم ٤٣٩ جغرافية) . وقد نشرت من الكتاب قطعة معظمها عن النيل والمقياس ، وأرفقت بترجمة فرنسية للمسيو لانجليس أمين قسم المخطوطات الشرقية لمكتبة باريس (باريس سنة ١٨٥٧) .

(٢) ومنه نسخة خطية فى دار الكتب (رقم ٤٥٧ جغرافية) ، كتبت فى ربيع الآخر سنة ١١٣٤هـ ، وهى مجلد متوسط يقع فى نحو ثلاثمائة صفحة . ومنه نسخ خطية أخرى فى باريس ولننجراد (دائرة المعارف الإسلامية **Ency. de L'Islam** فى مقال ابن أبى السرور البكرى) .

وجبالها وأهراماتها وملوكها قبل الإسلام ؛ وعن الفتح الإسلامى ؛ ثم أخبار الفسطاط والخلفاء والسلاطين ؛ كل ذلك بمنتهى الإيجاز ؛ ثم تكلم عن الفتح العثمانى ونواب الدولة العثمانية إلى زمن الوزير أيوب باشا (١٠٥٤هـ-١٦٤٤م) ؛ وعن قضاة مصر منذ الفتح الإسلامى إلى سنة ١٠٥٦ هـ . وهذه بالطبع زيادات لم يدركها المقريزى . وأما عن الخطط فقد اقتبس المؤلف أبواب المقريزى ، عن القاهرة وقصور الخلفاء ، وعن الحارات والدروب والأزقة ، والخوخ والحمامات والقياسر والأسواق والأحكار ، والخلجان والقناطر ، والجوامع والمساجد والمدارس والخوانق ، والزوايا والكنائس والديارات . وهو يكتفى على العموم فى ذلك بما أورده المقريزى . غير أنه من آن لآخر يقرنه بزيادات وملاحظات موجزة ، فيذكر مثلا عن حى أو شارع أو سوق أو بناء معين ، أنه تحوّل فى عصره إلى كذا ، أو أنه زيدت فيه زيادة ، أو محيت منه مواضع ، أو أنه زال تماماً [١]، ولهذه الملاحظات قيمتها لأنها تحدد أحياء ومعالم من القاهرة فى عصره ، أعنى فى القرن الحادى عشر ، بأسمائها وأوضاعها فى هذا العصر ، بحيث يمكن أن يسترشد بها فى تحديد هذه المواقع والمعالم فى العصور اللاحقة . وبذا تغدو مثل مؤلف السخاوى عن المزارات ، حلقة اتصال بين مواقع القاهرة القديمة وبعض مواقعها الحديثة .

وهنالك مختصر آخر لخطط المقريزى ، لأحمد الحنفى ؛ اسمه « الروضة البهية [فى] تلخيص كتاب المواعظ والاعتبار المقريزية »[٢] . ولم تتح لنا فرصة الاطلاع عليه ، لأنه ليس بين مجموعة دار الكتب المصرية . ولكن توجد منه نسخة خطية فى « جوتا » ، وصفت فى فهرس المخطوطات الشرقية لمكتبتها بما يأتى : « الروضة البهية [فى] تلخيص كتاب المواعظ والاعتبار المقريزية » ، وهو ملخص لكتاب المقريزى المشار إليه ؛ يبدأ مثل بدئه ، وينتهى بالكلام على مدينة

(١) راجع أمثلة من هذه الزيادات والملاحظات فى ص ١٢٥ (مخطوط دار الكتب) حيث يتكلم عن حى كوم الريش ، و ص ١٢٩ حيث يذكر قيسارية الجامع الطواولى ، و ص ١٣٠ حيث يذكر خان الخليلى ؛ وراجع أيضاً ص ١٣٨ و ص ١٤٠ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية (فى مقال المقريزى) . وذكر فى فهرس المخطوطات الشرقية لمكتبة « جوتا » ، أنه توجد نسخة أخرى من « الروضة البهية » فى ليدن (رقم ٤٨٦) ، وثالثة فى باريس (رقم ٨٠٢) .

رعمساس وهى عين الشمس ؛ فهو تلخيص لربع الخطط تقريباً . وقد كتب المخطوط بخط المختصر نفسه ، وذكر اسمه على صفحة العنوان بأنه : « أحمد الحنفى المعروف بالبوح »(١) ، والكتاب فى مجلد يحتوى على مائة وأربع وعشرين ورقة ، وعليه تواريخ بعض مالكيه ، وأقدمهم بتاريخ سنة ١١٤٥ هـ »(٢) . ويستفاد من ذلك أن كتاب « الروضه البهية » قد يكون مختصراً لجزء صغير من الخطط ، هو الذى أشير إليه ؛ وقد تكون نسخة « جوتا » هذه قطعة من مؤلف أكبر يشتمل على موجز « للخطط » كلها ؛ بيد أنه ليس لدينا ما يرجح أحد الرأيين (٣) .

* * *

ولم يعرض مؤرخ مصرى بعد ذلك إلى تاريخ الخطط والآثار حتى العصر الأخير . ولكن هناك مرحلة هامة فى تاريخ الخطط هى عهد الحملة الفرنسية (١٢١٣ — ١٢١٦ هـ) (١٧٩٨ — ١٨٠١ م) . وهى فى تاريخ مصر الحد الفصل بين العصر التركى ، عصر الركود والهدم والتخريب ؛ وبين العصر الحديث ، عصر النهضة والإنشاء والتجديد . ولدينا عن الخطط فى هذه المرحلة أثران كبيران فى منتهى الأهمية هما : تاريخ الجبرتى المسمى « عجائب الآثار ، فى التراجم والأخبار » ، وكتاب « وصف مصر أو خطـــط مصر » (Description de L'Egypte) ، الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية .

أما الأثر الأول ، وهو « عجائب الآثار » فليس تاريخاً للخطط فى ذاتها ؛ وإنما هو تاريخ عام لمصر منذ سنة ١١٠٦ إلى سنة ١٢٣٦ هـ (١٦٩٥—١٨٢١ م) . ومؤلفه هو عبد الرحمن بن حسن بن برهان الدين الجبرتى ؛ ولد بالقاهرة سنة ١١٦٨ هـ (١٧٥٦ م) وتوفى بها سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥م) . ودرس فى الأزهر ، وبرع فى التاريخ والأدب . ولما غزا الفرنسيون مصر ، عنى الجبرتى بتتبع حوادث

---

(١) وقد ذكر الاسم فى فهرس « جوتا » كما يلى : « أحمد الحنفى أبو المعروف البوح » ، ولكن الظاهر أن هنالك خطأ مطبعياً وأن الاسم كما قدمنا .

(٢) راجع فهرس المخطوطات الشرقية لمكتبة جوتا :

Die Orientalischen Handschriften per Herzoglichen Bibliothek zu Gotha, von Dr. W. Pertsch (Band III. Nr 1638).

(٣) نقبنا فى جميع معاجم التراجم ، فلم نظفر بتعريف عن أحمد الحنفى هذا . ولكن الظاهر أنه من كتاب القرن الحادى عشر .

هذا الفتح عناية عظيمة ، وساعده على تدوينها وتحقيقها اتصاله بالجهات الرسمية يومئذ ، وتعيينه عضواً فى الديوان العام الذى أنشأه الفرنسيون بالقاهرة ، للاستعانة به على تهدئة الأحوال وضبط النظام(١) . وليس من موضوعنا أن نتحدث هنا عن قيمة مجهود الجبرتى التاريخى ، وأهميته كوثيقة فريدة فى تاريخ مصر السياسى والاجتماعى فى العصر الذى يعنى به ، ولكننا نتحدث فقط عن علاقته بتاريخ الخطط . فالجبرتى يتناول فى مؤلفه تاريخ مصر قبيل الفتح الفرنسى وفى أثنائه ثم من بعده ، حتى سنة ١٢٣٦ هـ ، بطريقة الحوليات واليوميات ، وفى إفاضة وتفاصيل ممتعة ؛ ويجعل تعيين المواقع والأماكن ظاهرة واضحة فى روايته ، فلا يورد حادثاً من حوادث الحرب أو الثورة ، أو المواكب والحفلات العامة ، ولا سيما فى القاهرة ، إلا قرنه بتحديد الأماكن والمواقع من شوارع وميادين ودروب ومنازل ، بحيث نستطيع خلال روايته أن نصور معالم القاهرة فى عصره جلية واضحة ، وأن نتعرف بالمقارنة فى خططها وأحيائها المعاصرة ، على كثير من خططها وأحيائها منذ أكثر من قرنين ؛ وأن نصل المعالم والمواقع والأسماء المعاصرة ، بما كانت عليه فى هذا العهد . كذلك يعنى الجبرتى بالكلام على ما أقيم بالقاهرة خلال العصر الذى يتحدث عنه ، من معاهد ومساجد وقصور وبساتين وخطط ، وما دثر منها وما استجد ، وما غيرت معالمه ؛ وذلك إما خلال بعض الحوادث العامة التى يسردها ، أو خلال تراجم الأمراء المماليك أو الترك أو كبراء المصريين الذين يورد تراجمهم(٢) ؛ ثم يفرد فوق ذلك فصلا

---

(١) يقول مسيو ألكساندر. كاردان فى مقدمة القسم الذى ترجمه من تاريخ الجبرتى المسمى «جريدة عبد الرحمن الجبرتى أثناء الاحتلال الفرنسى لمصر» **(Journal d'Abdurrahman Gabarti pendant L'Occupation française en Egypte (Paris 1838)** إن الجبرتى عين عضواً فى الديوان الأول الذى أنشأه نابليون ، واشترك فيه فعلا ، ونال احترام قادة الجيش وكبرائه . (ص ١ و ٢) ولكن الجبرتى لا يذكر ذلك عن نفسه فى أخبار هذا الديوان الأول (ج ٣ ص ١١ من الطبعة الأهلية ١٣٢٢هـ) ولا فى أخبار الديوان الثانى المعروف بمحكمة القضايا (ج ٣ ص ٢٠) ولكنه عند ذكر أعضاء الديوان الثالث الذى أنشأه الجنرال منو ، يشير إلى نفسه بكلمة وكاتبه (ج ٣ ص ١٤٤) مما يفيد أنه كان من أعضاء هذا الديوان فقط .

(٢) تراجع بعض هذه الروايات عن الخطط والمعالم والأبنية — ج (١) ص ٩٨ و ٩٩ و ١٠٠ وج (٢) ص ٥ و ٦ و ٧ و ١١ و ٢٣ وج (٣) ص ١٤٠ و ٢٠٩ و ٢٥٢ و ٣٥١ و ٣٦٣ وج (٤) ص ٧٦ و ٣٠٣ — وكلها وردت خلال الحوادث والوقائع . وراجع أيضاً ج (١) ص ١٠٣ =

خاصاً للكلام على ما أحدثه الفرنسيون أيام احتلالهم ، فى بعض خطط القاهرة ، من محو وتغيير وإنشاء اقتضته الأغراض العسكرية ، وما دمر أو أزيل أو شوه من أحيائها ودروبها وأبنيتها[١] . والخلاصة أن الجبرتى يقدم لنا فى سياق روايته ، عن خطط مصر القاهرة ومواقعها ومعالمها خلال القرن الثانى عشر الهجرى وأوائل القرن الثالث عشر ، صورة واضحة مفصلة ؛ هذا عدا ما يورده عن بعض خطط المدن والأقاليم المصرية الأخرى . فأثره من هذاه الوجهة ذو أهمية خاصة بالنسبة لتاريخ الخطط ، ومنه نستق آخر الصور وأصدقها عن خطط مصر القاهرة القديمة ، وهى الصورة الفاصلة بين قاهرة العصور الوسطى ، وقاهرة القرن التاسع عشر .

وأما الأثر الثانى أعنى كتاب وصف مصر أو خطط مصر Description de L'Egypte ، الذى وضعه علماء الحملة الفرنسية فهو من أنفس وأجل الآثار التى وضعت عن مصر : آثارها وخططها وجغرافيتها ، وخواصها الطبيعية والعمرانية ؛ اشترك فى تأليفه جمهرة العلماء الفرنسيين الذين رافقوا الحملة الفرنسية إلى مصر ؛ ونشأت فكرة وضعه مع مشروع الفتح ذاته ، وكان صاحب الفضل الأول فيها نابليون بونابارت نفسه ؛ فقد اعتزم أن ينشئ فى مصر عقب الفتح ، معهداً علمياً يدرس أحوال مصر وحضارتها ومميزاتها وخواصها ؛ واختار لتنفيذ مشروعه جماعة من كبار العلماء رافقوا الحملة . وأسست بالقاهرة « أكاديمية » (مجمع علمى) لتعنى بالعلوم والفنون ، ولتدرس بالأخص مصر : بلادها وآثارها وهندستها وخططها ومدنها ؛ ثم تهيئ لذلك كله رسوماً وخرائط[٢]. وعكفت هذه الجماعة العلمية على البحث والدرس مدى الأعوام الثلاثة التى لبثها الاحتلال الفرنسى . فلما جلا الفرنسيون عن مصر ، حملوا معهم كل المواد والبحوث التى أعدت إلى فرنسا ؛ وهنالك أمر نابليون أن تجمع هذه المواد والبحوث والرسوم والخرائط ، وأن تنظم وتطبع على نفقة الحكومة ؛ وعهد إلى لجنة من ثمانية من العلماء الذين اشتركوا فى العمل هم : برتوليه ، كونتيه ، كوستاز ، ديزنييت ، فورييه ، چيرار ،

= و ١١٠ و ١٩٩ و ٤٢٣ وما بعدها و ج (٣) ص ١٧٥–١٧٩ و ٢٣٠ و ٢٣١ و ٣٤٣ وج (٤) ص ٢٩ و ٩٣ — والإشارات إلى الخطط ترد هنا خلال تراجم الأمراء والكبراء .

(١) راجع هذا الفصل — ج (٣) ص ١٦٧ — ١٧٢ .

(٢) مقدمة العلامة فورييه فى كتاب Descrip. de L'Egypte (الطبعة الثانية ج ١ ص٨—١٠) .

لانكريه ، مونج ، لتشرف على وضع هذا المؤلف وتنظيمه وإخراجه . واستمرت هذه اللجنة تعمل أعواماً ، ومات بعض أعضائها أثناء العمل ، واستبدلوا بآخرين من علماء الحملة . وروعى فى تنظيم المؤلف أن تبحث آثار مصر تفصيلا ، وأحوالها وقت الفتح الفرنسى ، وجغرافيتها وتاريخها الطبيعى . وعنى رهط من الفنانين بوضع الصور والخرائط ؛ وظهر القسم الأول من هذا الأثر الضخم سنة ١٨٠٩ ، أعنى بعد ثمانية أعوام من عود الحملة الفرنسية[١] . واشترك فى وضعه ستون من أكابر العلماء فى كل فن[٢] ؛ فجاء دائرة معارف شاسعة من مصر ، وآثارها ، وحضارتها وفنونها ، وخططها وخواصها ؛ وشغلت أربعة وعشرين مجلداً كبيراً تتخللها مئات الخرائط والجداول والرسوم . وقد قسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام كبيرة — : الأول قسم الآثار ، وفيه بحوث ضافية عن آثار مصر الغابرة ومعابدها وبرابيها ، وقبورها وتماثيلها ، وبقاعها الأثرية ، مرتبة من الجنوب إلى الشمال ، ثم الشرق والغرب ؛ واعتبر من الآثار القديمة كل ما كان قبل الفتح الإسلامى ، ومن الحديثة كل ما أنشئ بعد الفتح . واستهل هذا القسم بمقدمة تاريخية للعلامة فورييه أتى فيها على خلاصة قوية لتاريخ مصر منذ عصر طيبة إلى وقت الفتح الفرنسى ؛ ويليها الكلام على معبد فيلى ؛ ثم الكلام على آثار طيبة ودندرة وأبيدوس وهرموپوليس ؛ والفيوم والأهرام ومنف وهليوبوليس ؛ ووصف أوراق البردى والآنية والطقوس وغيرها . ويشغل ذلك نحو خمسة مجلدات . والقسم الثانى هو قسم الحالة الحديثة والمعاصرة ، إلى وقت الفتح الفرنسى ؛ ويشتمل على وصف مسهب لبلاد الصعيد والوجه البحرى والقاهرة وبرزخ السويس والإسكندرية ، ومقياس النيل منذ الفراعنة ، والجغرافية المقارنة ؛ ثم

---

(١) استمر صدور أجزاء الطبعة الأولى حتى سنة ١٨٢٦ . وفى خلال ذلك تقرر طبع الكتاب مرة ثانية بقرار ملكى من لويس الثامن عشر ، وصدرت هذه الطبعة بين سنتى ١٨٢١ و ١٨٢٩ .

(٢) وهذه هى أسماء هؤلاء العلماء — : برتوليه ، مونج ، كوستاز ، دليل ، ديزنييت ، دڤلييه ، فورييه ، چيرار ، چولوا ، لانكريه ، چونار ، أندريوسى ، بلزاك ، بلتست ، برنز ، بوديه ، كارستى ، كاستكس ، مسيل ، دى شبرول ، كورابيف ، دى كورانسيه ، كوردييه ، كوتيل ، ديلاپورت ، ديكوتيس ، دبوا إيميه ، دوهانوى ، دوترتر ، فاڤييه ، فاى ، فيڤر ، جراتيان ، لپير ، چوفرى ، چاكوتان ، چوبير ، لدرى ، ليسزن ، لچنى ، لنوار ، لپير (الكبير) ، لپير المهندس ، مالوس ، مارسل ، مارتن ، نورى ، نويه ، پروتان ، رافنو ، رابيج ، رودتيه ، دى روزيير ، روييه ، سان چنى ، ساموبل برنار ، ساڤينى ، ڤيار ، ڤلوتو ، ڤنسان ،

الكلام عن الفنون ، وبالأخص الموسيقى الشرقية ، والموازين والمكاييل والمقاييس العربية ؛ والزراعة والصناعة والتجارة ؛ ثم عادات مصر الحديثة ؛ ويتخلل ذلك ملخص لتاريخ المماليك ، وأحوال مصر المالية منذ الفتح العثمانى ؛ ونظم الحكومة والملكية والخراج والأوقاف والضرائب ؛ والصناعات والجمارك . ويشغل هذا القسم أربعة عشر مجلداً . والقسم الثالث هو قسم الخواص الطبيعية ؛ ويتناول الكلام على طبيعية أرض مصر وطبقاتها ؛ ونباتها وحيوانها وطيورها وأسماكها ؛ وما عرف بها من الحوامض والقلويات والمركبات والجواهر ؛ وعن التحنيط وأماكنه ؛ وغير ذلك . ويشغل باقى الكتاب . وتشتمل مجموعة الخرائط والرسوم على مئات الخرائط الجغرافية لمصر ، ومختلف أجزائها وأقاليمها ؛ ومئات الرسوم لآثار مصر القديمة والإسلامية ؛ ورسوم مبانيها وحيوانها ونباتها وطيورها وأسماكها ؛ وغير ذلك من الأشكال والرسوم .

والخلاصة أن كتاب « وصف مصر » ، أعظم مجهود علمى بذل حتى القرن التاسع عشر ، للتعريف عن مصر القديمة والحديثة ؛ فهو بذلك من أنفس الوثائق ، عن تاريخ مصر وخططها وخواصها ، وأحوالها الفكرية والاجتماعية ؛ وهو حلقة اتصال فريدة قوية بين ماضى مصر وحاضرها ؛ وبين صورها ومظاهرها فى أواخر القرن الثامن عشر ، وصورها ومظاهرها المعاصرة ، ويزيد فى قوته ونفاسته ما احتواه من الخرائط والرسوم ، التى تخرج لنا مواقع مصر وآثارها ، فى صور مادية حية ، هى خير وسيلة للمقارنة والتحقيق .

وقد اعتمد مؤلفو « وصف مصر » ، فى وصف الخطط والآثار على بعض مؤرخى مصر الإسلامية ، ولاسيما المقريزى ، فأكدوا بذلك قيمة مجهوده ونفاسته مرة أخرى .

٤
الخطط التوفيقية

وفى العصر الحديث ، وُهبت مصر مؤرخها الفذ ، ومحقق خططها ، ومجدد معالمها ، ومحيى محاسنها وذكرياتها وآثارها ، فى شخص المرحوم على باشا مبارك ، أحد أركان النهضة العلمية والأدبية المعاصرة ، وهو على بن مبارك بن مبارك

ابن سليمان بن إبراهيم الروجي . ولد بقرية برنبال الجديدة دقهلية ، سنة ١٢٣٩ﻫ (١٨٢٣ م) ، وتوفى بالقاهرة فى ٥ جمادى الأولى سنة ١٣١١ ﻫ (١٤ نوفمبر ١٨٩٣ م) . ونشأ بالقرية فى أسرة فقيرة متواضعة ، ثم حدثته نفسه ، الوثابة إلى المعالى منذ الطفولة ، أن يهجر القرية إلى حيث يستطيع التعلم ؛ ففر من أسرته ، ونزح إلى القاهرة حدثاً ؛ واحتال حتى دخل مدرسة قصر العينى سنة ١٢٥١ ﻫ . فلما ظهر ذكاؤه أدخل مدرسة المهندسخانة ، فأتم دروسها ببراعة وتفوق ؛ ثم اختير للبعثة العسكرية مع أنجال الوالى (محمد على) ، وأوفد إلى باريس ؛ فدرس الفنون العسكرية والهندسة الحربية ، وعاد إلى مصر على أثر وفاة إبراهيم باشا سنة ١٢٦٤ ﻫ (١٨٤٨م) ؛ وعين مدرساً بمدرسة طرا ، ثم قلد عدة وظائف ومهام مختلفة ، منها تنظيم المدارس الأميرية ؛ فأبدى فيها جميعاً همماً فائقة . وفى سنة ١٢٧٠ ﻫ (١٨٥٤ م) أرسل إلى تركيا مع الحملة التى أرسلتها مصر ، لمساعدة تركيا فى حرب القرم ؛ فقضى حيناً فى الأناضول وفى بلاد القرم ؛ وتعلم التركية ، وعانى خطوباً وشدائد ، ولبث بعد عودته يتقلب فى مختلف الوظائف حتى عين فى سنة ١٨٧٩ وزيراً للأشغال العمومية فى الوزارة التى رأسها توفيق باشا نجل الخديو . وفى أيام الثورة العرابية اعتكف حيناً فى الريف ؛ ثم كان من سفراء العرابيين لدى الخديو للسعى فى الصلح ؛ وكان ساخطاً على الثورة متوجساً من عواقبها . وبعد انتهاء الثورة دخل الوزارة ثانية فى أواخر سنة ١٨٨٣ ، وزيراً للأشغال أيضا ، ثم عين وزيراً للمعارف فى وزارة رياض باشا سنة ١٨٨٨ (١٣٠٥ ﻫ)[1] ، وأبدى فى هذا المنصب همة فائقة ؛ وأسدى إلى التربية والتعليم خدمات جليلة ، وبث إلى النهضة الأدبية روحاً جديدة ، وأخرج فى ذلك الحين أثره الكبير « الخطط التوفيقية » ، وهو الذى نعنى به هنا .

ولم يشهد تاريخ الخطط منذ المقريزى ، مجهوداً فى الطرافة والإفاضة كمجهود على باشا مبارك ، بل لقد جاءت « الخطط التوفيقية » من بعض الوجود أتم وأوفى من خطط المقريزى ، وكانت مهمة مؤلفها فى كثير من الأحيان أدق وأصعب من مهمة سلفه الكبير ؛ فقد كان عليه أن يتتبع تاريخ الخطط فى ظلمات العصر

---

(١) كتب على باشا مبارك ترجمة حياته مفصلة فى الخطط التوفيقية (ج ٩ ص ٣٧ — ٦١) ومنها لخصنا ما تقدم .

التركى ؛ وأن يحقق المعالم والمواقع والآثار القديمة ، على ضوء الأطلال الدارسة والمنشآت المحدثة ، التى تفصلها من الماضى قرون طويلة ؛ وقد توسع فى مهمة التعريف عن الخطط والتراجم توسعاً عظيماً ؛ فتناول بعد القاهرة ، جميع المدن والقرى المصرية بإفاضة ؛ وترجم كثيراً من أعيانها فى مختلف العصور ، ولم تكن لديه مع ذلك سلسلة متصلة من المراجع تصل بين مختلف المراحل والعصور ؛ فقد رأينا أن تاريخ الخطط لم يظفر منذ المقريزى ، بتعريف شامل شاف يجمع شتاته بطريق التخصيص والإفاضة ؛ فجاء على مبارك بعد أربعة قرون ونصف ؛ يضطلع بأعباء هذه المهمة الشاقة ؛ ويقدم الدليل على أن هذا الشغف القديم بإحياء آثار الوطن وذكرياته ، لم ينطفىء بعدُ فى صدور بنيه ، ويحدوه فى وضع « الخطط التوفيقية » مثل العزم والجلد والبراعة ، التى أجرت قلم المقريزى بوضع أثره الخـــالد .

والواقع أن على مبارك، يتخذ خطط المقريزى نقطة بدء ، ويجعل أكثر مهمته أن يجوز بتاريخ الخطط والمعالم والآثار ، هذه المرحلة الطويلة التى تفصل بينه وبين سلفه ، وأن يصل حاضر الخطط بماضيها[1] ، وكان تمكنه من الهندسة والجغرافيا والتخطيط (التبوغرافيا) ، يمده بكفاية خاصة للقيام بهذه المهمة . وهو يدلل على هذه المقدرة الخاصة ، فى تحقيق المواقع والمعالم ، ومقارنتها بما كانت عليه فى الماضى ، وفى استخراج صور خطط القاهرة وأحيائها فى العصور الوسطى ، من خططها ومعالمها المعاصرة ، وفى تقدير الأبعاد والمساحات ، وفى استقراء تاريخ المعاهد والآثار المندثرة ، من الأطلال والخرائب الدارسة ، فى مواضع لاحصر لها من مؤلفه ؛ فما أثر أو مسجد أو دار أو خطة أو شارع أو ميدان ، فى عصر القاهرة القديمة إلا حقق موقعه وأبعاده فى القاهره المعاصرة ، بوضوح يثير الإعجاب[2] . وهو يرجع فى ذلك دائماً إلى سلفه العظيم المقريزى ، فهو مرشده

(١) راجع ديباجة الخطط التوفيقية (ج ١ ص ١) وكذا تقريظ مصحح الكتاب وبيان سبب تأليفه (ج ١ المقدمة ص ٢) .

(٢) من العبث أن نحيل القارىء فى ذلك على مواضع معينة من الخطط التوفيقية ؛ فهذه المواضع لا حصر لها ، ولكننا نحيله على الأجزاء الخمسة الأولى التى تتناول خطط مصر القاهرة فى مختلف العصور ، ففى كل موضوع وكل صفحة منها تقريباً ، يجد القارىء أثر هذا التحقيق واضحاً جلياً بعد عبارة «قلت» أو «أقول» . راجع بالأخص وصف معالم القاهرة المعزية وتحقيقها بتطبيق المعالم المعاصرة (ج ١ ص ٧-٢٢)

الأول ، ومصدره الذى لا ينضب فى التعريف والابتداء . ثم يرجع فى المراحل المتأخرة إلى طائفة كبيرة من المراجع ، أشار إليها إجمالا فى مقدمته بقوله : « جامعاً من كتب العجم والعرب ، وما يفضى بمتأمله إلى العجب ؛ مراجعاً كتب العرب والإفرنج الذين ساحوا تلك الديار ؛ ورسومهم التى بينوا فيها حدود هذه الأقطار ، وكذا حجج الأوقاف والأملاك ، وما وجد مسطوراً على الأحجار والجدران » ، وأهم مراجع على مبارك بعد المقريزى ، هى نفس الكتب التى أشرنا إليها فى فاتحة هذا الفصل ، وهى التى تعرض لنواح من الخطط دون الإلمام بها ، وتعتبر مع ذلك حلقات اتصال بين عصورها المختلفة ؛ وهى كتاب « تحفة الأحباب » للسخاوى الصغير ، « وقطف الأزهار » لابن أبى السرور البكرى ، « وعجائب الآثار » للجبرتى ، وكتاب « وصف مصر » لعلماء الحملة الفرنسية ؛ يضاف إليها طائفة كبيرة من كتب الوقف وعقود الأملاك ، سواء فى محفوظات الحكومة أو محفوظات المساجد والآثار المختلفة ، أو لدى الأسر الكبيرة . فمن هذه جميعاً استطاع على مبارك أن يصل مراحل الخطط ، وأن يحقق المعالم بطريق الاستنباط والتطبيق والمقارنة . أما تراجم الأعيان فقد رجع فيها بالأخص إلى خطط المقريزى أيضاً ، وإلى ترجمة المستشرق كترمير لكتابه « السلوك فى دول الملوك »(١) ثم إلى الصفدى وابن خلكان ، وإلى الضوء اللامع للسخاوى الكبير ؛ وخلاصة الأثر للمحبى ؛ وسلك الدرر للمرادى ؛ وعجائب الآثار للجبرتى وغيرها ؛ وأما تراجم الأعيان المعاصرين فقد رجع فيها إليهم أو إلى أسرهم وإلى معارفه الخاصة . وتستغرق التراجم قسماً كبيراً من الخطط التوفيقية ، ويكتفى المؤلف فى إيرادها بالنقل المجرد من مصادرها .

وتشغل « الخطط التوفيقية » عشرين جزءاً فى خمسة مجلدات كبيرة تبلغ أكثر من ألفى صفحة من القطع الكبير ، فهى بذلك ضعف خطط المقريزى تقريباً .

---

(١) لم يكن النص العربى لكتاب «السلوك» للمقريزى موجوداً بمصر أيام على مبارك ، ولكن ترجمة كترمير (Quatremaire) ظهرت منذ منتصف القرن الماضى بعنوان **(L'Histoire des Sultanes mameluks** . أما اليوم فقد حصلت دار الكتب على نسخة فتوغرافية لهذا الكتاب من مخطوط باريس ، وهو محفوظ بها برقم ٤٥٥ تاريخ ، وتوجد منه كذلك عدة نسخ مخطوطة بمكاتب استانبول ، وقد نشر منه إلى اليوم قسم كبير يحتوى على عدة أجزاء ، وذلك بعناية الدكتور محمد مصطفى زيادة ، وأخرجته لجنة التأليف والترجمة والنشر .

ويتناول الجزء الأول منها تاريخ القاهرة المعزية[1] ، ومقارنة أوضاعها القديمة بأوضاعها المعاصرة ، وتاريخ السلاطين منذ الأيوبيين إلى الفتح التركى ، ثم النواب الترك ، وتاريخ الحملة الفرنسية ، وعصر محمد على ، ووصف أحياء القاهرة الحديثة ، وإحصاءات عن محتوياتها وسكانها . وتتناول الأجزاء الثانى والثالث والرابع ، خطط القاهرة وشوارعها ودروبها وحاراتها ، مرتبة على حروف المعجم ، مع تحقيقات كثيرة لأوضاعها القديمة منذ عصر المقريزى . ويتناول الجزء الخامس الكلام على الجوامع ؛ والسادس الكلام على المدارس والزوايا والمساجد والخوانق والأسبلة والكنائس ، كل ذلك مرتب على حروف المعجم . وتتناول الأجزاء التسعة التالية أعنى من السابع إلى الخامس عشر ، الكلام على أقاليم الديار المصرية ، ومدنها وقراها بإفاضة ، وترجمة أعيان كل منها من فقهاء وأدباء وشعراء وأولياء وأكابر ، مرتبة على حروف المعجم أيضاً . ويتناول الجزء السادس عشر الكلام على الآثار الفرعونية وبخاصة أهرام الجيزة وما حولها ، والسابع عشر ، بعض التراجم والأماكن والوقائع . وخصص الثامن عشر ، للكلام على مقياس النيل منذ عصر الفراعنة ، وفى مختلف الدول الإسلامية ، وأيام الاحتلال الفرنسى ، وعيد الشهيد ومهرجان النيل وماتعلق بذلك . ويتناول التاسع عشر الكلام على الرياحات والترع ، والعشرون الكلام على النقود وأشكالها وتواريخها وقيمها فى مختلف العصور ، وبه جداول للمقارنة بين قيمها القديمة وقيم النقد الحديث .

فنرى مما تقدم ، أن « الخطط التوفيقية » موسوعة شاسعة فى تاريخ الخطط والآثار المصرية ، وتاريخ مصر الإسلامية ، وأن مؤلفها العظيم استطاع ، بما أوتى من عزم وبراعة وعلم غزير ، أن يخرج لمصر المعاصرة ، من غمر الأحقاب البعيدة والآثار المنسية والأطلال الدارسة ، صوراً فياضة واضحة ، من مصر الإسلامية فى مختلف عصورها ، وصوراً قوية محققة من الخطط القديمة لمصر القاهرة ، ومعالمها وأوضاعها الغابرة فى مختلف العصور والدول ؛ وأن يصل الحاضر بالماضى فى كثير من المواقع والمواطن . فأثره كأثر سلفه العظيم المقريزى ، تحفة

---

(١) يغفل على باشا مبارك الكلام عن الفسطاط وخططها ، وإن كان يتحدث بعد عن آثارها الباقية ، ويقرر أنه يقصد القاهرة أصلا بمباحثه (المقدمة ص ٣) ومن ثم كان الاسم الذى اختاره لكتابه .

نفيسة فى تراث مصر التاريخى ، ووثيقة خالدة للأجيال المقبلة ، تبقى العصور ، مرجعاً لاستخراج صور الخطط والآثار الذاهبة ، من عمر الم يطويها تقلب المدنية ، وفعل الحوادث والزمن .

وقد طبعت « الخطط التوفيقية » بأمر الخديو توفيق باشا فى مطب الأميرية ، وظهرت أجزاؤها تباعاً خلال سنتى ١٣٠٥ و١٣٠٦هـ (٨٨٨ وعنوانها الكامل هو : « الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ، ومدنها القديمة والشهيرة »[١] .

* * *

هذا ما استطعنا أن نقف عليه من آثار مؤرخى الخطط ، ما انتهى إل وما بددته الحوادث . ولم يوهب بلد إسلامى ما وهبته مصر الإسلامية من تاريخ الخطط والآثار . وهذا التراث الذى يعتبر بذاته فناً خاصاً من فنون ابتدعه وسما به المؤرخون المصريون ، إنما هو جزء صغير فى مجموعة العظيم ، الذى انتهى إلينا فى تاريخ مصر الإسلامية من أقلام بنيها الأمجاد آثروها بمعظم جهودهم وثمرات تفكيرهم ، إيثاراً ينم عما كانت تض جوانحهم ، من حب للوطن ، وشغف بتتبع ذكرياته ومصايره .

(١) من الأقوال الذائعة أن « الخطط التوفيقية » ليست فى الحقيقة من وضع على باشا مبارك خلال وجوده بالوزارة حشد للعمل فى وضعها عدة من المعاونين له ، وقام هؤلاء ، بجمع معظم وتنسيقها ، وأنه لم يكن له فيها سوى فضل الإرشاد والتوجيه ، ومهما كان مبلغ هذا القول من اله لا ينتقص من فضل على مبارك فى قيامه على هذا المشروع وتوجيهه والاشتراك فى تنظيمه و

الكتاب الثاني

في تاريخ مصر الإسلامية

القسم الأول

الفصل الأول

مصر فى عهد عمر بن الخطاب

كانت مصر حينما افتتحها العرب، ولاية رومانية تخضع لحكم الدولة الشرقية ، ولم يكن الفتح الإسلامى لمصر سوى حلقة فى سلسلة الفتوحات الباهرة، التى قام بها العرب فى أراضى الدولة الشرقية فى فترة قصيرة . وكان فتح مصر فى المحرم سنة عشرين من الهجرة (ديسمبر ٦٤٠م) فى خلافة أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب ، وفى عهد هرقل قيصر الدولة الشرقية . وكان هرقل مذ تبوأ عرش قسطنطينية فى سنة ٦١٠م ، قد شهد ظهور النبي العربى ، وتلقى سفارته ودعوته إلى الإسلام ، ثم شهد بعد ذلك قوى الإسلام تنساب من الصحراء إلى الغزو ، وتقتحم أراضيه وتحرز النصر الباهر على جيوشه ، فى موقعة اليرموك ثم فى موقعة أجنادين . وعلى أثر أجنادين تم فتح الشام ، وقدم عمر إلى بيت المقدس ليتسلمها بنفسه إجابة لملتمس بطريقها ، وبينما هو فى طريق العودة ، عرض عليه عمرو بن العاص افتتاح مصر وألح فى عرضه ، فقبله عمر دون حماسة . وكان عمرو قد زار مصر قبل ذلك بأعوام ورأى الإسكندرية حاضرتها العظيمة ، فبهره عمرانها ورخاؤها . وكان عمر يخشى أن تنحدر جيوش الإسلام فى مصر إلى مغامرة لا تؤمن عواقبها ، ولكن جرأة عمرو غلبت على تحفظ عمر ، وكان أن غزا مصر جيش عربى صغير بقيادة عمر نفسه، وافتتحها فى أشهر قلائل، وذلك فى سنة عشرين من الهجرة (٦٤٠م)، وبذلك خرجت مصر من حكم الدولة الرومانية ، وانضوت تحت لواء الإسلام .

ولقى الغزاة فى مصر ظفراً سريعاً لم تتخلله مواقع طاحنة ، كالتى اقترنت بفتوح الشام ، وكانت الجيوش العربية قد ظهرت فى اليرموك وأجنادين على الجيوش الرومانية بصورة حاسمة ، ولم يخالج عمال الإمبراطور بمصر شك فى المصير الذى قدر لها ، وكان الحاكم والبطريق الرومانى كيروس الذى تعرفه الرواية العربية بالمقوقس ، وتصفه خطأ بزعيم القبط ، حكيماً بعيد النظر حينما آثر مهادنة العرب وعقد الصلح معهم ، منذ مقدمهم إلى مصر وحصارهم لقلعة بابليون . ولم يلق

العرب مقاومة ذات شأن إلا فى الإسكندرية ، حيث اعتصمت الحامية الرومانية بضعة أشهر ، ونشبت بين الفريقين وقائع شديدة ، انتهت بسقوط العاصمة فى أيدى الفاتحين .

على أن ظفر العرب فى مصر بتلك السرعة ، لا يرجع إلى العوامل العسكرية وحدها بل يرجع بالأخص إلى ظروف مصر ، وظروف الشعب المصرى يومئذ ، وهى ظروف كان لها أكبر الأثر فى التمهيد لهذا الفتح الكبير . ذلك أن مصر كانت فى أواخر العهد الرومانى تجيش بروح شديد من السخط على سادتها ، وبلغ هذا الروح أشده وقت الفتح العربى ، وكان الشعب القبطى وهو يومئذ كتلة الأمة المصرية ، يعانى كثيراً من الاضطهاد الدينى الذى فرضته عليه الكنيسة الشرقية منذ مجمع خلقيدونة ، الذى اتخذته قسطنطينية وسيلة للضغط على الكنيسة القبطية ، وذلك بإنشاء كنيسة جديدة خصيمة هى الكنيسة الملكية يستأثر الإمبراطور بتعيين بطارقتها ، وكانت هذه الثغرة التى أحدثتها قسطنطينية فى صرح الكنيسة الأرثوذكسية ، تذكى عوامل السخط فى نفوس المخلصين من أبنائها ، وفى الوقت الذى اعتزم العرب فيه فتح مصر ، كان كيروس عامل الإمبراطور يجمع فى شخصه صفة الحاكم وصفة البطريق معاً ، وكان يستعمل سلطان الأولى لتدعيم نفوذه فى الثانية . وذلك بالانتقاص من نفوذ الكنيسة القبطية وحقوقها . ومن جهة أخرى فإن الإدارة الرومانية انحطت فى أواخر هذا العهد إلى إدارة عاجزة مضطربة تعيث فسادا فى البلاد ، وتمعن فى إرهاق الشعب بالضرائب والمغارم الفادحة ، وكان الأمن مضطرباً ، والمنازعات الداخلية تسود كل مكان . وكان الشعب المصرى يتوق إلى التخلص من هذا النير الجائر بأى الوسائل . فلما لاح مقدم العرب ، يسبقهم ما ذاع عن تسامحهم وعدالتهم فى البلاد المفتوحة ، كان القبط على أهبة لمؤازرتهم ومحالفتهم ، وكانوا لهم خير عون على الفتح .

* * *

وهكذا لقى العرب حين مقدمهم إلى مصر مجتمعاً مهيضاً قد عصف به الطغيان ، ومزقه الخلاف الدينى ، وأضناه العسف والهوى . وقد انتهت إلينا من الروايات العربية المعاصرة ومن أوراق البردى ، لمحات عن أحوال مصر والشعب المصرى لعهد الفتح الإسلامى أو لعهد الفاروق عمر ، ومنها يبدو أن مصر كانت

لا تزال تحتفظ ببقية من مدنيتها الذاهبة ، وأن المجتمع المصرى لم يكن قد فقد كل خواصه القديمة ، وكانت المدنيتان اليونانية والرومانية ، قد تركت كلتاهما أثرها فى مصر ، وكان هذا الطابع اليونانى الرومانى لا يزال ماثلا حين الفتح الإسلامى ، وكانت الإسكندرية لاتزال مركزاً من مراكز الحضارة اليونانية الرومانية ، ومصدراً للثقافة الرفيعة التى تمتزج فيها التعاليم الفلسفية بالصبغة الوثنية ، وكانت وقت الفتح الإسلامى قد فقدت كثيراً من بهائها وعظمتها السالفين ، بيد أنها كانت لا تزال أعظم مدائن الشرق ، وكانت أيضاً مركزاً للملاهى الرومانية ، يجذب ملعبها الشهير ومبارياته الرياضية الشائقة من المصارعة وغيرها الزوار من سائر الأقطار ، وقد وصفت لنا الروايات العربية مدينة الإسكندرية وصروحها العظيمة ، وملعبها الشهير وقت الفتح ، وذكرت لنا كيف شهده عمرو بن العاص قبل الفتح بأعوام ، وسحره ما رآه فيه من المناظر الرائعة ، بيد أن الإسكندرية كانت قد فقدت مكتبتها العامة الشهيرة منذ القرن الرابع ، ولم يكن بها وقت مقدم العرب أية مكتبة عامة ، ومن ثم كان بطلان الزعم بأن العرب هم الذين أحرقوا مكتبة الإسكندرية الشهيرة .

أما الطبقات الدنيا من الشعب فقد كان يسودها الجهل ، ولم تتأثر كثيراً بمزايا الثقافتين اليونانية والرومانية . بيد أنه كانت توجد ثمة طبقة من خاصة المصريين ، تحتفظ ببقية يسيرة من علوم المصريين القدماء ، وكانت اللغة الفرعونية (الهيروغليفية) قد غاضت تقريباً ، وحلت محلها الديموطيقية ثم القبطية التى اشتقت منها ، والتى أخذت بدورها فى الانحلال والضعف أمام العربية لغة الفاتحين الجدد .

وكانت مصر وقت الفتح العربى ، كما كانت على ممر الأحقاب ، بلداً زراعياً يعتمد فى رزقه وثرواته على الزراعة ، وكانت الزراعة لا تزال أبداً على ازدهارها رغم توالى الأحداث والمحن ، وقد بهر العرب عند مقدمهم ما رأوه من خصب الريف المصرى ونضارته ووفرة محاصيله ، وكانت مصر فى الواقع أخصب البسائط التى تغلبوا عليها منذ خروجهم من القفر ، وكان نيلها أروع ما شهدوا من الغيث والفيض العميم .

* * *

لم يعش أمير المؤمنين «عمر» طويلا بعد فتح مصر ، فقد توفى صريعاً بخنجر أبى لؤلؤة فى ذى الحجة سنة ٢٣هـ (أكتوبر ٦٤٤م) أى لثلاثة أعوام فقط من اتمام الفتح ،

بيد أنه اختص مصر بعنايته فى تلك الفترة القصيرة من حكمه ، وكان دائم الاهتمام بشئونها وتنظيم إدارتها الجديدة ، وعهد بولايتها إلى فاتحها عمرو بن العاص فكان أول ولاتها المسلمين ، وقامت الفسطاط أول عاصمة إسلامية فى مصر عقب الفتح مباشرة . وأبدى عمرو فى تنظيم الإدارة الجديدة براعة فائقة ، واتبع نحو الرعايا الجدد سياسة الرفق المقرون بالحزم ، وأحصيت موارد مصر وثرواتها بدقة ، وفرضت على شعبها الجزية ، وكان فرضها عقب الفتح بطريق الصلح . وفى الروايات العربية المعاصرة ما يدل على أن مصر ، كانت تتمتع يومئذ بموارد وثروات عظيمة ، وأنها كانت تزخر بالسكان والقرى العامرة ، بالرغم مما أصابها من عسف الإدارة الرومانية ، مثال ذلك أن قرى مصر أحصيت من أجل الجزية فوجدت أكثر من عشرة آلاف قرية ، أعنى ضعف ما تحتوى اليوم ، وأنه لما صالح عمرو القبط على أن يدفع كل رجل منهم جزية قدرها ديناران ، بلغ من وجبت عليهم الجزية السنوية ستة آلاف ألف نفس ، وعلى رواية أخرى ثمانية آلاف ألف ليس فيهم امرأة ولا شيخ ولا صبى ، فكان دخل الخلافة من ذلك اثنى عشر مليوناً أو ستة عشر مليون دينار فى العام . وتلك روايات تحمل طابع المبالغة بلاريب ، بيد أنها تقدم على أى حال فكرة عن فداحة الغنم الذى استطاعت الخلافة أن تحققه بفتح مصر .

ووقعت بين أمير المؤمنين عمر وعمرو بن العاص فى تلك الفترة القصيرة ، عدة مساجلات ومكاتبات فى شئون مصر ، تدل على ما كانت تتمتع به الخلافة فى عهد عمر من طابع ديمقراطى عميق ، تدعمه مع ذلك سلطة حازمة . فعندما طال حصار الإسكندرية مثلا كتب عمر إلى عمرو ما يأتى : « أما بعد فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر ، إنكم تقاتلونهم منذ سنتين وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم ، وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نياتهم » . ولما أبطأ عمرو فى تقديم خراج مصر فى الموعد المحدد كتب إليه عمر يعزره ، ويؤنبه ويقول : « أما بعد فقد عجبت من كثرة كتبى إليك فى إبطائك بالخراج ، وكتابك إلى ببنيات الطرق ، وقد علمت أنى لست أرضى منك إلا بالحق البين ، ولم أقدمك إلى مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك ، ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك ، فاذا أتاك كتابى هذا

فاحمل الخراج فإنما هو فىء المسلمين » فكتب إليه عمرو : « أما بعد فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئنى فى الخراج ، ويزعم أنى أحيد عن الحق وأنكب عن الطريق ، وإنى والله ما أرغب عن صالح ما تعلم ، ولكن أهل الأرض استنظرونى إلى أن تدرك غلتهم ، فنظرت للمسلمين ، فكان الرفق بهم خيراً من أن يخرق بهم فيصيروا إلى بيع ما لا غنى عنه والسلام » .

هذه الوثائق وأمثالها مما نقلت إلينا الروايات المعاصرة ، توضح لنا روح الخلافة فى عهد عمر — روح ديمقراطى حازم ، وروح لامركزية مستنيرة . وقد كان عمرو والياً وعاملا من عمال الخلافة ، ولكنه كان يتمتع فى مصر بسلطة شبه مطلقة ، بيد أن عبقرية الخليفة الشاملة كانت ساهرة ، توجه بإشرافها الفطن سلطة الولاة إلى ما فيه خير الشعوب المحكومة ، وخير الخلافة الإسلامية . وقد استفادت مصر فيما بعد من هذه القاعدة المستنيرة فى توزيع السلطات ، واستطاعت أن تتمتع فى ظل الخلافة بنوع من الحكم الذاتى ، وأن تحافظ على هذا الامتياز ، حتى قامت بها الدول الإسلامية المستقلة .

الفصل الثاني

صور من استقلال القضاء

وصور من خضـوعه

(من تاريخ القضاء فى مصر الإسلامية)

لم تُعرف نظرية فصل السلطات الحديثة كثيراً فى العصور الوسطى ، ولم تطبق بالأخص فى ظل الأنظمة المطلقة التى سادت فى تلك العصور ، فالسلطات الثلاث ، التشريعية والتنفيذية والقضائية ، التى تقوم الدولة الحديثة على مبدأ الفصل بينها ، كانت تجتمع فى ظل الأنظمة المطلقة ، فى نفس اليد العليا التى تتصرف فى سائر الشئون العامة . ولم تشذ الدول الإسلامية عن هذه القاعدة ، فقد كان الخليفة أو السلطان أو الأمير يجمع فى شخصه كل السلطات ، ويزاولها مجتمعة أو منفردة على يد عماله . نعم كان هنالك توزيع للسلطات ، ولكن نظرى محض ، فقد كانت أصول التشريع قائمة ، تعدل وتفسر فى ظل الدول المختلفة ، طبقاً لمختلف النزعات المذهبية والسياسية ، وكان للقضاء جهة خاصة يعمل فى دائرتها ، وكان الوزراء ومن إليهم من الكتاب والعمال يمثلون الناحية التنفيذية . ولكن هذه الجهات الثلاث التى تقابل السلطات الثلاث فى الدولة الحديثة ، كانت تمتزج دائماً من الوجهة العملية ، وتخضع دائماً سواء منفردة أو مجتمعة ، لرأى الخليفة أو السلطان أو الأمير ؛ وكان هذا الرأى دائماً فوق كل قانون وقضاء ونظام ، وإن كان فى معظم الأحيان يلتمس له ظاهراً من القانون أو النظام .

وكان القضاء كالسلطة التنفيذية ، دائماً عرضة للتأثير والتدخل . ولكن السلطة العليا كانت تؤثر ، فى معظم الأحيان ، أن تبدو فى الظاهر محترمة لرأى القضاء ، بعيدة عن التأثير فى سير العدالة . ذلك أن القضاء كان يتشح دائماً بثوب الدين ، ويستمد سلطانه من كتاب الله وسنة رسوله ، فكان التدخل المرغوب كثيراً ما يحمل طابع التفسير لنص من النصوص . وكان القضاة أعوان السلطان قبل أن يكونوا أعواناً للعدالة ، وتقدير استقلال القضاء وحريته ، يرجع قبل كل شىء إلى

السلطان . وقد كان ثمة خلفاء وسلاطين يقدرون استقلال القضاء ، وينحنون أمام كلمته ؛ وكان ثمة قضاة أقوياء النفس والجنان ، يتمسكون برأيهم وسلطتهم فى الحكم ، ويأنفون من التدخل والتأثير . وهنالك أمثلة كثيرة فى التاريخ الإسلامى تؤيد هذه الحقيقة نورد بعضها فى هذا الفصل ، وهى مما يتعلق بتاريخ القضاء فى مصر الإسلامية .

كان من قضاة مصر فى أوائل القرن الثالث الهجرى ، الحارث بن مسكين ، ولى قضاء مصر الأعلى من قبل الخليفة المتوكل العباسى سنة ٢٣٧هـ . ويصف لنا الكندى مؤرخ قضاة مصر حتى منتصف القرن الرابع ، شخصية الحارث بن مسكين وطريقته فى الحكم ، نقلا عن ابن قديد ، وهو فقيه ومحدث مصرى عاصر الحارث وعرفه . كان الحارث شخصية غريبة قوية ، وكان شديد الحرص على حريته واستقلاله ، وكان مقعداً ، يركب حماراً مبرقعاً ، ويحمل فى محفته إلى مجلس الحكم بالمسجد الجامع (جامع عمرو)، وكان صارماً شديد الوطأة ، جريئاً فى أحكامه ، يأبى تلقى الولاة والسلام عليهم . وطُلب إليه أن يلبس السواد ، وهو شعار بنى العباس ، فأبى حتى انتهى بعض أصحابه بإقناعه بأنه إذا لم يرتد السواد، اتهم بالانحراف عن بنى العباس والميل إلى بنى أمية ، فارتدى عندئذ كساء أسود من الصوف . وكان كثير الاجتهاد والابتكار فى إجراءاته وأحكامه . ويورد لنا الكندى طرفاً من هذه الإجراءات والأحكام ، ويذكر لنا كيف أن الحارث ابن مسكين آثر الاستقالة على قبول التدخل فى أحكامه . وذلك أنه رفع إليه نزاع على ملكية دار الفيل ، وهى إحدى دور الفسطاط الشهيرة ، وكانت لأبى عثمان مولى الصحابى مسلمة بن مخلد الأنصارى ، وكان قد قضى فى شأنها قبل الحارث عدة من قضاة مصر ، فقضى فيها أولا هارون بن عبد الله بإخراج بنى البنات من العقب باعتبار أن لا حق لهم فى الميراث ؛ ولكن خلفه محمد بن أبى الليث قضى بإلغاء هذا الحكم ، وحكم لبنى السائح المدعين بنصيبهم فى الدار . فلما رفع النزاع مرة أخرى إلى الحارث بن مسكين ، فسخ حكم ابن أبى الليث ، وقضى بإخراج بنى السائح من الميراث ، فسافر ابن السائح إلى بغداد ، ورفع إلى الخليفة المتوكل تظلماً من حكم الحارث ، والتماساً بإعادة النظر فى قضيته ، فأحال المتوكل القضية إلى الفقهاء ، فحكموا فيها على مذهب الكوفيين ، وقضوا

بإلغاء الحكم ، وكان حكم الحارث على مذهب المدنيين ، فلما بلغ الحارث ما وقع ، كتب فى الحال إلى المتوكل يرفع إليه استقالته من منصبه ؛ وقدر المتوكل دقة الموقف فقبل الاستقالة ، وكتب وزيره إلى الحارث بقبولها فيما يأتى : « إن كتابك وصل باستعفائك فيما تقلدت بأمر القضاء بمصر ، وأمر (أمير المؤمنين) أيده الله بإجابتك إلى ذلك ... إسعافا لك مما سألت ، وتفضلا لما أدى إلى موافقتك فيه ، فرأيك أبقاك الله فى معرفة ذلك والعمل بحسبه » . وغادر الحارث بن مسكين منصبه سنة ٢٤٥ هـ ، وضرب باستقالته مثلا قوياً فى الكرامة والاستقلال بالرأى ، والحرص على حرمة القضاء وقدسه[١] .

* * *

ولما تولى المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون قضاء المالكية بمصر سنة ٧٨٦ هـ فى عهد الظاهر برقوق ، أبدى فى تصرفاته وأحكامه تمسكاً شديداً بالرأى ، وإعراضاً قوياً عن كل مؤثر وشفاعة ، خلافاً لما كانت عليه أحوال القضاء يومئذ . وكان المؤرخ الفيلسوف يسبق عصره بمراحل ، فى فهم استقلال القضاء ووجوب صونه عن كل مؤثر ؛ ولكن صرامته فى تطبيق هذا المبدأ أثارت عليه عاصفة من الحقد والسعاية ؛ ويقول لنا ابن خلدون فى هذا الموطن فى « تعريفه » كلاماً طويلا عما كان يسود القضاء المصرى يومئذ من فساد واضطراب ، وما يطبع الأحكام من غرض وهوى ، وعما كان عليه معظم القضاة والمفتين والكتاب والشهود من جهل وفساد فى الذمة ، وأنه حاول إقامة العدل الصارم المنزه عن كل شائبة ، وقمع الفساد بحزم وشدة ، وسحق كل سعاية وغرض يقول : « فقمت بما دفع إلى فى ذلك المقام المحمود ، ووفيت جهدى بما أمننى عليه من أحكام الله ، لا تأخذنى فى الله لومة ، ولا يرغبنى عنه جاه ولا سطوة ، مسوياً بين الخصمين ، آخذاً بحق الضعيف من الحكمين ، معرضاً عن الشفاعات والوسائل من الجانبين »[٢] .

وهذا تصوير قوى لاستقلال القضاء لا يتفق كثيراً مع روح العصر ، ولكن يتفق مع شخصية الفيلسوف القوية ، ومع ثقته بنفسه ، وسموه برأيه . وقد انتهت

(١) راجع كتاب القضاة الذين ولوا مصر (أو تسمية قضاة مصر) لأبى عمر الكندى (طبعة المستشرق جوتهيل) ص ١٤٢ — ١٤٨ .

(٢) كتاب العبر — ج ٧ ص ٤٥٣ — ٤٥٤ — وراجع كتابى « ابن خلدون » (الطبعة الثالثة) ص ٧٩ و ٨٠ .

العاصفة التى أثارها عليه خصومه باستقالته أو إقالته من منصب القضاء لعام فقط من توليته . وينسب خصوم الفيلسوف تخليه عن منصب القضاء ، لأسباب غير استقلاله برأيه ونزاهته فى أحكامه ، ولكن مؤرخاً مصرياً كبيراً قريباً من عصره هو أبو المحاسن بن تغرى بردى يقر الفيلسوف على تعليله ، ويقول مشيراً إلى ولايته للقضاء : « فباشره بحرمة وافرة وعظمة زائدة ، وحمدت سيرته ، ودفع رسائل أكابر الدولة وشفاعات الأعيان .... »[1] .

* * *

على أن فهم استقلال القضاء على هذا النحو كان من الأمور النادرة فى تلك العصور . وكان مرجعه شخصية القضاة أنفسهم ، وليس روح العصر أو نظمه . وقد كانت القاعدة العامة كما قدمنا أنه لا استقلال للقضاء إلا فى حدود رأى السلطة العليا وهواها ؛ وكان خضوع القضاء لرأى هذه السلطة ووحيها يبدو بنوع خاص فى بعض القضايا الجنائية الهامة التى تريد السلطة العليا أن تسبغ فيها لون القانون والعدالة على قصاص أو انتقام ترى إجراءه ، أو القضايا المدنية الهامة التى يراد فيها اغتيال مال وثروات يطمع فيها باسم الشريعة وقضاتها . وكثيراً ما كانت السلطة العليا تغفل فى إجراءاتها وأعمالها هذه الصبغة الشرعية ،ولكنها كانت فى أحيان كثيرة ترى من حسن السياسة ، ألا تحمل مسئولية القصاص أو الانتقام أو مصادرة الأموال ، وأن ترد هذه المسئولية إلى القضاء ، وهو فى نظرها ورأيها أداة من أدوات التنفيذ التى تسيطر عليها وتسيرها طبقاً لمصالحها وأهوائها .

وإذا كنا لا نستطيع أن نظفر فى تاريخ القضاء فى تلك العصور بأمثلة كثيرة لتطبيق مبدأ استقلال القضاء ، فإنا نستطيع أن نظفر بالعكس بكثير من الأدلة والوقائع على خضوع القضاء للسلطة العليا أيا كانت ، وتبعيته لها وتوقفه على إرادتها وهواها . ونكتفى بأن نورد لتأييد هذه الحقيقة مثلا واحداً من تاريخ القضاء فى أوائل القرن التاسع الهجرى ، نقله إلينا المقريزى وهو من معاصريه وشهوده ، وخلاصته أنه فى عهد الناصر فرج سلطان مصر ، أنشأ الأمير جمال الدين الاستادار مدرسة عظيمة بالقاهرة ، وأوقف عليها أوقافاً جليلة ، وكان إنشاؤها على أرض عليها أبنية موقوفة على بعض الترب ، فاستبدل بها الأمير أرضاً من

---

(١) المنهل الصافى (مخطوط) ج ٢ ص ٣٠١ .

جملة الأراضى الخراجية بالجيزة ، وحكم له قاضى القضاة كمال الدين عمر بن العديم بصحة الاستبدال ، وهدم البناء وأقام مكانه المدرسة . ثم نكب الأمير جمال الدين وقتله السلطان ، وحسن له بعض وزرائه أن يستولى على المدرسة ، وأن يضع اسمه عليها ، فادعى السلطان عندئذ أن الأرض الخراجية المستبدل بها كانت ملكه ، واغتصبها الأمير جمال الدين دون إذنه ، وحكم له قاضى قضاة المالكية ، بأن بناء المدرسة الذى أقيم على أرض لم يملكها الواقف ، لا يصح وقفه ، وأنه باق على ملكية بانيه إلى حين موته ، وعندئذ انتدب الشهود لتقدير قيمة البناء ، فقدر باثنى عشر ألف دينار ، ودفع المبلغ إلى أولاد جمال الدين ، وباعوا المدرسة للسلطان ، فصارت ملكه ، ثم أوقف السلطان أرض المدرسة وبنائها ، بعد أن قضى له قاضى الحنفية بصحة الاستبدال ، وحكم له القضاة الأربعة بصحة هذا الوقف ؛ بعد أن قضوا من قبل بصحة وقف الأمير جمال الدين . فلما قتل الملك الناصر ، وتولى مكانه الملك المؤيد ، تولى الوزارة بعض أصدقاء جمال الدين ، وسعوا لدى السلطان لبرد أملاك جمال الدين المغتصبة إلى أخيه وأولاده ، فأجاب السلطان ملتمسهم ، وأحيلت القضية مرة أخرى على القضاة الأربعة ، وعقدت لذلك جلسة مشهودة (سنة ٨١٥ هـ) ، وقضى برد المدرسة وأوقافها إلى اسم جمال الدين وما نص عليه فى وقفيته ؛ ورد النظر فيها لأخيه ؛ ثم نزع منه النظر بحكم جديد وأعطى لكاتب السر . وهكذا يقول المقريزى « فكانت قصة هذه المدرسة من أعجب ما سمع به فى تناقض القضاة ، وحكمهم بإبطال ما صححوه ، ثم حكمهم بتصحيح ما أبطلوه ، كل ذلك ميلا مع الجاه ، وحرصاً على بقاء رياستهم ، ستكتب شهادتهم ويُسألون »(١) .

* * *

وهذا مثل بارز يصور لنا مبلغ خضوع القضاء للسلطة التنفيذية ، وتأثره بأهوائها فى تلك العصور ، فلم يكن القضاء يومئذ هو ذلك الملاذ النهائى للحق والحرية ، ولم يك ثمة احترام لما نسميه اليوم بقوة الأحكام النهائية ، فما يفتى به اليوم تحقيقاً لرغبة سلطان أو أمير أو وزير ، يفتى غدا بعكسه تحقيقاً لرغبة السلطان الجديد أو وزيره ، ويقضى بهذه الأحكام المتناقضة نفس القضاة فى كل مرة . وما يقوله

---

(١) راجع خطط المقريزى (مصر) ج ٤ ص ٢٥٣ - ٢٥٦ .

لنا المقريزى من أن بواعث هذه الحالة كلها ترجع إلى ميل القضاة مع الجاه ، وحرصهم على بقاء رياستهم ، هو أصدق تعليل لهذا الصدع الخطير فى بناء الدولة ونظمها . ونستطيع أن نضيف إلى قول المقريزى ، أن هنالك عاملا آخر له قيمته فى خضوع القضاء للسلطة التنفيذية على هذا النحو ، هو أن القضاء الأعلى لم يكن يتمتع فى تلك العصور ، بما أسبغ عليه فى العصر الحديث من الضمانات الكفيلة باستقلاله وحمايته من تدخل السلطة التنفيذية وانتقامها ، وأهم هذه الضمانات كما هو معروف هو عدم قابلية القضاة الأكابر للعزل أو النقل ، وعدم مسئوليتهم أمام أية سلطة أخرى ؛ ولكن القضاء فى العصور الوسطى لم يكن يعرف مثل هذه الطمأنينة سواء فى الشرق أو فى الغرب ، وكان القاضى يخاطر دائماً بمركزه وجاهه ورزقه ، وأحياناً بحياته ، إذا لم يذعن لرأى السلطة التنفيذية وهواها ؛ ولم يكن يستطيع مغالبة هذا التيار الخطير أو تحديه سوى شخصيات قوية جريئة ، تستهين فى سبيل كرامتها واستقلالها بالخطر ، وهى شخصيات لا يقدم إلينا تاريخ القضاء فى تلك العصور منها سوى القليل .

الفصل الثالث

الأميرة المصرية قطر الندى

كانت دولة بنى طولون بمصر ، على قصر عهدها ، من أزهر الدول المصرية . فهى لم تعمر أكثر من ثمانية وثلاثين عاماً (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ) ، ولكنها نثرت حولها من آيات البذخ والبهاء ما جعلها تسطع فى تلك الحقبة اليسيرة كأعظم الدول وأغناها . وأنك لتقرأ من أخبار مدينة القطائع التى أنشأها أحمد بن طولون لتكون عاصمة لدولته، والتى بقى منها إلى اليوم جامعه العظيم ، وتقرأ منها أوصاف قصورها الفخمة ، ورياضها الغناء ، ثم تقرأ منها أوصاف القصر السحرى المدهش ، الذى أنشأه ولده خمارويه وإيوانه الذهبى ، وبركته الكبيرة من الزئبق، ومسارحه للطير والأسود ، وغيرهما — تقرأ عن كل ذلك من التفاصيل والأوصاف المدهشة ، ما يكاد يماثل فى روعته أوصاف قصور ألف ليلة وليلة .

على أن هذا البذخ المغرق الذى امتازت به الدولة الطولونية ، يبدو بالأخص فى حادث شائق ، يعتبر من ألمع الحوادث الاجتماعية فى تاريخ الشرق الإسلامى ، وذلك هو حادث زواج الأميرة قطر الندى ابنة خمارويه بن أحمد بن طولون بالخليفة العباسى المعتضد بالله .

تولى أبو الجيش خمارويه إمارة مصر عقب وفاة أبيه فى سنة ٢٧١ هـ (٨٨٥م) وكان يومئذ فتى فى الحادية والعشرين من عمره ، إذ كان مولده فى سنة ٢٥٠ هـ . وكان من بين إخوته الثلاثة والثلاثين ، أنجبهم وأوفرهم حزماً وكفاية ، وكانت الدولة المصرية يومئذ تشمل مصر والشام ، وتترامى حدودها حتى الفرات . وكان بنو طولون بالرغم من انضواء دولتهم من الناحية الروحية ، تحت لواء الخلافة العباسية ، يخوضون مع جند الخلافة ، معارك متوالية على حدود الشام ، حماية لاستقلالهم ، وكانت الخلافة العباسية من جانبها ، تنظر إلى قيام الدولة المصرية المستقلة بعين التوجس والحذر ، وتخشى أن تغدو غير بعيد منافساً خطراً ينازعها السلطان والنفوذ . فلما تولى خمارويه إمارة مصر ، رأى أن ينتهج حيال الخلافة

سياسة سلام ومهادنة ، لكى يستطيع أن يتفرغ إلى أعمال الإنشاء والتعمير التى كان يشغف بها ، فعقد الصلح مع بلاط بغداد . ولما تولى الخليفة المعتضد بالله الخلافة فى سنة ٢٧٩ هـ (٨٩٢ م)، انتهز خمارويه هذه الفرصة فبعث سفيره عبد الله بن الحصاص إلى بغداد ، ومعه أموال كثيرة ، وتحف وهدايا نفيسة برسم الخليفة المعتضد ، وكانت لدى السفير المصرى مهمة دقيقة أخرى ، عهد بها إليه خمارويه ، وهى أن يعرض على الخليفة المعتضد ، أن يتزوج ولده وولى عهده المكتفى بالله ، الأميرة قطر الندى ابنة خمارويه ، فوافق الخليفة على مشروع الزواج ، ولكنه عرض أن يتزوج هو الأميرة . ووافق خمارويه من جانبه على رغبة الخليفة ، وأخذ فى الاستعداد لتنفيذ هذا المشروع الخطير .

* * *

وعلى أثر عقد الخطبة ، عقدت بين مصر والخلافة ، معاهدة سلم وصداقة ، اعترف الخليفة بمقتضاها بولاية خمارويه على مصر والأراضى الملحقة بها من الفرات شرقاً إلى برقة غرباً ، على أن يحمل خمارويه إلى الخلافة ، بعد القيام بجميع نفقات الدولة بمصر وأرزاق أجنادها ، مائتى ألف دينار فى العام عما مضى ، وثلاثمائة ألف عن المستقبل ، وبعث الخليفة المعتضد رسوله إلى خمارويه بمرسوم الولاية والخلع ، ومنها السيف والتاج والوشاح ، وتوثقت بذلك بين مصر والخلافة أواصر المودة والوئام .

وكانت هذه الأميرة المصرية ، واسمها الحقيق أسماء ، وتعرف بقطر الندى ، من أجمل نساء عصرها ، وأفرهن سحراً وذكاء وتثقيفاً . وقد ولدت بقصر القطائع على الأرجح فى سنة ٢٦٥ هـ ، ولم تكن حين خطبها الخليفة المعتضد قد جاوزت الأربعة عشر ربيعاً . وبالرغم من أنه ليست لدينا تفاصيل شافية ، عن أوصافها الشخصية ، فان جميع الروايات تشيد بجمالها الفائق . وكان والدها خمارويه يعبدها حباً ، ويحيطها بأروع ما يتصوره الخيال من ضروب النعماء والعز والترف .

وهكذا تمت خطبة الأميرة المصرية للخليفة العباسى ، وهى ما تزال زهرة فى بكور تفتحها ، وقدم لها الخليفة صداقاً قدره ألف ألف درهم (عشرة آلاف دينار) ، وبالرغم من ضخامة هذا الصداق فى هذا العصر ، فإنه لم يكن إلا جزءاً يسيراً مما أنفقه والدها على تجهيزها من الأموال الطائلة . فقد أراد خمارويه أن يبذ

فى ذلك سائر من تقدم من الملوك ، وأن ينافس الخلافة فى مظاهر غناها وبذخها . وتقول لنا الرواية إنه «لم يبق خطيرة ولا طرفة ، من كل لون وحسن ، إلا حمله معها» . وتقدم إلينا عن ذلك تفاصيل مدهشة لا يكاد يصدقها العقل . فمن ذلك «أريكة أربع قطع من الذهب ، وعليها قبة من ذهب مشبك ، فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر لا يعرف لها قيمـــة ، ومائة هون من الذهب» . وتزيد الرواية على ذلك أن ابن الجصاص ، وهو الذى عهد إليه بالإشراف على إعداد الجهاز. ثم بمرافقة قطر الندى فى سفرها ، حينما أتى إلى أبيها مودعاً ، سأله خمارويه عما إذا كان قد بقى بينهما حساب ، فأجابه ابن الجصاص إنه بقى من مال النفقة «كسر» ، وتبين من مراجعة طومار (ثبت) النفقة الذى قدمه الجصاص مدوناً به كل ما أنفق على تجهيز الأميرة ، أنها قد بلغت أربعمائة ألف دينار ، فأقره عليها خمارويه . وهذا مبلغ ضخم فى هذا العصر يضارع دخل دولة بأسرها . ويرى بعض المؤرخين أن الخليفة المعتضد أراد بالزواج من الأميرة المصرية أن يفقر الدولة الطولونية ، وقد كان يعلم ما يتسم به خمارويه من الشغف بالبذخ والترف والإسراف البالغ فى هذا الصدد .

ولم يقف هذا البذخ الطائل عند تجهيز الأميرة الفتية ، بل اقترنت به صور أخرى من الإغراق الذى لم يسمع به . ذلك أن خمارويه بعد أن فرغ من إعداد الجهاز أخذ فى التأهب لإرسال ابنته إلى زوجها الخليفة . وهنا أيضاً يجب أن نرجع الذهن إلى قصص ألف ليلة وليلة لكى نتصور ما أحيطت به رحلة قطر الندى من مصر إلى بغداد ، من مظاهر الفخامة والترف . فقد أراد خمارويه أن يجعل من تلك الرحلة الشاقة ، خلال القفر الشاسع ، نزهة هينة ممتعة ، فأمر أن يبنى لها على رأس كل منزلة (محطة) تنزل بها فيما بين مصر وبغداد ، قصراً وثيراً كامل المعدات تنزل به .

وفى أواخر سنة ٢٨١ هـ (٨٩٤ م) تمت أهبة الرحلة ، وخرجت قطر الندى من مدينة مصر فى موكب عظيم ، وبرفقتها عمها شيبان بن طولون ، وابن الجصاص ، وعمتها العباسة ، وعدد من الكبراء والحشم . وشيعتها عمتها العباسة حتى آخر حدود مصر ، فى طريق الشام ، وكانت يومئذ على الحدود الشرقية لمديرية الشرقية ، ونزلت هناك وضربت خيامها ، وبنت قرية سميت «العباسة» باسمها ، وهى

ما تزال قائمة فى مكانها حتى يومنا ، على مقربة من شمال شرقى بلبيس . قال المؤرخ وهو يصف رحلة الأميرة : « فكانوا يسيرون بها سير الطفل فى المهد ، فكانت إذا وافت المنزلة ، وجدت قصراً قد فرش ، فيه جميع ما تحتاج إليه ، وقد علقت فيه الستور ، وأعد فيه كل ما يصلح لمثلها ، وكانت فى مسيرها من مصر إلى بغداد ، على بعد الشقة ، كأنها فى قصر أبيها » .

* * *

ووصل ركب الأميرة المصرية إلى بغداد فى فاتحة المحرم سنة ٢٨٢ هـ ، وزفت إلى الخليفة المعتضد فى شهر ربيع الأول من نفس العام ، فى حفلات عظيمة باذخة ، أسبغت مدى أيام على العاصمة العباسية ، حللا ساطعة من البهاء والمرح . وشغف الخليفة بزوجته الفتية ، وسحره جمالها الرائع وأدبها الجم ، فكانت أحظى نسائه لديه .

ومما يروى أنه خلا بها ذات يوم فوضع رأسه على ركبتها وغلبه النوم ، فتلطفت الأميرة حتى أزالت رأسه عن ركبتها ، ووضعتها على وسادة ، ثم تنحت عن مكانها وجلست بالقرب منه . فانتبه المعتضد فزعاً ، وكان كثير التحرز على نفسه ، وصاح بها فأجابته فى الحال . فلامها على ما فعلت ، وقال لها : « أسلمت إليك نفسى ، فتركتينى وحيداً ، وأنا فى النوم لا أدرى ما يفعل بى » ، فقالت : « يا أمير المؤمنين ما جهلت قدر ما أنعمت على ، ولكنى فيما أدبنى أبى ، أنى لا أجلس مع النيام ، ولا أنام مع الجلوس » . فأعجبه ذلك منها ، وازداد شغفه بها .

ولم تمض أشهر قلائل على زفاف قطر الندى إلى زوجها الخليفة ، حتى قتل والدها خمارويه . وكان قد خرج بعساكر مصر إلى الشام استعداداً للحرب ، ونزل بدمشق ، فأقام بها مدة يسيرة . وفى ذات مساء قتله خدمه وهو نائم على فراشه لدسائس قصر غرامية ، وذلك فى أواخر سنة ٢٨٢ هـ ، فكان مصرعه مأساة مؤلمة ، واستقبل جثمانه بمصر بين مظاهر الحزن العميق ، وخلفه فى إمارة مصر ولده أبو العساكر جيش بن طولون .

* * *

وعاشت الأميرة قطر الندى بضعة أعوام أخرى ، وكانت بقصر الخلافة كوكبه المتألق . ثم توفيت فى شهر رجب سنة ٢٨٧هـ ، لخمسة أعوام فقط من زواجها ،

ودفنت داخل قصر الرصافة ببغداد . وكانت عند وفاتها فى نحو الثانية والعشرين من عمرها ، وهى ما تزال زهرة يانعة فى أروع مواسم التفتح والازدهار .

وعاش الخليفة المعتضد بالله بعد ذلك عامين آخرين ، وتوفى فى شهر ربيع الثانى سنة ٢٨٩ هـ (٩٠٢ م) .

ثم كان مصرع الدولة الطولونية ذاتها بمصر بعد ذلك بأعوام قلائل فى سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٥ م) فتمت بذلك فصول المأساة ، وانتهت بزوال الدولة الطولونية فترة من أفضل ما شهدت مصر الإسلامية من عصور الدعة والرخاء .(١)

---

(١) راجع وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٢٨٢ ، وخطط المقريزى (مصر) ج ٢ ص ١١٢ و ١١٣ .

الفصل الرابع

سفارة بيزنطية إلى مصر

فى القرن الرابع الهجرى

كانت الدولة الإخشيدية آخر الدول الإقليمية التى قامت بمصر فى ظل الدولة العباسية ، وكان مؤسسها محمد بن طغج الملقب بالإخشيد، أميراً وافر الذكاء والدهاء والعزم ، اختاره الخليفة الراضى بالله لولاية مصر فى سنة ٣٢٣ هـ . (٩٣٤ م)[١] فاستطاع بهمته أن ينشئ فيها له ولعقبه دولة لبثت خمسة وثلاثين عاماً حتى الفتح الفاطمى . وكانت الدولة الإخشيدية قرينة الدولة الطولونية ، سواء فى ظروف تكوينها ، ومدى سلطانها ، إذ كانت مثلها تضم مصر والشام ، أو فى علائقها بالخلافة العباسية من ناحية ، وبالدولة الرومانية الشرقية (الدولة البيزنطية) من ناحية أخرى ؛ وكان الاتصال الجغرافى المباشر بين مصر والدولة البيزنطية من ناحية الحدود الشمالية ، وتنافسهما البحرى المستمر فى شرقى البحر الأبيض المتوسط ، وعلائقهما التجارية الهامة ، مما يستوجب تنظيم العلائق الدبلوماسية بين الدولتين بصورة مرضية ، وكانت هذه العلائق تنتظم أحياناً وتضطرب أحياناً ، وفقاً لتعادل القوى أو تفاوتها ، فإذا شعرت الدولة البيزنطية بقوتها وتفوقها ، حملت على تحقيق أهدافها القومية من دفع حدودها إلى الجنوب وغزو شمال الشام ، وبسط سيادتها البحرية على شرقى البحر الأبيض المتوسط ؛ وإذا آنست أنها لا تستطيع مناهضة الخلافة العباسية ، وإذا شعرت بالأخص أن مصر تحوز فترة من القوة والنهوض فى ظل دولة قوية ، عمدت إلى سياسة الوفاق والتفاهم مع الخلافة ومع مصر .

ففى أوائل القرن العاشر الميلادى كان على عرش الدولة البيزنطية قيصر ضعيف هو قسطنطين السابع ؛ وكانت الأطماع والأهواء والدسائس، تضطرم من

---

(١) كان الخليفة القاهر قد اختار ابن طغج قبل ذلك لولاية مصر (سنة ٣٢١ هـ) ولكنه لم يدخلها فى تلك المرة وكانت ولايته ولاية اسمية لمدة شهر فقط .

حوله وتعصف بمنعة الدولة وقوتها ، وكان وزيره رومانوس قد زوجه ابنته الحسناء هيلانة ،وما زال به حتى حمله على إشراكه معه فى الملك وتلقيبه بلقب القياصرة ؛ وهكذا جلس على عرش القياصرة. فى تلك الفترة قيصران هما قسطنطين ورومانوس . ولم يلبث رومانوس أن خلع على ابنه اسطفانوس لقب القيصر أيضاً ، فأضحى القياصرة ثلاثة معاً . وكانت قسطنطينية قد شهدت من قبل مرة أو اثنتين قيصرين يجلسان على العرش . ولكنها لم تشهد بدعة القياصرة الثلاثة إلا فى تلك المرة . وكانت سياسة بيزنطية الخارجية تميل يومئذ إلى التعاون مع المسلمين ، ولهذه الغاية عمل القيصر رومانوس ،فأوفد سفارتين إحداهما إلى الخليفة العباسى الراضى بالله ، والأخرى إلى الإخشيد أمير مصر .

وقد وقعت سفارة القيصر إلى الخليفة الراضى بالله سنة ٣٢٦ هـ (٩٣٧ م) وكان كتاب بلاط قسطنطينية إلى الخليفة مكتوباً باللغة اليونانية بالذهب ، ومعه ترجمته العربية مكتوبة بالفضة وعنوانه : « من رومانس وقسطنطين واسطفانس عظماء ملوك الروم إلى الشريف البهى ضابط سلطان المسلمين » وجاء فى مستهله ما يأتى :

« باسم الأب والإبن وروح القدس الإله الواحد ، الحمد لله ذى الفضل العظيم ، الرؤوف بعباده ، الجامع للمفترقات ، والمؤلف للأمم المختلفة فى العداوة حتى يصيروا واحداً ... » . ثم يعرب القياصرة بعد ذلك عن رغبتهم فى طلب الهدنة وعقد أواصر الصداقة مع المسلمين ، فرد عليهم الخليفة الراضى بكتاب جاء فى مستهله :

« من عبد الله أبى العباس الإمام الراضى بالله أمير المؤمنين إلى رومانس وقسطنطين واسطفانس رؤساء الروم . سلام على من اتبع الهدى ، وتمسك بالعروة الوثقى ، وسلك سبيل النجاة والزلفى ... » وفيه يجيبهم إلى ما طلبوا من عقد الهدنة والصداقة .

* * *

ورأى بلاط قسطنطينية فى نفس الوقت أن يعمل على توثيق علائقه مع مصر ، فبعث إليها سفارة خاصة ، ولم تكن سفارة صداقة فقط على نحو ما كانت سفارته إلى بلاط بغداد ، بل كانت تقصد فى نفس الوقت إلى تنظيم مسألة افتداء

الأسرى ، وتسهيل المعاملات التجارية فى البيع والشراء ، هذا فضلا عن عقد أواصر المودة والصداقة بين الدولتين . وبعث القيصر كتابه إلى بلاط مصر مع رسوليه نقولا وإسحاق . ولم يصل إلينا نص كتاب القيصر ، ولكن انتهى إلينا بالعكس رد الإخشيد على كتابه ، ومنه علمنا موضوع السفارة وظروفها .

ووقعت سفارة القيصر إلى مصر فيما يبدو فى سنة (٣٢٧ أو ٣٢٨ هـ) . (٩٣٨ أو ٩٣٩ م) . وكانت موجهة من « أرمانيوس » ملك الروم (رومانوس) إلى الإخشيد أمير مصر». والظاهر أن القيصر رومانوس كان قد وصل يومئذ إلى ذروة قوته ونفوذه واستأثر بالأمر كله ، فلم ير وجهاً لذكر زميليه القيصرين الآخرين قسطنطين واسطفانوس على نحو ما فعل فى كتابه إلى الخليفة . والظاهر أيضاً أن كتاب القيصر إلى أمير مصر لم يخل من بعض المآخذ الشكلية ، فهو يمن فيه على الإخشيد بأنه تنازل لمكاتبته مباشرة لأن مقامه كقيصر الدولة الرومانية الشرقية يحتم عليه ألا يكاتب من هو دون الخليفة ، ولكنه مع ذلك قد خص الإخشيد بالمكاتبة لما نمى إليه من رفيع مكانته ، وحميد سيرته ، وموفور عدالته ورحمته .

وقد رد الإخشيد على كتاب القيصر بكتاب شهير من إنشاء كاتبه إبراهيم ابن عبد الله البجيرمى ، وكان من أبرع كتاب عصره . ويعتبر هذا الرد وثيقة دبلوماسية من الطراز الأول تفيض إباء وحزماً ، ويطبعها فى نفس الوقت طابع بارع من اللباقة والمجاملة ؛ ذلك أن الإخشيد لم يغضب لما وجهه إليه القيصر من عبارات المن والاستعلاء، ولكنه بالعكس أكرم وفادة رسوليه وغمرهما بالتحف المختارة هدية إلى سيدهما ، وبذل لهما كل تسهيل ممكن لتحقيق مهمتهما التجارية . على أنه لم ينس فى نفس الوقت أن يجيب القيصر على منه واستعلائه ، وأن يفند أقواله فيما زعمه من تفضله بمكاتبته .

ويستهل الإخشيد كتابه بالشكر لله على ما أسبغ القيصر عليه من صفات الرحمة والعدل ، ثم يعطف على منه بمكاتبته بقوله :

« وأما ما وصفته من ارتفاع محلك عن مرتبة من هو دون الخليفة فى المكاتبة لما يقتضيه عظم ملككم ، وأنه الملك القديم الموهوب من الله ، الباقى على الدهر ، وأنك إنما خصصتنا بالمكاتبة لما تحققته من حالنا عندك ، فإن ذلك لو كان حقاً ،

وكانت منزلتنا كما ذكرته تقصر عن منزلة من تكاتبه ، وكان لك فى ترك مكاتبتنا غنم ورشد ، لكان من الأمر البين أن أحظى وأرشد وأولى بمن حل محلك أن يعمل بما فيه صلاح رعيته ، ولا يراه وصمة ولا نقيصة ولا عيباً ، ولا يقع فى معاناة صغيرة تعقبها كبيرة ، فإن السائس الفاضل قد يركب الأخطار ويخوض الغمار ، ويعرض مهجته فيما ينفع رعيته ؛ والذى تجشمته من مكاتبتنا إن كان كما وصفته ، فهو أمر سهل يسير ، لأمر عظيم خطير ... » .

ثم ينوه الإخشيد بأهمية مكانته وفخامة ملكه ، وما لمصر من غابر الزمن من ملك باذخ ، وأن ملكه يشتمل فضلا عن مصر ، على فلسطين والشام ، وأنه يتقلد أمر الحرمين الشريفين ، حيث منبع الرسالة ، ومدينة الرسول ؛ ثم يخاطب القيصر بقوله : « وما كنت أحب أن أباهيك بشىء من أمر الدنيا ، ولا أتجاوز الاستيفاء لما وهبه الله لنا من شرف الدين الذى كرمه وأظهره ... لكنك سلكت مسلكاً لم يحسن أن نعدل عنه ، وقلت قولا لم يسعنا التقصير فى جوابه ، ومع هذا فإنا لم نقصد بما وصفناه من أمرنا مكاثرتك ، ولا اعتمدنا تعيين فضل لنا نعوذ به ، إذ نحن نكرم عن ذلك ، ونرى أن نكرمك عند محلك ومنزلتك ... » .

ويذكر الإخشيد القيصر بسوابق دبلوماسية تؤيد وجهة نظره ، فقد كتب القياصرة من قبل إلى خمارويه بن أحمد بن طولون ، وإلى تكين مولى الخليفة وحاكم مصر وحدها ، فهو بمركزه ومكانته ، وما فوضه الخليفة إليه ، أفضل من هؤلاء وأسمى مقاماً .

وأما عن مطالب القيصر فإن الإخشيد يجيبه عما طلب من تنظيم الفداء وتبادل الأسرى ، جرياً على ما سبق اتباعه فى هذه المسألة من قبل ، وقد كانت منذ أيام الرشيد موضوع اتفاقات خاصة بين المسلمين والدولة البيزنطية ؛ ويشكر الإخشيد للقيصر عنايته بأمر الأسرى المسلمين ، وما يلقونه لديه من المعاملة الحسنة ؛ كذلك يبدى الإخشيد استعداده لعقد الصداقة مع القيصر ، مشيراً إلى ذلك بقوله : « وأما ما ابتدأتنا به من المواصلة ، واستشعرته لنا من المودة والمحبة ، فإن عندنا من مقابلة ذلك ما توجبه السياسة التى تجمعنا على اختلاف المذاهب ، وتقتضيه نسبة الشرف الذى يؤلفنا على تباين النحل ... » .

ويشير الإخشيد بعد ذلك إلى ما بعثه إلى القيصر من الهدايا صحبة رسله ، وإلى

ما قدمه إليهم من التسهيلات التجارية المرغوبة فى البيع والشراء ، ثم يختتم رسالته بقوله : « ومن ابتدأ بجميل لزمه الجرى عليه والزيادة ، ولا سيما إذا كان من أهله وخليقاً به ، وقد ابتدأتنا بالمؤانسة والمباسطة ، وأنت حقيق بعمارة ما بيننا ، وباعتمادنا بحوائجك وعوارضك قبلنا ، فأبشر بتيسير ذلك إن شاء الله » (١).

* * *

تلك تفاصيل السفارة الشهيرة التى وجهها القيصر رومانوس الأول إلى الإخشيد أمير مصر ؛ وقد كانت رسالة الإخشيد فى الرد على هذه السفارة ، كما رأينا قطعة من البراعة الدبلوماسية ، صيغت فى أسلوب سياسى بديع يجمع بين حزم المخاطبة والمساجلة ، وبين رقة المجاملة ؛ وفى صيغتها ومحتوياتها ما يلقى ضوءاً كبيراً على طبيعة العلائق بين مصر وبيزنطية ، فى أوائل القرن الرابع الهجرى (القرن العاشر الميلادى) .

وكان بلاط قسطنطينية فى نفس الوقت الذى يعمل فيه على تنظيم علائق الصداقة والمودة مع الشرق الإسلامى ، يسعى أيضاً إلى عقد مثل هذه الصداقة مع الغرب الإسلامى ، أعنى مع خلافة قرطبة ، فلم تمض أعوام قلائل على توجيه السفارة إلى مصر ، حتى وجه القيصر قسطنطين السابع باسمه واسم ولده رومانوس فى سنة ٣٣٦ ﻫ (٩٤٦ م) سفارة إلى عبد الرحمن الناصر خليفة الأندلس ، يطلب إليه عقد المودة والتحالف ؛ وكان القيصر رومانوس الأول قد أرغم فى أثناء ذلك على التنازل عن العرش واعتناق الرهبنة ، وعاد القيصر الشرعى قسطنطين السابع إلى استئناف سلطانه وحريته ، بيد أنه سار على نفس السياسة التى رسمها القيصر رومانوس لعقد الصداقة مع الدول الإسلامية فى الشرق والغرب ، وكانت سفارة القيصر إلى الأندلس من أشهر الأحداث الدبلوماسية فى ذلك العصر ، وهى سفارة تفيض الرواية الإسلامية فى تفاصيلها الشائقة .

---

(١) وردت رسالة الإخشيد إلى القيصر رومانوس كاملة فى صبح الأعشى : ج ٧ ص ١٠ — ١٨

الفصل الخامس

أسطورة تنصّر المعزّ لدين الله

تردد أخبار الكنيسة القبطية المصرية أسطورة قديمة ؛ خلاصتها أن خليفة من أعظم خلفاء الإسلام ، هو المعز لدين الله الفاطمى ، مؤسس الدولة الفاطمية فى مصر ، ومنشئ القاهرة عروس الأمصار الإسلامية ، والجامع الأزهر معقل التفكير الإسلامى ومنارته فى العصور الوسطى ، قد ارتد عن الإسلام واعتنق النصرانية سراً . وقد نقل مرقص باشا سميكة هذه الأسطورة فى الفصل الذى كتبه عن « الآثار القبطية » فى تقويم الحكومة المصرية ، فذكر فى كلامه عن كنيسة أبى السيفين ما يأتى :

« تأسست فى القرن السادس ، ثم هدمت وتجددت فى أيام المعز لدين الله الفاطمى فى القرن العاشر ... وبجانبها كنيسة صغيرة بها أحجبة من العصر الفاطمى محلاة بنقوش بارزة تمثل القديسين ، ومعمودية يقال إن الملك المعز لدين الله تعمد فيها سراً »(١) .

ويقدم سميكة باشا لتأييد هذه الأسطورة نصين أوردهما فى مقال نشره بجريدة الأهرام(٢)، رداً على ناقديه ، وهما :

الأول — عبارة وردت فى كتاب الأستاذ ألفريد بتلر عن كنائس مصر القبطية القديمة هذه ترجمتها : « وفى هذه المعمودية طبقاً لأسطورة القسيس (أعنى قسيس الكنيسة) عمّد السلطان المعز حينما ارتد إلى النصرانية »(٣) .

والثانى — عبارة وردت فى كتاب راهب قبطى عن تاريخ الكنيسة اسمه « الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة » هذا نصها : « قيل إن المعز بعد حادثة جبل

---

(١) راجع فصل « الآثار القبطية » بقلم مرقص باشا سميكة مؤسس المتحف القبطى — تقويم الحكومة المصرية لسنة ١٩٣١ ص ١٧١ .

(٢) جريدة الأهرام الصادرة فى ٨ أغسطس سنة ١٩٣١ (الصفحة الأولى) .

(٣) **Butler : The ancient Coptic Churches of Egypt, (I. p. 117)**

المقطم ، تخلى عن كرسى الخلافة لابنه العزيز وتنصر ولبس زى الرهبان ، وقبره إلى الآن فى كنيسة أبى سيفين»(١).

ويضيف سميكة باشا إلى ذلك ، أن هذه الرواية متواترة منذ مئات السنين ؛ وفى وسع المعترضين أن يذهبوا إلى تلك الكنيسة الأثرية ، فيدلهم خدامها على هذه المعمودية التى تسمى بمعمودية السلطان المعز .

* * *

هذه هى النصوص التى يعتمد عليها سميكة باشا فى تأييد الأسطورة القبطية القائلة بتنصير المعز لدين الله . وهى نصوص لا تستحق أن توسم بالأدلة أو المراجع وليست لها أية قيمة فى الإثبات . غير أننا مع ذلك نتناولها بشىء من الجدل لا على أنها أدلة مؤيدة يجب نقضها ، بل على أنها بذاتها قرائن على سخف الرواية ومبلغها من الركاكة والسقم .

فأما النص الأول وهو عبارة الأستاذ بتلر ، فقد أوردها نقلا عما سمعه من قسيس كنيسة القديس جبريل إحدى كنائس دير أبى سيفين ، ولم يوردها من عنده . واحتاط فى ذكرها فوصفها بأنها أسطورة أو قصة خارقة (legend) . وقد عاد فأوردها كلها فى مكان آخر طبقاً لما سمعه من قسيس الكنيسة أثناء زيارته لها ؛ وهذه هى :

«سمع الخليفة المعز ، مؤسس القاهرة ، كثيراً عن حياة النصارى الروحية ، وعن إخلاصهم لنبيهم ، وعن الأمور العجيبة التى يحتويها كتابهم المقدس ، فأرسل إلى كبير النصارى وإلى كبير شيوخ قومه ، وأمر بإجراء تلاوة رسمية أولا لإنجيل المسيح ثم للقرآن ، وبعد أن سمع كلا منهما بعناية شديدة ، قال بمنتهى العزم : «محمد مفيش» أى أن محمداً لا شىء أو لا وجود له ؛ وأمر بهدم المسجد الواقع أمام كنيسة الأنبا شنودة ، وأن تبنى مكانه أو توسع كنيسة أبى سيفين . ولا زالت بقايا هذا المسجد موجودة بين الكنيستين . وزاد القسيس على ذلك ، أن الخليفة المعز تنصر ، وعمد بعد ذلك فى مكان التعميد الواقع بجوار كنيسة القديس يوحنا»(٢).

(١) كتاب الخريدة النفيسة – تأليف أحد رهبان دير السيدة برموس – ج ٢ ص ٢٤٨ (طبعة سنة ١٩٢٤) .

(٢) Butler : Ibid. (I. p. 126)

والأستاذ بتلر ينقل هذه القصة كأسطورة (legend) لها علاقة بتاريخ بنيان هذه الكنيسة ، لا على أنها واقعة تاريخية لها أية قيمة . وهى تنطق بذاتها بسخف ما ورد فيها واستحالته ، ومن السخرية أن تقدم فى معرض البحث التاريخى والإثبات العلمى .

وأما النص الثانى الذى ورد فى كتاب « الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة » فلا يخرج أيضاً عن كونه خرافة كنسية مما يتناقله القسس . وليست قيمته فى الإثبات أكثر من النص الأول . غير أنه يقدم الأسطورة بشكل آخر ، ويقرنها بوقائع معينة ، فيقول إن المعز « بعد حادثة المقطم » نزل عن الخلافة لابنه العزيز ، « وتنصر ولبس زى الرهبان ، وقبره إلى الآن فى كنيسة أبى سيفين » . ويصح أن نشير إلى حادثة المقطم هذه ، فقد أوردها بتلر أيضاً فى بدء كلامه عن تاريخ كنيسة أبى سيفين ، ووصفها كذلك بأنها أسطورة خارقة (legend) وخلاصتها : « أن الخليفة سمع بأنه قد ورد فى إنجيل النصارى أن الإنسان إذا كان مؤمناً فإنه يستطيع أن ينقل الجبل بكلمة . فأرسل إلى إفرايم (أبرام) البطريق وسأله عما إذا كانت هذه القصة العجيبة حقيقية ، فأجابه بالإيجاب فعندئذ قال له : « قم بهذا الأمر أمام عينى وإلا سحقت اسم النصرانية ذاته » . فذعر الرهبان وعكفوا على الصلاة فى كنيسة المعلقة ؛ وفى اليوم الثالث رأى البطريق العذراء فى الحلم تشجعه ، فقصد فى موكب كبير من النصارى وهم يحملون الأناجيل والصلبان إلى المكان المعين حيث كان الخليفة وحاشيته ، وبعد أن صلى البطريق رفعت الأناجيل والصلبان على دخان البخور ، ودعوا جميعاً فاهتز الجبل وانتقل ! وعندئذ وعد المعز « أبرام » بأن يمنحه كل ما طلب ، وأذن له فى بناء كنيسة أبى سيفين »[١] .

ويستنتج الأستاذ بتلر من مقارنة هذه الأساطير ، بأن الكنيسة « قد بنيت أيام المعز حوالى سنة ٩٨٠ » وهو استنتاج يؤيده أن أبرام السريانى المشار إليه رسم بطريقاً فى سنة ٩٧٥ ميلادية ، على ما رواه ساويرس أسقف الأشمونين فى كتاب « تاريخ البطاركة »[٢] . ولإيراد هذا التاريخ أهمية سنعود إليها .

(١) Butler : Ibid. (p. 124—127)

(٢) Butler : Ibid. (p. 125) — ويقول المقريزى فى كلامه عن تاريخ البطاركة القبط إن أبرام (ويسميه افراهام بن زرعة) قد رسم بطريكاً فى سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) ، (الخطط ج ٢ ص ٤٩٥) متفقاً بذلك مع الرواية القبطية تقريباً .

إذاً يكون الزعم بتنصير المعز لدين الله قائماً على أساطير كنسية فقط لا سند لها من التاريخ ، وفى ذلك وحده ما يكفينا مؤونة دحضها لأنها منهارة من تلقاء نفسها . ولكن سنرى أيضاً أنها تناقض الحقائق التاريخية الثابتة .

* * *

دخلت الجيوش الفاطمية بقيادة جوهر الصقلى مصر فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ (٧ يوليه سنة ٩٦٩ م) . ووضعت خطط القاهرة فى نفس الليلة بأمر الخليفة المعز ، كما اختط الجامع الأزهر بعد ذلك بأشهر (جمادى الأولى سنة ٣٥٩) . ولكن المعز لم يقدم إلى مصر إلا بعد ذلك بأربعة أعوام ، بعد أن أنشئت المدينة الجديدة وأعدت لنزوله ؛ واستتب النظام وتوطد الملك الجديد ؛ فدخل مصر بأهله وأمواله فى ٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ (منتصف يونيه سنة ٩٧٣م) ولم يطل ملكه بها أكثر من عامين ونصف عام ، إذ توفى فى ١٤ ربيع الثانى سنة ٣٦٥ (٢٠ ديسمبر سنة ٩٧٥ م) .

ولم يكن فتح مصر غنما سياسياً لبنى عُبيد (الفاطميين) فقط ، بل كان غنما للدعوة الشيعية التى لبث بنو العباس يطاردونها زهاء قرنين ؛ والتى رفع لواءها عبيد الله المهدى جد المعز الأكبر ، وبدأت ظفرها السياسى بافتتاح المغرب . فكانت مسألة الإمامة ما تزال سند الفاطميين ؛ وكان مُلكُهم الجديد بمصر يصطبغ بنفس الصبغة الدينية العميقة التى حملت لواءهم إلى المغرب ؛ وكانت فورة القرامطة التى امتدت يومئذ نحو الشام تهدد دعوتهم وملكهم فى مصر . فكان عليهم أن يؤيدوا هذه الدعوة ، وأن يثبتوا قدسيتها ونقاءها ، فيثبتوا بذلك فى وجه المنكرين لنسبتهم وشرعية دعوتهم ؛ وأنهم كما يدعون ، سلالة فاطمة ابنة الرسول (صلعم) ، وولد على . ولهذا نرى المعز لدين الله حين مقدمه إلى الإسكندرية يقول لوفد المصريين الذى ذهب للقائه : « إنه لم يسر لازدياد فى ملك ولا رجال ولا سار إلا رغبة فى الجهاد ونصرة للمسلمين »(١) ؛ ونراه فى موكبه وشعائره الدينية حريصاً على مظاهر الإمامة ، يبدو إماماً دينياً أكثر منه ملكاً سياسياً . وإليك بعض هذه المظاهر ، شاهدها وسجلها الفقيه الحسن بن إبراهيم بن زُولاق المصرى ، صديق المعز ، ومؤرخ سيرته :

---

(١) اتعاظ الحنفاء للمقريزى (المنشور بعناية صديقى المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال) ص ١٨٥ .

(١) قال : « لما وصل المعز إلى قصره خر ساجداً ثم صلى ركعتين ؛ وصلى بصلاته كل من دخل »(١) .

(٢) « فى يوم عرفة نصب المعز الشمسية التى عملها للكعبة على إيوان قصره ، وسعتها اثنا عشر شبراً فى اثنى عشر شبراً وأرضها ديباج أحمر ... وفيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق ، وفى دورها كتابة آيات الحج بزمرد أخضر »(٢) .

(٣) « ركب المعز يوم الفطر لصلاة العيد إلى مصلى القاهرة ، وخطب وأبلغ وأبكى الناس ، وكانت خطبته بخضوع وخشوع ... »(٣) .

(٤) « غدا المعز للصلاة فى عيد النحر بعساكره ، وصلى كما ذكر فى صلاة الفطر من القراءة والتكبير وطول الركوع والسجود »(٤) .

بل كانت الإمامة النبوية صفة رسمية للمعز لدين الله ، دُعى له بها فى أول جمعة رسمية أقيمت سنة ٣٥٨ هـ فى الجامع العتيق (جامع عمرو) وجاء فى خطبتها : « اللهم صل على عبدك ، ووليك ثمرة النبوة ، وسليل العزة الهادية ، عبد الله (الإمام) معد أبى تميم المعز لدين الله أمير المؤمنين ، كما صليت على آبائه الطاهرين وأسلافه الأئمة الراشدين ... » .

وبلغ من قوة هذه المظاهر أن كان المعز يوسم كالأنبياء بقولهم « عليه السلام » « وصلوات الله عليه »(٥) .

وكان نقش خاتم المعز « لتوحيد الإله الصمد دعا الإمام معد ؛ لتوحيد الإله العظيم دعا الإمام أبو تميم » .

أوردنا هذه الوقائع لنبين كيف كان المعز لدين الله حريصاً كل الحرص على صفته الدينية ، وعلى مظاهر الإمامة ؛ وكيف كانت الصبغة الدينية العميقة تطبع سياسة الدولة الفاطمية فى مفتتح عهدها بمصر ، خصوصاً وأن هذه الصبغة ، لم تكن بمنجاة من المطاعن . وكان هذا الطعن يتناول صحة نسب العُبَيدين إلى

---

(١) المقريزى عن ابن زولاق - فى اتعاظ الحنفاء ص ١٨٧ .

(٢) المقريزى عن ابن زولاق - فى الخطط - ج ١ ص ٣٨٥ .

(٣) المقريزى - اتعاظ الحنفاء ص ١٩١ .

(٤) المقريزى - اتعاظ الحنفاء ص ١٩٤ .

(٥) المقريزى عن ابن زولاق - الخطط ج ١ ص ٤٧٠ - وابن زولاق نفسه فى ديباجة كتاب اخبار سيبويه المصرى (مخطوط بدار الكتب رقم ٣٥٤ تاريخ) وفى المطبوع ص ١٧ .

آل البيت، وشرعية إمامتهم وتعاليمهم؛ وقد اتخذ قبل بعيد صبغة سياسية رسمية. ففى سنة ٤٠٢ هـ أصدر بلاط بغداد ، فى عهد الخليفة القادربالله ، محضراً رسمياً موقعاً عليه من كبار الفقهاء والقضاة ، وبعض أكابر الشيعة ، يتضمن الطعن فى نسب الفاطميين خلفاء مصر ، وأنهم ليسوا من آل البيت ، بل هم ديصانية ينتسبون إلى ميمون ابن ديصان ، بل أنهم كفار زنادقة ، وفساق ملاحدة ، أباحوا الفروج وأحلوا الخمور وسبوا الأنبياء ، وادعوا الربوبية[١] . وفى سنة ٤٤٤ هـ ، كتب ببغداد محضر آخر يتضمن نفس المطاعن ؛ وزيد فيه أن الفاطميين يرجعون إلى أصل يهودى أو مجوسى[٢] .

ومسألة الطعن فى نسب الفاطميين هذه ، والطعن فى شرعية إمامتهم وتعاليمهم ، مشهورة فى التاريخ الإسلامى[٣] ؛ وهى ليست من موضوعنا ، ولكن لم يقل أحد من خصومهم قط إن المعز لدين الله تعمد أو تنصر . ولو صحت هذه الأسطورة ، بل لو جرت فقط مجرى الإشاعة أو التهمة ، لما غفل عنها العباسيون قط ، ولأثبتوها فى مطاعنهم الرسمية ، وروجها مؤرخوهم ؛ ولذكرها أكثر من مؤرخ مسلم . ولكن إجماع الرواية الإسلامية على تجاهلها وإغفالها فى كل ما وجه إلى الفاطميين من صنوف المطاعن ، مما يقطع باختلاقها وتزويرها .

٢

ننتقل بعد ذلك إلى منطق الوقائع المادية :

إن الأسطورة القبطية لا تحدثنا متى تعمد المعز وتنصر . ولكن قِسَّ كتاب « الخريدة النفيسة » يروى أنه أى المعز بعد حادثة جبل المقطم ، « تخلى عن الخلافة لابنه العزيز ، وتنصر ولبس زى الرهبان » .

وقد رأينا أن حادثة المقطم هذه ، قد وقعت ، على قول الأسطورة القبطية ، وكما يقرر الأسقف ساويرس فى كتاب « تاريخ البطاركة » على يد البطريق أبرام

---

(١) ابن خلدون ج ٣ ص ٤٤٢ - وأبو الفداء ج ٢ ص ١٤٣ .

(٢) ابن الاثير - ج ٨ ص ٢٠٥ .

(٣) يراجع فى ذلك بالأخص ابن الأثير - ج ٨ ص ٩ ، وخطط المقريزى - ج ١ ص ٣٤٨ ، وقد تناولنا هذا الموضوع بإفاضة فى كتابنا « الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية » ، (الطبعة الثانية ص ٤٧ - ٧٥) .

(إفرايم) الذى رسم بطريقاً فى سنة ٩٧٥ م[١] ، وأنه ترتب على وقوعها أن أذن المعز للبطريق ببناء كنيسة أبى سيفين ، فبنيت « حوالى سنة ٩٨٠ فى عهد المعز »[٢]. ومعنى ذلك أن معجزة الجبل لا بد أن تكون قد وقعت قبل ذلك بقليل أعنى نحو سنة ٩٧٩ أو سنة ٩٧٨ على الأكثر . فاذا علمنا نحن أن المعز لدين الله توفى فى ديسمبر سنة ٩٧٥ (ربيع الثانى سنة ٣٦٥هـ) ، تحققنا بطريقة مادية حاسمة بطلان الأسطورة الكنسية لأن المعز توفى قبل حدوث المعجزة المزعومة بثلاثة أعوام أو أربعة على الأقل .

والحقيقة التاريخية هى أن المعز لدين الله أذن للبطريق أبرام بتعمير كنيسة القديسة مرقريوس والمعلقة بالفسطاط ، لا إيماناً بأية معجزة كنسية ، ولكن جرياً على سياسة التسامح التى اتخذها إزاء رعاياه غير المسلمين . فقد كان يحسن معاملة النصارى واليهود . وكثيراً ما كان ساويرس (سيڤروس) أسقف الأشمونين ، يجادل الفقهاء المسلمين فى مسائل الدين[٣] ، وقد اتخذ المعز وزيراً يهودياً أسلم هو يعقوب بن كلس وأولاه نفوذاً عظيماً . وقد كان التسامح الدينى سياسة مقررة للإسلام فى معظم الدول الإسلامية . وكان تسامح المعز ، تسامح القادر المستنير . ولكن الأساطير الكنسية شاءت أن تجعل منه محاباة مقصودة ، وزيغاً من الخليفة القادر إلى تعاليم النصرانية . فإذا لقيت الكنيسة خليفة عسوفاً متعصباً كالحاكم بأمر الله ، يمعن فى اضطهادها ، صمتت أساطيرها ، واكتفت بأن ترميه بالوحشية والتعصب .

تقول الأسطورة الكنسية أيضاً ، إن المعز بعد أن نزل عن الخلافة لابنه العزيز تنصر وترهب ودفن بكنيسة أبى سيفين . فمتى وقع ذلك ؟ إن المعز لم ينزل عن الخلافة أثناء حياته قط ، بل توفى وهو خليفة ؛ وكان ابنه العزيز ولى عهده حتى وفاته . وكانت وفاته فى ١٤ ربيع الثانى سنة ٣٦٥ (ديسمبر سنة ٩٧٥م) ، بالقصر الفاطمى ، بالقاهرة المعزية ، بعد مرض طال عدة أسابيع ؛ فبويع ولده العزيز بالخلافة فى نفس اليوم[٤] ؛ ودفن المعز لدين الله فى نفس القصر الفاطمى بتربة

---

(١) Butler : Ibid. (I. p. 125)

(٢) » » (I. p. 127)

(٣) Wuestenfeld : Geschichte der Fatimiden (p. 127)

(٤) هذه هى رواية المقريزى – الخطط ٢ ص٢٨٤ . ورواية ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة =

الزعفران أو التربة المعزية ، التى كانت قطعة من القصر الكبير ، والتى أودعها المعز يوم قدومه إلى مصر توابيت أجداده[١] . أما زعم الأسطورة الكنسية أن المعز قد دفن بكنيسة أبى سيفين فإنه ينقضها من أساسها ، إذ من ذا الذى تولى دفنه فيها؟ أيكون الذى دفنه بالكنيسة ولده العزيز خليفة المسلمين من بعده؟ أم دفنه القبط فيها بالقوة القاهرة ؟ وإذا كان المعز قد تنصر سراً ، فكيف يعقل أن يترهب جهراً وأن يلتجئ إلى كنيسة قبطية على مقربة من عاصمته ، وعلى مرأى ومسمع من أسرته وقادته وجنده ، بل على مرأى ومسمع من العالم الإسلامى الذى يدعى إمامته ؟ الحق أن الأسطورة الكنسية تنحط هنا إلى أعمق درك من التناقض والبطلان .

* * *

وبعد فقد رأينا أن المعز قدم إلى مصر من إفريقية فى رمضان سنة ٣٦٢ (يونيه سنة ٩٧٣) وأن خلافته لم تطل أكثر من عامين ونصف عام ، إذ توفى فى ربيع الثانى سنة ٣٦٥ . وكانت ثورة القرامطة تهدد ملكه الجديد فى مصر ودمشق ، وكان القرامطة قد زحفوا على مصر بالفعل فى أوائل سنة ٣٦١هـ ، بقيادة زعيمهم الحسن الأعصم ، ونشبت بينهم وبين جيوش المعز بقيادة جوهر الصقلى ، معارك هائلة على مقربة من الخندق (بجوار القاهرة) انتهت بهزيمتهم وارتدادهم نحو الشام. ولكنهم اجتمعوا ثانية وقصدوا دمشق وفيها ابن فلاح من قبل المعز ، فافتتحوها واستولوا عليها ، ثم زحفوا ثانية على مصر بقيادة الحسن الأعصم أيضاً ، فلقيتهم جيوش المعز على مقربة من بلبيس ، وهزمتهم وأمعنت فيهم قتلا . وذلك فى أواخر سنة ٣٦٣ هـ . وكتب المعز إلى زعيم القرامطة كتاباً طويلا يدعوه فيه إلى الطاعة والهداية ، ويشرح فيه الدعوة الفاطمية وأصولها ؛ وهى وثيقة هامة تدل عباراتها وروحها على مبلغ حرص المعز على التمسك برسوم الإمامة ، وأصول الدين . وهــذا مستهلها :

« من عبد الله ووليه وخيرته وصفيه ، معد أبى تميم المعز لدين الله أمير المؤمنين ، وسلالة خير النبيين ، ونجل على أفضل الوصيين ، إلى الحسن بن

= فى حوادث سنة ٣٦٥) . ولكن ثمة رواية أخرى تقول إن العزيز كتم موت أبيه حتى عيد النحر (ابن خلدون ٤ ص ٥١ وابن الأثير ٨ ص ٢٢٠ ، وأبو الفدا ٢ ص ١١٦) غير أن المستشرق فستنفلد يستبعد هذه الرواية .

(١) خطط المقريزى — ج ١ ص ٤٠٧ .

أحمد ... بسم الله الرحمن الرحيم ، رسوم النطقا ومذاهب الأئمة والأنبيا ، ومسالك الرسل والأوصياء ، السالف والآنف منا ، صلوات الله علينا وعلى آبائنا ... الخ» . والرسالة تفيض بآيات التوحيد ومبادئه ، والتمسك بالقرآن وأحكامه ، وتمجيد النبي (صلعم) وسننه(١) ، فهي بذاتها وثيقة قاطعة ببراءة المعز مما تريد أن تصمه به الأسطورة الكنسية .

وكان المعز في تلك الآونة ينتابه المرض من آن لآخر ، وهو المرض الذي حمله إلى القبر بعد ذلك . ولكنه مع ذلك كان دائم الأهبة لمحاربة القرامطة . وكان يرقب حوادث الشام ويتوق إلى استرداد دمشق . وكانت الجيوش البيزنطية قد عاثت أيضاً في شمال الشام ، فأرسل المعز جيوشه في جمادى الثانية سنة ٣٦٤ ، فقاتلت الروم على مقربة من طرابلس وهزمتهم (في شعبان) ، ولكنهم عادوا فهزموا الفاطميين ، وتحالفوا مع أفتكين المتغلب على دمشق ، فسار إليهم عندئذ ريان مولى المعز ومزق شملهم ؛ وفرح المعز لذلك أيما فرح ، واعتزم أن يشهر الحرب على أفتكين بشدة . ولكن المرض داهمه في أوائل سنة ٣٦٥ . وتلقى آخر مظاهر ظفره في المحرم حيث علم من الحاج القادمين من مكة أن الدعوة الفاطمية قد اعتُنِقت في الحجاز ، ودعي له على منابرها(٢) ، ثم عاجله الموت كما قدمنا ، في ربيع الثاني سنة ٣٦٥ .

وهكذا أنفق المعز عهده القصير بمصر في حروب ومشاغل مستمرة ، وبالأخص في الدفاع عن الدعوة الفاطمية الفتية ، وتوطيد دعائمها . فكيف أتيح له مع ذلك أن يتفرغ لمثل ما ترميه به الأسطورة الكنسية من عبث وغواية ؟ وأنى ومتى أتيح له أن يعجب بالتعاليم النصرانية ، وأن يتذوقها ، ثم ينتهي إلى التنصر والترهب والإقامة في أحد الأديار ؟ وكيف يعقل أن المعز وهو يشتغل بتوطيد إمامته ودعوته ، يضربها بنفسه الضربة القاضية ويقيم الدليل بردته على كذبها ونفاقها ؟ لقد كان للمعز على الأقل من بواعث الحكمة والسياسة القاهرة ، إن لم يكن من البواعث الروحية ، ما يجعله أشد الناس استمساكا بإمامته ودعوته وإسلامه. وقد أجمع المؤرخون على أن المعز كان أميراً وافر العقل والحكمة ، وافر العزة

---

(١) يراجع نص هذه الوثيقة في المقريزي - اتعاظ الحنفاء - ص ٢٥١ - ٢٦٥ . ووردت بنصها الكامل في كتابنا الحاكم بأمر الله ص ٣٧٥ - ٣٨٤ .

(٢) Wuestenfeld : Gesch. der Fatimiden.

والشهامة ، مستنير السياسة بعيد النظر ، فمن المستحيل عقلا أن يقدم أمير هذه صفاته على التأثر بدجل الدعاية الملحدة ، والانغماس فى معترك الأساطير الكنسية ؛ وكيف يقدم منشئ الأزهر فى فتوته على الارتداد فى كهولته ؟ هذا منطق العقل والعاطفة نضيفه إلى منطق الحوادث والتاريخ الحق .

وأخيراً كيف يقال إن تردد هذه الأسطورة على ألسنة القسس وخدم الكنيسة دليل يصح أن يطرح فى ميدان البحث ؟ فمتى كان خدم الكنائس مؤرخين يرجع إليهم ؟ ومتى كانوا بالأخص مؤرخين للإسلام والمسلمين ؟ على أننا نذكر بهذه المناسبة أن أساطير هؤلاء القسس قد زعزعت الإيمان فى كثير من مواقف التاريخ المسيحى ذاته . ويكفى أنها أسبلت حجاباً كثيفاً من الريب على تاريخ قبر المسيح ، وجعلت منه أسطورة كنسية ، وانتهى البحث ببعض أقطاب المؤرخين النصارى مثل چورج فنلى إلى إنكار وجود هذا القبر الذى أنشئ بعد وفاة صاحبه بنحو ثلاثمائة عام ، ليكون مبعثاً لأساطير القسس ؛ وأضحى « القبر المقدس » رمزاً لا حقيقة(١) . ولكن القسس لا زالوا إلى اليوم يعينون لك ، فى كنيسة القيامة ببيت المقدس وكنيسة بيت لحم ، مواضع بعينها شهدها المسيح صبياً ونبياً ، وآثاراً ارتبطت بتاريخه أو بصلبه . بيد أنك لن تجد مؤرخاً بمعنى الكلمة ، بل فرداً عادياً سليم التفكير ، يقف ذرة عند شىء من هذه الأساطير ، رغم ما يراد أن يسبغ عليها من لون الرسمية والقدسية .

على أن الأستاذ بتلر ، وقد أصغى إلى أساطير أولئك القسس فى الكنائس القبطية التى زارها ، وخصها بمؤلفه ، قد أصدر حكمه فى مقدمة كتابه على قيمة هذه الأساطير وقيمة رواتها ، فى كلمة ينحى فيها عليهم باللوم ، ويندد بعدم معرفتهم بتاريخهم ورسوم دينهم . ويكفينا قول هذا العلامة مرة أخرى ، فى دحض هذه الأسطورة العجيبة(٢) .

---

(١) **G. Finlay : Greece under the Romans ; Appendix III : Site of the Holy Sepulchre**

(٢) **Butler : Ibid. (I. p. 9)** ومما يجدر ذكره ، أن مرقص سميكة باشا قد انتهى على أثر العاصفة التى ثارت حول هذه الأسطورة القبطية ، إلى التسليم بعدم صحتها ، والوعد بحذفها من « تقويم » الحكومة فى الطبعات التالية . (راجع مقاله فى أهرام ٢٠ أغسطس سنة ١٩٣١) .

الفصل السادس

العلائق بين مصر وبيزنطية

فى عهد الدولة الفاطمية

كانت بغداد محور السياسة الإسلامية فى المشرق ، يوم كانت الدولة العباسية فى ذروة قوتها وفتوتها ؛ وكانت الدولة البيزنطية تتجه يومئذ ببصرها إلى بغداد قلب الإسلام النابض ، ترقب حركاتها ومشاريعها ، وتتحوط لفوراتها وغزواتها. وكانت المعارك تضطرم بين الدولتين بلا انقطاع تقريباً أيام الرشيد والمأمون والمعتصم . ولكن فتوة الدولة العباسية لم يطل أمدها ؛ فمنذ أواخر القرن التاسع الميلادى تسرى إليها عوامل الانحلال والوهن ، وتخبو فيها فورة النضال والغزو ، ويتجه بصر الدولة البيزنطية إلى قوة ناشئة أخرى على مقربة من حدودها الجنوبية . ذلك أن مصر ، التى بقيت زهاء قرنين ونصف قرن ولاية خلافية ، غدت فى ظل الولاة الأقوياء دولة شبه مستقلة ، وأخذت تجيش بمختلف الأطماع والمشاريع ، وألفت الدولة البيزنطية فى قيام الدولة الحمدانية بالشأم ، وقيام الدولة الطولونية ثم الدولة الإخشيدية بمصر ، مواطن جديدة للخطر يجب اتقاؤها . وأخذ ميدان النضال بين الإسلام والنصرانية يتحول من سهول أرمينية وأواسط الأناضول إلى سهول كليكية وشمال الشأم . ولما قامت الدولة الفاطمية بمصر ، رأت الدولة البيزنطية من قوتها وغناها ووفرة جيوشها وأساطيلها ، ما ينذر بتفاقم الخطر ، وأدركت أنها تواجه على يد هذه الدولة القوية فورة إسلامية جديدة ، تضطرم قوة وفتوة وطموحاً ، وأخذت ترقب حركات الدولة الجديدة ومشاريعها فى يقظة وجزع .

وشغلت الدولة الفاطمية مدى حين بخطر القرامطة الذى كان يهددها فى موطنها الجديد ، ويكاد ينذرها بالمحو والفناء العاجل ، وألفت الدولة البيزنطية من جانبها فيما أثارته غزوات القرامطة للشأم من الاضطراب والفوضى ، فرصة للإغارة على الشام ودفع حدودها إلى الجنوب . وكانت الدولة الحمدانية فى

حلب قد اضمحلت ولم تقو بعد على رد الغزاة من الشمال ، ولم تلبث أن انضوت تحت لواء الروم (البيزنطيين) وتعهدت لهم بأداء الجزية استبقاء لحياتها ، واتقاء لسطوة الدولة الفاطمية الجديدة . وبينما كان القرامطة يزحفون على مصر ، وجيوش المعز الفاطمى تدفعهم عنها ، غزا الروم الشأم ، وعاثوا فى سواحله واستولوا على أنطاكية ، وهزموا الجيوش الفاطمية أولا ، ثم عادوا فارتدوا أمامها تحت أسوار طرابلس ، واختتم عهد المعز لدين الله ، والروم يبسطون سلطانهم على قسم كبير من شمال الشأم .

وفى عهد العزيز بالله استؤنف النضال بين الدولتين ؛ وكان خطر القرامطة قد خبا وتحطم تحت ضربات الدولة الفاطمية . وألفى الفاطميون والروم أنفسهم فى سهول الشام وجهاً لوجه ؛ وكانت الدولة البيزنطية تجوز فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر مرحلة جديدة من القوة والنهوض فى عصر الأسرة البسيلية ، ولاسيما فى عهد الإمبراطور باسيل الثانى (٩٧٦ – ١٠٢٥ م) ، معاصر العزيز بالله وولده الحاكم بأمر الله ؛ وكانت السياسة البيزنطية كعادتها تشجع كل عناصر الانتقاض أو الخروج فى المملكة الإسلامية ؛ فلما همت الجيوش الفاطمية بغزو حلب واستغاث بنو حمدان بحلفائهم الروم ، سار الروم لقتال المصريين ، ونشبت بينهما معركة طاحنة على مقربة من أنطاكية (٣٨١ هـ – ٩٩١ م) ، فهزم الروم هزيمة شديدة ؛ وخشيت السياسة البيزنطية عواقب هذا الفشل ، فسار الإمبراطور باسيل الثانى بنفسه إلى الشام وغزا حمص وأعمالها ، وبسط سلطانه على معظم سواحل الشام ؛ وارتاعت الخلافة الفاطمية لهذا التطور الخطير فى حوادث الشام ، وهمّ العزيز بالمسير بنفسه إلى قتال البيزنطيين ، ولكن الموت أدركه فى الطريق ؛ وخلفه ولده الحاكم بأمر الله طفلا ، وتولى تدبير شؤون المملكة وضيه بَرْجوان الصقلبى ؛ واضطربت حوادث الشام حيناً ، وشجعت السياسة البيزنطية قيام الثورة فى صور ، وسار الروم فى البر والبحر لمؤازرة الثوار ؛ ولكن برجوان كان رجل الموقف ، فبعث إلى الشام بجيش كبير ، استطاع أن يخمد الثورة ، وأن يهزم البيزنطيين فى عدة مواقع (٣٨٨ هـ – ٩٩٨ م) واضطر باسيل الثانى أن يسير بنفسه إلى الشام مرة أخرى ، ولكنه ما لبث أن اضطر إلى العودة إلى قسطنطينية ليتأهب لرد خصومه البلغار الذين هددوه بالغزو من الشمال .

وهكذا لبثت الشأم مدى حين ميدان النضال بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية .
كانت السياسة البيزنطية ترى فى قيام الدولة الفاطمية وتوطدها بمصر والشأم خطراً جديداً عليها ، وتحاول أن تغالب هذا الخطر ما استطاعت ؛ وكانت الدولة الفاطمية من جانبها تعمل لتوطيد حدودها الشمالية ورد الخطر البيزنطى عنها ، ولم تكن تجيش فى ذلك بأكثر من نزعة دفاعية ، بينما كانت الدولة البيزنطية تجيش فى عهدها الجديد بنزعة إلى الفتح والتوسع . وكانت الخلافة الفاطمية تتوق إلى إتقاء الأحداث والحروب الخارجية لتتفرغ إلى تنظيم شؤونها الداخلية ؛ فلما هزمت الجيوش الفاطمية جيوش الامبراطور فى الشأم ، واستطاعت بذلك أن تثبت تفوقها العسكرى ، انتهز مدبر الدولة برجوان هذه الفرصة ليعقد الهدنة مع الدولة البيزنطية ، فبعث إلى الإمبراطور يقترح عقد الصلح والمهادنة ، فاستجاب باسيل الثانى لدعوته وأنفذ سفارة إلى بلاط القاهرة ؛ واحتفى البلاط الفاطمى بالسفير البيزنطى احتفاءعظيماً ، وزين الديوان الخلافى لاستقباله زينة تنوه الرواية بفخامتها وروعتها ؛ وانتدب برجوان أريسطيس بطريق بيت المقدس وخال الأميرة ست الملك ابنة العزيز بالله وأخت الحاكم بأمر الله، للسير مع السفير البيزنطى وتقرير شروط الهدنة مع القيصر ، وعقد أواصر الصداقة بين الدولتين ؛ فسار أريسطيس إلى قسطنطينية ، وقام بالمهمة ؛ وعقدت بين مصر والدولة البيزنطية معاهدة سلم وصداقة لمدة عشر سنين ؛ وأقام أريسطيس فى عاصمة بيزنطية أربعة أعوام حتى توفى ؛ ولم تحدد لنا الرواية تاريخ هذه السفارة ، ولكن المرجح أنها وقعت فى أواخر سنة ٣٨٩ أو أوائل سنة ٣٩٠ هـ (سنة ١٠٠٠ م) .

وشغلت الدولة البيزنطية مدى حين بشؤونها الداخلية ،وحروبها فى البلقان وأرمينية ، وقنعت من الشام بأنطاكية ، وهدأ النضال بين الدولتين حيناً ، وتحسنت العلائق بينهما ؛ ولكن سياسة الحاكم بأمر الله إزاء النصارى ، واشتداده فى مطاردتهم ، وما اتخذه من الإجراءات العنيفة لهدم الكنائس والأديار ، ولاسيما كنيسة القيامة (القبر المقدس) ببيت المقدس، أثارت حفيظة السياسة البيزنطية ، وحفيظة الكنيسة الشرقية التى كانت تعتبر نفسها حامية النصرانية فى المشرق ؛ بيد أن الدولة البيزنطية لم تستطع يومئذ أن تتدخل فى سير الحوادث . وكانت الأميرة ست الملك أخت الحاكم تخشى عواقب هذه السياسة العنيفة ،وتجاهد فى

تلطيفها ، وكان لها حسبما تؤكد الرواية أكبر يد فى تدبير مصرع أخيها ، وإنقاذ الخلافة الفاطمية من عواقب هذه السياسة الخطرة . فلما انتهت المأساة بذهاب الحاكم ، وقام ولده الظاهر فى عرش الخلافة بتدبير ست الملك ورعايتها ، عادت الخلافة الفاطمية فى الحال إلى تسامحها المأثور نحو النصارى ، وردت إليهم حرياتهم وحقوقهم ، وسمح لهم بتجديد ما درس من كنائسهم ، ولا سيما كنيسة القيامة ، وألفت ست الملك الفرصة سانحة لتجديد الصداقة والمهادنة مع الدولة البيزنطية ، فبعثت نيقفور بطريق بيت المقدس سفيراً إلى باسيلى الثانى ليعمل على عقد أواصر التفاهم والصداقة بين الدولتين(سنة ٤١٤ هـ ـ ١٠٢٤ م) ويطلعه على ما اتخذه بلاط القاهرة من الإجراءات لتحرير النصارى ، ورفع الإرهاق عنهم وحمايتهم فى أموالهم وأنفسهم ؛ ولكن الأميرة ست الملك توفيت قبل أن يستطيع السفير تأدية مهمته ، ورده بلاط قسطنطينية بلطف ، فعاد أدراجه ، ولم يمض قليل حتى توفى باسيل الثانى (١٠٢٥ م) .

ولكن الخلافة الفاطمية آثرت أن تمضى فى سياستها الودية نحو الدولة البيزنطية . ومع أن الجيوش البيزنطية اشتبكت فى الأعوام التالية فى عدة معارك وحروب محلية فى حلب وأنطاكية مع الأمراء العرب المحليين ، وهُزمت أمامهم غير مرة ، فإن حكومة القاهرة لم تشأ أن تتدخل فى تلك المعارك، ولا أن تنتهز تلك الفرصة لمحاربة البيزنطيين ؛ ووقعت المفاوضات بين الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله، والإمبراطور رومانوس الثالث، لعقد معاهدة صداقة بين الدولتين ؛ واشترط الإمبراطور لعقدها أن يتولى إعادة تعمير كنيسة القيامة ، وأن يعمر النصارى ما شاءوا من كنائسهم الدارسة، وأن يقيم بطريركاً من قبله لبيت المقدس، وأن تمتنع حكومة القاهرة عن التعرض لشئون حلب أو مصايرها باعتبارها داخلة فى حماية الإمبراطور وتؤدى له الجزية ، وأن تمتنع عن نجدة صاحب صقلية المسلم إذا هاجمته الجيوش البيزنطية ؛ ولكن الظاهر رفض التخلى عن حلب باعتبارها عاصمة إسلامية جليلة ؛ وطالت المفاوضات بين الفريقين ، وانتهت بعقد معاهدة صداقة بينهما ، سمح فيها للإمبراطور أن يتولى تعمير القبر المقدس ، وللنصارى أن يعمروا كنائسهم ، وأن يعود منهم من أسلم كرها إلى دينه ؛ وأن يطلق الإمبراطور سراح الأسرى المسلمين لديه ، وأن يعيد مسجد قسطنطينية كما كان، ويسمح فيه

بالآذان وبالخطبة للظاهر ، بيد أن الكنيسة الشهيرة لم يجدد بناؤها إلا بعد ذلك بنحو عشرة أعوام فى عهد المستنصر بالله .

وفى عهد الخليفة المستنصر بالله ولد الظاهر ، اضطربت شئون الخلافة الفاطمية ، واضطربت العلائق بين مصر وبيزنطية ، وعانت مصر فى أوائل هذا العهد أروع مصائب الغلاء والقحط والوباء مدى أعوام ثمانية ، تعرف « بالشدة العظمى » (٤٤٦ — ٤٥٤ﻫ) . وأرسل المستنصر بالله إلى الإمبراطور قسطنطين التاسع أن يمده بالغلال والأقوات ، وتم الاتفاق بينهما على شروط هذه المعاونة ، ولكن الإمبراطور توفى قبل تنفيذ الاتفاق ، فخلفته الإمبراطورة تيودورا ، واشترطت لتنفيذه شروطاً جديدة أباها المستنصر ، واضطربت علائق الدولتين ، واشتبك الفريقان فى عدة معارك شديدة فى البر والبحر . وفى سنة ٤٤٧ ﻫ (١٠٥٥ م) أرسل المستنصر سفيراً إلى تيودورا هو القاضى أبو عبد الله القضاعى ليحاول تسوية العلائق واستئناف الصداقة ؛ ولكن السياسة البيزنطية آثرت جانب السلاجقة ورأت أن تتفاهم معهم ، وأخفق سعى السفير المصرى . وكانت فورة السلاجقة قد اضطرمت قبل ذلك بالمشرق ، وأخذت تنذر باجتياح الشام ، وتطورت حوادث الشام فى الوقت نفسه تطوراً سيئاً ، واستولى الزعماء العرب على قواعده وثغوره ، فانتزعت حلب من يد الخلافة الفاطمية نهائياً ، وكادت دمشق وفلسطين تخرج عن قبضتها ، وتضعضعت قوى الدولة فى الداخل والخارج. ثم كانت وثبة السلاجقة نحو المشرق واستيلاؤهم على فلسطين ودمشق ؛ وأعقبت ذلك فورة من الغرب كانت أخطر ما عرفت الأمم الإسلامية : تلك هى فورة الحروب الصليبية ، التى اضطرمت منذ أواخر القرن الحادى عشر ، وسرعان ما ظفرت بانتزاع الشام وفلسطين من قبضة الإسلام ، وحلت المملكة اللاتينية فى بيت المقدس مدى حين ، وقامت الإمارات النصرانية فى الشام حاجزاً بين الدولة الفاطمية والدولة البيزنطية ، وتحول مجرى العلائق الدبلوماسية بين الإسلام والنصرانية ، وافتتح بينهما عهد طويل من النضال المضطرم ؛ وانحدرت الدولة الفاطمية إلى مرحلة الانحلال الأخير ، كما انحدرت الدولة البيزنطية خصيمتها ومنافستها القديمة إلى مرحلة مماثلة من الضعف والانحلال(١) .

---

(١) تناولنا سفارة المستنصر بالله إلى بلاط بيزنطية بتوسع فى الفصل التالى .

الفصل السابع

سفارة مصرية إلى بلاط بيزنطية

فى عهد المستنصر بالله الفاطمى

كانت مصر منذ أواخر القرن الرابع الهجرى ، أى مذ أقام الفاطميون فيها دولتهم القوية الباذخة ، تسيطر بقوتها وسلطانها على مجرى الحرب والسياسة فى شرق البحر الأبيض المتوسط . وكانت علائقها مع الدولة البيزنطية أو الدولة الرومانية الشرقية[1] تخضع لظروف الحوادث ؛ ولم تكن لمصر فى ذلك سياسة مقررة ثابتة ، فقد كانت تهادن قسطنطينية أو تحاربها تبعاً لسير الحوادث ، وتقلب المصالح والفرص . ولكن قسطنطينية كانت تهتدى فى سياستها نحو مصر بتقاليد ومبادئ ثابتة ، تقوم فى جوهرها على فكرة الضرب والتفريق بين الأمم الإسلامية فى الشرق الأدنى، أو بعبارة أخرى بين بغداد والقاهرة . ذلك أنها كانت تخشى قوة الإسلام المتحدة ، وكانت ترى فى اضمحلال الدولة العباسية جارتها المباشرة نذير السلامة ؛ ولكن ظهور السلاجقة ، واكتساحهم فارس وشمال الجزيرة ؛ وإشرافهم على حدود الدولة البيزنطية ، ملأت قسطنطينية جزعاً . وكان قيام الدولة الفاطمية فى مصرمن جهة أخرىواتصال فتوحاتها بجنوب الأناضول، عاملا جديداً فى مضاعفة الخطر . وكانت الدولة البيزنطية قد شاخت وأنهكتها المؤامرات والمنازعات الداخلية ، وضعفت مواردها ، فلم يكن أمامها لاتقاء خطر الإسلام إلا أن تتبع سياسة سلبية تقوم على استغلال المنازعات والمنافسات القائمة بين الدول الإسلامية المجاورة لها . وعلى هذا كانت تجرى سياسة قسطنطينية فى القرن الخامس الهجرى ، حينما كان السلاجقة من جهة ، والفاطميون من جهة أخرى ، كل منهم يدعى زعامة الإسلام فى المشرق .

---

(١) يطلق العصر البيزنطى على تاريخ الدولة الرومانية الشرقية منذ أوائل القرن الثامن الميلادى حتى افتتاح الصليبيين قسطنطينية (أو بيزنطية القديمة) سنة ١٢٠٤ م ، وذلك لأسباب سياسية واجتماعية تميزت بها هذه المرحلة من تاريخ الدولة الشرقية .

وكانت قسطنطينية منذ قيام الدولة الفاطمية على مقربة منها ، واتساع قوتها في البر والبحر ، تتلمس العون في حوادث المشرق ؛ فألفت فرصتها في قيام السلاجقة ، وسيطرتهم على خلافة بغداد ، خصيمة الخلافة الفاطمية بالقاهرة . وكانت مصر منذ أوائل القرن الخامس تجوز أزمات وفتناً داخلية ؛ وتفاقمت هذه الشدائد في خلافة المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧ - ٨٧ هـ) . وفي سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٣ م) ؛ عصف الوباء بمصر ، وامتد أعواماً طويلة ؛ واقترن كالعادة بالغلاء والقحط ، وعانت مصر منه آلاماً ومحناً مروعة . وتعرف هذه النكبة في تاريخ مصر « بالشدة العظمى »[1] . وقد بدأت بالغلاء وندرة الأقوات . وكانت العلائق بين مصر وبيزنطية يومئذ ودية حسنة ، فأرسل المستنصر بالله سنة ٤٤٦ هـ إلى إمبراطور قسطنطينية وهو يومئذ قسطنطين التاسع ، أن يمده بالغلال والمؤن . وكانت الدولة البيزنطية تجوز يومئذ فترة من الاضطرابات الداخلية ، وتواجه في نفس الوقت خطر الغزوات الخارجية ، وكان السلاجقة قد أشرفوا قبل ذلك بأعوام على حدود أرمينية حصن الدولة من جهة المشرق ، واقتحموا بعض نواحيها ؛ وغزوا ديار بكر ؛ وأرزن ؛ وعاثوا في شرق آسيا الصغرى ، وغزا طغرلبك زعيم السلاجقة بنفسه ولاية قارص ، وأسر أميرها ، ثم قصد ملازكرد (أو منزكرت) وحاصرها مدة (سنة ١٠٥٠ م)[2] . وعاد بعد ذلك بعامين فغزا هذه الأنحاء كرة أخرى . ولم تثمر مفاوضات الصلح بين الإمبراطور وطغرلبك . ففي تلك الآونة تلقى قسطنطين التاسع رسالة المستنصر بالله بطلب الأقوات والمؤن ، فلبى الدعوة ، وآنس في قبولها تقوية للصداقة والتحالف مع مصر ، التي كان يخشى غزواتها من الجنوب ومن البحر ، وتم الاتفاق على أن ترسل قسطنطينية المؤن إلى مصر ، وأعدت بالفعل مقادير وافرة من الغلال لهذه الغاية[3] . ولكن قسطنطين التاسع توفي قبل تنفيذ الاتفاق (١٠٥٤ م) ،

(١) سوف نتحدث عن « الشدة العظمى » في فصل آخر .

(٢) يضع ابن الأثير غزو ديار بكر ، وأرزن ، وحصار ملازكرد ، في حوادث سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٣ م) ولكن الرواية البيزنطية تضعها قبل ذلك بثلاثة أعوام (قارن ابن الأثير ج ٩ ص ٢٠٧ - وفنلى Finlay تاريخ الدولة البيزنطية (افريمان) ص ٤٠٩ و ٤١٠) .

(٣) تقدر الرواية الإسلامية مقدار الغلال التي تم الاتفاق على إرسالها إلى مصر وقتئذ بأربعمائة ألف أردب (خطط المقريزي ج ١ ص ٣٣٥) .

فخلفته على عرش قسطنطينية الإمبراطورة تيودورا ، واشترطت لإرسال المؤن إلى مصر شروطاً أباها المستنصر بالله ؛ ومنها أن يمدها بالجند لعونها على رد السلاجقة ومحاربة الخارجين عليها . فانقطعت المفاوضات بين الفريقين ، وغضب المستنصر لذلك ، وسير الجند إلى الحدود الشمالية وعلى رأسها الحسن بن ملهم ، فغزت بعض بلاد الحدود ؛ ووقعت بين الفريقين معارك عديدة ، وانتصر المصريون فى الوقائع البرية ، ولكن الأسطول البيزنطى غزا مياه الشام وهزم المصريين فى عدة وقائع وأسر ابن ملهم ، وجماعة كبيرة من القادة والضباط ؛ فكف المستنصر عن متابعة الحرب ، ولجأ إلى المهادنة والمفاوضة ، وأرسل إلى بلاط قسطنطينية سفيراً مختاراً ، يسعى إلى عقد الصلح وتنظيم العلائق بين الفريقين.

وهذا السفير المصرى إلى بلاط قسطنطينية ، هو القاضى أبو عبد الله محمد ابن سلامة بن جعفر القضاعى الشافعى المصرى ؛ وهو من أئمة الحفاظ والمحدثين ، ومن أقطاب الفقه الشافعى ، وأعلام التاريخ والأدب ، وكان يومئذ يلى نيابة القضاء بمصر كلما خلا منصب قاضى القضاة حيناً بسبب الوفاة أو العزل . ثم تولى التوقيع (العلامة) لأبى القاسم الجرجرائى وزير المستنصر بالله حتى وفاته سنة ٤٣٦ هـ ، وتولى بعد ذلك عدة وظائف ومهام رسمية ؛ وكان المستنصر بالله يقربه ويثق بحكمته وحسن تصريفه للأمور . وكتب عدة مصنفات فى الحديث والفقه ، وعدة أخرى فى التاريخ والأدب ، منها من كتابه الشهير عن خطط مصر المسمى « بالمختار فى ذكر الخطط والآثار »[١]، وتجول القضاعى ودرس فى بغداد ومكة والشام ، ووقف على أحوال الدول الإسلامية يومئذ ، ومجرى السياسة فى القصور المختلفة . فلما تفاقم الخلاف بين القاهرة وقسطنطينية اختار المستنصر بالله ، أبا عبد الله القضاعى ليكون سفيره إلى بلاط قسطنطينية . فقصد القضاعى إلى بيزنطية عن طريق الشام . ويضع المؤرخون المسلمون تاريخ هذه السفارة الشهيرة فى سنة ٤٤٧ هـ (الموافقة لسنة ١٠٥٥ م)[٢] ، ويقع هذا التاريخ فى عصر

(١) لم يصلنا من كتب القضاعى غير قطعة من كتابه «مسند الصحاب» فى الحديث (وهى محفوظة بمكتبة الإسكوريال) وكتاب «عيون المعارف» (ومنه نسخة فى دار الكتب المصرية) ، وكتاب أنباء الأنبياء وتواريخ الخلفاء (ومنه نسخة فى برلين) ، وهما مختصران فى التاريخ . أما مؤلفه فى الخطط فلم يصلنا منه سوى شذور أوردها المقريزى وغيره من الكتاب المتأخرين .

(٢) راجع ابن ميسر — أخبار مصر — فى حوادث سنة ٤٤٧ هـ — وخطط المقريزى (ج ١ ص ٣٣٥) .

الإمبراطورة تيودورا ، لأنها جلست على عرش قسطنطينية سنة ١٠٥٤ م ، وتوفيت فى أغسطس سنة ١٠٥٧ م[1] ، فقد كانت سفارة المستنصر إذاً إلى الإمبراطورة تيودورا ، طبقاً للتاريخ الذى تعينه لها الرواية الإسلامية . وهذا ما يذكره ابن ميسر ، مؤرخ مصر ، بوضوح فى حوادث سنة ٤٤٧ حيث يقول : « وفيها سير المستنصر ، فقبض على جميع ما فى كنيسة القمامة ، وسبب ذلك أن أبا عبد الله القضاعى كان قد توجه من مصر برسالة إلى القسطنطينية ، فقدم إليها رسول طغرلبك يلتمس من ملكتها أن يصلى رسوله فى جامع قسطنطينية ، فأذنت له فى ذلك ، فدخل وصلى بجامعها ، وخطب للخليفة القائم . فبعث القضاعى بذلك إلى المستنصر فأخذ ما كان بقمامة ، وكان هذا من الأسباب الموجبة للفساد بين المصريين والروم »[2] . ورواية ابن ميسر ، أقرب الروايات إلى العصر الذى نتحدث عنه ، وهى الراجحة فى رأينا ، لأن القضاعى قصد إلى قسطنطينية عن طريق الشام سنة ٤٤٧ هـ الذى يوافق أولها شهر أبريل سنة ١٠٥٥ ، فإذا فرضنا أن القضاعى سافر فى نهاية سنة ٤٤٧ ، أعنى فى أوائل سنة ١٠٥٦ وقطع خلال السفر بضعة أشهر ، فإنه لا بد أن يصل إلى قسطنطينية فى نحو منتصف سنة ١٠٥٦ أعنى قبل وفاة الإمبراطورة تيودورا بأكثر من عام . ولكن هنالك من جهة أخرى ، فى الرواية الإسلامية ، ما يدل على أن الجالس على عرش قسطنطينية وقت قدوم القضاعى إليها لم يكن الإمبراطورة تيودورا ، وأن الذى استقبل السفير المصرى هو خلف تيودورا ، الإمبراطور ميخائيل السادس (ستراتيو تيكوس) الذى تولى عرش قسطنطينية فى أغسطس سنة ١٠٥٧ م . فقد نقل المقريزى فى كتابه « المقفى » فى ترجمة القضاعى ما يأتى : « وقال أبو بكر محمد بن سامع الصنوبرى ، سمعت القاضى أبا عبد الله محمد بن سلامه بن جعفر القضاعى يقول : لما دخلت على ملك الروم إليون ، رسولا من قبل المستنصر بالله ، وأحضرت المائدة ، فلما رفعت ، جعلت ألتقط الفتات ، فأمر الفراش أن يحضر أخرى ففعل ؛ فقال لى الملك أصبت منه وإنك لم تشبع ، فقلت أنا والله مستكف ، فقال لى لم أكلت الفتات ، فقلت بلغنى مرفوعاً إلى النبى صلى الله

(١) فنلى Finlay – تاريخ الدولة البيزنطية – ص ٤١٢ .

(٢) أخبار مصر لابن ميسر – فى حوادث سنة ٤٤٧ .

عليه وسلم ، أنه قال : من التقط ما سقط من المائدة برئ من الحمق والفقر ، فأمر الخازن فى الحال بإحضار ألف دينار وإعطائها ؛ فقلت صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فاستغنيت وبريت من الحمق »[١] . وذكر المقريزى أيضاً فى خططه ، ما يؤيد هذه الرواية[٢]. وإذاً فنحن أمام روايتين ، إحداهما تقول إن السفير المصرى لقى فى قسطنطينية « ملكة » الروم ، وتقول الأخرى أنه لقى « ملكها » . على أننا نرى أنه يمكن التوفيق بين الروايتين ؛ فقد وصل القضاعى إلى قسطنطينية على ما يظهر فى أواخر أيام الإمبراطورة تيودورا ، وقبل وفاتها بنحوعام ؛ وطال مكث القضاعى حيناً فى قسطنطينية ، ولم يتم مهمته . وتوفيت الإمبراطورة أثناء ذلك . وخلفها الإمبراطور ميخائيل السادس فى أغسطس سنة ١٠٥٧ م ، فاستأنف القضاعى السعى لديه فى تحقيق مهمته ، وهى دقيقة شاقة ، تقتضى طويل وقت وسعى . ومما يؤيد طول مكث القضاعى بقسطنطينية ، أنه عنى هنالك بالدرس وجمع المواد التاريخية عن المدينة وخططها[٣] . أما مهمة السفير المصرى لدى البلاط البيزنطى فلم تحددها الرواية الإسلامية تحديداً واضحاً. ولكنا نستنتج مما قدمنا من الظروف والحوادث، أنها كانت تقوم على السعى فى إقناع البلاط البيزنطى بالتحالف مع مصر على السلاجقة ، وإعانة مصر بالأقوات والمؤن ، لأنها كانت تعانى يومئذ من شدة الغلاء ، وندرة المؤن ، وكانت رسالة المستنصر الأولى إلى قسطنطينية ترمى إلى تحقيق هذه المعاونة ، وكادت تتحقق فعلا لولا أن توفى الإمبراطور قسطنطين التاسع قبل تنفيذ الاتفاق، واشترطت الإمبراطورة تيودورا لتنفيذه شروطاً أباها المستنصر ، ونشبت الخصومة بين الفريقين حيناً ، ثم رأى المستنصر أن يعيد الكرة فى السعى والمفاوضة على يد سفيره أبى عبد الله القضاعى ، كما قدمنا .

على أن سعى السفير المصرى لم يكلل بالنجاح . ذلك أن السلاجقة كانوا

---

(١) لم يصلنا من كتاب « المقفى » أو التاريخ الكبير سوى جزء يسير ومنه قطعة محفوظة بليدن ؛ هى التى تحتوى ترجمة القضاعى ، وقد نقلها المستشرق «كينج » فى مقدمة الجزء الذى نشره من كتاب « تسمية الولاة » للكندى (ص ٢٢ و ٢٣) .

(٢) المقريزى– الخطط –ج ١ ص ٣٣٥ .

(٣) يراجع السبكى – طبقات الشافعية – فى ترجمة القضاعى –ج ٣ ص ٦٣ .

يرقبون سير العلائق بين القاهرة وقسطنطينية ، فني الوقت الذى مثل فيه السفير المصرى لدى البلاد البيزنطى ، أوفد طغرلبك رسولا إلى قسطنطينية يقوم لدى بلاطها بالسعى فى إحباط ما ترمى إليه مصر . وقد غلبت مساعى طغرلبك، وآثرت السياسة البيزنطية جانب السلاجقة ؛ لأنهم كانوا يومئذ أشد خطراً على الدولة الشرقية من مصر ؛ وكانت دولة السلاجقة فىالواقع يومئذ فى ذروة القوة والبأس . وكانت تضطرم ظمأ إلى الفتح ، وكانت تثخن فى أملاك الدولة الشرقية ، بينما كانت مصر تعانى من الفتن والشدائد وضعفالموارد ما يقعدها عن الغزو والفتح . وفى الرواية الإسلامية ، أن إيثار البلاط البيزنطى للتحالف مع السلاجقة قد ظهر أثناء مقام القضاعى فى قسطنطينية ، فى مظاهرة سياسية قام بها رسول طغرلبك بموافقة الإمبراطور ، خلاصتها أن الرسول طلب إلى الإمبراطور أن يقيم صلاة الجمعة فى مسجد قسطنطينية ، فأذن له ، فصلى وخطب للخليفة القائم بأمر الله العباسى[1] ، وكانت السـياسة البيزنطية قد رأت أن تنشىء هذا المسجد فى قسطنطينية قبل ذلك بنحو نصف قرن ليكون من أدواتها فى مهادنة الإسلام وإرضائه، أومخاصمته وإغضابهطبقاً لظروف الأحوال. فنرى مثلا أن الإمبراطور يعيد بناءه سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) ، ويجرى فيه الخطبة للخليفة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمى ، على أثر عقد الهدنة مع مصر ، كما أن الظاهر يرفع الحجر عن كنيسة القمامة « القبر المقدس » ببيت المقدس[2] ، ونرى قسطنطين التاسع يصلح هذا المسجد سنة ١٠٤٨م إرضاء لطغرلبك حينما أفرج عن أحد أمرائه دون فدية[3] . ثم نرى أخيراً كيف خطب رسول طغرلبك فى هذا المسجد للخليفة العباسى ، بعد أن كان يخطب فيه للخليفة الفاطمى ، حينما رأت السياسة البيزنطية أن تؤثر جانب السلاجقة . ومن السهل أن نتصور ما ترتب على ذلك ، فقد بعث القضاعى إلى المستنصر بالله بنتيجة مهمته ، ورد الخليفة على ذلك بالقبض على أحبار القمامة ، والحجر عليها ، ومصادرة نفائسها ، وقطعت العلائق بين مصر وقسطنطينية .

وعاد القضاعى إلى مصر على أثر هذا الفشل . ونستطيع أن نضع تاريخ عوده

(١) تاريخ ابن ميسر فى حوادث سنة ٤٤٧ هـ — خطط المقريزى ج ١ ص ٣٣٥ .

(٢) خطط المقرزى — ج ١ ص ٣٣٥ (فى سيرة الخلفاء الفاطميين) .

(٣) فنلى — تاريخ الدولة البيزنطية — ص ٤٠٩ .

فى سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) أى بعد أن أنفق أكثر من عامين فى رحلته ، واتصل حيناً بالإمبراطور ميخائيل بعد وفاة الإمبراطورة تيودورا . ثم توفى القضاعى بعدئذ ببضعة أعوام ، فى ذى القعدة سنة ٤٥٤ (نوفمبر سنة ١٠٦٢) واضطربت من بعد ذلك شئون الخلافة الفاطمية ، وسرت إليها عوامل الوهن والانحلال ، ولم يتح لها أن تعنى بعد بمهام السياسة الخارجية ، أو أن تؤثر فى التوازن الدولى . واستمرت القطيعة بين مصر وبيزنطية حتى بدأت الحروب الصليبية بعد ذلك بنحو نصف قرن ، واستغرقت معاركها الأولى اهتمام مصر ومواردها ، ووقفت قسطنطينية بالطبع إلى جانب النصرانية ، تحتمى بظلال فورتها العامة على الإسلام ، من وثبات السلاجقة الذين سحقوا جيوشها ونفذوا إلى أعماق آسيا الصغرى . وكانت هذه الفورة الصليبية البربرية بدء تحول تام فى السياسة الخارجية لجميع الأمم الإسلامية . وكانت نذيراً باجتماع كلمة الإسلام فى المشرق ؛ وتوحيد جهود زعمائه وقادته، لرد خطر النصرانية ، المتدفق على مياه الشام ومصر من جميع أنحاء أوربا .

الفصل الثامن

عصر الخفاء فى مصر الإسلامية

كان النصف الأخير من القرن العاشر الميلادى ، عصر الخفاء فى مصر الإسلامية ، كما كان القرن الثامن عشر عصر الخفاء فى أوربا . وكما امتاز عصر الخفاء الحديث بالتعلق بالمجهول والخارق ، والتطلع إلى مدارك الغيب ، وذيوع الدعوات الإلحادية ، وقيام الجمعيات السرية المختلفة ، فكذلك يمتاز عصر الخفاء فى مصر الإسلامية بنزعة إلى استكشاف الغيب ، وإحياء عصر الخوارق ، وقيام الفرق الدينية السرية ، وبث الدعوات الإلحادية المغرقة . ويرجع هذا التشابه بين العصرين إلى ظاهرة تاريخية معروفة ، هى أن عصور الخفاء فى جميع مراحل التاريخ ، تلتقى جميعاً برغم اختلاف الظروف والأحوال فى نقطة واحدة هى التعلق بالخارق والمجهول ، وهى قبلة يتجه إليها الذهن البشرى فى جميع العصور والمجتمعات .

ونحن نعرف أن النصف الأخير من القرن العاشر (أواخر القرن الرابع الهجرى) هو مستهل عصر الدولة الفاطمية بمصر . وقد نشأت الدولة الفاطمية فى ظروف غامضة يكتنفها كثير من الخفاء والريب ، وقدم الفاطميون إلى مصر تحيط بهم وبنسبتهم وغاياتهم ظلمات يصعب استجلاؤها ، وقد كان هذا الخفاء الذى يغمر هذه الدولة القوية من أسباب قوتها ، واتسامها فى نظر الكافة بميسم المقدرة الخارقة ؛ ولذلك نرى الخلفاء الفاطميين يحرصون على الاتشاح بهذه الحجب القائمة التى لا تكشف عما وراءها من المقاصد والغايات .

وقد كان هذا التعلق بالخفاء يتخذ فى أوائل الدولة الفاطمية صورة رسمية ، فنجد الخلفاء الفاطميين يدعون معرفة الغيب ، ويظهرون بمظهر القدسية والارتفاع إلى ما فوق البشر(١) ، وكان معظمهم يشغف برصد النجوم واستقراء ما وراءها

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٠٠ .

من الأحداث ، فيروى مثلا أن المعز لدين الله كان يشتغل باستقراء النجوم والطوالع ، وأنه وقف أثناء مباحثه على قطع فى طالعه يقتضى اختفاءه عن وجه الأرض حولا كاملا ، وأنه نزل فعلا على إشارة النجوم ، فاستخلف ولده العزيز على العرش ، ثم اختفى تحت الأرض فى سرداب صنعه لذلك ، واستمر فيه سنة كاملة ، وكان المغاربة ، وهم أولياء الدولة الفاطمية ، إذا رأوا غماماً سائراً ، ترجل الفارس منهم إلى الأرض وأومأ بالسلام يشير إلى أن المعز فيه ، ثم خرج المعز بعد اختفائه ، وقد أحاط به سياج من الرهبة والخشوع (١).

ومما يروى أيضاً فى دعوى الخلفاء الفاطميين فى المقدرة على استكشاف الغيب أن العزيز بالله صعد المنبر ذات يوم فرأى رقعة كتب عليها :

بالظـلم والجور قد رضينـا ... وليس بالـكفر و الحمـاقة
إن كنت أعطيت عـلم غيب ... فقل لنـا كاتب البطـاقة

كذلك نرى مثل هذا الخفاء يغمر رسوم الدولة الفاطمية ووسائلها وخططها ، فنراها ترتب طائفة من الدعوات السرية الغريبة ، تلقى أحياناً فى القصر ، وأحياناً فى الجامع الأزهر ، تحت إشراف قاضى القضاة ، و « داعى الدعاة » وهى المعروفة بمجالس الحكمة ، وينتظم فيها المخلصون من أولياء الدولة الفاطمية والدعوة الشيعية ، وإذا كانت الحكمة فى تلك العصور تعنى نوعاً من الفلسفة الحرة ، فقد كانت مجالس الحكمة مزيجاً من التعاليم الدينية المذهبية والفلسفة الإلحادية ، وكانت لدقتها وخطورتها تحاط بسياج من التكتم ، لا ينفذ إليه سوى الخاصة من ذوى الأذهان الحرة ، ولم تلبث هذه الدروس والمباحث الحرة أن نظمت فى عهد الحاكم بأمر الله فى معهد خاص سمى دار الحكمة ، ورتبت فى مراتب خاصة متدرجة فى التكتم والإلحاد ، وغدت دار الحكمة غير بعيد مثوى الدعوة السرية الفاطمية ، يحتشد فيها الدعاة والنقباء السريون من كل ضرب ، وكانت تعاليمها ومراتبها المذهبية تمت بأكبر الصلات إلى الدعوة الميمونية السرية ، وهى التى نظمها عبد الله بن ميمون القداح ، والتى كانت مبعثاً لدعوة القرامطة الهدامة ، ولنلاحظ أن ابن ميمون هذا هو الذى يُرجع إليه بعض المؤرخين نسب الأسرة الفاطمية .

---

(١) النجوم الزاهرة (عن مرآة الزمان) ج ٤ ص ٧٠ .

وقد كان عصر الحاكم بأمر الله ذروة الخفاء فى تاريخ مصر الإسلامية ، وكانت شخصية الحاكم ذاته لغزاً مدهشاً ، وكانت خلاله مزيجا من الأهواء والنزعات المدهشة المتناقضة فى معظم الأحوال . بيد أننا لا نجارى المؤرخين السنيين فى نعته بالجنون والتجرد فى جميع تصرفاته من كل باعث وحكمة . وفى رأينا أن هذا الذهن الهائم ، كما أنه يهبط فى تصرفاته أحياناً إلى ضروب مثيرة من التطرف والتناقص والهوس ، فإنه يرتفع كذلك إلى ضروب من الحكمة والسمو تحمل على التقدير والتأمل . ولعل التاريخ الإسلامى لم يعرف شخصية يحيط بها الخفاء كتلك الشخصية العجيبة ، التى تثير من حولها الدهشة والروع فى كل تصرفاتها العامة والخاصة ، والتى يلازمها الخفاء لا فى هذه الحياة الدنيا وحدها ، ولكن فى الحياة الأخرى أيضاً حيث تغادر هذا العالم فى ظروف كالأساطير ، وتبقى هذه الظروف لغزاً على التاريخ حتى يومنا .

ولم تزدهر الدعوة إلى الخفاء والشغف به والتطلع إلى المجهول والخارق ، قدر ازدهارها فى أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادى عشر (أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل القرن الخامس) فىهذه الفترة ذاعت الدعوات السرية ذيوعاً عجيباً . ونفذت إلى الطبقات الدنيا من المجتمع بعد أن شملت الطبقات العليا ، وكان الحاكم نفسه أمام هذه الحركة يغذيها بتصرفاته وقدومه ، فقد كان هذا الذهن الهائم أشد ما يكون شغفاً باستقراء النجوم واستكشاف الغيب ، وكان يكثر الخروج ليلا إلى مكان منعزل فى جبل المقطم برصد النجوم ، ويهيم فى استقرائها ، وكان يقرب إليه الفلكيين والمنجمين ويغدق عليهم عطاءه .

هذا إلى أنه كان يرعى الدعوة السرية الفاطمية ، ويسهر على تنظيمها وبثها ، سواء عن طريق دار الحكمة التى أنشأها لتلك الغاية ، أو عن طريق الدعاة والنقباء السريين الذين انبثوا يومئذ فى مصر والشام ، يحملون بذور الإلحاد والزيغ إلى سائر الطبقات .

والظاهر أن ريح الخفاء والتطلع إلى مدارك الغيب ، قد وصلت يومئذ إلى حد من الإغراق الذى ينذر بالفوضى ، وخشى الحاكم من عواقب هذا الشغف بالتنجيم ، وسيطرة المنجمين والمشعوذين على عقول الكافة ، فأصدر سجلا (مرسوماً) بتحريم صناعة التنجيم والكلام فيها ، وأن ينفى المنجمون من سائر

المملكة ، فاستغاث المنجمون بقاضى القضاة ، فعقد لهم التوبة من هذه الصناعة وأعفوا من قرار النفى .

وكانت الذروة فى أواخر عصر الحاكم حيث اتخذت دعوة الخفاء صورة الحادية مغرقة وظهر دعاة أقوياء ومغامرون من أخطر نوع ، يبشرون بدين جديد ، ويدعون إلى ألوهية الحاكم بأمر الله ، وإلى التناسخ والحلول ، ويستترون بالرموز والمعانى الباطنة ، وكان فى مقدمة هؤلاء الدعاة المجترئين حمزة بن على الزوزنى ، والحسن الفرغانى المعروف بالأخرم ، وإسماعيل الدرزى الذى تنسب إليه طائفة الدروز الشهيرة .

وقد حاول هؤلاء الدعاة أن يبثوا تعاليمهم الخطرة فى المجتمع المصرى ، وشجعهم الحاكم برعايته السرية . ولكنهم لم يجدوا بالمجتمع المصرى مهداً خصباً ، وثار بهم الكافة وفتكوا ببعضهم ، وفر الآخرون إلى الشام حيث استطاعوا أن يبثوا تعاليمهم ، وأن ينشئوا طائفة سرية جديدة هى طائفة الدروز .

ثم كان اختفاء الحاكم على ذلك النحو الخفى المدهش الذى انتهى إلينا وانعدام كل أثريدل على مصيره ، أو يلقى ضياء على ظروف اختفائه أو مصرعه ، فكان ذلك عاملا جديداً فى إذكاء شغف الخفاء والتطلع إلى مدارك الغيب ، وإذكاء الدعوات السرية المغرقة فى نفس الوقت ، حتى لقد زعم بعض الغلاة أن الحاكم قد رفع إلى السماء .

* * *

وبعد فإنا نجد تماثلا عجيباً بين خواص هذه الفترة المدهشة من تاريخ مصر الإسلامية ، وبين خواص عصر الخفاء الحديث الذى يملأ صحف القرن الثامن عشر بمختلف السير العجيبة ! .

فقد احتشد فى هذا القرن طائفة كبيرة من الدعاة السريين الذين يتشحون بأثواب الخفاء مثل يعقوب فرنك أو (البارون فون أوفنباخ). ويوسف بلسامو أو (كاليوسترو) والكونت سان جرمان، والدكتور فوك وغيرهم من أقطاب الدعاة والمشعوذين ، وقامت جمعيات سرية كثيرة فى ألمانيا وفرنسا ، وذاعت محافل البناء الحر (الماسونية) فى جميع أنحاء أوربا .

وإذا تأملنا نظم هذه الجمعيات ومراتبها وغاياتها ألفينا ، بينها وبين نظم الدعوة

الميمونية والدعوة الفاطمية السرية ومراتبها شبهاً عجيباً ، سواء فى التدرج فى المراتب أو تحرى الغايات والمقاصد الإلحادية ، وحشد الدعاة والمؤمنين . ويرجع ذلك بلا ريب إلى أن كثيراً من هذه الطوائف والجمعيات السرية ، كانت تستقى معظم نظمها وتعاليمها من الفلسفة والدعوات اليهودية المختلفة ، وأن هذه بدورها تستقى من المشرق أو أنها كانت ذات أثر كبير فى توجيه حركات الخفاء المشرقية .

ومع أن أقطاب الدعاة السريين الذين ظهروا فى أوربا فى هذا العصر ، لم يذهبوا إلى حد الدعوة إلى النبوة أو الألوهية كما وقع فى عصر الخفاء الإسلامى ، فانهم جميعاً سلكوا نفس المنهج الذى يملى به الخفاء فى كل عصر ، فتحدثوا عن استكشاف الغيب ، وعن المجهول والخارق ، وعن سر الحياة والموت ، وعن الخلود فى هذه الدنيا ، وكان بعضهم مثل كاليوسترو يزعم النفاذ إلى أسرار الغيب ، ويعقد لذلك جلسات خاصة يقوم فيها ببعض الرسوم الشرقية القديمة ، أو يزعم الخلود كالكونت سان جرمان ، فقد كان هذا الداعية المشعوذ يزعم أنه عاش قروناً ، وأنه عاصر كليوباترة ملكة مصر ، ويوليوس قيصر ، وأنه عرف المسيح وكان من أصدقائه ، وعرف معظم ملوك أوربا فى مختلف العصور ، إلى غير ذلك من المزاعم الخارقة . وكانت هذه المزاعم على غرابتها وطابعها الخرافى تلقى لدى الكافة ذيوعاً كبيراً ، وتثير فيهم الدهشة والروع .

بيد أن هناك فارقاً جلياً بين العصرين ، فقد كانت دعوة الخفاء فى المشرق يغلب فيها العنصر الروحى وكانت تميل إلى حشد المؤمنين ، وتكوين العقائد والمبادئ قبل كل شىء ، ولكنها كانت فى الغرب يغلب فيها العنصر المادى ، وكانت أكثر ميلا إلى اجتناء الثمرات المادية .

الفصل التاسع

داعى الدعـــاة

ونظم الدعوة عند الفاطميين

كانت الدعاية من أعظم العوامل التى عاونت على ظفر الحلفاء فى الحربين العالميتين الأولى والثانية . وللدعاية فى عصرنا أعظم شأن فى تكوين الرأى العام ، وفى توجيهه إلى النواحى والغايات التى يراد توجيهه إليها ، ولا يخفى ما للرأى العام من القوة والنفوذ حيثما تتاح له فرص الظهور والإعراب . ففى الأمم الديموقراطية التى تكون الحريات العامة فيها قائمة مكفولة ، يتمتع الرأى العام بكل قوته ونفوذه ، ويحسب حسابه ، ويحدث أثره فى توجيه الحوادث والشؤون. وحتى فى الأمم التى تسودها النظم الطاغية ، وتسحق الحريات العامة ، ويسلب الرأى العام والخاص كل حرية فى القول والإعراب ، تتبوأ الدعاية أهميتها كوسيلة قوية لتكوين رأى الكافة ، ومحاولة التأثير على الخاصة والمستنيرين ، وإخفاء مايراد إخفاؤه من عيوب النظم القائمة والإشادة بما تدعيه من الفضائل والمزايا ، وتحقيق الإصلاح والخير العام . وفى سبيل هذه الغاية ، تعتمد النظم الطاغية على هيئات محكمة للدعاية الشاملة تسيطر على جميع وسائل الدعوة ، كالصحافة والأدب والإذاعة ، والمسرح والسينما وغيرها ، مما تلمس أثره فى تكوين الرأى العام وتوجيهه وتثقيفه .

وتبدو هذه الهيئات المحدثة للدعاية كأنها بدعة فى النظم الجديدة ، وكأنها ابتكار لم يسبق مثوله فى غيرها ، وقد بلغت فى معظم الدول مرتبة الوزارة الخاصة ، وأضحت من دعامات الحكم الجديد التى يحسب حسابها فى حشد الرأى العام وفى توجيهه حيثما شاءت السياسة العليا . بيد أننا سنرى فى هذا الفصل أن تنظيم الدعاية الرسمية على هذا النحو ليس ابتكاراً جديداً ، ولم تنفرد به تلك الدول والنظم التى تعتز به وتعتمد عليه ، وأنه قد عرف فى الدول الإسلامية قبل ألف عام ، واتخذ كما يتخذ اليوم ، أداة قوية لغزو الأذهان ، وتوجيه رأى الكافة ، وكان دعامة من دعائم الحكم والخلافة .

أجل عرفت الدولة الإسلامية قيمة الدعاية ، ولجأت فى مختلف الظروف والحوادث لتحقيق غايات الدين والسياسة . بيد أنها لم تدمج فى هيئة خاصة ، ولم تنظم أصولها ووسائلها بصورة رسمية إلا فى الدولة الفاطمية . ففى ظل هذه هذه الدول القوية المدهشة ، نجد الدعوة تتخذ وسيلة من أنفذ الوسائل لحشد الأولياء والكافة ، وتوضع لها نظم هى آية فى الطرافة والبراعة ، ونجد هذه الهيئة الرسمية التى تضطلع بهذه المهمة الخطيرة ، ترتفع إلى مرتبة الوزارة ، وتجعل الخلافة الفاطمية منها سياجاً منيعاً لإمامتها وزعامتها الدينية .

لما استقر الفاطميون بمصر ، وغدت مصر منزلهم ، ومثوى ملكهم ودولتهم ، شعرت الخلافة الفاطمية بالحاجة إلى مضاعفة جهودها المذهبية ، ذلك أنها لم تجد فى مصر كما وجدت فى قفار المغرب الساذجة ، مهداً خصباً لدعوتها ، بل ألفت فى مصر مجتمعاً متمديناً ، عركته الأحداث الدينية والسياسية والفكرية . ولم يكن اعتماد الخلافة الفاطمية فى بث دعوتها ، على سلاح التشريع قدر اعتمادها على الدعاية السرية ، وغزو الأذهان بطريقة منظمة ، لأنه إذا كان التشريع وسيلة لسيادة الكافة وتحقيق الطاعة الظاهرة ، فإن الدعاية المنظمة ، هى خير الوسائل لغزو الأذهان المستنيرة ، وحشدها لتأييد الدعوة المنشودة ، وقد كانت الدعوة السرية أنفذ وسائل الفاطميين إلى تبوأ الملك . فلما جنوا ثمار ظفرهم الأولى ، كانت الدعوة السرية وسيلتهم إلى حمايتها وتدعيمها ، فكان لهم دعاة فى سائر الأقطار الإسلامية ، وكانت مصر منزل ملكهم وخلافتهم ، منبر هذه الدعوة ومركزها ومجمعها ، تنساب منه إلى جنبات الإمبراطورية الفاطمية الشاسعة ، وإلى سائر الأقطار الإسلامية الأخرى .

وكانت هذه الدعوة المذهبية تتخذ منذ البداية صبغة رسمية . ومذ قامت الخلافة الفاطمية بالقاهرة ، نراها ، تنتظم فى القصر الفاطمى ، وتتخذ صورة الدعوة إلى قراءة علوم آل البيت (علوم الشيعة) والتفقه فيها . وكان يقوم بإلقاء هذه الدروس قاضى القضاة وغيره من أكابر العلماء المتضلعين فى فقه الشيعة . وكانت تلقى أحياناً فى القصر وأحياناً فى الجامع الأزهر . وينوه المسبحى مؤرخ الدولة الفاطمية بإقبال الكافة على الاستماع لهذه الدروس والجلسات المذهبية ، فيقول لنا إنه فى ربيع الأول سنة ٣٨٥ هـ ، جلس القاضى محمد بن النعمان بالقصر لقراءة

علوم آل البيت على الرسم المعتاد ، فمات فى الزحام أحد عشر رجلا ، فكفنهم العزيز بالله . بيد أن هذه الدعاية المذهبية الظاهرة التى بدأت فى صورة الدروس الفقهية المذهبية ، وهى دروس كان يطلق عليها مجالس الحكمة ، كانت ستاراً لدعوة أخرى بعيدة المدى ، كانت تحاط بنوع من التحفظ والتكتم ، هى الدعوة الفاطمية السرية التى كانت الخلافة الفاطمية ، تجد فى بثها وسيلة لغزو الأذهان المستنيرة ، وحشدها فى حظيرتها المذهبية الدينية والسياسية ، وكان من عناية الخلافة الفاطمية بتنظيم هذه الدعوة وبثها ، أن أنشأت لها خطة دينية تضارع فى المرتبة والأهمية خطة الوزارة ذاتها . وكان هذا المنصب الخطير من أغرب الخطط الدينية التى أنشأتها الدولة الفاطمية وانفردت بها ، وكان متوليه ينعت بداعى الدعاة ، وهو أيضاً من أغرب الشخصيات الرسمية التى خلقتها الدولة الفاطمية . وكان داعى الدعاة يلى قاضى القضاة فى المرتبة ، ويتزيا بزيه ، ويتمتع بمثل امتيازاته ، وينتخب من بين أكابر فقهاء الشيعة المتضلعين فى العلوم الدينية وفى أسرار الدعوة ، ويعاونه فى مهمته اثنا عشر فقيهاً وعدة كبيرة من النواب ، يمثلون فى سائر النواحى . وكانت هذه الدروس والمحاضرات الخاصة التى يشرف عليها داعى الدعاة ، تلقى بعد مراجعة الخليفة وموافقته ، فى إيوان القصر الكبير . وتعقد للنساء مجالس خاصة بمركز الداعى بالقصر وهو المسمى « بالمحول » ، وكان من أعظم الأبنية وأوسعها ، فإذا انتهت القراءة أقبل الأولياء والمؤمنون على الداعى ، فيمسح على رءوسهم بعلامة الخليفة ، ويأخذ العهد على الراغبين فى دخول المذهب ، ويؤدى له النجوى من استطاع ، وهى رسم اختيارى صغير ، يجبى من المؤمنين للإنفاق على الدعوة والدعاة . وكانت ثمة مجالس أخرى تعقد بالقصر أيضاً لبعض الهيئات والطبقات الممتازة من أولياء المذهب ، ورجال الدولة والقصر ونساء الحرم والخاص ، ويسودها التحفظ والتكتم ، ويحظر شهودها على الكافة ، وتعرض فيها الدعوة الفاطمية على يد دعاة تفقهوا فى درسها وعرضها ، وكان تلقين هذه الدعوة ، هو أخطر مهمة يقوم بها الدعاة ، بل كان فى الواقع أهم غاية يراد تحقيقها ، وكان للكافة أيضاً نصيب من تلك المجالس الشهيرة ، فيعقد للرجال مجلس بالقصر ، ويعقد للنساء مجلس بالجامع الأزهر ، ويعقد مجلس للأجانب الراغبين فى تلقى الدعوة . وكان الداعى يشرف

على هذه المجالس جميعاً ، إما بنفسه أو بواسطة نقبائه ونوابه . وكانت الدعوة تنظم وترتب طبقاً لمستوى الطبقات والأذهان ، فلا يتلقى الكافة منها سوى مبادئها وأصولها العامة ، ويرتفع الدعاة بالخاصة والمستنيرين إلى مراتبها وأسرارها العليا .

وقد انتهت إلينا وثيقة رسمية هامة هى سجل فاطمى بإقامة داعى الدعاة ، وبيان مهمته واختصاصاته ، وما يجب عليه اتباعه لإذاعة الدعوة . وقد جاء فيه بعد الديباجة شرحاً لمقاصد الدعوة ما يأتى : « وإن أمير المؤمنين بما منحه الله تعالى من شرف الحكمة ، وأورثه من منصب الأمانة والأئمة ، وفوض إليه من التوقيف على حدود الدين ، وتبصير من اعتصم بحبله من المؤمنين ، وتنوير بصائر من استمسك بعروته من المستجيبين ، يعلن بإقامة الدعوة الهادية بين أوليائه ، وسبوغ ظلها على أشياعه وخلصائه ، وتغذية أفهامهم بلبانها ، وإرهاف عقولهم ببيانها ، وتهذيب أفكارهم بلطائفها ، وانقاذهم من حيرة الشكوك بمعارفها ، وتوقيفهم من علومها على ما يجلب لهم سبل الرضوان ، ويفضى بهم إلى روح الجنان ، وريح الحنان ، والخلود السرمدى فى جوار الجواد المنان ... »

ومنها فى شرح واجبات الداعى وطرق تلقين الدعوة : « وخذ العهد على كل مستجيب راغب ، وشد العقد على كل منقاد ظاهر ، ممن يظهر لك إخلاصه ويقينه ، ويصح عندك عفافه ودينه ، وحضهم على الوفاء بما تعاهدهم عليه ... ولا تكره أحداً على متابعتك والدخول فى بيعتك ... ولا تلق الوديعة إلا لحفاظ الودائع ، ولا تلق الحب إلا فى مزرعه لا تكدى على الزارع ، وتوخ لغرسك أجل المغارس ، وتوردهم مشارع ماء الحياة المعين ، وتقربهم بقربان المخلصين ، وتخرجهم من ظلم الشكوك والشبهات إلى نور البراهين والآيات ، واتل مجالس الحكم التى تخرج إليك فى الحضرة على المؤمنين والمؤمنات ، والمستجيبين والمستجيبات ، فى قصور الخلافة الزاهرة ، والمسجد الجامع بالمعزية القاهرة ، وصن أسرار الحكم إلا عن أهلها ، ولا تبذلها إلا لمستحقها ، ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله ، ولا تستقل أفهامهم بتقبله ، واجمع من التبصر بين أدلة الشرائع العقول ، ودل على اتصال المثل بالممنون ، فإن الظواهر أجسام والبواطن أشباحها ، والبواطن أنفس ، والظواهر أرواحها ... »[١] .

(١) صبح الأعشى ج ١٠ ص ٤٣٤ وما بعدها .

وفى هذه العبارات ما يلقى الضياء على غايات السياسة الفاطمية الدينية والمعنوية ، وعلى وسائلها فى غزو الأذهان وحشدها من حولها . ومن المعروف أن الخلافة الفاطمية ، كانت تتخذ الإمامة الدينية شعارها ، ومرجع زعامتها الدينية فى العالم الإسلامى ، وشرعية ملكها السياسى ، فالدعوة الفاطمية التى كانت تلقى فى مجالس الحكمة إلى الكافة وإلى الخاصة ، متدرجة فى مراتب من السرية والتحفظ ، طبقاً لمكانة الأشخاص وأحوالهم الفكرية والاجتماعية ، كانت رغم صفتها الدينية ، ترمى فى النهاية إلى أغراض سياسية . ذلك أن الخلافة الفاطمية ، كانت ترى أن تحشد جهود أوليائها ومؤيديها عن طريق الدين ، ومتى اجتمعوا فى ظل الإمامة وتحت لوائها ، استطاعت أن تحركهم ، وأن توجههم وفق مصالحها وغاياتها ، وأن تعتمد على تأييدهم ونصرتهم ، كلما اقتضت الظروف والأحوال .

والدول المحدثة التى تعتمد فى عصرنا على سلاح الدعاية ، ترمى إلى مثل هذه الغاية ، فهى تتوسل بها لديها من أسلحة حديثة لغزو العقول والأذهان كالصحافة والإذاعة والسينما وغيرها ، لفرض مذاهبها السياسية والاجتماعية والدينية أحياناً على جمهور الشعب ، والحصول على تأييده ونصرته . ولم تكن الخلافة الفاطمية ، وهى من دول العصور الوسطى ، تتمتع بشىء من هذه اوسائل القوية المحدثة ، ولكنها مع ذلك استطاعت أن تنظم دعوتها بأساليب ووسائل مدهشة ، وأن تجنى كثيراً من الثمرات المادية والمعنوية ، بل لقد كان قيام الدولة الفاطمية ذاته نتيجة من نتائج الدعوة الفاطمية ، وذيوع هذه الدعوة فى قبائل إفريقية البربرية ، هو الذى جمع كلمة القبائل المغربية حول عبيد الله المهدى ، وهو الذى مهد لقيام الدولة الجـــديدة :

والخلاصة أن فكرة الدعاية التى تتبوأ فى النظم السياسية والاجتماعية الحديثة ولاسيما نظم الطغيان الفاشستية مكانة خاصة ، وتعتبر من أقوى أسلحة الحشد والإقناع فى عصرنا ، ليست جديدة فى ذاتها أو غاياتها ، وإن كانت جديدة فى وسائلها ، وقد عرفتها الدول الإسلامية قبل ألف عام ، واتخذت على يد الخلافة الفاطمية ، أذكى وأنفذ أساليبها .

الفصل العاشر

مصر فى فاتحة القرن الثالث عشر

كما يصورها عبد اللطيف البغـــدادى

فى خاتمة القرن السادس من الهجرة ، أو خاتمة القرن الثانى عشر من الميلاد ، حل بمصر رحالة غزير العلم والملاحظة ، فأقام بها حقبة من الزمن ، وترك لنا عن مصر وأحوالها فى ذلك الحين أثراً جم النفاسة والغرابة ، هو أحد هذه الآثار القليلة التى تقدم لنا عن مصر الإسلامية ، صوراً طريفة صادقة ، يعنى فيها بالظواهر العلمية والاجتماعية والنفسية ، أكثر مما يعنى بالرواية والحوادث المتماثلة .

هذا الرحالة العلامة ، هو موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف البغدادى . وهو مفكر من أعلام عصره . ولد ببغداد سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢ م) ، وبرز فى الطب ، والفلسفة ، والكلام ، والمنطق ، والبيان معاً ؛ ومن ثم كان ذهنه الوضعى ، وكانت عقليته العلمية ؛ وكانت قوة ملاحظته ، التى تبدو واضحة فى الأثر الذى خلفه لنا عن مصر . وكانت بغداد فى أواخر القرن السادس ، قد فقدت رياستها الفكرية منذ بعيد ، فقامت القاهرة ودمشق تتنازعان هذه الرياسة ، وغدتا يومئذ قبلة المفكرين والعلماء من كل صوب ، ولا سيما من المشرق ؛ فحمل عبد اللطيف هذا التيار ، وهبط مصر فى أواخر القرن السادس ، واستقر بها أعواماً طويلة ، ودرس خواصها وطبائع أهلها ، وآثارها ، وانتهى إلينا من مشاهداته سفر صغير ، ولكن حافل بنفيس النقد والتصوير والملاحظة .

غادر عبد للطيف بغداد فتى دون الثلاثين من عمره ، ومر فى طريقه إلى مصر بدمشق ، واتصل بأمرائها وعلمائها ، ثم قصد السلطان صلاح الدين ، وكان معسكراً فى ظاهر عكا يحاول انتزاعها من الصليبيين (سنة ٥٨٣ هـ — ١١٨٧ م) ، فرحب به ووصله . والتقى فى بيت المقدس بالقاضى الفاضل ، كاتب الديوان ، فزوده بوصية إلى مصر ؛ ووصل إلى القاهرة فى أواخر سنة ٥٨٣ أو أوائل سنة ٥٨٤ هـ ، فلقى من رجال الحكم كل ترحاب وحفاوة ، وأجزلت له الصلات

والعطايا . وهنا يقول عبد اللطيف فى ترجمة نفسه : « وأقمت بمسجد الحاجب لؤلؤ أقرئ الناس ؛ وكان قصدى فى مصر ثلاثة أنفس : ياسين السيمياوى ، والرئيس موسى بن ميمون اليهودى ، وأبو القاسم الشارعى ، وكلهم جاورونى »[١]. ولما انتهى صلاح الدين من محاربة الفرنج ، قصده عبد اللطيف فى بيت المقدس فأحسن مثواه ، وأطلق له الأرزاق . فلما توفى صلاح الدين ، سار عبد اللطيف مع ولده العزيز إلى مصر (سنة ٥٨٩ هـ) ولازمه حتى توفى فى سنة ٥٩٥ . قال : (وكانت سيرتى فى هذه المدة أن أقرئ الناس بالجامع الأزهر من أول النهار إلى نحو الساعة الرابعة ، ووسط النهار يأتى من يقرأ الطب وغيره ؛ وآخر النهار أرجع إلى الجامع الأزهر ، ويقرى قوم آخرون ؛ وفى الليل اشتغل مع نفسى . ولم أزل على ذلك إلى أن توفى الملك العزيز »[٢] . وأقام عبد اللطيف بعد ذلك فى القاهرة أعواماً أخرى ، أيام الملك المنصور ثم الملك العادل ، يشتغل بالتدريس ومزاولة الطب ؛ والتف حوله جمهرة من الأساتذة والطلاب ؛ واشتغل بدرس الخواص النباتية والطبيعية ؛ وشهد الوباء الهائل الذى نكب مصر سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١م) ، وبث فيها الدمار والرهبة ، وترك لنا عنه رواية مؤثرة مروعة ؛ كما ترك لنا طائفة من أنفس الملاحظات العلمية والأثرية فى ذلك العصر .

وكتب عبد اللطيف عشرات الكتب والرسائل ؛ فى الطب والفلسفة والنبات والحيوان والكلام والبلاغة ؛ ولكن لم يصلنا منها سوى القليل . أما مؤلفه عن مصر الذى أشرنا إليه ، فهو أثر صغير إسمه « الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة ، والحوادث المعاينة ، بأرض مصر » وهو بلا ريب ملخص لمؤلف أكبر وضعه عبد اللطيف عن مصر ولم يصلنا . وهذا ما يشير إليه عبد اللطيف فى مقدمة « الإفادة » حيث يقول : « وبعد فإنى لما أنهيت كتابى فى أخبار مصر المشتمل على ثلاثة عشر فصلا ؛ رأيت أن أفرد منه الحوادث الحاضرة ، والآثار البادية المشاهدة ، إذ كانت أصدق خبراً وأعجب أثراً ، فألفيت ذلك فى فصلين منه فجردتهما ،

---

(١) راجع ترجمة ابن أبى أصيبعة لعبد اللطيف فى « مناقب الأطباء » ، ففيها يقتبس كثيرا مما ترك عبد اللطيف عن نفسه . وقد نشرت هذه الترجمة مع كتاب عبد اللطيف « الإفادة والاعتبار » (طبع مصر سنة ١٢٨٦ هـ) .

(٢) ترجمة ابن أبى أصيبعة المذكورة فيما اقتبسه من عبد اللطيف (الإفادة والاعتبار – الطبعة المشار إليها ص – ح) .

وجعلتهما مقالتين فى هذا الكتاب ، وزدت ونقصت بحسب ما اقتضته الحال»[١]. كذا يشير عبد اللطيف فى « الإفادة » إلى كتابه (الكبير) غير مرة[٢]. ويذكر ابن أبى أصيبعة هذا الكتاب ضمن مؤلفات عبد اللطيف، ويسميه « كتاب أخبار مصر الكبير »[٣] ، وكذا يذكره ابن شاكر الكتبى ، ويسميه بنفس الاسم[٤] . على أننا لم نظفر بهذا الأثر النفيس عن مصر ، ولا نملك اليوم سوى الأثر الصغير أعنى كتاب « الإفادة والاعتبار » أو كما يسمى أحياناً « كتاب أخبار مصر الصغير »[٥].

وقد دون عبد اللطيف فى هذ السفر بعض مشاهداته وتحقيقاته لخواص مصر وظواهرها . ولم يعن ، بسيرة أسفاره وتنقلاته وإقامته ، فى وثيقة أراد أن يعرف بها عن مصر؛ ولكنه آثر أن يتناول ما هو أهم وأجدى فى التعريف عن خواص الطبيعة، والإنسان، والحيوان، والنبات . فجاء مؤلفه فى ذلك نوعاً من الدراسة العلمية . ويرجع ذلك بلا ريب إلى ذهنية عبد اللطيف ، فهو كما رأيت رجل علم قبل كل شىء ، طبيب ونباتى، يلذ له أن يلاحظ خواص الكائنات من بشرية وغيرها.والكتاب قسمان أو مقالتان ؛يتناول الأول،خواص مصر العامة وماتختص به من النبات والحيوان، ثم يتناول آثارها وغريب منشآتها وغريب أطعمتها. ويتناول القسم الثانى ، أحوال النيل وحوادث الوباء الأسود الذى اجتاح مصر فى سنة ٥٩٧ هـ وحوادث العام الذى يليه . وهذه نواح من أحوال مصر تناولها قبل عبد اللطيف وبعده كثير من المؤرخين والكتاب بإسهاب ؛ ولكن عبد اللطيف يتفوق عليهم جميعاً بدقة البحث والوصف ، وصادق التعليل ، والترفع عن تناول الخرافات والسفاسف التى يأباها المنطق العلمى السليم . فهو إذا تكلم عن خواص الإقليم أو الحيوان أو النبات فى مصر ، فإنه يتكلم عنها من الوجهة العلمية ويدون خواصها بأسلوب علمى محض ، وترى روح الدرس والمقارنة والتحليل ماثلة فيما

---

(١) مقدمة كتاب الإفادة الاعتبار – ص ٤ .

(٢) مثال ذلك أنه عند الكلام عن زيادة النيل يقول ما يأتى : وكنا سقنا فى « الكتاب الكبير » سنى الإفراط والتفريط منذ الهجرة إلى سنتنا هذه . وأما هنا (أعنى الإفادة) فإننا نقتص ما شاهدنا على ما شرطنا – الإفادة والاعتبار – ص ٤٥ .

(٣) ترجمة ابن أبى أصيبعة المشار إليها – ص – دى .

(٤) فوات الوفيات – بولاق – ج ٢ ص ٧ .

(٥) ترجمة ابن أبى أصيبعة – ص – دى.

يدون . وإذا تكلم عن النيل وعن منابعه ومصبه وزيادته ونقصه ، فإنه يتكلم بأسلوب الجغرافى العالم ، ويتجنب فى كل ذلك ما يأباه النقد العلمى فى عصره . فإذا كان الفصل المتعلق بالآثار ، فإن عبد اللطيف يبلغ الذروة فى دقة الدرس والمشاهدة ، والإبداع فى الوصف ، والبراعة فى التعليل والملاحظة . ومن الغريب أنه لم يتأثر فى هذا الموقف أيضاً ، بما تفيضه الرواية على آثار مصر القديمة من الأساطير التى جرت فى الرواية الإسلامية مجرى التواريخ . بل ليس فى الرواية الإسلامية كلها فى هذا الموضوع ، فصل كالذى يقدم لنا فيه عبد اللطيف عن آثار الفراعنة حسبما شاهدها فى القرن السادس الهجرى ، صورة من أقوى الصور وأبدعها .

ذلك أن فنون الفراعنة وبراعتهم قد أذكت لدى العلامة البغدادى ، روح البحث العلمى قبل أن تثير إعجابه ، فطاف بين الأهرام والمعابد والتماثيل ، وكل التراث الخالد الذى أورثته مصر القديمة لمصر الإسلامية ، وهو يستجمع مواهبه العلمية فى درس هذه الآثار وتعليل وجودها . ولكنه لم يفز بالطبع من أسرارها بشىء ، لأن الكتابة المصرية القديمة لم تكن قد كشفت عن خفائها بعد . غير أنه يخيل إليك أن عبد اللطيف لا يتكلم عنها بلغة القرون الوسطى حينما يبدى إعجابه بها ، وحينما يحاول وصف هندستها وفنها ، فهو يقول عن الأهرام الكبيرة مثلا : « فإنك إذا تبحرتها وجدت الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها ، والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها ، والأنفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها لها ، والملكات الهندسية قد أخرجتها إلى الفعل مثلا هى غاية إمكانها ، حتى أنها تكاد تحدث عن قومها وتخبر بحالهم وتنطق عن علومهم وأذهانهم ...»(١) ، ويمضى فى وصفها بأسلوب هندسى قوى ، ويصف نقوشها الهيروغليفية بقوله : « وعلى تلك الحجارة كتابة بالقلم القديم المجهول الذى لم أجد بديار مصر من يزعم أنه سمع بمن يعرفه ، وهذه الكتابات كثيرة جداً حتى لو نقل ما على الهرمين فقط إلى صحف لكانت زهاء عشرة آلاف صحيفة » ، ثم يصف تمثال أبى الهول فى هذه العبارة الشعرية : « عليه مسحة بهاء وجمال كأنه يضحك تبسما . وسألنى بعض الفضلاء ما أعجب ما رأيت ؟ فقلت : تناسب وجه أبى الهول . فإن أعضاء وجهه

---

(١) الإفادة والاعتبار — ص ٢٤ .

متناسبة كما تصنع الطبيعة الصور متناسبة »[1]. ويفيض بعد ذلك فى وصف ما تعرضه التماثيل المصرية الأخرى من إبداع فى الفن ودقة فى التناسب. ومن وصفه القوى الدقيق؛ نستطيع أن نعرف حالة آثار مصر القديمة فى القرن السادس، وأن نقدر مبلغ ما كانت عليه يومئذ من الكثرة والبهاء.

أجل، كانت مصر يومئذ ما تزال غنية بتراثها الأثرى القديم، رغم ما أصابه من عيث الفاتحين والحكام المسلمين. وكانت منارة الإسكندرية، ومعابد الفراعنة وتماثيلهم فى مصر القديمة وفى عين شمس وغيرها من الآثار الخالدة، ماتزال قائمة؛ وكانت الأهرام الكبيرة مغطاة بقشرتها الملونة الحافلة بالنقوش والصور التى ربما كانت تنبئ عن سرها. ونعرف فوق ذلك أن الآثار المصرية القديمة، سواء فرعونية أو يونانية أو رومانية، كانت أيام الفتح الإسلامى أضعاف ما كانت عليه يوم شهدها العلامة البغدادى؛ ولكن العرب الذين بهرتهم آثار مصر الخالدة كما بهرتهم حضارتها، لم يحسنوا رعاية هذا التراث المجيد الذى لم تخلفه حضارة أخرى حضارات الأرض جميعاً.

وللعقلية العربية الدينية فى بدء الإسلام دخل كبير فيما أنزله الفاتحون من التخريب والإتلاف بآثار مصر القديمة، فقد كانت هذه العقلية التى تضطرم حماسة بتعاليم الإسلام، تبغض الوثنية أشد البغض، وتعمل على مطاردة آثارها ورموزها وهياكلها أينما وجدت، فى فارس والشام ومصر وغيرها من البلاد التى افتتحها العرب، وقد دخل العرب مصر متأثرين بهذه العقلية، فعملوا على تطهير مصر من الآثار الوثنية. ولم تكن هذه الآثار الوثنية سوى ما خلفته دول الفراعنة الباذخة من معابد ومعاهد وأبنية وهياكل وتماثيل. بيد أن هنالك فكرة أخرى كانت تحفز الفاتحين إلى تخريب هذه الآثار، هى فكرة استخراج الأموال والكنوز. وكانت آثار الفراعنة بما تحتوى من تماثيل ورموز ونقوش خفية، تومئ دائماً إليهم بفكرة النفائس والثروات الدفينة. وقد فازوا فى الواقع باستخراج طائفة كبيرة من التحف والنفائس والحلى النادرة التى أودعها الفراعنة بطن الأرض؛ ولكنهم لم يحسنوا تقدير قيمتها الفنية والأثرية؛ فكانت يد التخريب، تنقض تباعاً وبلا رأفة على المعابد والتماثيل الفرعونية فتحطمها لتستخرج دفين كنوزها.

---

(١) الإفادة والاعتبار – ص ٢٧.

وهذه الفكرة هي التي حملت الوليد بن عبد الملك على أن يأمر بإزالة الطبقات العليا لمنارة الإسكندرية ، التي كانت من أبدع الآثار اليونانية الرومانية، عند ما قيل له إن تحت المنارة كنوزاً هائلة . فلما ذهب في هدمها شوطاً كبيراً ولم يعثر بشيء عدل عن إزالتها [١]. وهي التي دفعت المأمون يوم قدومه إلى مصر إلى أن يأمر بنقب الهرم الكبير . ودفعت كثيراً غيرهما من الأمراء والحكام المسلمين في مصر إلى تحطيم الآثار المصرية القديمة . بل لقد فكر بعضهم في هدم الأهرام الكبيرة ذاتها للظفر بما قد تبطن من كنوز ونفائس ، وبدئ بتنفيذ هذه الفكرة فعلا في عهد السلطان صلاح الدين ، فهدم وزيره بهاء الدين قراقوش ، عدداً من الأهرام الصغيرة التي كانت حول الأهرام الكبيرة ، وأنشأ بحجارتها قناطر النيل تجاه الفسطاط [٢] . وحدث في عهد صلاح الدين أيضاً ، أن والي الإسكندرية حطم جميع الأعمدة الرومانية البديعة ، التي كانت قائمة حول عمود السواري ، وألقى بها إلى البحر ليرد مراكب الصليبيين عن بر الإسكندرية إذا قصدت إليها ، أو ليحمي الميناء من طغيان مياه البحر [٣] . ولم ينج أبو الهول من الاعتداء أيضاً . فقد كان في حجر التمثال الكبير الذي نراه الآن تمثال صغير وعلى رأسه حوض كبير ، فخطر لأحد الأمراء المسلمين في بدء القرن الثامن أن تحت التمثال كنزاً ، فسلط عليه عماله فحطموه فلم يجدوا تحته إلا حجارة صلبة [٤] .

وقد شهد عبد اللطيف البغدادي بنفسه منظراً من مناظر هذا التخريب المعيب ، فرأى العمال يحاولون هدم الهرم الصغير . وكان الملك العزيز قد فكر في هدم الأهرام أيضاً [٥]. فحشد إليها الصناع والنقابين في سنة ٥٩٣ هـ . واستمرت أعمال الهدم حيناً . وهنا يثور العلامة البغدادي لهذا المنظر فيصف إقدام العزيز على تنفيذ الفكرة في قوله ، أن « سول له جهلة أصحابه أن يهدم هذه الأهرام فبدأ بالصغير الأحمر . وهو ثالثة الأثافي » ويحمل عبد اللطيف على فكرة تخريب الآثار حملة مرة ، وينعى

---

(١) المقريزي — الخطط — ج ١ ص ١٥٦ .

(٢) المقريزي — الخطط ج ١ ص ١٢٠ — فيما كتبه عن الأهرام . وفي هذا الفصل يذكر المقريزي عدة حوادث أخرى من تخريب الآثار الفرعونية (راجع هذا الفصل ج ١ ص ١١١ — ١٢٢) .

(٣) المقريزي — الخطط — ج ١ ص ١٥٩ .

(٤) المقريزي — الخطط — ج ١ ص ١٢٣ .

(٥) الإفادة والاعتبار — ص ٣٥ و ٣٦ . وكذلك المقريزي — الخطط — ج ١ ص ١٢١ .

بلهجة مؤثرة على المسلمين هذه السياسة الحمقاء فيقول : « وما زالت الملوك تراعى بقايا هذه الآثار وتمنع من العيث فيها والعبث بها ، وإن كانوا أعداء لأربابها . وذلك لمصالح ، منها لتبقى تاريخاً يتنبه بها على الأحقاب . ومنها أنها تكون شاهدة للكتب المنزلة . فإن القرآن العظيم ذكرها وذكر أهلها . ففى روايتها خبر الخبر ، وتصديق الأثر . ومنها أنها تدل على شىء من أحوال من سلف وسيرتهم وتوافر علومهم وصفاء فكرهم ، وغير ذلك . وهذا كله مما تشتاق النفس إلى معرفته وتؤثر الاطلاع عليه . وأما فى زماننا هذا فترك الناس سدى ، وسرحوا هملا ؛ فتحركوا بحسب أهوائهم ، وجروا نحو ظنونهم وأطماعهم . فلما رأوا آثاراً هائلة راعهم منظرها ، وظنوا ظن السوء بمخبرها . وكان جل انصراف ظنونهم إلى معشوقهم وأجل الأشياء فى قلوبهم ، وهو الدينار ، فهم كما قيل :

وكل شىء رآه ظنـــه قدحاً   وكل شخص رآه ظنه الســـاقى

فهم يحسبون كل علم يلوح لهم أنه علم على مطلب ، وكل شق مفطور فى جبل أنه يفضى إلى كنز ، وكل صنم عظيم أنه حافظ لمال تحت قدميه ، فصاروا يعملون الحيلة فى تخريبه ، ويبالغون فى هدمه ، ويفسدون صور الأصنام إفساد من يرجو عندها المال ، ويخاف منها التلف ، وينقبون الأحجار نقب من لا يتمارى أنها صناديق مقفلة على ذخائر ، ويسربون فى فطور الجبال سروب متلصص قد أتى البيوت من غير أبوابها »[١] .

وفى هذه الحملة التى أملتها روعة الآثار المصرية القديمة على عبد اللطيف ، وأملتها بالأخص حماقة المعتدين على الآثار ، فكرة نبيلة فى تقدير التراث الأثرى والفنى ، يندر أن تعثر بها فى التواريخ الإسلامية ؛ بل هى النزعة العلمية تثور إشفاقاً على مادتها النفيسة التى ترى أنها تنبئ عن أسرار الماضى وحضاراته .

٣

يختتم عبد اللطيف البغدادى مشاهداته عن مصر برواية ضافية ، محزنة مروعة[٢] ، عن النكبة التى نزلت بمصر فى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠١م) ، وهى ذلك القحط الهائل

---

(١) الإفادة والاعتبار — ص ٣٤ .

(٢) الإفادة والاعتبار — ص ٤٩ وما بعدها .

وما اقترن به من وباء صاعق أهلك الحرث والنسل ؛ وغادر مصر أعواماً قبراً شاسعاً ، وقاعاً صفصفاً . ولهذه الرواية أهمية خاصة ، لأنها يمكن أن تتخذ نموذجاً لمناظر هذا النوع من المحن ، التي نكبت مصر الإسلامية خلال عصورها الزاهرة مراراً وتكراراً .

ويقول عبد اللطيف فى بدء روايته ما يأتى : « ودخلت سنة سبع مفترسة أسباب الحياة ، وقد يئس الناس من زيادة النيل ، وارتفعت الأسعار وأقحطت البلاد ، وأشعر أهلها البلاء ؛ وهرجوا من خوف الجوع ، وانضوى أهل السودان والريف إلى أمهات البلاد ، وانجلى كثير منهم إلى الشام والمغرب والحجاز واليمن ، وتفرقوا فى البلاد أيدى سبا ، ومزقوا كل ممزق ؛ ودخل إلى القاهرة منهم خلق عظيم ، واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموت ... واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والأرواث ، ثم تعدوا ذلك إلى أن أكلوا صغار بنى آدم ؛ فكثيراً ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون ، فيأمر صاحب الشرطة بإحراق الفاعل لذلك والآكل .

« ورأيت صغيراً مشوياً فى قفة وقد أحضر إلى دار الوالى ومعه رجل وامرأة زعم الناس أنهما أبواه فأمر بإحراقهما » .

« ووجد فى رمضان بمصر رجل وقد جردت عظامه من اللحم فأكل وبقى قفصاً ... ورأيت امرأة مشججة يسحبها الرعاع فى السوق ، وقد ظفر معها بصغير مشوى تأكل منه ، وأهل السوق ذاهلون عنها ، ومقبلون على شؤونهم ، لم أر فيهم من يعجب لذلك أو ينكره ، فعاد تعجبى منهم أشد ، وما ذلك إلا لكثرة تكرره على إحساسهم حتى صار فى حكم المألوف ... » .

« ورأيت قبل ذلك بيومين صبياً نحو الرهاق مشوياً وقد أخذ به شابان أقرا بقتله وشيه وأكل بعضه ... » .

ولقد أحرق بمصر خاصة فى أيام يسيرة ثلاثون امرأة كل منهن تقر أنها أكلت جماعة ، فرأيت امرأة قد أحضرت إلى الوالى وفى عنقها طفل مشوى ، فضربت أكثر من مائتى سوط على أن تقر فلا تحير جواباً ، بل تجدها قد انخلعت عن الطباع البشرية ثم سحبت فماتت على مكان » .

« ثم فشا فيهم أكل بعضهم بعضاً حتى تفانى أكثرهم ، ودخل فى ذلك جماعة

من المياسير والمساتير ، منهم من يفعله حاجة ومنهم من يفعله استطابة » .

« وظهر من هؤلاء الخبثاء من يتصيد الناس بأصناف الحبائل ... وقد جرى ذلك لثلاثة من الأطباء ممن ينتابنى ... » .

ويمضى عبد اللطيف فى سرد طائفة كثيرة من هذه الحوادث الهائلة ثم يقول: « لو أخذنا نقتص كل ما نرى ونسمع لوقعنا فى التهمة أو فى الهذر ، وجميع ما حكيناه مما شاهدناه لم نتقصده ، ولا تتبعنا مظانه ، وإنما هو شيء صادفناه اتفاقاً ، بل كثيراً ما كنت أفر من رؤيته لبشاعة منظره » .

ونعرف من رواية عبد اللطيف ، أن الوباء اجتاح يومئذ مصر من أقصاها إلى أقصاها ، وأن هذه المناظر المروعة التى يقصها عن مصر القاهرة ، وقعت فى جميع المدن والأقاليم الأخرى ؛ وأن الوباء امتد إلى البلاد المجاورة لمصر ففتك بها أيضاً . وكانت شوارع القاهرة ورحابها الفسيحة ، وحقولها ، كلها يومئذ مقابر مكشوفة . تتكدس فيها آلاف مؤلفة من الجثث . وأما فى الريف ، « فإن المسافر ليمر بالبلدة فلا يجد فيها نافخ ضرمة ، ويجد البيوت مفتحة ، وأهلها موتى »(١) . وهكذا كانت النكبة شاملة مروعة ، كست مصر ثوب الحداد والدمار(٢) ، وبثت إلى نظمها ومجتمعاتها الانحلال والفوضى ؛ فأطلقت عناصر الشر والافتراس من عقالها ؛ وأهدرت الأموال والحريات ، حتى ذاع بيع الأحرار يومئذ ذيوعاً كبيراً . ويروى عبد اللطيف أن الجارية الحسناء كانت تعرض بدراهم معدودة ، وأن قد عرض عليه جاريتان مراهقتان بدينار واحد ، وأن امرأة سألته أن يشترى ابنتها وكانت دون البلوغ بخمسة دراهم ، ثم يقول : « وكثيراً ما يترامى النساء والولدان الذين فيهم صباحة ، على الناس بأن يشتروهم أو يبيعوهم ، وقد استحل ذلك خلق عظيم ؛ ووصل سبيهم إلى العراق وأعماق خراسان » .

---

(١) الإفادة والاعتبار — ص ٥٣ .

(٢) يقدر عبد اللطيف عدد الذين افترسهم الوباء فى القاهرة وحدها فى مدة اثنين وعشرين شهراً ابتداء من شهر شوال سنة ٥٩٦ إلى رجب سنة ٥٩٨ ، بمن دخلوا تحت الإحصاء بمائة ألف وأحد عشر ألفاً ، ثم يقول : « وهذا مع كثرته نزر فى جنب الذين هلكوا فى دورهم وفى أطراف المدينة وأصول الحيطان ، وجميع ذلك نزر فى جنب من هلك بمصر وما تاخمها ، وجميع ذلك نزر فى جنب من أكل فى البلدين ، وجميع ذلك نزر جداً فى جنب من هلك وأكل فى سائر البلاد والنواحى والطرقات » .

وتدفع العلامة البغدادى نزعته العلمية دائماً ، فلا ينسى فى غمار هذه المحن والمناظر الهائلة ، أن يبحث وأن يدرس ، بل تقدم إليه المحنة مادة الدرس ؛ فنراه يطوف بأكداس الموتى ، ويدرس أشكال العظام ، ويشرح لتلاميذه مسائل التشريح بفحص الجثث والعظام التى غصت بها ميادين القاهرة ، ويقارن التطبيق بالنظر ، ويرى هذه التجارب أصدق وأجدى من شروح جالينوس[١] .

وسلخ عبد اللطيف أيام هذه الخطوب كلها بمصر وبقى بها حتى سنة ٦٠٢ هـ (١٢٠٥ م) ؛ ثم نزح إلى بيت المقدس ، فالشام يسبقه صيته ، واشتغل حينا فى دمشق بالتدريس والطب ؛ ثم قصد إلى بلاد الروم (الأناضول) ؛ واتصل بأمير «أرزنجان» علاء الدين داود بن بهرام ؛ ونال لديه حظوة ، وألف باسمه عدة كتب ورسائل ؛ وبعد أن تجول حيناً فى بلاد الروم ، آب إلى وطنه بعد طول الغياب ؛ وتوفى بعدئذ بقليل فى بغداد فى سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣٢ م) ، وهو شيخ يجاوز الرابعة والسبعين[٢] .

ودون عبد اللطيف ما دون فى كتاب « الإفادة والاعتبار » ملخصاً من كتابه «الكبير» عن مصر ، فى أواخر سنة ٦٠٣هـ ببيت المقدس[٣] ، على أثر مغادرته لمصر ؛ ورفع ما دونه من مشاهداته إلى سلطان مصر — الملك العادل — « لئلا ينطوى عن العلوم الشريفة شىء من أخبار بلاده وإن تراخت ، أو يخفى بعض أحوال رعاياه وإن تناءت »[٤] ؛ وهى مشاهدات تسمو كثيراً فوق الرواية والمشاهدات العادية ، لأنها ثمرة عقلية علمية متينة ، تغلب أصول العلم الصحيح على الأساطير والرواية المجردة . ومن ثم كانت نفاسة الصور التى يتركها لنا علامة بغداد ورحالتها عن مصر فى فاتحة القرن الثالث عشر[٥] .

---

(١) الإفادة والاعتبار — ص ٦١ — ٦٢ .

(٢) فوات الوفيات — ج ٢ ص ٧ . وترجمة ابن أبى أصيبعة لعبد اللطيف — فى الإفادة — (ص حـ — ط) .

(٣) ترجمة ابن أبى أصيبعة — ص (دى) — وفى النص الذى نشره المستشرق رايت ، فى ختام الرسالة ، يقول عبد اللطيف ، إنه كتب مشاهداته بالقاهرة فى رمضان سنة ٦٠٠ هـ .

(٤) ديباجة الإفادة والاعتبار — ص ٥ .

(٥) أثارت مشاهدات عبد اللطيف عن مصر اهتمام البحث الحديث منذ بعيد ، فترجمت إلى اللاتينية ، ونشرت مقرونة بالنص العربى بأكسفورد سنة ١٨٠٠ بعناية المستشرق يوسف رايت . وكذلك طبعت بمصر سنة ١٢٨٦ هـ ، وهى الطبعة التى نشير إليها هنا .

الفصل الحادي عشر

الحرب الصليبية الرابعة

فى مذكرات ڤيـــل هـــاردوان

تملأ سير الحروب الصليبية فى الآداب العربية والفرنجية أسفاراً مستفيضة. ولكن بينما تميل الرواية العربية إلى التعميم والإجمال، إذا بالرواية الفرنجية تميل أحيانا إلى التخصيص والإفاضة؛ وبينما تفيض الرواية العربية فى تفاصيل الناحية الإسلامية من هذه الحوادث، إذا بالرواية الفرنجية تفيض فى ناحيتها النصرانية. وقد تُطبع هذه الرواية أو تلك، بما تميزت به العصور الصليبية من المؤثرات الدينية والجنسية العميقة، فتسبغ بذلك على الحوادث والبواعث ألواناً خادعة. على أن كلتيهما فى الواقع يجب أن تعتبر متممة للأخرى، إذا أردنا أن نستخرج من سير الحوادث الصليبية أصدق صورها.

ويتخذ هذا الميل إلى التخصيص فى الرواية الفرنجية، صور المذكرات الخاصة، وهى التى يعنى بتدوينها عادة سيد أو فارس قدر له أن يخوض غمار المعارك التى يسرد تفاصيلها. وأشهر هذه المذكرات ما كتبه ده چوانڤيل (De Joinville) مؤرخ لويس التاسع عن الحرب الصليبية السابعة، وڤيل هاردوان (Ville - Hardouin) عن الحرب الصليبية الرابعة. وقد عرضنا فى مؤلف آخر إلى مذكرات ده چوانڤيل، وسيرته الخاصة، ومنزلة روايته من تاريخ الحروب الصليبية، وما تميزت به هذه الرواية من ضبط ودقة، وإن لم تخل فى بعض المواطن من الإغراق والتحامل(1). ونعرض فى هذا الفصل إلى مذكرات ڤيل هاردوان التى نعتقد أيضاً أنها وثيقة خطيرة فى الحروب الصليبية رغم كونها لا تتناول الناحية الإسلامية من الحوادث. ذلك أن ڤيل هاردوان يقص سيرة الحملة الصليبية الرابعة التى لم تجاوز مياه

---

(1) راجع الفصل الحادى عشر من كتابنا «مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام» (الطبعة الرابعة ص ١٥٢ وما بعدها).

البوسفور ، والتى استبدلت لقاء المسلمين فى الشام ومصر ، بالتدخل فى حوادث الدولة البيزنطية ، وانتهت بالبقاء فى قسطنطينية وتأسيس مملكة لاتينية صليبية ، لبثت هنالك زهاء ستين عاماً . فهى ليست صليبية بالمعنى الصحيح ، ولكنها نشأت صليبية ، ولم تجهز إلا لإنقاذ بيت المقدس من قبضة الإسلام ، وإعادة فلسطين والشام ، إلى حوزة النصرانية ، ولكن تيار الحوادث حال بينها وبين هذه الغاية ، ودفع بها إلى ميدان لم تكن تحلم بالنزول إليه .

على أن مذكرات ڤيل هاردوان تلقى كبير ضياء على تاريخ الحروب الصليبية عامة بما تكشف من خواص الحملات الصليبية وأسرارها وحقائقها ؛ وتقدم إلينا صوراً واضحة من الظروف التى كانت تحشد فى مهادها هذه الحملات ؛ والعوامل القوية المغرية التى كان الأمراء والسادة يلجأون إليها للتأثير فى الجند والكافة ، وجمعهم تحت لواء الحرب « المقدسة » . وأهم من ذلك أنها تكشف عن طرف من البواعث والغايات والأهواء ، التى كانت هى الغالبة فى حشد هذه الحملات وتوجيهها إلى المشرق . نعم إن ڤيل هاردوان لا يقول لنا إن حرص الكنيسة على سيادتها الزمنية ، وعملها على تمكين سيادتها باسم الدين بين أمراء النصرانية ، وتحويل أولئك الأمراء عن مناهضتها ومقاومة عدوانها على سلطانهم ، ثم اضطرام أولئك الأمراء بإحراز السلطان والثروة فى بلاد المشرق ، كانت هى العوامل الأولى والغالبة فى تحريك هذه الحملات البربرية على الإسلام ؛ وإن إنقاذ قبر المسيح ومهاد النصرانية من قبضة الإسلام ، لم يكن إلا حجة ظاهرة تخلب ألباب المؤمنين من البسطاء والكافة — لم يقل لنا ڤيل هاردوان بالطبع شيئاً من ذلك ، فهو كمعظم الرواة والمؤرخين الفرنج ، يصر على تأكيد العوامل الدينية ، وتنزيه الغايات الصليبية ؛ ولكن الحوادث التى يسردها تنطق قبل غيرها بما كانت تخفيه الكنيسة ، ويخفيه الأمراء تحت قناع الدعوة الصليبية ، من البواعث والغايات . .

كانت الكنيسة روح هذه الحملة التى ارتدت قبل بعيد إلى صدر النصرانية ذاتها ، والتى بثت الاضطراب والدمار إلى أمم أوربا الجنوبية والوسطى ، وكانت بالأخص ضربة شديدة لمنعة الدولة الرومانية الشرقية معقل النصرانية فى شرق أوربا . ولم تكن الصبغة الدينية التى أسبغت على الحروب الصليبية ، إلا حجاباً

يستظل به الأمراء والسادة فى تحريك الدهماء والكافة ، فى عصر كانت فيه النزعات والأساطير الدينية، تفتك بعقول الأفراد والجماعات ، ولكن ڤيل هاردوان يحاول فى مذكراته أن يؤكد قدسية الحملة التى يدون حوادثها ، ولونها الصليبى ، وقد يكون ذلك حقاً فى ظاهر الأمر وبدايته . فقد بدأت الدعوة الدينية إليها كالعادة من البابا – وهو يومئذ إنوصان الثالث – ، وحمل رسالتها قس فرنسى متعصب يدعى « فُلك ده نيى » ، مثّل نفس الدور الذى مثله بطرس الزاهد ، فى تحريك الكافة فى الحرب الصليبية الأولى ؛ فنهض فى فرنسا يخطب ويعظ ويحفز المؤمنين إلى إنقاذ قبر المسيح ؛ وكان الأمراء والسادة الفرنسيون أول من لبى الدعوة ، ونشط إلى تنفيذ المشروع ؛ فنادوا فى الأتباع والكافة بالحرب الصليبية ، فهرع إلى لوائهم آلاف من الحاج المؤمنين ، يدفعهم شغف استرداد القبر المقدس وإنقاذ فلسطين من قبضة الإسلام . وكان فى طليعة أولئك السادة « الكونت تيبو » أمير شمپانيا ؛ والكونت بلدوين أمير فلندر ، والمركيز مونفرا ، وكونت دى بلوا ، وكونت دى شارتر ، والفارس الأشهر سيمون دى مونفور ، وكثيرون غيرهم . وكان من بينهم الفارس النبيل « چوفروا دى ڤيل هاردوان » ، الذى غدا فيما بعد مؤرخ الحملة ، والذى نعنى بمذكراته . ولم تكن الحملة رسمية ملوكية ، لأن ملك فرنسا فيليب أوجست لم يشترك فيها ، وإن كان بالطبع يرعاها ويمدها . وتقرر بعد البحث والمفاوضة ، أن تقصد الحملة إلى مصر ، المسيطرة على قبر المسيح ، خصوصاً وقد كانت منذ وفاة صلاح الدين ، تجوز صنوفاً من الشدائد والمحن ، ويفتك بها الوباء والحرب الأهلية . وهكذا أعدت الحملة ، وأسبغ عليها اللون الصليبى ، وأسبغت على غايتها القدسية . ولكن سرعان ما تفصح الحوادث التى تلت عن وهن هذه الدعوى . ذلك أن الأمراء الصليبيين ، قبل أن يغادروا أرض فرنسا حيث حشدت الحملة ، أرسلوا سفراءهم إلى البندقية يلتمسون منها العون والمحالفة . وكان المؤرخ ، أى ڤيل هاردوان ، من أولئك السفراء ، وكانت البندقية يومئذ دولة بحرية قوية ، تملك ناصية الطريق إلى المشرق ، ولها أسطول قوى يستطيع أن يحمل الصليبيين إلى مصر . فلما وصل السفراء إلى البندقية ، أكرمت وفادتهم ، وخطب المؤرخ البنادقة فى ساحة سان ماركو ، يطلب منهم النجدة « لإنقاذ بيت المقدس » والانتقام « لما لحق المسيح من الإهانة » . فلبى

البنادقة الدعوة . وعقدت بين الفريقين معاهدة تعهدت فيها البندقية بأن تقدم السفن والمؤن للحملة ، نظير أموال وعهود معينة . وهنا أيضاً ، رسم طريق الحملة إلى بيت المقدس . ولكن الجيوش الصليبية ما كادت تصل إلى البندقية ، حليفتها الجديدة ، حتى تغير مجرى الحوادث ، وإذا بالصليبيين يخوضون بادئ بدء إلى جانب البندقية حرباً ضد ملك المجر ، وينتزعون لها منه ثغرها الشهير « زارا » ، ثم إذا بهم يفاوضون « ألكسيوس » ، المطالب بعرش قسطنطينية ، في استرداد عرشه . وهنا تغيض الفكرة الصليبية من أذهان القادة ، ونشهد بدل المعارك المقدسة في سهول مصر أو الشام ، فصلا جديداً في تاريخ الدولة البيزنطية .

ومن الصعب أن نحدد العوامل الحقيقية التي أفضت إلى هذا الانقلاب ، وحولت وجهة الحملة الصليبية الرابعة من بيت المقدس إلى قسطنطينية . ولم يتعرض ڤيل هاردوان نفسه إلى هذه العوامل ، بل يمر عليها بالصمت المطبق ، كأن ليس لها وجود ، وكأنما الحوادث وحدها هي التي وجهت خطى الصليبيين ، دون إرادة ودون تدبير . وقد يثير صمت المؤرخ في هذا الموطن كثيراً من الريب ، وربما كان لنا أن نعتبره مؤرخ الحملة الرسمي ، ولسان الأمراء والسادة الذي يدافع عن سياستهم وأعمالهم ، وأنه أغضى عمداً عن الخوض فيما عسى أن يكون قد دبر في البندقية من الدسائس والخطط ، بين رئيس البندقية (الدوجي) هنري داندولو ، وبين المركيز دي مونفرا زعيم الأمراء وقائد الحملة ، لتوجيه الحملة إلى تحقيق مطامع للبندقية ومطامع للأمراء . وعلى أي حال فإن ڤيل هاردوان يحاول أن يصور فكرة التدخل في شئون الدولة الرومانية الشرقية ، بأنها مفاجأة لم تكن في حساب أحد قط ، ويصفها بأنها « أعجوبة من أعظم الأعاجيب ، وأعظم مغامرة سمع بخبرها » ثم يقص كيف فر الأمير اليوناني ألكسيوس من قبضة عمه ، الذي اغتصب ملك أبيه وزجه إلى ظلام السجن ، وكيف أنه كان يومئذ في ڤيرونا في طريقه إلى زوج أخته فيليب إمبراطور ألمانيا ، وكيف وقعت المفاوضة بينه وبين الصليبيين وحلفائهم البنادقة ، على أن يتولوا فتح قسطنطينية ورده إلى عرشه ، ويقوم هو من جانبه متى تم ذلك ، بدفع تعويض مالي كبير للحلفاء ، والعمل على رد الكنيسة اليونانية لحظيرة الكنيسة الرومانية ، ومعاونة الصليبيين على افتتاح بيت المقدس ؛ وكيف أرسل الصليبيون سفراءهم مع الأمير المنفي إلى إمبراطور ألمانيا

ليؤكدوا معه عقد هذه المعاهدة . ويعتذر ڤيل هاردوان عن إقدام الصليبيين على ذلك بأنه كان ضرورة قاهرة ، لأن فريقاً من الأمراء كان يعمل على تفرق الكلمة وإحباط الحملة ، بحجة اختلالها وقصور أهباتها . فإذا كان الصليبيون قد ارتضوا أولا محالفة البندقية ومعاونتها على فتح زارا ، فذلك لأنهم عجزوا عن أداء ما فى ذمتهم للبنادقة من المال لقاء نقلهم إلى مياه الشأم أو مصر ، واضطروا إلى أدائه بخدمة البنادقة على هذا النحو ؛ وإذا كانوا قد ارتضوا بعد ذلك ، التدخل فى شئون الدولة الشرقية ، فذلك لكى يساعدهم إمبراطور القسطنطينية على غزو الشام وافتتاح بيت المقدس .

هكذا يعتذر ڤيل هاردوان عن سياسة الأمراء الصليبيين . ولاعتذار ڤيل هاردوان قيمته . ذلك أنه كان من سادة الحملة ، وكان فى معظم الأحيان من سفراء الأمراء ومفاوضيهم ، وكان لرأيه ونفوذه أثر كبير ، وكان أخيراً ممن ظفروا بالغنم والرياسة . ويمضى ڤيل هاردوان فى سياق روايته فى تأييد مشروع السير إلى بيزنطية وامتداحه . وقد دب إلى زعماء الجيش شيء من الخلاف بسببه ، ولكن الأكثرية ظفرت بإقراره فسار الصليبيون إلى قسطنطينية .

وكان ذلك فى فاتحة القرن الثالث عشر ، فى ربيع سنة ١٢٠٣ م ، فنفذ الصليبيون إلى مياه البوسفور فوق سفن البنادقة ؛ وحاربوا جيش الجالس على عرش قسطنطينية وهو الإمبراطور ألكسيوس الكبير ، وهزموه دون صعوبة ، وأجلسوا مكانه حليفهم ألكسيوس الصغير وأباه إسحاق . وهنا جاء دور الحلفاء ، أعنى الصليبيين والبنادقة ، فى طلب الأجر والمثوبة ، من الإمبراطور ألكسيوس وفاء بعهوده . وكان الأمراء يطالبونه كل يوم بتنفيذ عهوده من إمدادهم بالمال ، ومعاونتهم على اجتياز الأناضول أو البحر إلى سوريا أو مصر . ولكن ألكسيوس كان ضعيفاً قاصر الموارد والأهبة ، وكان عرشه يرتجف فوق بركان من المؤامرات والدسائس ، ومصيره فى كفتى ميزان ؛ فكان يسوف فى الوفاء من يوم إلى آخر ، ويستمهل الأمراء بعهود ووعود أخرى . والواقع أنه لم تمض على جلوسه أشهر قلائل حتى وثب به نفر من الثوار والخوارج ، فنزعوه عرشه ، وقتلوه ؛ وفر أباه إسحاق . وجلس أحد الخوارج ، وإسمه مرزوفليس ، على عرش القياصرة تحت سمع الصليبيين وبصرهم . وهنا تغير الموقف ، وتطورت الحوادث بسرعة ،

ووثب الصليبيون بالإمبراطور الجديد ، ونزعوه عرشه ، واستولوا على قسطنطينية وقصورها وقلاعها (ابريل سنة ١٢٠٤) ، ونادوا بأحد أمرائهم ، بلدوين كونت فلاندر ، إمبراطوراً على عرش القياصرة ؛ ونشطوا لإخضاع كل مقاومة وإلى توطيد العرش الجديد ، وتوزيع أسلابه وإقطاعه فيما بينهم . وهنا غاضت الفكرة الصليبية نهائياً ، وانتهت الحملة المقدسة إلى حملة غازية مرتزقة ناهبة وألفت فى الدولة الشرقية مسرحاً كافياً لجهودها ومطامعها . وتختلف الروايات والجدل فى تفسير هذا الانقلاب ؛ فيرى البعض أن الفكرة الصليبية لم تكن منذ البداية سوى قناع وعذر انتحله جماعة الأمراء والسادة الذين غادروا أرض فرنسا فى طلب المغامرة والكسب ؛ وينسب البعض الغدر إلى البنادقة ، فيقول إنهم كانوا على تفاهم مع سلطان مصر على تحويل الحملة عن مقصدها ، لمنح ومزايا تجارية تعهدت بها مصر للبندقية[1] . وهذا ما نشك فيه كل الشك ، فلم تشر الرواية العربية قط إلى مثل هذا التفاهم بين مصر والبندقية . والذى نعرفه ، هو أن العلائق التجارية كانت وثيقة بين مصر والجمهوريات الإيطالية ، وخاصة البندقية ، وبيزا وفلورنس (فيرنزا) ، وجنوة ؛ وأن البنادقة كانوا يحرصون دائماً على صفاء هذه العلائق ، لما كانت تحمله إليهم من مغانم ومزايا . على أنه مهما كانت العوامل التى أدت إلى هذا التحول فى نيات الأمراء الصليبيين ، فلا ريب أنه ينم لديهم عن عواطف ومطامع دنيوية عميقة ، وينم بالأخص عن ضعف البواعث الدينية ورياء المثل الصليبية العليا . ولا غرو فقد كان فى استطاعتهم ، بعد أن ظفروا بعرش بيزنطية ، وثروتها ، أن يسيروا إلى مصر ، فى منعة وسعة ، ولكنهم آثروا المغانم الدنيوية ، والتقلب فيما آل إليهم من تراث الدولة الشرقية ، وفيض نعمائها وترائها وترفها ، فلبثوا فى قسطنطينية نحو جيلين ، يتقلبون فى مراتب الجدود والسلطان

* * *

---

(١) وهذه فى الأصل رواية مؤرخ فرنسى يدعى إرنول Ernoul . وهو يقول فيها « إن صفر الدين (كذا) أخا صلاح الدين ، حينما علم أن الصليبيين استأجروا أسطولا من البندقية ، أرسل رسله إلى البنادقة ، يحملون هدايا عظيمة ووعوداً بمنح تجارية ، ويرجوهم أن يحولوا النصارى عن قصدهم ، فقبل البنادقة الرشوة ، واستعملوا نفوذهم فى تحقيق هذه الغاية » — وقد عنيت جمعية تاريخ فرنسا ، بنشر كتاب إرنول بعنوان : **Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier**

ولنعد إلى ڤيل هاردوان نفسه فنقول ، إنه چوفروا دى ڤيل هاردوان ، ولد سنة ١١٦٠ م فى مقاطعة « أوب » . ولا نعرف شيئاً عن حداثته وفتوته الأولى ، ولا نراه إلا أيام الدعوة إلى الحملة الصليبية فى سنة ١١٩٩ . فنراه سيداً ذا مكانة ، يؤدى دوراً كبيراً فى تجهيز الحملة . ثم نراه أحد السفراء الستة الذين انتدبهم الأمراء لمفاوضة البندقية ، ونراه خطيب الصليبيين فى الاجتماع العام الذى عقده الفريقان فى كنيسة سان ماركو . ولما توفى الكونت تيبو كبير الأمراء قبل قيام الحملة ، كانت كلمة ڤيل هاردوان هى الغالبة فى اختيار خلفه المركيز دى مونفرا ثم كان ڤيل هاردوان بعد ذلك دائماً لسان الأمراء وسفيرهم فى جميع المواقف الحاسمة ؛ فهو الذى يعرض شروط الصليبيين على الإمبراطور ألكسيوس وأبيه إسحاق بعد جلوسهما ، وهو الذى يحمل إليهما إنذار الصليبيين الأخير . ولما نشب الخلاف بين المركيز دى مونفرا والكونت بلدوين (الذى توج إمبراطوراً لقسطنطينية) كان ڤيل هارودان رسول الصلح بينهما . والخلاصة أنا نرى المؤرخ دائماً يتولى معالجة المهام الدقيقة أو الخطرة ، ثم نراه فى معارك القسطنطينية ، يبدى فى أحرج المواقف شجاعة فائقة . ومع ذلك فإن ڤيل هاردوان يتحدث عن نفسه فى سياق روايته بتواضع واحتشام ، ويذكر نفسه دائماً كغيره فى صيغة الغائب لا فى صيغة المتكلم ، وكثيراً ما تنم عبارته أو روايته عن التقوى والورع ، فكثيراً ما يؤكد إيمانه بقدسية الحملة وما حفت به من رعاية إلهية ، وكثيراً مايحمل بعبارات مرة على ما يرى فيه الخيانة أو الغدر أو النكث أو خرق الخلال الفاضلة ، فهو لم يحجم مثلا عن التنديد بسياسة الصليبيين واضطهادهم لليونانيين ، وبما ارتكبوا فى قسطنطينية من عيث وفساد .

ولمذكرات ڤيل هاردوان ناحية أخرى من الأهمية ، فهى أول تاريخ بالفرنسية يوم كانت هذه اللغة لا تزال تبرز من غمار الرطانة البربرية ، وصاحبها أول مؤرخ فرنسى ؛ وهو مع ذلك يستحق كل حمد وإطراء . ذلك أنه استطاع أن يجد لروايته نوعاً من التناسق ، ولأسلوبه نوعاً من الانتظام ، فى حين أنه لم يكن لديه ما ينسج على منواله من مذكرات أو تواريخ . ومن الغريب أن ڤيل هاردوان يسرد الحوادث متوالية متعاقبة ، ولا يفوته جانبها المعنوى فى كثير من الأحيان . وأسلوبه ممتع شائق .

وقد بلغ ڤيل هاردوان ذروة الجاه والنفوذ في قسطنطينية ، فاختاره الإمبراطور بلدوين « مارشالا » لرومانيا . ثم دخل بعد ذلك في خدمة الإمبراطور هنرى ، وقاد أسطوله ، وغنم له معارك حملت الإمبراطور على أن يقطعه إقليم مسونوبولى . ولسنا كذلك نعرف كثيراً عن أعوامه الأخيرة . والظاهر أنه عاف حياة الحرب والمغامرة ، بعد أن هلك معظم خلانه في ساحة النزال ، وبعد أن ثقل بأسباب المجد والثروة ، فارتد إلى قصره في مسونوبولى يعيش عيشة السكون والعزلة . وهنالك كتب مذكراته التى أسماها « تاريخ سقوط قسطنطينية في يد الفرنسيين والبنادقة »[١] وفيها ، يسرد كما قدمنا ، حوادث الحملة الصليبية الرابعة منذ سنة ١٠٩٩ إلى سنة ١٢٠٧ م . أما تاريخ وفاته فليس معروفاً بالضبط ، وإنما يظن أنه حوالى سنة ١٢١٣ ، وبذا يكون المؤرخ قد توفى لأعوام قلائل من حياة الدعة والبـــذخ .

وهكذا نرى أن مذكرات ڤيل هاردوان ، وثيقة هامة في تاريخ الحملات الصليبية ، بما تكشف من الظروف والعوامل الحقيقية التى كانت تحشد في مهادها هذه الحملات ، وبما تصوره من مظاهرها ومؤثراتها النفسية[٢].

---

(١) ترجمت مذكرات ڤيل هاردوان إلى الفرنسية الحديثة تحت عنوان (La Conquête de Constantinople) بقلم مسيو بوشيه . وهنالك تراجم فرنسية أخرى . وترجمت أيضاً إلى الانكليزية بقلم السير مارزيالس بعنوان (Memoirs of the Crusades) . وهى الترجمة التى رجعنا إليها هنا .

(٢) استشرنا في كتابة هذا الفصل مذكرات ڤيل هاردوان المشار إليها ، وكتاب : Gibbon : Decline and Fall of the Roman Empire (الفصل الستون) ، وكذلك كتاب : Doru : Hist. de Venise (الجزء الأول — الكتاب الثالث) .

الكتاب الثاني

في تاريخ مصر الإسلامية

القسم الثاني

الفصل الأول

الشدة العظمى والفناء الكبير

لم تكن الحروب وويلاتها شر ما تلقى مجتمعات العصور الوسطى ، فقلما كانت الفترات القليلة التى تنعم فيها بالسلام والدعة تخلو من نكبات ، ربما كانت أشد من الحرب فى هولها وروعتها . ومصائب العصور الوسطى ترجع إلى طبائع هذه العصور ، وإلى نظمها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ؛ فكما أن استمرار الحروب كان مصدره ظمأ التغلب وسيادة الطغيان والإقطاع والفروسية وما إليها ، فكذلك المجاعات والأوبئة المختلفة التى هى ظاهرة من ظواهر العصور الوسطى ، ترجع بالأخص إلى نظم الإنتاج وأساليب الحياة الخاصة ، وقصور النظم الاقتصادية والصحية فى هذه العصور .

وسير العصور الوسطى حافلة بأخبار هذه المجاعات والأوبئة ؛ وكانت الأولى فى كثير من الأحيان مثار الثانية ، أو كانت ظرفاً مشدداً لها . ويذكر لنا تاريخ مصر طائفة مروعة من هذه المصائب التى كانت تفاجئ المجتمع المصرى ، وهو فى فيض من العمران والقوة والحياة ، فتحمل إليه الدمار والذعر والانحلال . وكانت إذا حلت فكأنها حكم القدر لا سبيل إلى رده أو مغالبته ، فكانت السلطات العامة تقف أمامها جامدة ، والناس يستسلمون إلى فتكها فى صبر واستكانة ، حتى يزول ويلها بعد أن يجتاز كل أدواره . وكان تفاقم هذا الويل ، نذير الفرج أحياناً ، إذ كثيراً ما يكون عصف الوباء بكثرة السكان سبباً فى تخفيف أزمة الأقوات . وقد كانت الأوبئة التى أصابت مصر فى العصور الوسطى ، تقترن غالباً بالمجاعة أو تتلوها ، وكان مثارها القحط غالباً والحرب أحياناً . وكانت الحرب عاملا غير مباشر أو مقدمة بعيدة لإحداث الغلاء ، وندرة الأقوات وهما غالباً نذير الوباء.

ولم ينج العالم بعد من مصائب الأوبئة ، ولكن تقدم المباحث الطبية والتحوطات الصحية ، يجعل من الوباء فى معظم المجتمعات المتمدنة شبه عاصفة أو سحابة مؤقتة ،

ويحصر فتكه فى أضيق الحدود . أما فى العصور الوسطى فكان الوباء ينقض على مجتمعات عزل من كل وسيلة ناجعة للوقاية ، فيعصف بها شر عصف ، ويأخذ كل حظه من الانتشار ، وقد يمتد أعواماً قبل أن يخبو عصفه ، فلا يرحل إلا عن مجتمع مهيض خائر . وقد عانت مصر مصائب الأوبئة المختلفة فى فترات عدة من تاريخها أيام الدول الإسلامية . وكان من هذه الأوبئة ما استطال عصفه أعواماً طويلة ، وكان منها الصاعق الذى ينقض كالسيل فيحمل مئات الألوف فى أسابيع أو أشهر . وربما كان أطول وباء عرفته مصر فى هذه العصور ، وباء سنة ٤٤٦ ﻫ (١٠٥٣ م) الذى امتد زهاء ثمانية أعوام حتى سنة ٤٥٤ ﻫ فى أيام الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ؛ وكان وباء عاماً نكب جميع الأمم الإسلامية من سمرقند إلى مصر ؛ وقد اقترن فى مصر بغلاء وقحط شديدين ، ودونت عن مصائبه قصص مروعة ؛ حتى قيل ، إنه كان يموت بمصر كل يوم عشرة آلاف نفس ؛ وعدمت الأقوات حتى أكل الناس الكلاب والقطط ثم أكلوا بعضهم بعضاً[1] . وتعرف هذه النكبة فى تاريخ مصر « بالشدة العظمى » . وقد بدأت بالغلاء والقحط ، فأرسل المستنصر بالله سنة ٤٤٦ إلى قسطنطين التاسع إمبراطور قسطنطينية ، أن يمده بالغلال والأقوات . وتم الاتفاق على ذلك ؛ ولكن الإمبراطور توفى قبل تنفيذه . فخلفته الإمبراطورة تيودورا ، واشترطت لمعونة مصر شروطاً أباها المستنصر ، واشتبك الفريقان فى معارك شديدة فى البر والبحر . وفى سنة ٤٤٧ (١٠٥٥ م) ، أرسل المستنصر سفيراً إلى تيودورا هو القاضى أبو عبد الله القضاعى ليحاول تسوية الخلاف[2]. ولكن السياسة البيزنطية آثرت جانب السلاجقة ؛ فأخفق مسعى الصلح ، واستمرت الحرب بين الفريقين ؛ وتفاقمت الشدائد فى مصر ، واستطال الوباء والغلاء حتى سنة ٤٦٤ ﻫ (١٠٧٢ م) ؛ فذوت عظمة القاهرة ، وساد الموت والخراب فى كل ناحية . واقترنت « الشدة العظمى » بفتن وحروب أهلية مزقت مصر كل ممزق ، وكادت مصر تذهب فريسة الدمار والفوضى ، لولا أن

(١) أورد ابن إياس فى تاريخ مصر (بدائع الزهور) بعض صور هائلة من هذه النكبة (ج ١ ص ٦٠ و ٦١) . ونقل المقريزى عن الجوانى – الذى عاش قريباً من هذا العصر – رواية مروعة عن هول الغلاء ، وافتراس الناس بعضهم لبعض (الخطط – ج ١ ص ٣٣٧) .

(٢) المقريزى – الخطط ج ١ ص ٣٣٥ ، وتاريخ مصر لابن ميسر (تحقيق المستشرق ماسيه) فى أخبار سنتى ٤٤٦ و ٤٤٧ ﻫ . وقد سبق أن فصلنا ذلك فى فصل سابق .

تداركها جندى عظيم هو بدر الجمالى ، واستطاع بعزمه وصرامته ودهائه ، أن يعيد إليها النظام والحياة والنضرة . وكان نقص ماء النيل دائماً إما نذيراً بحلول هذه الكوارث أو عاملا فى اشتدادها وتفاقمها .

وفى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١م) فى عصر الملك العادل ، عصف بمصر وباء هائل هو الذى شهده عبد اللطيف البغدادى وترك لنا عن مناظره صوراً مروعة[١] ؛ وقيل إنه حمل من أهل مصر نحو الثلثين فى بضعة أشهر . ومن الصعب أن نصور بلاء المجتمع إبان هذه المحن ، أو نصور ما كان يجتاحه فوق أهوال الدمار والموت من صنوف الإباحة والفوضى ، فيروى مثلا أن أهل مصر أكلوا يومئذ كل أنواع الحيوانات ثم أكلوا بعضهم بعضاً ، وغدا خطف الأشخاص وأكلهم أمراً ذائعاً ، وقلما كانت يد القانون تمتد يومئذ إلى أفراد غدوا كالضوارى وتجردوا من عواطفهم البشرية ، وغدا الموت أهون ما يلقون من ضروب الويل . ثم عاد الغلاء والقحط والوباء تفتك بشعب مصر فى سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) فى عهد الملك العادل كتبغا ، فعاد بعودها الدمار والموت ، وعادت صورها ومناظرها المروعة تبث الفناء والفوضى فى مروج مصر النضرة ومجتمعاتها الزاهرة .

بيد أن القدر كان يخبىء لمصر نكبة أعظم وأبعد أثراً ؛ فانه لم يمض نصف قرن آخر حتى حل بها أعظم وباء عرفته الأمم الإسلامية . وكان ذلك فى سنة ٧٤٩ هـ أعنى سنة ١٣٤٨ م ، فى عهد السلطان الناصر حسن ، وهو تاريخ أعظم نكبة حلت بالعالم كله ؛ فلم يكن الوباء قاصراً على مصر أو غيرها من الأمم الإسلامية ، ولكنه شمل العالم من أقصاه إلى أقصاه . وتعرف هذه النكبة « بالفناء الكبير » . ومن الغريب أنه نفس الاسم الذى يطلق عليها فى التواريخ الإفرنجية The Great Plague وتقول الرواية الغربية إن « الفناء الكبير » قد انتقل إلى الغرب من المشرق . ولكن يستحيل علينا أن نحدد مصدر النكبة فى عصر لم تضبط فيه المواصلات ، ولم تقم حواجز جمركية دقيقة ، ولم تنظم إجراءات الحجر الصحى .

غير أن المرجح أنه حل بإيطاليا قبل أن يحل بمصر ؛ وهو ما تؤيده مقارنة التواريخ والحوادث فى الروايتين العربية والإفرنجية . فإن بوكاشيو الكاتب والشاعر

---

(١) راجع كتاب الإفادة والاعتبار لعبد اللطيف (الفصل الثانى من المقالة الثانية) — وابن إياس (ج ١ ص ٧٦) — وقد تناولنا رواية عبد اللطيف بشىء من التفصيل فى فصل سابق .

الإيطالى الأكبر ، وهو معاصر للنكبة ، يقول فى أصل الوباء ما يأتى : « إنه فى سنة ١٣٤٨ ميلادية حل الوباء الفاتك بمدينة فلورنس الزاهرة ، أجمل مدن إيطاليا ؛ بعد أن لبث قبل ذلك بأعوام يعصف بالمشرق ؛ إما لتفاعل الكواكب والأجرام ؛ وإما لغضب الله الحق لما يرتكبه عباده من الخطايا ، ولأنه أرسل عليهم صواعق عقابه ، فعصفت بكتل من البشر لا حصر لها ؛ وانتقل الوباء مسرعاً من مكان إلى مكان حتى حل بالغرب يحمل الرهبة والفزع ... ... وفى نحو بدء الربيع من العام المشار إليه ذاع الداء ذيوعاً مروعاً ؛ وأخذ يفتك بالناس فتكاً شنيعاً خفياً » . ويقول فى مكان آخر ، إن الوباء استطال من مارس إلى يونيه سنة ١٣٤٨ ، فهلك به بين جدران فلورنس وحدها أكثر من مائة ألف إنسان[١]. ويقول سسموندى إن الوباء أتى من المشرق ، وطاف بإيطاليا ، ومن ثم بجميع أوربا[٢] . ويعين «دارو» مؤرخ «البندقية» مصدر النكبة فيقول ، إن البحارة الجنويين قد حملوه من ضفاف البحر الأسود إلى صقلية ، فعاث بتوسكانيا ، فشمال إيطاليا ، ثم البندقية ؛ ثم عبر جبال الألب وسرى إلى جميع أوربا[٣] .

وتجمع الرواية الإسلامية على أن «الفناء الكبير» قد ظهر بمصر سنة ٧٤٩ هـ ؛ ولما كانت غرة المحرم من هذا العام تقابل أول أبريل سنة ١٣٤٨م ، فإن الوباء يكون قد حل بمصر ، بعد أن حل بإيطاليا ، لأنه حل بفلورنس حسب رواية معاصره وشاهده بوكاشيو ، فى شهر مارس ؛ وذلك بعد أن حل قبل ذلك بجنوب إيطاليا . ويقول ابن إياس إنه بلغ أشده فى شعبان ورمضان[٤] أعنى فى نوفمبر وديسمبر سنة ١٣٤٨ ؛ وهو قد انتهى فى فلورنس حسب رواية بوكاشيو فى شهر يوليه . ولا غرو ، فقد كان بين مصر والجمهوريات الإيطالية يومئذ علائق تجارية وثيقة .

وعلى أى حال فإن « الفناء الكبير » قد اجتاح أمم الشرق والغرب معاً ، فعاث فى الأمم الإسلامية أيما عيث ، وعصف بمجتمعاتها الغنية الآهلة ، وحمل من أبنائها

---

(١) راجع مقدمة بوكاشيو لقصصه الشهيرة – الترجمة الألمانية ؛ طبعة كريل – ج ٢ .

(٢) **History of the Italian Republics (Everyman's) p. 146**

(٣) **Daru : Histoire de Venise (1.p. 538)**

(٤) ابن إياس ج ١ ص ١٩١ .

مئات الألوف . وسرى إلى جميع الأمم الأوربية، وبسط عليها رهبة الدمار والموت، وحمل من سكانها نحو الثلث فى أشهر قلائل . وكان فتكه وويلاته أشد ظهوراً وأعمق أثراً فى مجتمعات إيطاليا ، وبخاصة فى فلورنس التى كانت تنعم يومئذ بحضارة زاهرة ؛ وهنالك أفنى جيوشاً برمتها ، وأهلك عدداً كبيراً من الأمراء والعظماء والقادة . وقد شهده بوكاشيو من مبدئه إلى منتهاه ، وراقب عصفه وبلاءه ، وصور لنا هوله وروعته أقوى تصوير . فمن ذلك قوله : « كان الناس يجتنبون بعضهم بعضاً ، وقلما يتزاور الأقارب أولا يتزاورن أبداً ؛ وألقت الكارثة الرعب فى قلوب الناس جميعاً ، رجالا ونساء ، حتى أن الأخ كان ينبذ أخاه نبذ النواة ، والأخت أخاها ، والمرأة زوجها ؛ بل أروع وأبعد عن التصـــديق أن الآباء والأمهات، أضربوا عن رؤية الأبناء أو تعهدهم كأنما ليسوا من ذويهم» ثم يقول : « وكان يعنى بدفن الناس بادئ بدء ، فيلقى بهم دون احتفال فى أول مقبرة ، فلما اشتد الوباء ، كان الموتى يحملون جماعات ، ويلقون فى الطرق ؛ وقد تموت أسر برمتها فلا يبقى منها إنسان ؛ وأزواج وآباء وأبناء معاً ؛ ويلقى الجميع بلا تمييز فى حفر كبيرة »(١) .

وكان « الفناء الكبير » يجتاح مصر فى نفس الوقت ، ويفتك بأهلها شر فتك . ويروى ابن إياس أنه كان يحمل فى كل يوم من القاهرة وحدها نحو عشرين ألفاً، وأنه ضبط عدد من توفوا فى شعبان ورمضان (سنة ٧٤٩ هـ) فكانوا تسعمائة ألف. ويقول المقريزى الذى عاش قريباً من النكبة : إن مصر أصبحت يومئذ بالخراب المطلق ، وأقفر معظم دورها(٢). ولم يكن مجهولا فى مصر أن « الفناء الكبير » يعمل عمله فى الغرب(٣) . ولكنه استطال فى مصر حتى أهلك الحرث والنسل ، وهلكت الأيدى العاملة ؛ فلم تزرع الأرض ، وهلكت الدواب والحيوانات والوحوش أيضاً ، حتى لقد شوهد ، على رواية ابن إياس ، « شيء كثير من الوحوش وهى مطروحة فى البرارى وتحت إبطها الطواعين » . وعزت الأقوات

---

(١) راجع مقدمة بوكاشيو المشـــار إليها .

(٢) الخطط — ج ١ ٣٣٩ .

(٣) راجع ابن إياس ج ١ ص ١٩١ — حيث يقول : « ومات فيه (أى الطاعون) من الناس ما لا يحصى عددها من مسلم وكافر ؛ وكانت قوة عمله فى بلاد الافرنج» .

واشتد القحط والبلاء . وخرج أهل مصر إلى الصحراء يدعون ربهم أن يرفع عنهم هذه المحنة كما يفعلون في الاستسقاء ، فلم يغن ذلك عنهم شيئاً ، وشمل الدمار والموت مصر من أقصاها إلى أقصاها ، وهبت عليها ريح هائلة من الرهبة والخشوع ودب إليها الوهن والاستكانة . وفى هذه المحنة يقول الصفدى :

لما افترست أصحابي ... يا عام تسع وأربعينا
ما كنت والله تسعاً ... بل كنت سبعاً يقينا

ويقول أيضاً :

لاتثق بالحياة طرفة عين ... فى زمان طاعونه مستطير
فكأن القبور شعلة شمع ... والبرايا لها فراش تطير

فكانت نكبة دون هولها كل نكبة . ولكن شعب مصر العريق فى حيويته وحياته ، لم يلبث بعد كل هذه الآلام أن أفاق من سبات المحن ، وبرز من غمار الدمار ، ليستقبل حياة زاهرة جديدة . بيد أن هذه الدعة لم يطل أمدها أكثر من ربع قرن ، ففى سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) عاد القحط والوباء ، ولكن بنسبة مخففة ؛ واستطالت الشدائد فى تلك المرة أعواماً عديدة ، ومصر تغالب الآلام والفاقة والمرض ، حتى اختتمت القرن الثامن بما حمل إليها من صنوف الأرزاء والمحن ؛ وبدأت منذ أوائل القرن التاسع تستعيد قوتها ورواءها .

* * *

وفى منتصف القرن التاسع أصيبت مصر بعدة محن جديدة ، ففى أواخر سنة ٨٤٧ هـ (١٤٤٣ م) حل بها الوباء ، واستمر فى الشدة فى بدء العام التالى . ويروى السخاوى ، وهو معاصر لهذه المحنة تقريباً ، أن عدد الموتى فى القاهرة كان يبلغ فى اليوم مائة وعشرين بضبط ديوان المواريث ، وقد يبلغ مائتين ، وأنه كان يفتك خاصة بالأطفال والرقيق[1] . وهذه ظاهرة غريبة للوباء . ويقول أبوالمحاسن ابن تغرى بردى ، وهو أيضاً معاصر للمحنة ، إن عدد الموتى بلغ فى شهر صفر ، فى القاهرة وحدها خمسمائة فى كل يوم[2] . ولم تمض بضعة أعوام أخرى حتى عاد الوباء إلى مصر فى أواخر سنة ٨٥٢ وأوائل سنة ٨٥٣ هـ . وكان خفيف الوطأة فى

(١) التبر المسبوك – ص ٨٧ .
(٢) النجوم الزاهرة – فى حوادث سنة ٨٤٨ هـ .

تلك المرة ، ولكنه يمتاز بأنه حمل إلى القبر عدداً من أمراء مصر وأعلامها يومئذ .
وفى سنة ٨٦٤ أصيبت مصر بالمحنة من جديد . وكان البلاء فى تلك المرة عاماً هائلا .
وكان فتك الوباء ذريعاً وبالأخص فى ضواحى القاهرة وفى أقليمى الشرقية والغربية .
وكان يبيد قرى بأسرها . وبلغ عدد الموتى فى القاهرة طبقاً لرواية أبى المحاسن معاصر النكبة ، فى اليوم الواحد ، ستين فى أول جمادى الأولى ، ومائة وعشرة فى العاشر منه ، ومائة وسبعين فى السابع عشر ، وهذا هو الإحصاء الرسمى الذى أثبتته سجلات المواريث . ويقول المؤرخ أيضاً : «وأبلغ من ذلك أن الأمير زين الدين الاستادار ندب جماعة من الناس بأجرة معينة إلى ضبط جميع مصليات القاهرة وظواهرها ، وكان ما حرروه ممن صلى عليه فى هذا اليوم (١٧ جمادى الأولى) ستمائة إنسان . فعلى هذا لا عبرة بذكر التعريف من ديوان المواريث ، غير أن فائدة ذكر التعريف تكون لمعرفة زيادة الوباء ونقصه لا غير . وفى يوم الجمعة عشرين جمادى الأولى كان التعريف مائتين وتسعة نفر » . ثم يقول : « وفى يوم الخميس (٢٦) كان عدة من ورد إسمه فى الديوان من الأموات نحواً من مائتين خمسة وثلاثين ، وكان عدة المضبوط بالمصلات ألفاً ومائة وثلاثة وخمسين نفر ، وذلك عدا من توفوا فى مصر وبولاق وعدة ضواح أخر . وزاد التعريف فى الديوان حتى بلغ ثلاثمائة وستة »[1] ، واشتد الغلاء فى نفس الوقت ، وعزت الأقوات ، وتفاقمت الأرزاء ، وسادت السكينة والعبوس على شعب مصر الصاخب المرح ، وارتفع عدد الموتى حتى بلغ فى كل يوم على قول البعض عدة آلاف فى القاهرة وحدها . ويصف ابن تغرى بردى مناظر هذه المحنة فى عدة نبذ مؤثرة ، ويعنى بسرد الأرقام عناية خاصة لكى يثبت لقارئه سير المحنة من ركود وتفاقم ؛ ويبدى ارتياحه لشدة فتك الوباء « بالمماليك الأجلاب » ويعنى بإحصاء من هلك منهم ، فيقول إن من مات منهم فى يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الآخرة بلغ ستمائة وثلاثين مملوكاً « إلى لعنة الله وسقره » .

ثم يقول إن جملة من مات فى هذا الوباء من المماليك الإينالية فقط ألفاً وأربعمائة ، هذا عدا من مات من المماليك السلطانية الذين هم من سائر الطوائف . ويدعو الله « أن يلحق بهم من بقى منهم » . ونستطيع أن نفهم سخط المؤرخ على هذه الطائفة ،

(١) النجوم الزاهرة — فى حوادث سنة ٨٦٤ هـ .

متى علمنا أنها كانت يومئذ فى مصر من أشد عناصر الفساد والجريمة والفوضى ، وأنها كانت دائماً فى نظر المصريين الخلص موضع الريب والبغض ، لأنها كانت تعيش عالة عليهم فى نعماء وترف ، وكانت لهم دائمة الوقيعة والكيد .

هذا طرف مما لقيته مجتمعات مصر الزاهرة إبان الدول الإسلامية من خطوب الوباء ومحنه . غير أن مصر كانت دائماً تخرج من غمار هذه الخطوب والمحن أشد ما تكون رغبة فى الحياة ، وأشد ما تكون عزماً وثقة ، فكانت بذلك تقدم الدليل يلى الدليل ، على وفرة ما تتمتع به من حيوية تثير الدهشة والإعجاب .

الفصل الثانى

رواية مصـــرية

عن ممالك الغرب والجمهوريات الإيطالية

فى القرن الرابع عشر

لم تعن الرواية العربية ، بتاريخ أمم الغرب فى عصور السيادة الإسلامية ، إلا ما دعت إليه ظروف الاتصال أو النضال بين الأمم الإسلامية والأمم الغربية . وحتى هذه الناحية لم توفها الرواية العربية حقها . ومن النادر أن نعثر فى الرواية الإسلامية بتاريخ مستقل لأمة غربية أو فصل كامل من هذا التاريخ . ولذا يضطر المؤرخ الحديث إذا أراد أن يكتب تاريخاً صحيحاً لعصر من عصور الإسلام أن يبحث عن علاقات الأمم الإسلامية بالأمم الغربية فى ذلك العصر فى الرواية النصرانية ، لاستيفاء هذا الجانب من موضوعه ، وباستخلاص الروايتين معاً يستطيع فقط أن يقدم عن العصر الذى يعنى به صورة أقرب إلى الحقيقة والصحة .

وإذاً فمن الطريف المدهش أن نعثر فى الرواية الإسلامية على فصل مستقل فى شئون الأمم الغربية . وإذا وجد مثل هذا الفصل فالأغلب أن يكون لكتابته ظروف وبواعث خاصة . ومن هذه الفصول النادرة ما أورده شهاب الدين أبو العباس بن فضل الله العمرى فى مؤلفه الضخم « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار »[1]، عن أحوال الممالك النصرانية والجمهوريات الإيطالية فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى . والعمرى كاتب وأديب ومؤرخ وجغرافى كبير ، مصرى النشأة والموطن ، ولد فى دمشق سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) ، وتوفى

---

(١) فى دار الكتب المصرية نسخة فتوغرافية كاملة لكتاب مسالك الأبصار . وهى فى عشرين مجلد كبيرة . وكانت دار الكتب قد قررت طبعه منذ مدة طويلة ، ولكن لم يصدر منه سوى جزء واحد فقط . ونشر المستشرق الأيطالى « أمارى » منه هذا الفصل الصغير الذى نعنى به هنا وقرنه بترجمة إيطالية تحت عنوان : **Condizioni degli Stati Cristiani delli Occidènte** (منذ سنة ١٨٨٣) ونشر أحد المستشرقين الألمان أخيراً منه ما ورد فيه خاصاً بوصف الأناضول .

سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨م) ، ودرس فى القاهرة واستوطنها ، وتقلد فى البلاط القاهرى عدة مناصب كبيرة أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، منها نظارة ديوان الإنشاء والرسائل . وأشهر آثاره كتابه السالف الذكر « مسالك الأبصار » ، وهو موسوعة جغرافية وتاريخية كبرى .

وهذا الفصل على قصره فريد فى بابه ، من حيث الموضوع أولا ثم من حيث الدقة الظاهرة فيما تضمنه من معلومات عن أحوال الدول النصرانية ، ولا سيما عن الجمهوريات الإيطالية وعلائقها بعضها ببعض . والفضل فى هذه الدقة يرجع بلا ريب إلى مملى الرسالة ومصدر هذه المعلومات وهو « بلبان الجنوى » . على أن موضوع الفصل نفسه يمت بأكبر صلة إلى المباحث والمعارف التى عنى بها العمرى . فقد كان العمرى رحالة عظيماً جاب معظم الممالك الإسلامية فى الشرق، ودرس شئونها وأحوالها ، فكان مما يتصل بمباحثه كرحالة وجغرافى أن ينقل شيئاً عن الممالك النصرانية . وكان العمرى كاتب الديوان والمشرف حيناً على علائق البلاط القاهرى مع الدول النصرانية ، فكان مما يهمه أن يتعرف الأوضاع السياسية لهذه الدول .

ويقول العمرى فى مستهل هذا الفصل الذى لا يزيد على خمس عشرة صفحة إنه « كلام جملى فى أمر مشاهير ممالك عباد الصليب فى البر دون البحر » ويسنده فى الحال إلى ممليه فيقول « والذى أقوله حدثنى بلبان الجنوى أحد مماليك بهادر المعزى ، وهو عارف بما يحدث » . والواقع أن هذا الحديث الذى ينقله العمرى عن بلبان الجنوى ، ينم عن معرفة واسعة دقيقة بالموضوعات التى تناولها وبالأخص بأحوال الدول الإيطالية . والظاهر أن بلبان هذا كان بنشأته ومركزه الاجتماعى، من طبقة الأشراف المستنيرة . ولكن من هو بلبان الجنوى هذا ؟ لقد كان حسب روايته للعمرى ، سليلا لأسرة دوريا الجنوية[١] الشهيرة فى تاريخ جنوة ، والتى حكمت هذه الجمهورية آماداً طويلة . ويقول المستشرق أمارى فى البحث الذى صدر به الرسالة ، إن شخصية بلبان هذه غامضة ، لم تشر إليها أية مصادر شرقية أو غربية . ولكنه ينقل خلاصة بحث قام به المحامى الإيطالى كرنليو دسمونى عن شخصية بلبان ، هى أنه يوجد فى تاريخ جنوة من آل دوريا شخص يدعى بالابا

(١) راجع الفصل المذكور ص ٩ .

دى جنوا Balaba de Janua ، كان متصلا بملوك التتار فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ، وأن البابا أرسل إلى سفرائه فى الشرق وإلى النصارى المتصلين ببلاط أرجون خان ملك فارس وخراسان ، أن يحاولوا تنصير هذا الأمير المسلم ، وكان من بين هؤلاء بالابا دى جنوا ، وكان يقوم بمهمة الترجمة فى البلاط الفارسى . أما عن بهادر المعزى الذى يشير إليه العمرى أنه كان سيداً لبلبان ؛ فيقول أمارى إنه لم يكن يوجد أمير بهذا الإسم بين أمراء آسيا الصغرى ، ولم يكن يحمل إسم بهادر سوى ملك فارس أبو سعيد بهادر خان التترى خلف أرجون خان. وقد كانت رسالة البابا المشار إليها سنة ١٢٨٨م ، وكان بلبان بلا ريب فتى حدثاً إذا صح أنه هو بلبان الجنوى الذى أملى على العمرى ، ذلك لأن العمرى لم يلتق به إلا بعد ذلك بأكثر من أربعين سنة ، حوالى سنة ١٣٣٠ . وقد التقى الرجلان فى ظروف غامضة . على أن شخصية بلبان الجنوى تبقى مع ذلك محوطة بكثير من الريب[١].

ننتقل بعد ذلك إلى محتويات هذا الفصل وهى كما قدمنا وصف لبعض أحوال الدول النصرانية والجمهوريات الإيطالية فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى ؛ ويبدأ العمرى بالكلام على (الريد فرنس) ملك فرنسا Rey de France « أجل ملوك الفرنج قدراً » و « الانبرور » (الامبراطور) صاحب ملك اللمان (الألمان) وهو « أعظم الفرنج شوكة » . ويتحدث عن ضخامة ملكهما وكثرة جيوشهما . ويروى بمناسبة الكلام عن ملك فرنسا ، ما وقع لجده لويس التاسع فى مصر من هزيمة وأسر ، ويذكر أن الاذفونش (ألفونس) هو نائبه فى الأندلس ، وهذا بالطبع خطأ . ويلاحظ عن الألمان بنوع خاص أنهم جند بر لا يركبون البحر ولا يقاتلون فيه ؛ ويشير إلى الحملة الألمانية الصليبية التى هلكت فى الأناضول قبل أن تصل إلى الشام ، ويشيد بفروسيتهم وشدة مراسهم . ثم يتحدث بعد ذلك عن مملكة ابرنس Provance (بروفانس) وعن ملكها الريبرت Rey Robert وهو من بيوت الريد فرنس[٢]. ويصف نهر الرون الذى يشق ملكه الفخم وجماله

---

(١) راجع مقدمة أمارى الإيطالية ص ٣ و ٤ .

(٢) المرجح أن روبرت المشار إليه هنا هو روبرت ملك نابولى الذى توفى سنة ١٣٤٣ وكانت بروفانس يومئذ تابعة لنابولى .

وخصب مروجه ، ومايقام فيها من حفلات تنشد فيها الأغانى القديمة ، مليئة بذكر الحروب التى أضرم لظاها عرب الأندلس فى هذه الأنحاء . كل ذلك فى عبارات شعرية فخمة تلذ تلاوتها .

وهذا القسم من رسالة العمرى تتخلله بعض الأخطاء الإقليمية والتاريخية . ولكن ما يذكره عن الجمهوريات الإيطالية أكثر صحة ودقة ، لسبب واضح هو أن محدثه بلبان الجنوى كان إيطالياً يعرف شئون بلاده . وفى هذه النبذة تقسم الجمهوريات الإيطالية كما يأتى :

(١) إقليم « اللنبرد » (اللومبارد)[١] ، وهو قسمان جمهورية « منفرا » (مونتى فراتو) وهذه كانت فى هذا العصر تابعة لإمبراطور قسطنطينية أندرونيكوس الأصغر (كريمخال) (ولد ميخائيل) وقد حكم هذا من سنة ١٣٢٨ — ١٣٤١ ، والقسم الثانى هو فرّاره (فرارا) ، ويحكمها أمير يلقب بالمركيز .

(٢) سيسرين (سيسليا) أو صقلية ، وقد اختلط اسمها على العمرى ، فأوردها بهذا الإسم المحرف أى سيسرين ، وهى صقلية التى لبثت بيد العرب والإسلام دهراً . قال وملكها « الريفردريغ (الملك فردريك) . والإشارة إلى ملك صقلية هنا غامضة ، فإنها كانت بيد الإمبراطور فردريك الثانى حتى سنة ١٢٥٠ ،

(٣) البنادقة (أهل البندقية) . وهم « لا ملك لهم وإنما حكمهم كمون » (Comune) (حكم الجماعة أو الشورى) ، وليس لهم جيش وطنى ، وإنما يحشدون المرتزقة وقت الحاجة .

(٤) البيزان (أهل بيزا) ، وهم كالبنادقة حكمهم كمون . « وكانوا أهل عز وبأس فغلبوا وأخذ نجمهم فى الهبوط » .

(٥) الدشقان (أهل توسكانيا) فهم كذلك فى كل أحوالهم .

(٦) أنكونتين (أهل أنكونا) فحكمهم كمون أيضاً .

(٧) إفرنتين (أى الفلورنتين أهل فلرنسه أو فيرنزا) ، فلكهم كمون باتفاق أهل الرأى منهم على رجل من أهل بيوتهم . والمقصود هنا بهذا البيت هو أسرة ألبِرّى التى كانت تحكم فيرنزا فى هذا العصر .

(٨) وأما جنوة « فحكمهم كمون وملك لهم ما كان ولا يكون » وحكمهم

---

(١) والاسم العربى الصحيح لإقليم لومبارديا هو أنكبرده .

متداول فى بيتين هما آل دوريا ، وآل اسبنيا (اسبنولا) . ودون هذين البيتين من أسر چنوة العريقة ، غرمادى (جريمالدى) ، ومالون (مالونى) وداما (دى مارى) وأدفشكى (فيسكى) . وهنا دقة ظاهرة فى التفاصيل الخاصة بچنوة وأسرها الكبيرة ونظام الحكم فيها . ولا غرو فصاحب هذه المعلومات وهو بلبان، هو چنوى ينتمى كقوله إلى آل دوريا .

(٩) ويتخلل حديث العمرى عن الجمهوريات الإيطالية كلمة عن«الكتيران» أو الكتيلان (أهل كاتالونيا) الإسبانية ، وهم فى رأيه « عرب الفرنج ، وأصلهم من متنصرة غسان » .

(١٠) ويتحدث العمرى بعد ذلك عن جزيرة كبيرة فى البحر الأبيض إسمها «سيبرية» ، والواقع أنها هى جزيرة قبرس (قبرص) . ولكن تحريف الاسم جعله كما حدث فى شأن صقلية يتحدث عنها كأنها شىء آخر . والتحريف يرجع إلى أن إسمها بالإيطالية هو (Cipro) .

هذه هى المعلومات التى تلقاها العمرى من محدثه ، وهو يختتمها بنبذه صغيرة فى غارات الفرنج على بيت المقدس والشام ، أيام الحروب الصليبية ؛ وكيف أقصاهم الإسلام عنها تباعاً .

* * *

هذه النبذة التى يقدمها أو ينقلها إلينا كاتب مسلم هو العمرى ، عن دول الغرب فى عصره ، لا تقدم إلينا جديداً فى الواقع عن أحوال هذه الدول . ولكنها لا تخلو مع ذلك من طرافة ، فهى صورة شائقة مما تصوغ فيه الرواية الإسلامية تاريخ الغرب والنصرانية ، وهى قطعة قوية من البيان الممتع الذى يجمع بين جمال العرض والحقيقة التاريخية ، وفيها فوق ذلك مجهود حسن لتعريف طائفة من الأعلام والاصطلاحات الغربية .

أما عن القيمة التاريخية لما ورد خاصاً بالجمهوريات الإيطالية فى القرن الرابع عشر ، من حيث نظمها ، وعلائقها ، واعتمادها على الجند المرتزقة ، فنستطيع أن نتبين دقته ، إذا راجعنا ما كتبه عنها ماكيافيللى بعد ذلك بنحو قرن فى « تاريخه القلرنسى »[١]. وما كتبه سسموندى مؤرخ الجمهوريات الإيطالية فى تاريخه الكبير[٢].

---

(1)Hiatoria fiorentine. (2) Hist. des Republiques italiennes au moyen âge.

الفصل الثالث

العلائق الدبلوماسية

بين مصر وجمهورية البندقية

فى أواخر صيف سنة ١٩٣٦ ، كنت ذات صباح بمدينة البندقيه (فينزيا) أتأمل واجهة كنيسة القديس مرقس (سان ماركو) الشهيرة بعد أن تم إصلاحها ، وبدت صورها وفسيفساؤها الساحرة فى أبدع مظاهرها ، فلفت نظرى صورة قد نقشت فى ركن واجهتها اليمنى مما يلى قصر الدوجات ، تمثل نقل رفات القديس مرقس من الإسكندرية ، وقد ظهرت بها صور رجال يرتدون العمائم والثياب العربية ، فذكرت ما تردده تلك الأسطورة التى تسبغ لوناً من الروعة والقدسية على تاريخ الجمهورية الشهيرة ، وهى أن خدم كنيسة القديس مرقس بالإسكندرية انتهزوا فرصة رسو بعض سفن للبنادقة فى مياه الثغر ، فأخرجوا رفات القديس مرقس من مرقدها بالكنيسة ، وحملوها خفية فى سلة كبيرة غطيت بالأعشاب والأغصان إلى سفن البنادقة ، فأقلعت بها حتى وصلت إلى البندقية بسلام ، وهنالك أودع القديس لحده الجديد بين مظاهر التكريم الباذخ ، وأقيمت فوقه الكنيسة التى تعرف باسمه حتى اليوم[1] .

كان ذلك فى أوائل القرن التاسع الميلادى . ومنذ القرن العاشر نرى مصر المستقلة ترتبط بجمهورية البندقية بصلات كثيرة ، سياسية وتجارية ، ونرى هذه الصلات تنمو وتتسع طوال العصور الوسطى . وكانت الثغور المصرية ولا سيما الإسكندرية مرسى دائماً لسفن البنادقة ، وكانت مصر أعظم طريق لتجارتهم إلى الشرقين الأوسط والأقصى ، وكانت البندقية يومئذ أعظم الدول النصرانية فى البحر الأبيض المتوسط بعد الدولة البيزنطية . ولما دخلت الدولة البيزنطية فى طور انحلالها فى القرن الثالث عشر ، احتلت البندقية مكانتها القديمة ، وغدت عميدة الدول

---

(١) بعد عصور طويلة استجابت البابوية أخيراً إلى نداء الكنيسة القبطية المصرية . وقامت برد رفات القديس بطرس إليها لتثوى حيث كانت فى أرضها (سنة ١٩٦٨) .

النصرانية فى البحر الأبيض المتوسط ، وغدت بلاريب سيدة هذه المياه ، تضرب أساطيلها الحربية والتجارية فى جنباتها الوسطى والشرقية ، وتستأثر بأعظم المغانم التجارية فى ثغورها ومجتمعاتها .

كانت العلائق السلمية التجارية أهم ما يربط مصر والبندقية فى تلك العصور ، ولم تك ثمة بواعث للخصومات السياسية والحربية بين الدولتين إلا فى فرص قليلة ، حينما بسطت البندقية حمايتها على بعض الجزر الشرقية مثل قبرص ورودس ، واقتربت بذلك من الشواطئ المصرية ، فعندئذ وقعت بين مصر والبندقية بعض معارك وملاحم بحرية ، أحياناً فى مياه الإسكندرية وأحياناً فى مياه الجزر ، وكانت البندقية تدفع دائماً ثمناً فادحاً لهذه الخصومات من تجارتها ومغانمها المادية ، وكانت حكومة السلاطين تعرف دائماً موضع الضعف فى مصالح البندقية ، فتعمد فى مثل هذه الظروف إلى مصادرة تجارتها ، وقد كان لها كما قدمنا مصالح تجارية وصناعية زاهرة فى معظم الثغور والعواصم المصرية ، وكان رهط كبير من التجار البنادقة ينبث فى الإسكندرية والقاهرة ، فعندئذ تهرع البندقية إلى مصانعة مصر وعقد المعاهدات الودية معها .

ففى سنة ١٣٦٥ م سار أسطول بندقى من جزيرة رودس إلى الإسكندرية ، وكان ذلك فى عهد السلطان الأشرف أبى المعالى ملك مصر ، ونزل الجيش البندقى إلى الإسكندرية ، ولكنه رد فى الحال على أعقابه ، وأمر السلطان فى الحال بمصادرة المتاجر البندقية ، والقبض على التجار البنادقة واعتقالهم مصفدين بالحديد ، فخشيت حكومة الجمهورية عاقبة هذه السياسة على مصالحها التجارية الواسعة ، وأرسل دوج البندقية وهو يومئذ ماركو كوكوناردو إلى سلطان مصر ، سفارة وهدايا فخمة ، واعتذر البنادقة عن فعلتهم ، وعاد التفاهم بين الدولتين .

* * *

وفى عهد السلطان الناصر فرج ، وقع حادث « قنصلى » طريف يوضح لنا طبيعة العلائق بين مصر والبندقية . وقد انتهت إلينا عن هذا الحادث وثيقة شائقة من محفوظات البلاط المصرى ، نقلها إلينا القلقشندى صاحب صبح الأعشى ، وهى تلقى ضياء على نظم التمثيل القنصلى فى تلك العصور ، وما كان لمصر يومئذ من السيادة المطلقة فى معاملة ممثلى الدول الأجنبية ، كما تلقى ضياء على قواعد

البروتوكول الدبلوماسى أو المصطلح الشريف فى هذا العصر.

وتاريخ هذه الوثيقة ١٦ صفر سنة ٨١٤هـ (يونيه ١٤١٢م) ، وقد وردت إلى البلاط المصرى من دوج البندقية « ميكائيل ستينو » على يد سفيره « نقولا البندقى» وكتبت فى « فرخة ورق فرنجى مربعة متقاربة السطور » وترجمت فى قلم الترجمة السلطانى ، وهذا نصها :

« السلطان المعظم ملك الملوك « فرج الله » ناصر الملة الإسلامية ، خلد الله سلطانه .

« يقبل الأرض بين يديه . . . دوج البنادقة ، ويسأل الله أن يزيد عظمته ، لأنه ناصر الحق ومؤيده وموئل الممالك الإسلامية كلها ، وينهى ما عنده من الشوق والمحبة لمولانا السلطان ، وأنه لم تزل أكابر التجار والمحتشمين والمترددين من الفرنج إلى الممالك الإسلامية ، شاكرين من عدل مولانا السلطان وعلو مجده ، وتزايد الدعاء ببقاء دولته ، وقد رغب التجار بالترداد إلى مملكته الشريفة بواسطة ذلك ، ولأجل الصلح المتصل الآن بيننا والمحبة .

وأما غير ذلك ، فانه بلغنا ما اتفق فى العام الماضى من حبس العير فى ثغر دمياط المحروس ، وأن مولانا السلطان مسك « قنصل » البنادقة والمحتشمين من التجار بثغر الإسكندرية المحروس ، وزنجرهم بالحديد ، وأحضرهم إلى القاهرة ، وحصلت لهم البهدلة بين جنوسهم والضرر والقهر الزائد ، وكسر حرمتنا بين أهل طائفتنا ، فإن الذى فُعل مع المذكورين إنما فعل معنا ، وتعجبنا من ذلك ، لأن طائفتنا لم يكن لهم ذنب . وهذا مع كثرة عدل مولانا السلطان فى مملكته ، ومحبتنا له ، ومناداتنا فى جميع مملكتنا بكثرة عدله ، وبمحبته لطائفتنا ، وإقباله عليهم ، وقولنا لجميع نوابنا ، إنهم يكرمون من يجدونه من مملكة مولانا السلطان ، ويراعونه ، ويحسنون إليه ، والمسئول من إحسانه الوصية بالقنصل والتجار وغيرهم من البنادقة ، ومراعاتهم وإكرامهم والإقبال عليهم ، والنظر فى أمورهم إذا حصل ما يشبه هذا الأمر ، ومنع من يشاكلهم ، لتحصل بذلك الطمأنينة للتجار ، ويترددوا إلى مملكته»[1] .

وهذه الوثيقة ، وما تضمنته من الوقائع والإشارات ، تلقى كما قدمنا ضوءاً

(١) وردت هذه الوثيقة فى كتاب صبح الأعشى ج ٨ ص ١٢٣ و ١٢٤ .

على طبيعة العلائق التى كانت قائمة بين مصر والبندقية خلال العصور الوسطى ، وفيها تنويه واضح بأهمية المصالح التجارية التى كانت للبندقية فى مصر ، وما كانت تجنح إليه هذه الجمهورية القوية الغنية من مسالمة حكومة السلاطين ، التى كانت تستطيع بمسلكها أن ترعى هذه المصالح أو تحطمها . والواقع أن العلائق بين مصر وبين الجمهوريات الإيطالية ، ولا سيما جمهورية البندقية ، كانت دائماً مشبعة بروح الصداقة والمسالمة ، وقد كانت البندقية دولة بحرية قوية ، ولكن مغامراتها الحربية لم تمتد إلى مصر إلا فى فرص قليلة ، كانت تنتهى دائماً بعقد الصلح والتفاهم ، وكان بين الدولتين تراث تجارى عظيم مشترك ، فقد كانت البندقية تحمل تجارة الغرب وثرواته إلى الشرقين الأدنى والأقصى ، وكانت مصر وثغورها أعظم طريق لهذه التجارة ، تجنى من مكوسها ووساطتها الأرباح الطائلة ، ولقد كان اكتشاف طريق الهند فى خاتمة القرن الخامس عشر ضربة لتجارة البلدين ، وكان له أعظم أثر فى انحلال ثرواتهما ورخائهما .

وقد لبثت هذه الروابط الودية الوثيقة قائمة بين الدولتين حتى الفتح العثمانى لمصر . ففى سنة ١٤٦٢ م (٨٦٥ هـ) عقد دوج البندقية باسكالى مالبير معاهدة تجارية مع الملك المؤيد أحمد بن الملك الأشرف إينال سلطان مصر ، وفيها تنويه بما بين الدولتين من صداقة قديمة وإشارة إلى الهدايا المتبادلة بين الأميرين ، وتنظيم لبعض المسائل التجارية ، وكان عقدها بواسطة سفير البندقية المسمى « مافى ميكالى » ، وقد حمل بعد عقدها هدية السلطان إلى الدوج ، وفيها مقادير من العنبر والطيب والصندل والسكر وأبسطة شرقية ثمينة .

وكانت هذه السفارات البندقية إلى بلاط السلاطين منتظمة مستمرة ، توفدها حكومة الجمهورية إلى القاهرة كلما تولى سلطان جديد ، لتجدد بينهما عهود الصداقة والمودة ، وقد انتهت إلينا أخبار كثيرة عن هذه السفارات ، بيد أننا من جهة أخرى لا نجد فى تاريخ البندقية أثراً لسفارات مصرية أوفدت إلى حكومة الجمهورية ، وإن كانت قد انتهت إلينا بعض رسائل دبلوماسية يوجهها سلاطين مصر إلى دوج البندقية ، وهى رسائل كان يحملها غالباً سفراء البندقية عند عودهم إلى بلادهم .

وقد كانت آخر سفارة بندقية إلى مصر ، فى عهد السلطان الغورى آخر ملوك

مصر المستقلة ، وذلك قبيل الفتح العثمانى بأعوام قلائل .

ولعله مما يلفت النظر أن هذه الرسالة الدبلوماسية التى أوردنا نصها ، والتى تدل على أنه كان للبندقية بمصر أيام السلاطين وكلاء وممثلون دائمون ، تدل أيضاً على ما انتهت إليه المخاطبات الدبلوماسية يومئذ من حسن السبك ودقة التعبير ، وقد كان للبلاط المصرى قلم ترجمة بارع ، انتهى إلينا من تراثه تعريب كلمة « قنصل » التى أضحت فى يومنا تعبيراً عربياً فصيحاً لمقابلها الفرنجى .

الفصل الرابع

العلائق الدبلوماسية بين مصر وأراجون

على ضوء الوثائق التاريخيـــة

تحتفظ دار محفوظات التاج الأرجونى ببرشلونة بمجموعة من الوثائق المصرية السلطانية ، تلقى كبير ضوء على طبيعة العلائق الدبلوماسية والتجارية بين مصر وبين قشتالة وأراجون ، فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر من الميلاد .

وترجع هذه الوثائق بين مصر وأراجون إلى أواخر القرن الثالث عشر . فمن ذلك التاريخ نرى المملكتين تتبادلان السفارات ، وتعمل كل منهما على تنظيم علائقها مع الأخرى ، بعقد سلسلة من المواثيق الدبلوماسية والتجارية المشتركة . ولم نعثر قبل ذلك على مايدل على انتظام هذه العلائق بينهما . وقد كانت الظروف والحوادث التى تجوزها كل منهما قبل ذلك ، مما يحول دون انتظام هذه العلائق ، بل مما يحول فى الواقع دون قيام العلائق السلمية بينهما .

ذلك أنه ، فى نفس الوقت الذى كانت مصر ما تزال تواجه فيه الخطر الصليبى ، فى منتصف القرن الثالث عشر ، كانت أراجون فى عهد ملكها خايمى الأول ـــ ماتزال تُجد فى غزو الأراضى الأندلسية الشرقية ، والقضاء على سكانها المسلمين ، وكان خايمى الأول بعد أن استولى على الجزائر الشرقية فى سنة ١٢٢٩م ثم على بلنسية فى سنة ١٢٣٨م ، وشاطبة ودانية فى سنة ١٢٤٤ م ، قد قرر أن يجلى جميع السكان المسلمين عن الأراضى المفتوحة ، فغادرتها منهم جموع غفيرة ، إلى القواعد الأندلسية الباقية وإلى المغرب ، وأخذت القواعد والثغور الإسلامية القديمة ، تتحول بسرعة إلى مدن نصرانية ، وكانت هذه الحوادث الأندلسية تحدث صداها المؤلم فى سائر الدول الإسلامية الأخرى ، وفى مقدمتها مصر .

وكانت مصر من جانبها ، وفى نفس هذه الفترة ، تعمل بكل ما وسعت على انتزاع القواعد الصليبية الأخيرة فى الشام ، والقضاء نهائياً على سلطان الصليبيين وآثارهم فى الأراضى المصرية . وكانت ما تزال ثمة إمارة فرنجية صغيرة فى عكا وما حولها ، وإمارة أخرى فى طرابلس ، فانتهت مصر بانتزاع طرابلس فى سنة

١٢٩٠ م على يد السلطان قلاوون ثم استولت على عكا فى مايو سنة ١٢٩٠ م على يد ولده السلطان الأشرف صلاح الدين خليل ، وقضى بذلك على الآثار الأخيرة لمملكة بيت المقدس الصليبية ، وأخليت الشام من سائر الفرنج الصليبيين ، ومن الجمعيات الدينية الصليبية ، وأسدل بذلك الستار نهائياً على المأساة الصليبية .

وكان لذلك الحدث صداه العميق فى سائر الدول النصرانية ، ولا سيما فى قشتالة وأراجون . ذلك أن كلتيهما تعيش فى شبه الجزيرة الإسبانية إلى جوار مملكة غرناطة الإسلامية ، وتحكم جماعات كبيرة من المسلمين المدجّنين ، الذين اختاروا البقاء فى أوطانهم بعد سقوطها فى يد النصارى . ومن جهة أخرى فقد كان لاسبانيا النصرانية اهتمام خاص بما يحدث فى المشرق من تطورات أحوال النصارى ، وظروف زيارة الأراضى المقدسة ، وقد شعرت عند سقوط القواعد الصليبية الأخيره فى المشرق ، أنه يجب السعى لعقد أواصر المودة والسلام مع مصر ، صاحبة السيطرة المطلقة على الأراضى المقدسة ، ضماناً لاستقرار الأحوال بالنسبة للنصارى المقيمين بها ، والحاج القاصدين إليها ، وكذلك اضمان مصالحها التجارية العديدة فى أقاليم السلطان ، وقد كانت لاسبانيا النصرانية ، ولأراجون بوجه خاص مع مصر علاقات تجارية هامة ، وكانت ثغور مصر والشام هى أهم طرق التجارة المشرقية فى العصور الوسطى ، وقواعد عبورها إلى الشرق الأقصى ، وكانت لمصر من جهة أخرى مصالح تجارية مماثلة فى ثغور الأندلس الشرقية ، وهى التى أصبحت جميعاً فى يد مملكة أراجون .

ولهذا نرى خايمى الثانى ملك أراجون ، لأشهر قلائل فقط من سقوط آخر القواعد الصليبية ، يبادر فيرسل إلى مصر سفارة هامة ، تسعى إلى عقد أواصر السلم والصداقة مع سلطان مصر . وقد دونت لنا الوثيقة أو المعاهدة التى انتهت المملكتان إلى عقدها ، والتى ما زالت نسختها العربية تحفظ بمحفوظات التاج الأرجونى ، تفاصيل هذه السفارة . ويستفاد منها أن السفيرين الأرجونيين ، وهما روميودى ماريمون R. de Marimón نائب الأحكام الملكى فى بلنسية ، وريموندو أليمانى R.Alemany وكلاهما من برشلونة ، وصلا إلى القاهرة فى أواخر سنة ١٢٩١ م ومعهما رسالة من ملك أراجون مختومة بخاتمه ، وفيها يفوض إليهما التكلم باسمه واسم أخويه دون فادريكى ودون بيدرو ، وصهريه سانشو ملك قشتالة وليون ،

وألفونسو ملك البرتغال ، والتفاوض والاتفاق باسمهم جميعاً .

وكانت مصر بخالجها نفس الشعور بأهمية عقد الصداقة مع ملوك شبه الجزيرة الإسبانية ، التي يعيش فيها ملايين المسلمين سواء في مملكة غرناطة ، أو في القواعد الأندلسية القديمة تحت حكم الملوك النصارى ، ومن ثم فقد لقي السفيران الإسبانيان في البلاط المصري كل ترحاب ورعاية ، وكان من بواعث ارتياح السلطان ، أن المعاهدة المنشودة تشمل أراجون وقشتالة والبرتغال معاً ، وأنه وفقاً لتعليمات الملك خايمي ، قد فوض إلى السلطان أن يضع الشروط المطلوبة لعقدها .

وانتهت المفاوضات إلى عقد المعاهدة المنشودة في يوم الخميس التاسع من صفر سنة ٦٩٢ هـ الموافق للثامن والعشرين من يناير سنة ١٢٩٢ م . وقد تضمنت هذه المعاهدة طائفة كبيرة من النصوص السياسية والتجارية . أما النصوص السياسية فيمكننا أن نلخصها في النقط الآتية :

(١) استقرار المودة والصداقة بين الفريقين بصفة دائمة ، لا تنقض بموت أحد المتعاقدين أو عزله ، وأن تكون سائر بلاد السلطان في البر والبحر وما قد يفتحه من البلاد ، آمنة هي ومن فيها من الرعايا في الأنفس والأموال ، من جانب الملك خايمي وأخويه وصهريه وأولادهم وفرسانهم وجنودهم ، كما أن بلاد الملك خايمي وزملائه وهي تشمل عدا شبه الجزيرة الإسبانية ميورقة وصقلية وقورسقة ، وما قد يفتحه من البلاد ، تكون آمنة هي ومن بها من الرعايا في الأنفس والأموال في البر والبحر ، من جانب الملك الأشرف وأولاده وجيوشه .

(٢) وأن يكون الملك خايمي وزملاؤه أصدقاء لمن يصادقه الملك الأشرف وأولاده وأعداء لمن يعاديهم . وإذا حاول البابا أو أحد من الملوك الفرنج الاعتداء على بلاده ، فإن دون خايمي وزملاءه يحاولون منعه بشوانيهم وجيوشهم ، وكذلك يتعهدون بألا يساعدوا بأية صورة من يحاول محاربة السلطان من ملوك الفرنج أو التتار أو غيرهم ، وعليهم أن يخطروا الملك الأشرف بنياتهم العدوانية متى وقفوا عليها .

(٣) وأنه متى انكسرت مركب من المراكب الإسلامية في أحد الموانى الإسبانية ، فإنها تخفر وتحرس أموالها ، ثم تصلح وتجهز إلى بلاد الملك الأشرف ، وكذلك إذا انكسرت مركب من مراكب الطرف الآخر في موانئ الملك الأشرف فإنها تعامل بمثل هذه المعاملة .

(٤) وأنه متى مر رسل الملك الأشرف فى الأراضى الإسبانية صادرين أو واردين ، أو رماهم الريح ، فانهم يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم .

(٥) وأنه متى قصد أحد من رعايا الملك خايمى وزملائه أو رعايا معاهديه زيارة بيت المقدس ، ومعه منه كتاب بخاتمه إلى نائب السلطان ، فإنه يفسح له فى الزيارة ، ويعود إلى بلده آمناً فى نفسه وماله ، رجلا كان أو امرأة . ولا يمنح دون خايمى مثل هذا التصريح لأحد من أعدائه أو أعداء الملك الأشرف .

(٦) وعلى أنه إذا حمل أحد من الأسرى المسلمين فى البر أو البحر إلى بلاد اسبانيا ليباع فيها ، فإنه يطلق سراحه ، ويرسل إلى بلاد الملك الأشرف .

وأما النصوص التجارية ، فقد تضمنت أنه متى توفى أحد من التجار المسلمين أو النصارى من رعايا الملك الأشرف فى البلاد الإسبانية ، فتحمل أمواله وبضائعه دون معارضة إلى بلاد السلطان ، وكذلك الشأن فيما إذا مات أحد من الرعايا الإسبان فى بلاد السلطان ، وعلى أن يسمح الملك خايمى وزملاؤه لرعاياهم بأن يحملوا إلى الثغور الإسلامية البضائع من الحديد والبياض والخشب وغيرها ، وعلى أنه متى وقعت معاملة بين التجار المسلمين والإسبان وهم فى بلاد السلطان فإنه يقضى فيها وفقاً لأحكام الشريعة ، وأنه إذا ركب أحد من التجار المسلمين فى موكب إسبانية ومعه بضاعته فانه إذا فقدت هذه البضاعة ، وجب على دون خايمى ردها أو دفع ثمنها ، وأنه متى هرب أحد من رعايا السلطان إلى اسبانيا ومعه بضاعته لغيره وأقام هناك ، فانه يجب رد الهارب أو المقيم ببضاعة غيره ومعه هذه البضاعة إلى بلاد السلطان . ونص أخيراً على أن يؤدى رعايا دون خايمى وزملائه عند ورودهم إلى الموانئ المصرية أو صدورهم منها عن البضائع والمتاجر على اختلافها ، سائر الحقوق والمكوس المفروضة وقت عقد هذه المعاهدة ، ولا تزاد عليهم . وكذلك الشأن فيما يتعلق برعايا السلطان القاصدين إلى الثغور الإسبانية .

وقد لبثت هذه المعاهدة مدى عصور أساساً للعلائق بين مصر والممالك الإسبانية النصرانية ، وبينها وبين أراجون بنوع خاص . وبالرغم من أن الملك الأشرف خليل ، قد توفى بعد عقدها بنحو عامين فقط ، فان خلفه الملك الناصر محمد بن قلاوون ، الذى تولى الملك ثلاث مرات متعاقبة ، ولبث فى الحكم زهاء

نصف قرن ، قد سار على نفس السياسة الودية مع مملكتى قشتالة وأراجون . ومن حسن الطالع أنه توجد لدينا عدة رسائل هامة صادرة من هذا السلطان إلى ملكى قشتالة وأراجون ، تلقى أكبر ضوء على طبيعة العلائق بين مصر واسبانيا النصرانية خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر ، وهى أيضاً مما تضمه محفوظات التاج الأرجونى .

وأول هذه الرسائل رسالة أرسلها الملك الناصر إلى ملك قشتالة ، وقد كان يومئذ فرناندو الرابع ، وذلك بالرغم من أن الرسالة السلطانية تسميه « دون ألفونش » وهو الاسم الذى كان يغلب فى الدوائر الإسلامية على ملك قشتالة إذ كان كثير من ملوكهم يحمل هذا الإسم . وتلقبه « بصاحب قشتالة وطليطلة وإشبيلية وقرطبة وجيان » وفيها ينوه السلطان « بالصداقة والمحبة والمودة والود الموروثة عن أسلافنا وأسلافه من الملوك الماضين» ، ويقص على ملك قشتالة قصة قتاله مع التتار وانتصاره عليهم . ويستفاد من هذه الرسالة أن الملك فرناندو الرابع أرسل إلى السلطان سفيراً يدعى برنارد ريكارد ، وأنه وصل إلى القاهرة فى أواخر ذى القعدة سنة ٦٨٨ ه (أوائل سبتمبر سنة ١٣٠٠ م) فى نفس الوقت الذى كان فيه السلطان يتأهب للسير إلى ملاقاة الغزاة التتار . وأن السلطان اضطر أن يرجئ محادثة السفير حتى يعود من قتال المعتدين . وكان التتار قد وصلوا إلى مشارف الشام ، فسارت الجيوش المصرية للقائهم ، ووقعت بين الفريقين عدة معارك غير حاسمة ، واحتل الغزاة دمشق وحلب ، فعاد السلطان إلى القاهرة ، وحشد قوات جديدة ضخمة سارت إلى الشام ، فانسحب الغزاة من دمشق ، وأخرجوا من حلب ، ثم طوردوا فى كل مكان . وفى تلك الأثناء استقبل السلطان السفير القشتالى وصحبه ، وأولاه كل رعاية واستمع إلى رسالته . وكان ملك قشتالة يطلب فى خطابه إلى السلطان أمرين : الأول ، حماية التجار والمترددين من بلاده بالبضائع ، وأن يترددوا على بلاد السلطان آمنين مطمئنين ، على أن يلقى رعايا السلطان المترددون على بلاد قشتالة مثل هذه الحماية . وقد رد السلطان فى رسالته بإجابة هذا المطلب ، وأن يحضر من شاء من التجار وغيرهم إلى بلاده آمنين سالمين محترمين ، يبيعون ويشترون كيفما شاءوا ، ثم يعودون فى أمن وسلام . والثانى حماية الذين يحضرون من بلاد قشتالة لزيارة بيت المقدس ، وأن يكونوا

آمنين فى أنفسهم وأموالهم ، وقد أكد السلطان فى رسالته أنه يتكفل بهذه الحماية ، وأنه أصدر أوامره إلى نوابه بالقدس ، أن يولوا الزوار القشتاليين كل رعاية ، وأن يكونوا آمنين مطمئنين فى حالتى الورود والصدور .

وقد أرخت الرسالة السلطانية المذكورة فى الخامس من رجب سنة ٦٩٩ هـ وهو ما يوافق شهر مارس سنة ١٣٠٠ م . وبعث السلطان مع السفير القشتالى ، إلى الملك فرناندو الرابع سفيرين من قبله هما الأمير فخر الدين عثمان والقاضى حميد الدين ، كما بعث معهما هدية من القماش الفاخر ، والطيب والعود ، والزنجبيل . بيد أنه تبين للسفيرين المصريين عند مثولهما فى بلاط قشتالة أن برنارد ركارد هذا لم يكن فى الواقع سفيراً أرسله ملك قشتالة ، وإنما كان تاجراً من برشلونة انتحل صفة السفير . وقد أبدى السلطان فيما بعد أسفه لهذه الواقعة فى رسالة إلى خايمى الثانى .

وقد استطال حكم الملك الناصر محمد بن قلاوون بمصر حتى وفاته فى سنة ١٣٤١ م ، واستطال حكم الملك خايمى الثانى فى أراجون حتى وفاته فى سنة ١٣٢٧ م . وفى تلك الحقبة المشتركة ، كان كل من الملكين يعمل على تقوية أواصر المودة والصداقة مع صاحبه ، وفيها ازدهرت العلائق الدبلوماسية والتجارية بين المملكة المصرية وأراجون ، وكثر تبادل السفارات والمراسلات الدبلوماسية بينهما حسبما تدل عليه الرسائل السلطانية الآتية ، وهى أيضاً مما يحفظ بمجموعة التاج الأرجونى

وهذه الرسائل تعنى ببعض الأحداث الجارية ، أو بتحقيق بعض الرغبات المتبادلة . فقد حدث بمصر مثلا فى شهر رجب سنة ٧٠٠ هـ (فبراير سنة ١٣٠١م) حركة ضد أهل الذمة ، وأغلقت الكنائس ، فكان لذلك صداه فى الممالك النصرانية ، وفى مقدمتها الدولة الشرقية وأراجون . فى سنة ٧٠١ هـ قدم إلى القاهرة سفراء قيصر يلتمسون فتح الكنائس ، فأجابهم السلطان إلى فتح كنيسة المعلقة بمصر ، وكنيسة القديس ميخائيل الملكية . وبعد ذلك بنحو عام ونصف قدم سفير من قبل خايمى الثانى ملك أراجون هو إيمريك Aymeric ، ومعه هدية جليلة ورسالة إلى السلطان . وكانت مهمته الرئيسية هى أن يحادث السلطان فى شأن الكنائس ، ويرجوه باسم مليكه فى فتحها . وقد أحرز السفير فى مهمته بعض النجاح ، وقبل

السلطان ، إرضاء لملك أراجون « ولأجل محبته ومودته ومنزلته » أن تفتح كنيستين جديدتين بمدينة القاهرة هما كنيسة اليعاقبة بحارة زويلة ، وكنيسة الملكية بخط البندقانيين ، وأبدى السلطان فى رسالته إلى الملك خايمى ، وجهة النظر المصرية فى شأن الكنائس وهى أن قيامها يرجع فيه إلى أحكام الشريعة ، وأنه يجب ألا يبقى منها مفتوحاً إلا ما كان قائماً منذ عهد عمر ، وأنه منذ ذلك العهد أنشئت كنائس لا حصر لها ، وأنه كما أن أراجون تدين بأحكام دينها ، فكذلك مصر تطبق أحكام دينها وشرعها . وبعث السلطان مع السفير الأرجونى ، سفيره الأمير فخر الدين عثمان سفيراً إلى ملك أراجون ليشرح له وجهات نظره . وتاريخ هذه الرسالة هو الثالث من شوال سنة ٧٠٣ هـ الموافق ١٤ فبراير سنة ١٣٠٤ م .

بيد أنه يجب علينا قبل أن نترك الحديث عن هذه الرسالة ، أن نقول إن ما جاء بها خاصاً بأحكام الشريعة فى أمر الكنائس ، إنما هو تصوير خاطئ لمرسوم الخليفة عمر الخاص بالذميين ، وأن أحكام هذا المرسوم الذى لا يمت إلى الشريعة الإسلامية بصلة ، ويرجع فقط إلى سياسة الخلافة العامة ، كانت تختلف فى تطبيقها وفقاً لروح العصر ، بيد أن روح التسامح كانت هى الغالبة دائماً ، ومن ثم فإن الكنائس لم تلبث أن فتحت كلها فيما بعد ، شأنها فى جميع العصور .

وكانت معاملة النصارى فى مصر والمسلمين فى أراجون ، بعد ذلك موضع اتصالات ومراسلات دبلوماسية ، بين الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وخايمى الثانى ملك أراجون . ولدينا فى ذلك وثيقتان ، الأولى مؤرخة فى شعبان سنة ٧٠٥ هـ الموافق لفبراير سنة ١٣٠٦ م ، ومنها يستفاد أن خايمى الثانى ، قد عاد فأرسل إلى الناصر سفارة جديدة على يد إيمريك سفيره الذى سبق ذكره ، وعاد مع إيمريك من أراجون سفير السلطان ، الأمير فخر الدين ، بعد أن قضى بها زهاء عامين . وجاء السفير الأرجونى هذه المرة ، ليطلب من السلطان أمرين : الأول ، أن يعنى بأمر النصارى الذين ببلاد مصر وأن يمكنوا من إقامة شعائرهم فى كنائسهم ، « آمنين مطمئنين » دون حرج ولا تعرض ، وأن تكون معاملتهم فى ممالك السلطان وبلاده ، مثل ما يعامل المسلمون فى أراضى مملكة أراجون ، وقد أجاب السلطان أن النصارى فى بلاده هم على أتم ما يكون من الحفظ والرعاية ، وأنهم يؤدون

شعائرهم فى الكنائس التى بأيديهم ، دون تعرض من أحد ، وأنهم كباقى المواطنين من رعايا السلطان ، تجب عليه رعايتهم ومعاقبة من يتعرض لهم ، وأنه إكراماً لملك أراجون قد جدد المراسيم بالتوصية بهم ، وأنه ، أى السلطان ، يوصى بهذه المناسبة ملك أراجون بمن فى بلاده من المسلمين أسوة بهذه الرعاية للنصارى فى بلاده . والأمر الثانى يتعلق بزوار بيت المقدس ، وما يرجى من حمايتهم وتأمينهم ، وقد أجاب السلطان على ذلك بأن أوصى نوابه برعاية أولئك الزوار وحمايتهم فى الورود والصدور ، وأن يكونوا آمنين فى أنفسهم وأموالهم ، وأنه أوصى كذلك حاكم الإسكندرية بالعناية بكل من يفد إليها منهم فى طريقه إلى بيت المقدس . وفوق ذلك فقد أبدى الملك خايمى رغبته إلى السلطان ، فى الإفراج عن بعض الأسرى الأرجونيين ، فأجابه السلطان إلى تحقيق هذه الرغبة ، وأفرج عن اثنى عشر أسيراً منهم ثلاثة من القساوسة ، وأرسل الأمير فخر الدين إلى أراجون بصحبة السفير إيمريك ، ومعه الأسرى المفرج عنهم وهدية جليلة إلى الملك خايمى.

وتذكر لنا الروايات المصرية ، أنه بعد ذلك بنحو عشرة أعوام فى سنة ٧١٦هـ الموافقة لسنة ١٣١٦ م ، قدم إلى البلاط المصرى سفير من قبل صاحب برشلونة أعنى ملك أراجون خايمى الثانى . بيد أن الرواية لا تحدثنا بشىء عن موضوع هذه السفارة . وأغلب الظن أنها كانت تتعلق بمسألة الأسرى .

وكانت مسألة الأسرى هذه ، موضع اتصالات أخرى بين الملكين ، وكان السلطان فى كل مرة يفرج عن عدد من أكابرهم تلبية لرغبة ملك أراجون . بيد أن مسألة معاملة الرعايا النصارى فى بلاد السلطان والرعايا المسلمين فى مملكة أراجون ، لبثت أهم المسائل التى تشغل اتصالات الملكين . ونحن لا نستطيع أن نتتبع تفاصيل هذه المسألة ، مدى الخمسة عشر عاماً التى مرت على سفارة إيمريك الأخيرة ، إذ تنقصنا الوثائق الموضحة لذلك . بيد أنه يبدو أنها استمرت تشغل البلاطين حتى أواخر عهد الملك خايمى . ذلك أننا نراه فى أواخر سنة ١٣٢٢ م يرسل سفارة جديدة إلى الملك الناصر ، ومعها هدية ، ورسالة بطلب إطلاق فوج جديد من الأسرى ، وبرجاء الاطمئنان على حسن معاملة النصارى . وقد أبدى السلطان فى رسالته إلى خايمى أنه أطلق ما استطاع إطلاقه من الأسرى ، وأكد له حسن معاملة النصارى ، ورعايتهم وحمايتهم . ولكن السلطان يبدى لخايمى

ما بلغه من أن معاملة المسلمين فى أراجون قد تغيرت عما كانت عليه ، وأنهم كانوا يحظون بشيء من الرعاية ويؤدون شعائرهم أحراراً فى مساجدهم دون معارضة ، ولكنهم قد حرموا أخيراً من هذه الحقوق ، ومنعوا من الأذان والصلاة فى مساجدهم ، ويتوجه السلطان بالرجاء إلى خايمى أن يسبغ رعايته على المسلمين ، وأن يجريهم على سابق عوايدهم ، فلا يتعرض لهم أحد فى مساجدهم ، وأن يكف الضر عنهم . وقد أرخت هذه الرسالة السلطانية فى صفر سنة ٧٢٣ ﻫ الموافق لفبراير سنة ١٣٢٣ م .

ولسنا ندرى ماذا كان أثر هذه الرسالة فى أحوال المدَجنّين فى أراجون ، ولكنا نعرف أنهم كانوا يحظون فى أراجون بمعاملة أفضل من تلك التى كانوا يلقونها فى قشتالة ، وأنهم لبثوا حتى أواخر القرن الخامس عشر يحتفظون ببعض مساجدهم وشيء من امتيازاتهم القديمة حسبما تدل على ذلك وثائق مدجنية عديدة بكنيسة العمود بسرقسطة . وعلى أى حال فإن هنالك ما يدل على أن العلاقات الودية الوثيقة لبثت قائمة بين بلاط القاهرة ، وبلاط برشلونة . ولما توفى الملك خايمى الثانى فى سنة ١٣٢٧ م وخلفه ولده ألفونسو الرابع استمرت السفارات والاتصالات الدبلوماسية قائمة بينه وبين الملك الناصر . ومن ذلك أن الملك ألفونسو ، أرسل عقب تبوئه العرش إلى السلطان يطلب إليه أن يسمح بنقل رفات القديسة بربارة من مصر لتدفن فى الكنيسة التى أقامها لذلك . وتقول الأسطورة إن القديسة بربارة هذه قد دفنت بالكنيسة المسماة باسمها بمصر ، فرد عليه السلطان فى رسالة أرخت فى جمادى الأولى سنة ٧٢٨ ﻫ الموافق لمارس سنة ١٣٢٨ م ، بأنه على استعداد لإجابة مطلبه متى أرسل إلى الإسكندرية مراكب جيدة مشحونة بالبضائع . وعاد الملك ألفونسو بعد ذلك بنحو عامين فأرسل إلى السلطان هدية من البزاة الفاخرة ، وبعث إليه السلطان بخطاب شكر ، يشيد فيه بروعة الهدية ، وحسن موقعها ، مؤرخ فى جمادى الأولى سنة ٧٣٠ ﻫ الموافق لفبراير سنة ١٣٣٠ م.

كانت هذه الحقبة وهى النصف الأول من القرن الرابع عشر ، حافلة حسبما تقدم ، بالصلات الدبلوماسية بين مصر وأراجون . وقد استمرت العلائق الودية بعد ذلك بين البلدين فترة أخرى . على أنه يبدو أن الأمور اضطربت بعد ذلك ، بسبب إغارة القراصنة من القبارصة وأخلاط الفرنج على الشواطئ المصرية ،

ومنهم رعايا لملك أراجون . ومن الواضح أن مصر كانت تتخذ فى مثل هذه الظروف إجراءات انتقامية ضد التجار الفرنج الذين ينتمون إلى البلاد التى عرف رعاياها بالاعتداء على الشواطئ المصرية . وهكذا نجد فى عصر السلطان الملك الأشرف بارسباى أن العلائق بين مصر وأراجون ، يعتريها شىء من الارتباك والفتور ، وهو ما اهتم الفريقان بالعمل لإصلاحه ومعالجته . وكانت نتيجة المفاوضات التى جرت بين مندوبى السلطان ومندوبى ألفونسو الخامس ملك أراجون ، أن عقدت بين الفريقين فى شهر رمضان سنة ٨٣٣ هـ الموافق لمايو سنة ١٤٣٠ م معاهدة لتنظيم العلائق السياسية والتجارية بين البلدين ، ونص فى مادتها الأولى على أن يعقد بين الطرفين صلح ثابت ومحبة ، وأن يعتبر سائر ما جرى من الضرر فى الأنفس والأموال والخصومات من الطرفين من الأمور المنتهية ، وخصصت باقى مواد المعاهدة الإحدى والثلاثين لتنظيم العلائق والشئون التجارية ، ومن الحق أن نقول إن سائر ما ورد فيها يتعلق بالنص على الضمانات اللازمة للرعايا والتجار الأرجونيين — وخلاصتها أن يكون لرعايا أراجون حق الإقامة والسفر والمتاجرة فى بلاد السلطان ، وأن يكون للسفن الأرجونية التى تعطب فى موانئ السلطان أن تصلح ، وأن تفرغ بضائعها دون أن يؤخذ منها شىء ، وألا تدفع المكوس المقررة إلا بعد بيع البضائع ، وألا يؤخذ من التجار الأرجونيين فى الموانئ المصرية ، أو بلاد السلطان شىء إلا برضاهم ، وإذا أخذ شىء وجب الوفاء بثمنه ، وألا يُقتضى الدين إلا من المدين الأصلى أو ضامنه ، ولا يغرم أحد مكان أحد ، وأنه إذا استأجر أحد من المسلمين أو رعايا السلطان مراكب أرجونية فعليهم أن يأخذوا الرهائن نظير بضائعهم ، وإذا حصل بعد ذلك ضرر أو غدر كان الملزم بذلك هو الضامن ، ولا يلزم به أحد من الموجودين بأرض السلطان ، وتنص المعاهدة بعد ذلك على تفصيل طرق البيع والشراء والوساطة ، وضمان حرية البيع والشراء ، وعلى أن يبنى السلطان فندقاً للتجار الكتلان ، وأن يسهل لقنصل الكتلان والتجار الذين يختارهم مقابلة السلطان ، وأن يكون هؤلاء أحراراً فى القدوم إلى القاهرة أو مغادرتها أو إخراج بضائعهم منها .

على أن الذى يلفت النظر حقاً هو ما نصت عليه المعاهدة من ضمانات قضائية خاصة للرعايا الأرجونيين ، فقد نص على أنه لا يحكم بين الرعايا الأرجونين وبين

المصريين فى الخصومات إلا أمير أو ناظر ، وأنه لا يحبس أحد من الرعايا الأرجونيين إلا بأمر كتابى صادر ، وأن يضع قنصل أراجون أو الوصى المختار ، يده على أموال من يموت من الرعايا الكتلان ، وأخيراً أن يخول القنصل حق الفصل فى الخصومات التى تقع بين مواطنيه ، ويسعى فى مصالحتهم ، وأن يقيم فندقاً فى المكان الذى يختاره . ووجه الأهمية فى هذه النصوص ، هو أنها قد أضحت فيما بعد حقوقاً مكتسبة للرعايا الأرجونيين ، أو بعبارة أخرى أصبحت بنداً من بنود الامتيازات الأجنبية الشهيرة ، التى اتسعت دائرتها فيما بعد ، وعانت منها مصر ما عانت من المتاعب والافتئات على حقوق سيادتها[1] .

---

(١) رجعنا فى كتابة الفصل الى المجموعه المصرية بمحفوظات التاج الأرجونى ببرشلونة **Archivo de la Corôna de Aragón** ، وكتاب صبح الأعشى للقلقشندى ، وإلى كتاب : **A. y Santón y R.O. Linares : Los Documentós Arabes diplomaticos del Archivo de la Corôna de Aragón.**

الفصل الخامس

ابن عربشاه مؤرخ تيمور
وكتابه عجائب المقـــدور

لم يخص المؤرخون العرب ، الترجمة الخاصة بكثير من عنايتهم؛ فهم يميلون عادة إلى التعميم ، ولهم فى التراجم العامة ، معاجم وآثار شاسعة جمة . وتراث العربية لا يخلو مع ذلك من التراجم الشخصية المستفيضة . ولكن هذه المعاجم العامة ، والتراجم الخاصة ، قلما تعرض إلى التحليل والنقد ؛ وأكثر ما تعنى باستيعاب الحوادث مجملة ، وذكر المناقب والآثار الشخصية . وهذه ظاهرة الرواية العربية جميعاً إذا استثنينا آثار بعض النقدة والمفكرين القلائل . فالفقه التاريخى لم يشغل مكانة كبيرة فى الرواية العربية ، ولم يشغل بالأخص مكانة فى الترجمة . ولكن لمحة من التحليل والنقد أخذت تظهر واضحة فى الرواية العربية خلال القرن الثامن الهجرى ، ثم نمت وقويت فى القرن التاسع . وظهر أثر هذا المنهج الجديد فى نفس الوقت فى الترجمة ، وعنى المؤرخون بالسير الخاصة ، ولا سيما سير معاصريهم من الملوك والأمراء والقادة والمفكرين ، وعنوا بالأخص بنواح من التصوير والتحليل كانت مهملة من قبل . وقد جاز الإسلام فى القرن الثامن مصاير ومحناً عظيمة ، فألفى المؤرخون المعاصرون لهذه الحوادث ، وأولئك الذين عاشوا قريباً منها ، فى روعتها وجدتها ، مادة غزيرة للتأمل والكتابة . وكان أعظم هذه الحوادث بلا ريب ظهور تيمور الفاتح التترى ، فقد هبت بظهوره على الإسلام عاصفة هائلة ، ولقى الإسلام على يديه من الانحلال والدمار ، ما لقى على يدى سلفيه هولاكو وجنكيز خان ؛ ولبثت الأمم الإسلامية من سمرقند إلى الشام تهتز تحت ضرباته زهاء نصف قرن . وكانت غزوات الفاتح التترى ، وما بثه من عوامل الاضطراب والروع ، وما شاهده من آيات الفخار والظفر ، مادة لتأملات مؤرخ عربى عاش قريباً من هذا العصر ، وعاصر شيوخه ، وتقلب فى الأمم التى نكبت على يد تيمور ، وقضى شطراً من حياته حينما سطع طالع تيمور ، وتألق نجمه .

هذا المؤرخ هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الله الدمشقى ، الذى عرف باسم أشهر هو ابن عَرَبْشَاه ، والذى أعدته الأقدار بحق ليكون مترجم الفاتح التترى. وقد دون ابن عربشاه سيرة تيمور وفتوحاته فى أثر نفيس ممتع ، هو فى نفس الوقت قطعة من الأدب الرائع والخيال الشائق ، ووثيقة تاريخية هامة ؛ بل هو أهم وثيقة فى تاريخ تيمور . وهو نوع من القريض المنثور ، يذكرنا أسلوبه وخياله بقريض الفروسية والبطولة الغربى ، فى العصور الوسطى . وقد أزهر هذا النوع من الأدب التاريخى فى الرواية العربية ؛ فكتب التاريخ أدباء وشعراء أقوياء يبرز نثرهم المتين ، وسجعهم الممتع ، وتصويرهم القوى ، على المادة التاريخية ذاتها . وقد كان ابن عربشاه كاتباً وشاعراً ، يبرز فى النثر المتين ، فكتب تاريخه الذى أسماه : « عجائب المقدور فى أخبار تيمور » بعبارة مسجعة منمقة ، ولكن قوية متناسقة . على أنه كان المؤرخ قبل كل شىء . وربما جنى أسلوبه على متانة بيانه أحياناً . ولكن حرصه على الرواية ، وعلى العبارة المسجعة ، هو الذى يحمله على مثل هذا الضعف . على أن ركاكته فى هذه المواطن تبدو فى الغالب مطربة فكهة .

وقد كان ابن عربشاه رجل المهمة التى أخذها على نفسه ؛ وكان خير من أداها ؛ فلا زالت ترجمته لتيمور أهم المراجع فى تحقيق سيرة هذا الفاتح الكبير . وألفى ابن عربشاه مصادره الوثيقة فى حوادث حياته نفسها ؛ وفى المجتمعات التى تقلب فيها والمناصب التى شغلها ؛ وفى الجهات الرسمية التى اتصل بها . وقد ولد فى دمشق سنة ٧٩١ هـ (١٣٨٩ م) يوم كانت دمشق ما تزال تنافس القاهرة بأعلامها ومفكريها . وكان الفاتح التترى يومئذ قد وصل إلى ذروة ظفره . وما كاد المؤرخ يبلغ الرابعة عشرة ، حتى انقض تيمور كالسيل على بلاد الشام ورفع بها أعلام الخراب والموت ، ففرت أسرة المؤرخ من دمشق قبيل تفاقم الخطوب ، والتجأت حيناً إلى الأناضول أو مملكة الروم ، فى عهد ملكها بايزيد الأول العثمانى ، وشهدت على ما يظهر ، نكبة هذا الملك على يد تيمور . ولما توفى تيمور ، وهدأت العاصفة التى أثارها فى الأمم الإسلامية ، نزحت أسرة المؤرخ إلى بلاد التركستان واستقرت فى سمرقند مبعث تيمور ، ومنبت مجده ، ومهاد بطولته . وهنالك درس المؤرخ على شيوخ هذا العصر وأعلامه ؛ وأتقن التركية والفارسية . وكانت التركستان ما تزال تحت سلطان حفيد لتيمور هو خليل سلطان ؛ وكانت «سمرقند»

عاصمة الإمبراطورية التترية ، ما زالت تفيض بسير الفاتح العظيم ، وذكريات غزواته ، وأحاديث ظفره ومجده . فنى هذا المجتمع الذى طبعه تيمور بطابعه ، والذى وعى سيره وذكرياته ، عاش ابن عربشاه دهراً . ومن المرجح أن فكرة ترجمته لتيمور قد خطرت له يومئذ ، وإن لم ينفذها إلا بعد ذلك بأعوام طويلة . ولم يغادر المؤرخ هذا المجتمع الحافل بذكريات الفاتح التترى ، إلا ليستقر فى بلاط ترك فيه الفاتح من سيره ذكريات لا تمحى . فقد عاد إلى مملكة الروم ؛ واتصل بملكها السلطان محمد الأول ابن السلطان بايزيد الأول ، أسير تيمور وشهيد عسفه ؛ وهنالك وعى الناحية الخصيمة من سير الغزوات التى قام بها تيمور فى تلك الأنحاء ، وتقلد ديوان الإنشاء فى البلاط العثمانى ، لأنه كان كما قدمنا يجيد الفارسية والتركية فضلا عن العربية ، وتولى مكاتبة السلطان العثمانى مع جيرانه من الملوك والأمراء حيناً .

وهكذا قدر لابن عربشاه أن يتقلب فى مجتمعات شهدت جدود تيمور وطوالعه ، وأحصت غزواته وفتوحاته ، وفاضت بذكريات سيره وأعماله ، وأن يجوز سواد الأمم والبسائط التى كانت مسرحاً لوثبات الفاتح التترى وجولاته ؛ وأن يتصل بأوثق المصادر التى وعت أخباره ؛ وأن يسمع الرواية عنه من شيوخ معاصريه ، ومن الجيل الذى اتصل مباشرة بجيله . ومن ثم كان كتاب « عجائب المقدور فى أخبار تيمور »(١) من أنفس الوثائق التى دونت عن سيرة تيمور إن لم تكن أنفسها جميعاً . وقد عنى المؤرخ بتدوينها ، كما يبدو من سياق روايته ، فى سنة ٨٤٠ هـ(٢) . وكان قد اعتزل خدمة البلاط العثمانى ، وعاد منذ بعيد إلى وطنه ، وتبوأ مكانته بين أعلام ذلك العصر ؛ وانقطع للدرس والبحث . وكان عندئذ فى الخمسين من عمره ، يأخذ من الآداب والعلوم بأوفر قسط ، ويقف على دقائق السياسة فى عصره . فدون غزوات الفاتح الكبير بروية الشيوخ وتمحيص المؤرخ الهادىء ، ولكن بأسلوب تتجلى فيه حماسة الفتوة ، وهو يفتتح كتابه بما ينم عن عميق بغضه لتيمور فيقول فى ديباجته : « وكان من أعجب القضايا ،

(١) ويسمى أحياناً (عجائب المقدور فى نوائب تيمور) ، ولكنا نرجح التسمية الأولى ، لأن المؤرخ لا يستطيع أن يحصى فى سيرة تيمور سوى الظفر والفخار .

(٢) راجع «عجائب المقدور» (طبع مصر سنة ١٣٠٥ هـ) ص ١٣٢ .

بل من أعظم البلايا ... قصة تيمور ؛ رأس الفساق ، الأعرج الدجال ، الذى أقام الفتنة شرقاً وغرباً على ساق ، أقبلت الدنيا عليه فتولى ، وسعى فى الأرض فأهلك الحرث والنسل ، وتيمم حين عمته النجاسة الحكمية صعيد الأرض ، فغسل بسيف الطغيان كل ثغر محجل ، فتحققت نجاسته بهذا الغسل . أردت أن أذكر منها ما رأيته ، وأقص فى ذلك ما رويته ، إذ كانت إحدى الكبر وأم العبر »[١] . ولسنا ندهش لتقديم المؤرخ بطل ترجمته إلى القارئ على هذا النحو ، فقد نشأ ابن عربشاه فى غمار المحن التى أنزلها تيمور بوطنه ؛ وقضى حداثته فى المنفى فراراً من عسفه وطغيانه ؛ ثم أنفق فتوته فى بلاط يحتفظ للفاتح بأشنع الذكريات ، وشهد بنفسه ما أنزلته غزوات الفاتح بالأمم الإسلامية من صنوف الدمار والفتن . على أن هذه البغضاء العميقة التى لم يملك المؤرخ نفسه من أن يجيش بها نحو الفاتح فى مستهل كتابه ، لم تمنعه من أن يكون المؤرخ المحقق . وهو قد يجيش بها فى سياق روايته فى مواطن كثيرة . ولكن ذلك لا يتعدى مقتضيات البيان والسجع ، ولا يشوب سرد الوقائع ذاتها . بل لم تمنعه أن يبدى إعجابه بعزم الفاتح وشجاعته وبراعته العسكرية ، وأن يعقد فصلا خاصاً لتحليل مواهبه وصفاته البديعة .

* * *

يفتتح ابن عربشاه ترجمته لتيمور برواية ما قيل فى منشئه وظهوره الأول ، فيسرده كأساطير فقط ، ويصوغه فى قالب القصص الشعرى ، ويعنى بإيضاح سبب عرج الفاتح فى قصة لذيذة يقول فيها : « فدخل (أى تيمور) حائطاً من حوائط سجستان قد أوى إليه بعض رعاة الضأن ، فاحتمل منها رأساً وأدبر ، فشعر به الراعى وأبصر ، فأتبعه للحين ، وضربه بسهمين ، أصاب بأحدهما فخذه ، وبالآخر كتفه ، فلله دره ساعداً ، إذ أبطل بهذا الضرب الموزون نصفه » ؛ ثم يتتبع بعد ذلك طوالع هذا الفتى الجرىء المغامر ؛ مذ بدأ حياته العامة زعيم عصابة ناهبة ، تعيث فى إقليم التركستان إلى أن برز قائداً بارعاً ، وفاتحاً يحمل كل من يصادره من ملوك هذه الأنحاء . ويبدع المؤرخ فى وصف هذا السيل الذى اجتاح الأمم الإسلامية من سمرقند إلى الشام فى أعوام قلائل ؛ ويعنى عناية خاصة بغزوات

---

(١) عجائب المقدور — ص ٣ .

تيمور لبلاد الشام ، وما ارتكبه فيها من عيث وسفك ، وما دار بينه وبين علمائها من الجدل الفقهى[١] . ونعرف أن تيمورلنك انقض بجيوشه على الشام ، وهى يومئذ إحدى الولايات المصرية ، فى أوائل سنة ٨٠٣هـ (١٤٠٠م) ، واستولى على مدينة حلب فى مناظر هائلة من السفك والعيث والنهب ، ثم اخترق الشام جنوباً إلى دمشق ؛ فروعت مصر لهذه الأنباء ؛ وهرع ملك مصر الناصر فرج بجيوشه لملاقاة الفاتح التترى ورده ؛ ونزل بدمشق فى جمادى الأولى سنة ٨٠٣ ؛ واشتبك جند مصر مع جند الفاتح فى معارك محلية ثبت فيها المصريون ؛ وبدأت مفاوضات الصلح بين الفريقين . ولكن مؤامرة دبرها نفر من بطانة السلطان لخلعه ، اضطرته للعودة سريعاً إلى مصر ، فترك دمشق لمصيرها وارتد أدراجه ؛ وعندئذ رأى جماعة العلماء والفقهاء الذين كانوا بدمشق — وكان منهم عدة وفدوا من مصر مع السلطان ، ومن بينهم ابن خلدون الفيلسوف والمؤرخ الأشهر — أن يلتمسوا الأمان والصلح من الفاتح ؛ فتظاهر تيمور بإجابة الرجاء؛ ولكن ذلك لم ينج المدينة من السفك والعيث . على أنه لم يمض شهران حتى اضطر تيمور إلى مغادرة الشام لأسباب وحوادث جرت فى مملكته الشاسعة[٢] . ويصور ابن عربشاه مناظر هذه العاصفة التى اجتاحت وطنه فى بيان قوى ؛ ويصف لقاء ابن خلدون للفاتح التترى تحت أسوار دمشق حينما ذهب للقائه مع وفد العلماء ، فيقول : « وكان مالكى المذهب والمنظر ، أصمعى الرواية والخبر ؛ فتوجه معهم (أى العلماء) بعمامة خفيفة ، وهيئة ظريفة ، وبرنس كهو رقيق الحاشية ، يشبه من دامس الليل الغاشية ؛ فقدموه بين أيديهم ، ورضوا بأقواله وأفعاله عليهم ؛ وحين دخلوا عليه ، وقفوا بين يديه ؛ واستمروا واقفين ، وجلين خائفين ؛ حتى سمح (أى تيمور) بجلوسهم وتسكين نفوسهم ؛ ثم هش إليهم ؛ ومر ضاحكاً عليهم . . . وكان ابن خلدون يصوب نحو تيمور الحدق ، فاذا نظر إليه أطرق ، وإذا ولى عنه رمق ، ثم نادى وقال بصوت عال : يا مولانا الأمير ، الحمد لله العلى الكبير ؛ لقد شرفت بحضورى ملوك الأنام ، وأحييت بتواريخى ما مات لهم من الأيام ؛ وشهدت مشارق الأرض ومغاربها ، وخالطت فى كل بقعة أميرها ونائبها ؛

---

(١) عجائب المقدور — ص ٨٤ — ١١٢ .

(٢) ابن إياس — تاريخ مصر — ج ١ ص ٣٢٦ وما بعدها .

ولكن لله المنة إذ امتد بى زمانى ، ومن الله على بأن أحيانى ، حتى رأيت من هو الملك على الحقيقة ، والمُسْلك شريعة السلطنة على الطريقة ؛ فإن كان طعام الملوك يؤكل لدفع التلف ؛ فطعام مولانا الأمير يؤكل لذلك ولنيل الفخر والشرف ؛ فاهتز تيمور عجباً ، وكاد يرقص طرباً ، وأقبل يوجه الخطاب إليه ، وعول فى ذلك دون الكل عليه ، وسأله عن ملوك العرب وأخبارها ، وأيامها ودولها وآثارها ... »(١) .

ويفيض ابن عربشاه أيضاً فى وقائع تيمور فى الأناضول ، وما أنزله بممالك هذه الأنحاء من مصائب وخطوب(٢) . فإذا كان اصطدام تيمور بالسلطان بايزيد العثمانى فى هضاب أنقَرَة (٨٠٤ هـ - ١٤٠٢ م) ، ألفيت المؤرخ يبلغ الذروة فى قوة العرض ، ودقة الوصف ؛ ولا غرو فقد كانت أنقرة قبراً لمجد السلطان الذى خدم المؤرخ ابنه شطراً من حياته . وكان المؤرخ مدى حين من سادة هذه الهضاب ، التى شهدت فوز الفاتح التترى ومصرع السلطان العثمانى . ويعنى المؤرخ عناية خاصة بذكر المراسلات التى تبادلها تيمور وبايزيد ، والقسم الشهير الذى تحدى به بايزيد خصمه ، حين زحف على بلاده ، وبعث إليه يتوعده ويأمره بالدخول فى طاعته ، وهو قوله فى رسالته إليه : « فإن لم تأت تكن زوجاتك طوالق ثلاثاً ، وإن قصدتَ بلادى ، وفررت عنك ولم أقاتلك البتة ، فزوجاتى إذ ذاك طوالق ثلاثا بتة » ، وما كان من سخط تيمور لهذه الإهانة ، لأن ذكر النساء عند التتار « من العيوب وأكبر الذنوب » ؛ وما أوقعه تيمور عقب انتصاره بخصمه بايزيد من الانتقام الأليم ؛ فقد أسره وسجنه فى قفص من الحديد ، ثم دعاه ذات يوم إلى مجلس أنس عقده ، فإذا بنساء بايزيد وجواريه ، وكن أسيرات مثله ، يتولين سقاية الفاتح وصحبه أمام مليكهن . ويصف المؤرخ هذا المنظر فى عبارة شعرية فيقول « ثم أمر (أى تيمور) بأفلاك السرور فدارت ، وبشموس الراح أن تسير من مشرق أكواب السقاة إلى مغرب الشفاة فسارت ؛ وحين تقشعت عن شموس السقاة سحاب الخدور ، ودار فى سماء العشرة نجوم يحثها من مراسيمه بروز وبدور ، نظر ابن عثمان (بايزيد) فاذا السقاة جواريه ، وعامتهم

(١) عجائب المقدور - ص ١٠٢ .

(٢) عجائب المقدور ص ١٢٣ وما بعدها .

حرمه وسراريه ، فاسودت الدنيا فى عينه ، واستحلى سكرات حينه ، وتصدع قلبه ، وتضرم لبه ، وتزايد كمده ، وتفتت كبده ، وتصاعدت زفراته ، وتضاعفت حسراته ، ونكى جرحه ، وأعد قرحه ، ونثر على جرح مصابه من قصبات الأسى ملحه ، وكانت هذه نكاية لابن عثمان بما أسلفه ، فى مكاتباته ، من ذكره النساء وحلفه » . ثم يذكر وفاة بايزيد فى قوله : « ولما صفا لتيمور شرب ممالك الروم من الكدر ، وقضى الكون من أفعاله العجب ، وأهل الروم النحب ، وجيشه من الغارة الوطر ، وامتلأ من المغانم وادى سيله العرم ، وكان فتى الربيع قد أدرك ، وشيخ الشتاء قد هرم ، واندرج إلى رحمة الله المجيد ، السلطان السعيد ، الغازى الشهيد ، إيلدريم بايزيد ، وكان معه مكبلا فى قفص من الحديد . وإنما فعل ذلك تيمور ، قصاصاً ، كما فعله قيصر مع سابور» .

وهذه المراسلات التى يعنى ابن عربشاه بإثباتها سواء بالنص أو المعنى ، فى هذا الموطن وغيره ، من أهم عناصر ترجمته ، فهى تشف عن كثير من خلال الفاتح التترى ، ومناهجه فى الحرب والسياسة . وقد دونها ابن عربشاه نقلا عن أصولها التركية والفارسية ، من مصاردها الرسمية الوثيقة ؛ فقد رأيت أنه كان يجيد التركية والفارسية ، وأنه اتصل بقصور الأمم الإسلامية التى دوخها تيمور . وقد نوه بأهمية هذه الوثائق أعلام من مؤرخى الغرب مثل جيبون **Gibbon** ، وكانت الترجمة اللاتينية لكتاب المؤرخ المسلم ، عمدتهم فى تحقيق سيرة تيمور وتحليل شخصيته وصفاته[1] .

ويعرض ابن عربشاه إلى شخصية تيمور وخلاله فى فصل خاص يختتم به كتابه ، عنوانه : « فصل فى صفات تيمور البديعة ، وما جبل عليه من سجية وطبيعة » . وقد رأيت كيف أن المؤلف يستهل كتابه بما يشف عن عميق بغضه للفاتح ، وكيف يسترسل فى سخطه عليه فى كثير من المواطن ؛ وهو يطلق العنان

---

(١) طبع كتاب « عجائب المقدور » بنصه العربى لأول مرة فى ليدن سنة ١٦٣٦ . ثم طبع فى فرانكفورت بين سنتى ١٧٦٧ و ١٧٧٢ فى مجلدين مقروناً بترجمة لاتينية وتعليقات المستشرق صمويل هنريكوس مانجر . وانتفع به البحث الغربى الحديث من ذلك العصر انتفاعاً كبيراً . (راجع جيبون : **Decline and Fall of the Roman Empire** (الفصل الخامس والستون) حيث يقتبس من ابن عربشاه ووثائقه عن تيمور) . كذلك طبع « عجائب المقدور » فى مصر أكثر من مرة . وبدار الكتب المصرية منه أكثر من نسخة مخطوطة إحداها كتبت فى عصر المؤلف .

بعد ذلك لهذه العاطفة فى قصيدة طويلة يصف فيها ما أنزله الفاتح بمختلف الشعوب والأمم ، من رائع الويل والسفك ، وفيها يقول :

ناهيك منهم فتنة … كالأبحر الظلما تمور
الأعرج الدجال من … قصم الجماجم والظهور
داخ البلاد ودارها … نوائب الدنيا تدور
أملى له الله الحليم … فزاد عدوا فى فجور
فاجتاح كل الخلق من … عرب ومن عجم القطور
ومحا الصدى ودعا الردى … بحسامه الباغى يمور
أفنى الملوك وكل ذى … شرف وذى علم وقور
وسعى إلى إطفاء نو … ر الله والدين الطهور
فأباح إهراق الدما … من كل صبار شكور
وأحل سبي المحصنا … ت المؤمنات من الخدور
طورا يرى نكث العهو … د وتارة نقض النذور
أبقت عليه فعاله … لعناً على مر العصور
وتخلدت آثار ما … آذى على كر الدهور

ومع ذلك فان ابن عربشاه لا يملك نفسه ، فى الفصل الذى أشرنا إليه ، من أن يشيد بمواهب تيمور الخارقة ، وأن يسجد إجلالا لهذه البطولة الشامخة[1] . فيبدأ بوصف شخص الفاتح فى هذه العبارة الشعرية : « وكان تيمور طويل النجاد رفيع العماد ، ذا قامة شاهقة ، كأنه من بقايا العمالقة ، عظيم الجبهة والرأس ، شديد القوة والبأس ، عجيب الكون ، أبيض اللون ، مشرباً بحمرة ، غير مشوب بسمرة ، مستكمل البنية ، مسترسل اللحية ، أشل أعرج اليمناوين ، عيناه كشمعتين غير زهراوين ، جهير الصوت ، لا يهاب الموت ، قد ناهز الثمانين ». ثم يجمل خلاله فيما يأتى : « كأنه صخرة صماء ، لا يحب المزاح والكذب ؛ ولا يستميله اللهو واللعب ؛ يعجبه الصدق ولو كان فيه ما يسوؤه ؛ لا يجرى فى مجلسه شيء من الكلام الفاحش ولا سفك دم ، ولا من سبي ونهب وغارة وهتك حرم ؛ مقداماً ؛ شجاعاً ؛ مطاعاً ؛ يحب الشجعان والأبطال ؛ ذا أفكار

---

(١) عجائب المقدور — ص ٢٠٩ وما بعدها .

مصيبة ، وفراسات عجيبة ؛ وسعد فائق ، وجد موافق ؛ وعزم بالثبات ناطق ، ولدى الخطوب صادق ؛ محجاجاً دراً كاً للمحة واللمزة ؛ مرتاضاً ، مستيقظاً لرمزه ؛ لا يخفى عليه تلبيس ملبس ، ولا يتمشى عليه تدليس مدلس ؛ يفرق بين المحق والمبطل بفراسته ، ويدرك الناصح والغاش بدربة درايته ؛ ويكاد يهدى بأفكاره النجم الثاقب ، ويستتبع بآراء فراسته سهم كل كوكب صائب...وكان محباً للعلماء ؛ مقرباً للسادات والشرفاء ... فريد الطور ، بعيد الغور ؛ لا يدرك لبحر تفكيره قعر ، ولا يسلك فى طور تدبيره سهل ولا وعر » . ثم يعمد بعد ذلك إلى تحليل نفسية الفاتح وبوادر عظمته وفخاره ؛ وإلى إحصاء مآثره ؛ فى لهجة المؤرخ الصادق والناقد الحق ، فيمحو بهذه الخاتمة أثر عباراته الطائرة فى ذم الفاتح ، ويقدم شخصية تيمور إلى القارئ فى صورة قوية ، تثير الإعجاب .

وقد ينتقص الأسلوب الشعرى والبيان المنمق أحياناً ، من قوة العرض التاريخى ، ولكنهما يسبغان على رواية ابن عربشاه فى الغالب طلاوة ورونقاً وبهاء. بل لا يرى المؤلف نفسه بأساً من أى ينوه فى خاتمة مؤلفه ، بما أودعه إياه من رائق نثره وبيانه ، فيقول لنا : « فمن أراد التنزه فى التواريخ فعليه بمداومة تكرارها (أى ترجمته لتيمور) ؛ ومن قصد التفكه فى رياض الإنشاء فليقتطف من بهىّ أزهارها ؛ ومن سلك طرائق الأدب فليجن من حدائقها جنا ثمارها ؛ ... ومن طلب الاعتبار بتقلبات الزمان فليتأمل حقائق أخبارها ؛ ومن اعتنى بسياسة الملك فليتدبر دقائق أسرارها » .

* * *

ووفد ابن عربشاه فى أواخر حياته على مصر ، أيام الملك الظاهر چقمق حوالى سنة ٨٥٢ هـ ، فاتصل ببلاطها وعلمائها ، وأقام بها نحو عامين ، وتوفى بها سنة ٨٥٤ هـ (١٤٥٠م) .

وقد تذكرنا حياة مترجم تيمور ، بحياة سلفه الأشهر ابن خلدون ، فقد تقلب كلاهما فى أمم وقصور عدة ، واستقر أخيراً فى مصر ، حتى ثوى إلى غبرائها المجيدة .

الفصل السادس

المجتمع المصرى فى القرن الخامس عشر

يرتبط التطور الإجتماعى فى حياة الأمم ، أشد الارتباط بما تجوزه نظم الحياة العامة من تطور وانقلاب . فكلما وصلت مرحلة من مراحل الإنقلاب فى نظم الحياة العامة غايتها ، تأثرت حياة الطبقات وعقليتها وتقاليدها بما تحمله النظم الجديدة من عوامل التحول والتطور . ولا يشذ تاريخ المجتمع المصرى كثيراً عن هذه الظاهرة ، ولكنا نستطيع أن نلاحظ أن التطور فى عقلية الطبقات فى مصر ، لم يكن دائماً متمشياً مع تطور النظم العامة من سياسية واقتصادية وتشريعية ، وأنه يعرض من التباين العميق فى أحوال الطبقات صوراً غريبة ؛ فبينما تتطور بعض الطبقات الإجتماعية وتستبدل أثوابها وتقاليدها وعقلياتها بسرعة مدهشة ، إذ يسود الجمود المطبق بعض الطبقات الأخرى ؛ فتتعاقب العصور والانقلابات العامة ، وهى تحافظ على تقاليدها وعقلياتها محافظة مدهشة ، قد تسبغ على هذه التقاليد والعقليات ثوب الغرائز والصفات الطبيعية . ومن المحقق أن الخاصة والمتنورين فى كل مجتمع ، هم الذين يحرزون من مظاهر التطور الفكرى والإجتماعى أعظم قسط ، وأن الكافة أو العامة هم آخر من يتأثر بهذا التطور ، فلا تشهد هذه الآثار إلا متى اكتمل الإنقلاب ، ونفذت أعراضه إلى أعمق البيئات والطبقات .

وتاريخ مصر حافل بالإنقلابات السياسية ، وحافل أيضاً بالإنقلابات الإجتماعية . ولكن التطور السياسى فى مصر ، كان فى الغالب أسرع وأشد تبايناً من تطورها الإجتماعى . وبينما نرى أحدث نظم الحكم والتشريع والاقتصاد ، تمثل منذ بعيد فى الحياة المصرية العامة أيام الدول الإسلامية ، إذا بالتطور الإجتماعى والفكرى تنحصر آثاره فى أقلية محدودة ، هى التى تفوز دائماً بأوفر قسط من هذه الآثار . ولكنا نستطيع أن نقول إن الكافة فى مصر ، قلما تلمس فيهم آثاراً محسوسة لهذا التطور ، الذى يشمل كل مظاهر الحياة العامة ، اللهم إلا فى فترات متباعدة جداً ، وقد تمضى قرون بأسرها ، وأولئك الكافة يحتفظون بتقاليدهم وعقليتهم .

وقد يرجع ذلك إلى أن طبقات الكافة فى مصر ، كانت دائماً فى نظر الملوك والخاصة كمية مهملة ، كل ما تصلح له هو أن تغذى جيوش الغزاة بأرواحها ، وخزائن الدولة بعملها وكدها . وهى نظرية الملوكية القديمة فى كل العصور والأمم ، ولكن تطبيقها دائما كان أشد وطأة فى مصر ، التى قدر أن يرزح شعبها تحت نير الغزاة والحكام الأجانب دائماً ؛ فكان السلاطين وبطانتهم من الأمراء والحكام والخاصة ، كل شىء فى الحياة العامة . وكان الكافة أو أبناء البلاد يخضعون لنظم سياسية واجتماعية ، تفوق فى أحيان كثيرة فى الخسف والإرهاق ، ما كانت تملى به روح هذه العصور .

على أنه من الواضح أيضاً أن الشعب المصرى ، فى خلال هذه العصور التى تولت فيها حكمه وقيادته دول وأسر أجنبية مسلمة ، كان يحتفظ دائماً بطابعه الخاص ، بل كان يفرض هذا الطابع فى معظم الأحيان على حكامه وقادته ، وينتهى باستغراق هذه الأسر والطبقات المتغلبة وتمصيرها ؛ فكانت فى نفس الوقت الذى تعمل فيه لتوطيد سلطانها ، تعمل لمجد الشعب الذى تستمد منه هذا السلطان ، وتعمل لرفعته وعزته ومجده ، وتذود عن استقلاله وسيادته ، بكل ما أوتيت من قوة وغيرة وإخلاص .

وقد انتهت مصر الإسلامية فى القرن التاسع الهجرى (القرن الخامس عشر) إلى طور من الضعف والفتور والدعة.وكانت هذه المرحلة خاتمة تطورات وانقلابات عديدة ، سياسية واجتماعية . وكانت الدول الإسلامية المستقلة فى مصر ، قد شاخت يومئذ وأدركها الانحلال والوهن ؛ وكان يسود مصر يومئذ ركود سياسى واجتماعى عميق ، كالركود الذى يسبق العاصفة . ولا غرو فقد كان مقدمة لأفدح خطب نزل بمصر : باستقلالها ، وحضارتها ، ونظمها العامة ، وحياتها الخاصة ؛ ونعنى الفتح العثمانى . وكانت الأمم الإسلامية قد اجتاحتها كلها قبل ذلك عاصفة هائلة من الدمار والسفك أثارتها غزوات تيمورلنك ؛ وهبت على مصر ريح من هذه العاصفة . ولكنها لم تنج منها إلا ليعدها القدر فريسة للغزاة الترك . ففى هذا العصر يقدم إلينا المجتمع المصرى صورة من أغرب الصور ؛ سواء فى نظم الدولة والحياة العامة أو فى نظم الجماعات والحياة الخاصة . ذلك أن الحياة كلها كأنما كانت يومئذ لهواً ولعباً ؛ وكأنما لم تكن أقدار الدول أكثر من مصير سلطان أو أمير ؛ ولم تكن

مصاير الشعوب أكثر من هوى يضطرم به السلطان أو الحاكم ؛ وكأنما مناصب الدولة ومرافقها وأرزاقها رقاع الشطرنج تنقل لمجرد اللهو واللعب ، أو هبات فقط تنثر على الأهل والخلان ؛ وكأنما العدالة ألعوبة تتقاذفها أهواء الأمراء والخاصة ، وسيف لا يشهر إلا على عنق الكافة ، لتحقيق نزعات الهوى والانتقام. هذا بعض ماتعرض لنا نظم مصر العامة فى القرن الخامس عشر الميلادى. أما الحياة الخاصة والمظاهر الفكرية والإجتماعية ، فهى أشد غرابة وطرافة ، وهى صورة قوية مما عرف به المجتمع المصرى على كر العصور من بساطة فى فهم الحياة ومهامها ، ومن ميل إلى اللهو ، ومن تساهل فى تقدير الواجبات والمسئوليات .

وهذه الخلال المنحلة ترجع إلى انحلال النظم العامة ذاتها ، وبخاصة إلى انحلال أخلاق الطبقات الخاصة التى كانت تعتبر أثناء هذه العصور قدوة لمثل الحياة . وقد لفتت هذه الظاهرة نظر مفكر إجتماعى مسلم كبير هو ابن خلدون ، فحمل فى مقدمته على خلال المجتمع المصرى فى قوله : « واعتبر ذلك أيضاً بأهل مصر ؛ فإنها فى مثل عرض البلاد الجزيرية أو قريباً منها ، كيف غلب الفرح عليهم ، والخفة والغفلة عن العواقب ، حتى أنهم لا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم ، وعامة مأكلهم من أسواقهم »[1] . ويورد ابن خلدون ملاحظته فى عرض كلامه عن أثر الهواء فى أخلاق البشر ؛ ويعتبرها نتيجة لوقوع مصر فى المنطقة الحارة . وقد زار ابن خلدون مصر قبل العصر الذى نتحدث عنه بقليل ، ودرس أحوالها ومجتمعاتها دراسة عميقة ، وتأثرت حياته الخاصة مراراً بما كان يسود النظم العامة يومئذ من الاضطراب . وسواء أصح ما يقوله عن أثر الإقليم فى أهل مصر أم كان مبالغاً فيه ، فان الذى لا ريب فيه هو أن العصر الذى وفد فيه المفكر الكبير على مصر ، كان بالنسبة إليها عصر انحلال فكرى وأخلاقى ، وأن هذا الإنحلال ، كما قدمنا ، يرجع فى كثير من وجوهه إلى انحلال النظم العامة ، وإلى فساد المجتمعات والطبقات الخاصة .

كذلك لفتت هذه الظاهرة نظر مؤرخ مصر الكبير ، تقى الدين المقريزى ، فقدم إلينا فى « الخطط » صوراً لا حصر لها مما شهده ولاحظه فى عصره ، أعنى أوائل القرن التاسع الهجرى ، من عوامل الفساد ومظاهر الإنحلال التى سرت إلى المجتمع

(١) مقدمة ابن خلدون (بولاق) ص ٧٣ .

المصرى ، سواء فى كلامه عن الخاصة من أمراء وحكام وكبراء ، أو عن طبقات الدهماء والكافة . بل لقد أشار فى أكثر من موضع من « الخطط » أيضاً إلى ما كان يهجس به مفكر وهذا العصر من توقع انهيار صرح المجتمع المصرى؛ وهو يرجع ذلك إلى ما وقع فى عصره من « الفقر والفاقة ، وقلة المال ، وخراب الضياع والقرى ، وتداعى الدور للسقوط ، وشمول الخراب أكثر معمور القاهرة ، واختلاف أهل الدولة ، وانقضاء مدتهم ... »(١) . ثم إلى أنه قد « تقلص ظل العدل ، وسفرت أوجه الفجور ، وكشر الجور عن أنيابه ، وقلت المبالاة ، وذهب الحياء والحشية من الناس ، حتى فعل من شاء ما شاء ، وتعددت منذ عهد المحن التى كانت فى سنة ست وثمانمائة الحجّاب ، وهتكوا الحرمة ، وتحكموا بالجور تحكماً خفى معه نور الهدى ، وتسلطوا على الناس مقتاً من الله لأهل مصر ، وعقوبة لهم بما كسبت أيديهم ، ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون »(٢) .

ولدينا ، من بعد المقريزى ، وثائق هامة عن أحوال المجتمع المصرى ونفسيته فى هذا العصر ، لثلاثة من أكابر مؤرخى مصر ، عاشوا بالتعاقب فى هذا العصر ، ودونوا حوادثه وصوره مما سمعوه أو شهدوه بأنفسهم ؛ هم ، جمال الدين أبو المحاسن ابن تغرى بردى ، والسخاوى ، وابن إياس(٣) . وهم أيضاً من أقطاب فكرة الحوليات المصرية ؛ دونوا حوادث عصورهم فى صحف سنوية وشهرية ويومية ، كما تدون اليوم صحفنا المحدثة ، حوادثنا الجارية ؛ ودونوها دون شرح أو تعليق فهم ليسوا نقدة ، ولكن فكرة سعيدة جالت بأذهانهم فعنوا بضبط حوادث عصرهم ؛ فجاءت آثارهم أنفس وثائق لتاريخ مصر فى القرن الخامس عشر . وهو عصر يمتاز كما قدمنا بظروفه الخاصة ؛ فهو خاتمة تلك العصور المجيدة التى ازدهرت فيها بمصر دول إسلامية عدة ، ورفعت لصولة الإسلام ومدنيته فى مصر صروحاً باهرة ؛ وهو فاتحة عصور الإنحلال والانحطاط والدمار ، التى سادت مصر والشام فى عهد الحكم التركى . ومن ثم فإنك ترى فى صحف أولئك المؤرخين مصر ، فى أثواب باهتة غامضة ، وترى مجتمعها يسوده فتور غريب ، وتمائل

(١) الخطط – ج ١ ص ٣٧٣ .
(٢) الخطط – ج ٢ ص ٢٢١ .
(٣) ابن تغرى بردى (٨١٢ – ٨٧٤ هـ) ، والسخاوى (٨٣١ – ٩٠٢ هـ) وابن إياس (٨٥٢ – ٩٣٠ هـ) .

مستمر ؛ قلما يشهد حادثة هامة أو انقلاباً ذا شأن ؛ وقلما يجيش بأمنية نبيلة ، أو ينشد غاية سامية من غايات الحياة المعنوية أو الفكرية ؛ فهو يصبح كما يمسى ، ويعيش فى استكانة وخمول وضعة ؛ وترى الشعب المصرى كالعادة يستقبل عسف السلاطين والولاة جامداً ، ويشهد أهواءهم طروباً ؛ يهتف لكل بادرة ، ويسخر من كل شئ ؛ ويتحمس لكل ما يبهج ويشوق ، من مظاهر الحفلات العامة ، وصنوف الترف والبذخ التى تنثر حوله ، بعد أن تستنزف من أقواته ومن دمه . وهذه الأهواء ، وهذه الحفلات ، وهذه الصغائر ، هى كل تاريخ مصر فى هذا العصر ، وهى كل ما يشهده شعب مصر الطروب المتفلسف . وإليك مثلا مما يعنى مؤرخ مصر فى هذا العصر بتدوينه فى حوادث كل عام وكل شهر تقريباً .

« فيه (شهر ربيع الآخر سنة ٨٥٢ هـ) — رسم بنفى سنقر مملوك السلطان وخازنداره إلى طرابلس ، ثم شفع فيه وأعيد إلى ما كان عليه .

فى تاسع عشره (رجب سنة ٨٥٢ هـ) — ولى أبو الخير النحاس نظر السواقى والمواريث المتعلقة بالوزير ، ولم يلبث أن انتزعت منه للوزير على عادته وذلك فى ثانى شعبان ، ثم لبس لهما كاملية بمخمل أحمر بسمور فى يوم الخميس حادى عشره .

شهر رجب سنة ٨٥٣ هـ أوله الخميس — فيه طلعت تقدمة جانبيك فلم تعجب السلطان لكون أبى الخير النحاس قرر عنده كثرة متحصلة وأن الذى يدفعه لا نسبة له منه ، وبادر للأمر بالترسيم عليه حتى التزم بحمل ما يزيد على ثلاثين ألف دينار لا من كده ولا من كد أمه .

شهر رمضان (سنة ٨٥٣ هـ) — فى يوم الثلاثاء رابع عشره أنهى عن القاضى شهاب الدين أحمد بن على بن مكى الأنصارى أنه زوج امرأة مع بقاء عصمتها لزوجها الأول ، فأمر السلطان بضربه فضرب ثم نودى عليه من القلعة وهو ماش ، ويقال إنه كان راكب جمل والصداق ملصق بظهره محسور الرأس ... »[1] .

« سنة ٨٦١ هـ — فى يوم السبت سادس المحرم ضرب السلطان والى القاهرة خير بك القصروى وعزله عن ولاية القاهرة وحبسه بالبرج على حمل عشرة آلاف دينار .

« فى يوم السبت رابع شهر ربيع الآخر (سنة ٨٦٥) نودى بزينة القاهرة

(١) السخاوى — التبر المسبوك فى ذيل السلوك — ص ٢١٥ و ٢٦٦ و ٢٦٧ .

لقدوم أولاد السلطان من السرحة ، ووصلا فى يوم الثلاثاء ثامن ربيع الآخر ، وشقا القاهرة فى موكب هائل ، وطلعا إلى القلعة وخلع عليهما والدهما السلطان الملك الأشرف إينال »[1] .

« سنة ٨٩٥ هـ — فى المحرم — كثرت الشكاوى فى محمد بن إسماعيل قاضى الواح فأمر السلطان باحضاره ، فلما حضر ضربه بالمقارع ، ثم أشهره بالقاهرة وهو على حمار ثم سجنه بالمقشرة فمات بها بعد أيام .

« فى رجب كان ختان ابن السلطان المقر الناصرى محمد ، وكان عمره يومئذ نحواً من أربع سنين وأشهر ، وكان المهم بالقلعة سبعة أيام متوالية ، وكان من نوادر المهمات ، فاجتمع به سائر مغانى البلد ، ورسم السلطان أن تزين القاهرة فزينت زينة حافلة ، وخرج الناس فى القصف والفرجة عن الحد .

« فى رمضان قبض الوالى على جماعة من المماليك الأروام وجدهم يشربون الخمر نهاراً فضربهم وأشهرهم بالقاهرة وسجنهم »[2] .

هذه الحوادث ، بل هذه الصغائر وأمثالها ، هى كل ما استطاع المؤرخ أن يدونه عن حياة مصر العامة فى القرن الخامس عشر . وقد تشعر وأنت تقرأ سيرة هذا العصر أنك فى دور ، إذ تسير من صغيرة إلى مثلها ، ومن سخف إلى غيره ، فى أعوام بل أجيال متعاقبة . ولا تقرأ فى أخبار الدولة ومهامها سوى نقمة السلطان أو رضاه ، على حاكم أو كبير ؛ وقدوم كبير إليه بهدية فخمة ؛ أو خلعه على من يصطفيه ، ومصادرته لمن يتغير عليه ؛ ولا تقرأ من الحوادث الإجتماعية إلا إقامة مولد ، والاحتفال بزواج أو ختان أو أمثالها ، ولا تجد فى حياة الشعب سوى الضجيج والمرح ، والهتاف والطرب ، والذعر والاستكانة ، والجمود والسخرية. فلا اهتمام إلا بزينة تقام أو موائد تمد ، أو كبير يهان ، أو صغير يرفع . وهكذا كان ولاة الأمر يقدرون مهام الدولة ، ويفهمون العدالة ، وهكذا كان الشعب يفهم الحياة وغايتها ؛ فهى عصور ضاحكة قل همها وعناؤها ، وكثرت بهجتها ومرحها ، وسهلت فيها أسباب العيش والسلوى ؛ وهى نتيجة طبيعية لما حل بالمجتمع المصرى يومئذ من عوامل الإنحلال الفكرى والمعنوى ، فلم تفهم الحياة

---

(١) ابن تغرى بردى — النجوم الزاهرة — فى حوادث سنتى ٨٦١ و ٨٦٥ .

(٢) ابن إياس — تاريخ مصر (بدائع الزهور) — ج ٢ ص ٢٦٢ و ٢٦٣ .

عندئذ إلا من نواحيها المادية ، نواحى الدعة والرفه ولذائذ العيش .

وقد نذكر عند قراءة هذه الصور ، نفس الصور التى تقدمها إلينا قصص ألف ليلة وليلة عن المجتمعات المصرية فى عصور مجهولة ، ولا سيما فيما يتعلق بطبقات الكافة أو العامة . ومن الغريب أنك تجد تماثلا عظيماً بين أحوال هذه الطبقات وخلالها فى عصور متباعدة جداً ، فإنك تجد شبهاً عظيماً بين أحوالها التى تقدّم شرحها ، وبين مادوّنه الجبرتى[1] عنها بعد ذلك بثلاثة قرون ؛ وربما لاتجد اليوم فى خلالها وأحوالها كبير تطوّر أو تغيير ، وربما استطعت أن تميز فيها معظم خلال العصور الماضية . ولم تنج الطبقات الخاصة ذاتها من التماثل والجمود فى الخلال والعقلية مدى عصور ، فهى إلى أواخر القرن الثامن عشر ، تحتفظ بكثير من تقاليدها وأحوالها ، ولكنها جازت فى القرن الأخير أعظم ثورة عرفتها فى أساليب الحياة ، وفى التفكير والخلال .

---

(١) ولد الجبرتى سنة ١١٦٨ وتوفى سنة ١٢٤٠ هـ .

الفصل السابع

صفحة من الدبلوماسية المصرية

كيف حاولت مصر إنقاذ الأندلس

كانت علائق الإسلام والنصرانية أخص ما يمثل وسائل الدبلوماسية الإسلامية . لأن العلائق الخارجية فيما بين الدول الإسلامية ، كانت تتخذ دائماً صور التقاليد القديمة ؛ وكانت تنقصها الروح الدولية الحقيقية ، لأن جامعة الدين كانت تعتبر دائماً دعامة قوية لعقد أواصر الصداقة والتعاون بين الدول الإسلامية . ولكن الدول الإسلامية كانت فى علائقها مع الدول النصرانية ، وهى الدول الأوربية فى ذلك العصر ، تجرى ، سواء فى التجارة أو السياسية أو الحرب ، على أصول العصر ورسومه الدولية ، ومن ثم فإنا نجد فى علائق الدولتين العباسية والبيزنطية ، وعلائق مصر بالدول الأوربية أيام الحروب الصليبية ، ثم علائق الأندلس باسبانيا النصرانية ، أقوى صور الدبلوماسية الإسلامية وأخصها .

وقد لبثت مصر حيناً مركزاً للوحى فى توجيه حركات الدبلوماسية الإسلامية تجاه الدول النصرانية ، وتبوأت فى هذا الميدان منذ الحروب الصليبية مركز الإرشاد والقيادة ؛ وكان ذلك نتيجة طبيعية لاستيلائها على بيت المقدس والآثار النصرانية المقدسة ، وكانت المؤثرات الدينية كثيراً ما تُتّخذ وسيلة لتحقيق الغايات السياسية . ولنا من ذلك شواهد كثيرة فى حوادث الحروب الصليبية . وكانت السياسة الزمنية المستنيرة قلما يمكن استخلاصها فى هذه العصور ، من غمار المؤثرات والأهواء الدينية ، لأن ريح التعصب الدينى التى سادت أوربا فى العصور الوسطى ، ودفعت بسيل الجيوش الصليبية إلى المشرق ، كانت ترغم الدول الإسلامية على التأثر بالاعتبارات الدينية إلى حد كبير . غير أن مصر استطاعت فى مواقف كثيرة أن تتحرر من نزعة التعصب الخالص ، وأن تستخدم المؤثرات الدينية بذكاء وبراعة ، لتحقيق فكرة أو غاية سياسية .

وسنعنى فى هذا الفصل بأحد هذه المواقف التى قامت مصر فيها بتوجيه

الدبلوماسية الإسلامية فى ظروف دقيقة مؤثرة . وقلما نجد فى صحف مصر الإسلامية ما يثير من التأثر والشجن ، قدر ما تثيره هذه المحاولة النبيلة التى بذلتها مصر لتنقذ دولة الإسلام فى الأندلس ؛ ولقد كانت أيضاً آخر محاولة بذلتها مصر المستقلة فى ميدان الدبلوماسية الإسلامية . وكان مصير مصر يومئذ يهتز فى كفة القدر ، ويرنو إليها بنو عثمان بجشع ؛ ولكن دولة السلاطين كانت ما تزال فى مصر قوية وطيدة الدعائم ، ولم يكن يبدو أن مصر الإسلامية تقطع يومئذ مرحلتها الأخيرة فى حياة المجد والسؤدد ، لتسقط بعد حقبة يسيرة فريسة للغزاة الترك . ولهذا لم تنس مصر ، يوم علمت أن دولة الإسلام فى الأندلس غدت فى خطر الفناء ، أن تقوم بمهمتها التاريخية فى توجيه الدبلوماسية الإسلامية ، وأن تبذل باسم الإسلام ، لدى خليفة النصرانية وملوكها ، مسعاها الخالد لإنقاذ الأندلس .

* * *

فى سنة ١٤٨٩ كانت جيوش اسبانيا النصرانية — أو جيوش قشتالة وأراجون — تتقدم فى قلب مملكة غرناطة آخر معقل لإسبانيا المسلمة . وكانت دولة الإسلام فى الأندلس قد أخذت منذ أوائل القرن السابع الهجرى تنحدر بسرعة إلى هاوية الانحلال والفناء . ثم قامت مملكة غرناطة آخر دول الإسلام بالأندلس ، ولبثت عصرا تغالب اسبانيا النصرانية . بيد أنها أشرفت منذ أوائل القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) على شفا المنحدر ، وأخذت قواعدها وثغورها الباقية تسقط تباعاً فى يد اسبانيا النصرانية ، فلم يبق منها فى أواخر القرن الخامس عشر سوى مدن وثغور قلائل .

ثم حل الصراع الأخير ، واتحدت قشتالة وأراجون على يدى فرناندو وإيسابيلا ، واعتزمت اسبانيا النصرانية أن تقوم بضربتها الحاسمة للإسلام فى الأندلس ؛ فتدفقت الجيوش المتحدة على مملكة غرناطة . وكانت أحوال غرناطة يومئذ تنذر بالويل ، وكان الخلاف الداخلى قد دب إليها ومزقتها المنافسات والمعارك الأهلية ، وشطرتها إلى شطرين يتربص كل منهما بالآخر ؛ أحدهما غرناطة وبعض أعمالها ويحكمها أبو عبد الله محمد بن السلطان أبى الحسن النصرى ؛ ووادى آش وأعمالها ويحكمها عمه أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزَّغَل . وكان فرناندو وإيسابيلا قد شهرا الحرب على الإسلام قبل ذلك بأعوام .

واستوليا على مالقة أمنع ثغور الأندلس ، ثم من بعدها تباعاً على طائفة كبيرة من البلاد والحصون . وفى ربيع سنة ١٤٨٩م أشرف فرناندو الخامس بجيوشه على بسطة من حصون مولاى الزغل ، وبقيت الملكة إيسابيلا بحاشيتها فى جيان على مقربة من الجيش الفاتح . وكان الزغل قد تأهب للدفاع فحشد فى بسطة صفوة جنده ، وشحنها بالمؤن ، وبعث إليها جيشاً من ألمرية بقيادة الأمير يحيى ؛ ولكنه لم يغادر وادى آش خشية أن ينقض عليه فى غيبته ابن أخيه أبو عبد الله محمد ؛ ولم يجد فرناندو وسيلة للاستيلاء على بسطة غير الحصار .

فى ذلك الحين ، وبينما كان الملك النصرانى مجداً فى محاصرة بسطة ، وفدت عليه سفارة ملك مصر ، وذلك فى أواخر سنة ١٤٨٩ (أواخر سنة ٨٩٤ هـ) . وكانت أنباء الأندلس قد ذاعت يومئذ فى العالم الإسلامى ، واهتز لمصابها أمراء الإسلام قاطبة ؛ وكان أمراء الأندلس وزعماؤها يتجهون إزاء الخطر الداهم بأبصارهم إلى دول الإسلام فى إفريقية ومصر وتركيا لتسعى إلى غوثهم ؛ وكانت سفاراتهم ورسائلهم تترى منذ أعوام على فاس والقاهرة وقسطنطينية . وكان سلطان مصر يومئذ الملك الأشرف قايتباى المحمودى الظاهرى . ولم تكن أحوال مصر على ما يرام يومئذ ، فقد كان يسودها الإنحلال الداخلى ، وكانت فوق ذلك تخشى الخطر يهددها من ناحية الترك . ولكن مصر لم تنس مهمتها التاريخية فى توجيه الدبلوماسية الإسلامية كلما دعيت إلى أدائها . وقد رأت فى محنة الأندلس وتعرضها لخطر الفناء صيحة الواجب القديم تدعوها إلى العمل . وفى صحف العصر ما يدل على أن مصر كانت تتبع حوادث الأندلس باهتمام وجزع . فإن ابن إياس مؤرخ مصر فى ذلك العصر ، لم يفته أن يدون فى حولياته هذه الحوادث تباعاً ؛ فنراه يقول فى حوادث ذى الحجة سنة ٨٨٦ هـ (١٤٨١ م) ما يأتى : «وفيه جاءت الأخبار من بلاد الغرب أن أبا عبد الله محمد بن حسن بن على بن سعد ابن الأحمر ، قد ثار على ابنه الغالب بالله صاحب غرناطة وملكها من ابنه ، وجرت بينهما أمور يطول شرحها ، وآل الأمر بعد ذلك إلى خروج الأندلس عن المسلمين وملكها الفرنج ، والأمر لله فى ذلك»[1] . ثم يقول فى حوادث رجب سنة ٨٩٠ هـ (١٤٨٥م) : «وفى رجب جاءت الأخبار بوفاة ملك الأندلس صاحب

(١) تاريخ مصر — ج ٢ ص ٢١٦ .

غرناطة ، وهو الغالب بالله أبو الحسن »[١] . وفى حوادث جمادى الآخر سنة ٨٩١ هـ (١٤٨٦ م) : « إن صاحب غرناطة (أبا عبد الله) توجه إلى عمه يسأله أن يرسل له نجدة تعينه على قتال صاحب قشتالة ، وأن الفتن هناك قائمة والأمر لله »[٢] . وهكذا كانت حوادث الأندلس رغم صعوبة المواصلة واحتجاب الأخبار فى ذلك العصر ، يتردد صداها فى العالم الإسلامى ، وتثير اهتمام دوله وقصوره .

فى تلك الآونة العصيبة اتجهت أبصار الأندلس - كما قدمنا - إلى مصر . وكانت مصر ترتبط يومئذ مع ثغور الأندلس ، ولاسيما مالَقة وألمرية ، بعلائق تجارية وثيقة . وكان لمصر هيبتها التالدة بين الدول النصرانية ، منذ الحروب الصليبية ؛ ولأنها تحكم البقاع النصرانية المقدسة ، وبين رعاياها ملايين من النصارى . وكانت أبصار الأندلس من قبل تتجه دائماً إلى إفريقية يوم كان للمرابطين والموحدين ثم لبنى مرين فيها دول شامخة تروّع دول النصرانية . ولكن إفريقية كانت فى أواخر القرن الخامس عشر مسرحاً للفوضى ، تتقاسمها دويلات عدة تشغل بتمزيق بعضها بعضاً . وكان قد ولى ذلك العصر الذى خاطب فيه ابن الأبار شاعر الأندلس ، ملك إفريقية (تونس) بقوله[٣] :

أدْرِكْ بخَيْلكَ خيلِ الله أندلسا ... إن السبيـــل إلى منجاتها دَرَسَا
وهب لها من عزيز النصر ماالتمست ... فلم يزل منك عِز النصر ملتمسا

والذى كانت إفريقية تستجيب فيه إلى دعوة الجزيرة وتبادر إلى غوثها . واتجهت آمال الأندلس أيضاً إلى مصر زعيمة الإسلام فى المشرق والمسيطرة على قبر المسيح ، وإلى دولة بنى عثمان التى أخذت تنفذ بلواء الإسلام إلى أمم النصرانية ، تلتمس إليهما النجدة والغوث . وكان صدى الخطوب المؤسية التى نزلت يومئذ

---

(١) تاريخ مصر - ج ٢ ص ٢٣٠ .

(٢) تاريخ مصر - ج ٢ ص ٢٣٧ .

(٣) ملك إفريقية المشار إليه هو السلطان أبو زكريا بن أبى حفص ملك تونس والجزائر ، وكان أبو جميل زيان أمير بلنسية قد استغاث به يوم زحف عليه ملك أراجون فأوفد إليه وزيره ابن الأبار الشاعر والكاتب الأشهر مستنجداً ، فأنشده قصيدته الخالدة التى أتينا على مطلعها ، واستجاب السلطان للدعوة وأرسل إلى بلنسية عدة سفن مشحونة بالمؤن والسلاح والأموال ، ولكن بلنسية سقطت رغم ذلك فى يد النصارى فى سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) .

بالأندلس يملأ بلاط القاهرة وبلاط قسطنطينية ، ويثير فيهما الاهتمام والعطف . وكانت علائق القاهرة وقسطنطينية يومئذ تسودها القطيعة والجفاء ، لأن الترك كشفوا مراراً عن نيتهم فى غزو مصر ، واضطرت مصر مراراً أن تردهم بقوة السيف ، وأن تقف منهم موقف الحذر المتأهب ؛ بل نشبت الحرب فى ذلك الحين بين ملك مصر السلطان الأشرف قايتباى ، وبين بايزيد الثانى سلطان الترك . بيد أنه يلوح مع ذلك أن الملكين استطاعا أن يتجها فى ذلك الظرف نحو غاية واحدة ، هى السعى إلى نجدة الأندلس وإن لم يكن ثمة ما يدل على أنهما تفاوضا أو تفاهما فى ذلك على خطة موحدة .

ووصلت سفارة الأندلس إلى مصر فى أواخر سنة ٨٩٢ هـ (نوفمبر سنة ١٤٨٧ م) . ويصف ابن إياس هذه السفارة فيما يأتى : « وفى ذى القعدة (سنة ٨٩٢هـ) جاء قاصد من عند ملك الغرب صاحب الأندلس ، وعلى يده مكاتبة من مرسله تتضمن أن السلطان يرسل له تجريدة تعينه على قتال الفرنج ، فانهم أشرفوا على أخذ غرناطة وهو فى المحاصرة معهم . فلما سمع السلطان ذلك اقتضى رأيه أن يبعث إلى القسوس الذين بالقُمَامة التى بالقدس بأن يرسلوا كتاباً على يد قسيس من أعيانهم إلى ملك الفرنج صاحب نابل ، بأن يكاتب صاحب إشبيلية بأن يحل عن أهل مدينة غرناطة ويرحل عنهم ، وإلا يشوش السلطان على أهل القمامة ويقبض على أعيانهم ، ويمنع جميع طوائف الفرنج من الدخول إلى القمامة ويهدمها فأرسلوا قاصدهم وعلى يده كتاب إلى صاحب نابل كما أشار السلطان فلم يفد ذلك شيئاً ، وملك الفرنج مدينة غرناطة فيما بعد »[1] .

هكذا يصف ابن إياس سفارة الأندلس إلى بلاط القاهرة . ولكن فى روايته ما يدعو إلى التأمل ؛ فهو يؤرخ مقدم سفير الأندلس بذى القعدة سنة ٨٩٢ هـ (نوفمبر سنة ١٤٨٧ م) ، ويقول إن صاحب الأندلس أوفده فى طلب النجدة من سلطان مصر ، لأن الفرنج أشرفوا على أخذ غرناطة وهو فى المحاصرة معهم . ولكن سياق حوادث الأندلس فى ذلك الحين يناقض رواية ابن إياس ؛ فالمعروف أن حصار النصارى الأخير لغرناطة لم يبدأ إلا فى مارس سنة ١٤٩١ الموافق لجمادى الثانى سنة ٨٩٦ هـ ، فالأمر لم يكن متعلقاً إذاً بإنقاذ غرناطة . وقد قدمنا أن الحرب

---

(١) تاريخ مصر — ج ٢ ص ٢٤٦ .

الأهلية فى الأندلس شطرت فى ذلك الحين مملكة غرناطة إلى شطرين : أحدهما غرناطة وبعض أعمالها ويحكمها أبو عبد الله محمد ، ووادى آش وأعمالها ومالقة ويحكمها عمه الزغل ؛ وقد كان أبو عبد الله محمد يومئذ وثيق الصلات بفرناندو وإيسابيلا ملكى النصارى ، وكان السلام معقوداً بينهما . بل كان أبو عبد الله محمد يظاهر النصارى على قتال عمه الزّغَل . وكانت غرناطة تعيش فى نوع من الأمن والطمأنينة ، فى ظل هذه المحالفة الغادرة . وكانت جيوش فرناندو وإيسابيلا تتدفق يومئذ على أراضى الزغل ، لأنه كان يسيطر على الثغور الجنوبية وبالأخص على مالقة . وكان النصارى يخشون بقاء هذه الثغور فى يد المسلمين ، لأنها كانت مهبط النجدات والمؤن التى ترد من إفريقية لغوث المسلمين بين آونة وأخرى ؛ لهذا نشط النصارى إلى افتتاح مالقة أولا ، وطوقها فرناندو بجيوشه فى أبريل سنة ١٤٨٧ (ربيع الثانى سنة ٨٩٢ هـ) ، ولم يستطع الزغل إنجادها بنفسه ، لأنه كان يخشى غدر ابن أخيه ، فبعث إليها ما استطاع من جنده . ولكن مالقة سقطت رغم دفاعها المجيد فى يد النصارى فى أغسطس سنة ١٤٨٧ (شعبان سنة ٨٩٢ هـ) . وإذاً فمنطق الحوادث يدلى بأن المقصود بالإنقاذ والإنجاد من سفارة الأندلس إلى مصر إنما كانت مالقة لا غرناطة ؛ لأن حصار مالقة بدأ فى ربيع الثانى سنة ٨٩٢ ، ووصلت سفارة الأندلس إلى مصر فى ذى القعدة من نفس العام ، فاذا قدرنا بعد المسافة وبطء المواصلات يومئذ ، كان لنا أن نستنتج أن سفير الأندلس غادر المياه الإسبانية قبل أن تسقط مالقة فى رجب أو فى شعبان ، ولكنه لم يصل إلى مصر إلا بعد سقوطها . أما صاحب هذه السفارة فلا ريب أنه الزغل ، بطل الأندلس ، والمدافع عنها يومئذ ، والمشفق على دولة المسلمين فيها من السقوط . وأما صاحب غرناطة ، وهو ابن أخيه أبو عبد الله محمد ، فقد كان كما رأينا حليف النصارى يومئذ ، وكان لهم ظهيراً على أمته ودينه .

فرواية ابن إياس عن هذا القسم من سفارة الأندلس تنقصها الدقة . ولكن تلخيصه للقرار الذى اتخذه سلطان مصر فى شأنها ، بالعكس دقيق يدلى بصدق تحريه ، ووقوفه على مجرى سياسة البلاط القاهرى يومئذ .

والظاهر أن حوادث الأندلس كانت قد أحدثت صداها فى بلاط مصر قبل أن ترد إليه هذه السفارة الرسمية ، وأن فكرة كانت تتردد فيه يومئذ للسعى إلى

إنجاد الأندلس بطريقة فعالة . والمصادر الإسلامية لا تشير إلى فكرة أو سياسة معينة اعتزمتها مصر فى هذا السبيل قبل أن توفد سفارتها إلى الغرب . ولكن بعض المصادر الإفرنجية تقول ، إن الشرق كله اهتز لحوادث الأندلس وسقوط قواعدها السريع فى يد النصارى ، وإن بايزيد الثانى سلطان الترك ، والأشرف قايتباى سلطان مصر ، تهادنا مؤقتاً رغم ما كان بينهما من خصومات مضطرمة وحروب دموية ، وعقدا محالفة لإنجاد الأندلس وإنقاذ دولة الإسلام فيها ، ووضعا لذلك خطة مشتركة ؛ خلاصتها أن يرسل بايزيد الثانى أسطولا قوياً لغزو صقلية التى كانت يومئذ من أملاك اسبانيا ليشغل بذلك اهتمام فرناندو وإيسابيلا ، وأن تُبعث سريات كبيرة من الجند من مصر وإفريقية ، تجوز إلى الأندلس من مضيق جبل طارق لتنجد جيوشها وقواعدها(١) . غير أن انفصام علائق مصر وتركيا يومئذ كان أبعد من أن يسمح بعقد مثل هذا التحالف بينهما . وكل ما يمكن قوله فى هذا الشأن ، هو أن فكرة إنجاد الأندلس لقيت فى بلاطى القاهرة والقسطنطينية نفس العطف ، وإن كانا ، كما قدمنا ، لم يتفاهما فى ذلك على خطة موحدة .

ومهما يكن من موقف مصر وتركيا يومئذ إزاء حوادث الأندلس ، فإن مصر هى التى انفردت بتلبية نداء الأندلس ، والسعى إلى إنقاذها . ولم تكن أحوال مصر يومئذ مما يسمح لها بإرسال جيش أو غيره من المساعدات المادية إلى ميدان حرب ناء كالأندلس ، فقد كانت من جهة تخشى غزو الترك ، وكانت بعض الثورات المحلية تستغرق اهتمامها ونشاطها . ولكن مصر لجأت إلى طريق الدبلوماسية والمؤثرات الخارجية ، وعادت بذلك تحمل مهمتها التاريخية فى توجيه الدبلوماسية الإسلامية . وسلك بلاط القاهرة فى ذلك خطة تدلى بذكائه وحزمه ، وتدلى بالأخص بوقوفه على مجرى الشؤون الخارجية ، وتطور العلائق الدولية فى هذا العصر .

ذلك أن سلطان مصر الملك الأشرف ، أجاب على سفارة الأندلس بتوجيه سفارة مصرية إلى البابا وملوك النصرانية . ولكنه لم يعهد بها إلى سفراء مسلمين ، وإنما عهد بها إلى سفراء من رعاياه النصارى ، واختار لأدائها راهبين من جماعة القديس فرنسيس أحدهما القس أنطونيو ميلان رئيس دير القديس فرنسيس فى

(١) Irving : Conquest of Granada (Everyman's) p. 172 وذلك نقلا عن الرواية الإسبانية المعاصرة لهذه الحوادث .

بيت المقدس . وعهد إليهما بكتب إلى البابا وهو يومئذ إنوصان الثامن ، وإلى ملك نابولى فرناندو الأول ، وإلى فرناندو وإسابيلا ملكى قشتالة وأراجون . وفى هذه الكتب يعاتب سلطان مصر ملوك النصارى ، على ما ينزل بأبناء دينه المسلمين فى مملكة غرناطة ، وعلى توالى الاعتداء عليهم ، وغزو أراضيهم وسفك دمائهم ، ونهب أملاكهم ؛ فى حين أن رعاياه النصارى فى مصر وفى بيت المقدس ، وهم ملايين ، يتمتعون بجميع الحريات والحمايات ، آمنين على أنفسهم وعقائدهم وأملاكهم . ولهذا فهو يطلب إلى ملكى قشتالة وأراجون ، الكف عن هذا الاعتداء ، والرحيل عن أراضى المسلمين ، وعدم التعرض إليهم ، ورد ما أخذ من أراضيهم ؛ ويطلب إلى البابا وملك نابولى أن يتدخلا لدى ملكى قشتالة وأراجون ، لردهما عما يدبرانه من المشاريع لإيذاء المسلمين والبطش بهم ؛ هذا وإلا فإن سلطان مصر يضطر إزاء هذا العدوان ، أن يتبع نحو رعاياه النصارى سياسة التنكيل والقصاص ، ويبطش بكبار الأحبار فى بيت المقدس ، ويمنع دخول النصارى كافة إلى الأراضى المقدسة ، بل ويهدم قبر المسيح ذاته وكل الأديرة والمعابد والآثار النصرانية المقدسة(١) .

وغادر القس أنطونيو ميلان وزميله الديار المصرية لتأدية سفارة مصر إلى الغرب ، والإسلام إلى النصرانية . وكان أمر هذه السفارة وما تضمنت من إنذار التنكيل بالنصارى ، قد ذاع فى فلسطين بين الأحبار والنصارى ، فاحتشد الأحبار لوداع السفيرين يوم رحيلهما من بيت المقدس ، وقلوبهم تفيض جزعاً من المستقبل . ولسنا نعرف موعد هذا الرحيل بالضبط ، ولكن السفيرين وصلا إلى اسبانيا فى خريف سنة ١٤٨٩ م ، أعنى لنحو عام ونصف عام من وصول سفارة الأندلس إلى القاهرة . وكانت مالقة قد سقطت فى يد النصارى منذ عامين ، واستولوا على طائفة أخرى من الحصون والقواعد ، ثم تحولوا بعد ذلك إلى بَسْطة وضرب فرناندو الحصار حولها منذ الربيع . وهنالك ، أمام أسوار بسطة ، وصل القس أنطونيو ميلان وزميله إلى معسكر النصارى فى أواخر سنة ١٤٨٩

---

(١) ابن إياس – تاريخ مصر – ج ٢ ص ٢٤٦ و **Prescott : History of Ferdinand and Isabella (Sonneschein) p. 278; Irving : Ibid. p. 257** وظاهر أن فى رواية ابن إياس عن تأليف السفارة بعض الاضطراب ، ولكن ملخصه لمحتويات الكتب السلطانية فى منتهى الدقة .

(سنة ٨٩٤ هـ) فاستقبلهما فرناندو بجفاوة وترحاب ، واستلم كتاب السلطان ، واستمع إلى رسالتهما بعناية . . وكان السفيران قد عرجا فى طريقهما على رومة ونابولى أولا ، وقدما كتب السلطان ، إلى البابا إنوصان الثامن ، وإلى ملك نابولى ؛ فكتب البابا إلى فرناندو وإيسابيلا يسألها عما يجيب به على مطالب السلطان ووعيده ، وكتب ملك نابولى (فرناندو الأول) إليهما يستفهم عن سير الحرب الأندلسية ، ويلومهما على اضطهاد المسلمين ، وينصح بالكف عنه حتى لا يتعرض نصارى المشرق إلى قصاص السلطان . ويرجع تدخل ملك نابولى على هذا النحو ، إلى خلاف بينه وبين ملك أراجون على حقوق العرش النابولى ، وإلى خشيته أن يرتد فرناندو إلى محاربته متى تم ظفره بفتح الأندلس ، وانتهت مخاوفه من ناحية المسلمين . ثم زار القسّان أيضاً جيّان حيث كانت الملكة إيسابيلا كما قدمنا ، وأبلغاها موضوع سفارتهما ، ولقيا منها نفس الجفاوة والترحاب(١).

ولم ير فرناندو وإيسابيلا فى مطالب السلطان ووعيده ، ما يحملهما على تغيير خطتهما فى وقت كانت فيه جيوشهما الظافرة ، تقتحم المدن والحصون الإسلامية تباعاً ، واقترب فيه أجل الظفر النهائى ، ولكنهما رأيا مع ذلك إجابة السلطان ؛ فكتبا إليه فى أدب ومجاملة ، أنهما لم يفرقا فى معاملتهما لرعاياهما بين المسلمين والنصارى ، ولكنهما ، لا يستطيعان صبراً على ترك أرض الآباء والأجداد فى يد الأجانب ، وأن المسلمين إذا شاءوا حياة فى ظل حكمهما راضين مخلصين ، فإنهم سوف يلقون منهما نفس ما يلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية . وبذا ارتد القسّان إلى المشرق ، يحملان جواب الملكين إلى السلطان ، وقد ثقلتهما الصلات والتحف .

ولسنا نعرف ماذا كان مصير هذه الرسالة ، ولكنا نرجح أنها وصلت إلى بلاط القاهرة(٢)، وإن كنا لا نلمس لها أثراً فى حوادث مصر فى هذا العصر . وليس فى تصرفات حكومة مصر يومئذ ما يدل على أن السلطان نفذ وعيده باتخاذ

---

(١) Prescott : Ibid. p. 278. : Irving : Ibid. p. 258.

(٢) قد يكون فى إشارة ابن إياس فى روايته عن سفارة مصر ما يدل على ذلك وهو قوله فى نهاية كلامه عن محاولة السلطان : « فلم يفد ذلك شيئاً وملك الفرنج مدينة غرناطة فيما بعد » ، ولعل فى ذلك ما يشعر بإشارته إلى ورود الجواب بعقم هذه المحاولة (ج ٢ ص ٢٤٦) .

إجراءات معينة ضد النصارى أو الآثار النصرانية المقدسة . والواقع أن بلاط القاهرة كان يشغل عندئذ بحركات بايزيد الثانى وصد غاراته المتكررة على حدود مصر الشمالية . ولم يك ثمة مجال للعناية بالمسائل الخارجية . وكان الاضطراب من جهة أخرى يسود شؤون مصر الداخلية . ولهذا نعتقد أن محاولة مصر إنقاذ الأندلس وقفت عند هذا الحد ، وأنها لم تكن تتعدى قيام مصر بمظاهرة دولية ، تقوم على استغلال المؤثرات الدينية . وهكذا تركت الأندلس لمصيرها . ومضى فرناندو وإيسابيلا فى متابعة الغزو والفتح حتى ظفرا بالاستيلاء على غرناطة آخر قواعد الأندلس فى الثانى من يناير سنة ١٤٩٢ م (الثانى من ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ) . وانتهت بذلك دولة الإسلام فى اسبانيا .

ويشير ابن إياس إلى نبأ سقوط غرناطة غير مرة. وروايته فى ذلك مضطربة متكررة ، فهو أولا فى حوادث ذى القعدة سنة ٨٩٥ ، وثانياً فى حوادث شعبان سنة ٨٩٧ ، وثالثاً فى حوادث صفر سنة ٩٠٦ ، يكرر نفس الرواية ويقول فى كل منها : إن الأخبار وردت بسقوط غرناطة فى يد الفرنج . هذا ، ولما كانت غرناطة قد سقطت فى ربيع الأول سنة ٨٩٧ ، فان روايته الثانية هى الرواية الصحيحة . وأما الأولى فسابقة لأوانها . وأما الثالثة أعنى رواية صفر سنة ٩٠٦ ، فإن ابن إياس لم يوردها عبثاً ، وإن كانت تتعلق فى الحقيقة بواقعة أو مناسبة أخرى. ذلك أن فرناندو الخامس لم ينس وعيد السلطان بالتنكيل بالنصارى ، ولم يقنع بالجواب الذى وجهه إليه على يد القسيسين ؛ فلما انتهت حرب غرناطة ، وتم إخضاع جميع المدن والأراضى الإسلامية ، رأى فرناندو أن يسعى إلى إقناع سلطان مصر بما يلقاه مسلمو الأندلس من الرعايا والرفق ، وأن يطمئنه على مصيرهم ، فأوفد إلى بلاط القاهرة سفارة جديدة . وكان سفيره إلى السلطان بيترو مارتيرى ، وهو من أعلام الكتاب والمؤرخين فى ذلك العصر[1]، فأدى مارتيرى سفارته بكياسة وبراعة ، وقدم إلى السلطان شهادات من حكام الجزائر تفيد أن كل المسلمين الذين آثروا الهجرة قد نقلوا سالمين إلى الجزائر ، وأحسنت

---

(١) بيترو مارتيرى **Pietro Martire** ، إيطالى ، ولد سنة ١٤٥٥ ، وتوفى سنة ١٥٢٥ ، وكان حبراً وكاتباً كبيراً . شهد حروب غرناطة الأخيرة ، إلى جانب فرناندو ؛ وزار مصر سفيراً إليها من قبله . وكتب عن سفارته كتاباً . وله مؤلفات أخرى فى تاريخ اسبانيا فى ذلك العصر .

معاملتهم ، واستطاع بذلاقته أن يقنع السلطان بأن يعفى الحاجّ النصارى من طائفة من المغارم والفروض[١] .

وقد ترك لنا بيترو مارتيرى كتاباً عن زيارته لمصر ، وفيه أنها وقعت فى سنة ١٥٠١ م . فإذا كان لإشارة ابن إياس إلى سقوط غرناطة فى حوادث صفر سنة ٩٠٦ هـ أعنى بعد وقوع هذا الحادث بتسعة أعوام مناسبة ، فانما تكون زيارة مارتيرى لبلاط القاهرة ، لأن أوائل سنة ٩٠٦ هـ توافق أواسط سنة ١٥٠١ م . وكان قد تولى عرش مصر بعد السلطان الأشرف ، ولده الناصر أولا ، ثم الملك الظاهر ، ثم الملك الأشرف جان بلاط ، وهو الذى كان يجلس على عرش مصر يوم قدوم بيترو مارتيرى . وكانت سياسة مصر الخارجية تتغير بتغيير السلاطين فى هذا العصر الفياض بالثورات والخطوب ؛ وكان صدى حوادث الأندلس قد خفت منذ سقوطها الأخير ، فليس غريباً أن تنتهى سفارة فرناندو الخامس إلى بلاط القاهرة بالإقناع والتوفيق على نحو ما قدمنا .

وهكذا كانت خاتمة المحاولة التى بذلتها مصر لإنقاذ الأندلس . وهى محاولة شهيرة فى علائق الشرق والغرب ، والإسلام والنصرانية . وفى قيام مصر بها على النحو الذى قامت به ، ما يدل على فهم حق لروح الدبلوماسية فى ذلك العصر ، وعلى علم مستنير بسير العلائق الدولية . فقد رأى بلاط القاهرة فى سيطرة مصر على أرواح الملايين من النصارى ، وعلى قبر المسيح وباقى الآثار النصرانية المقدسة ، عاملا قوياً للتأثير فى خطط اسبانيا النصرانية إزاء الأندلس ، وهى خطط كانت تصطبغ بالصبغة الصليبية ؛ ولم يخف على بلاط القاهرة ما كان لرومة يومئذ من النفوذ لدى الأمم النصرانية ، وخصوصاً لدى اسبانيا التى كانت عندئذ تتصل بالكنيسة الرومانية بأوثق الصلات ؛ ولهذا رأى بلاط القاهرة أن يحاول استغلال هذا النفوذ ، وتهديد البابا بما يصيب القبر المقدس والنصارى فى أراضى مصر من شر وبطش ، وحمله بذلك على التدخل لوقف حرب الأندلس . كذلك تدل رسالة السلطان إلى ملك نابولى على إلمام بلاط القاهرة بما كان يضطرم يومئذ من الخصومات بين نابولى واسبانيا ، وربما على نوع من التحريض لملك نابولى أن ينتهز فرصة اشتغال اسبانيا بمحاربة الأندلس فيغزو صقلية ، وهى يومئذ من أملاك

---

(١) Prescott: Ibid. p. 278

اسبانيا . وأخيراً نرى فى اختيار السلطان لسفرائه من بين رعاياه النصارى ، وبالأخص من بين رجال الدين ، ضرباً من الكياسة الدبلوماسية . ولكن هذه المحاولة الذكية الفطنة التى بنيت على اعتبارات دولية قوية مستنيرة ، لم تحدث أثرها المنشود ؛ لأن أحوال مصر الداخلية حالت دون تنفيذ خطة القصاص الدولى ، الذى أنذر سلطان مصر باتباعه نحو الآثار النصرانية المقدسة ، ونحو رعاياه النصارى ؛ لأن سياسة مصر الخارجية لم تكن تقوم يومئذ ، كما كانت أيام الحروب الصليبية ، على مبادئ وخطط موحدة ، بل كانت تتغير بتغير السلاطين . وكان تعاقب السلاطين يومئذ على عرش مصر سريعاً مضطرباً . وهكذا فشلت آخر محاولة قامت بها مصر الإسلامية لتوجيه الدبلوماسية الإسلامية نحو النصرانية ، إنقاذاً لدولة الإسلام فى الأندلس . وشاء القدر أن تكون آخر محاولة من نوعها تقوم بها مصر الإسلامية المستقلة أيام سؤددها ومجدها[1].

---

(١) مما رجعنا إليه فى هذا الفصل غير ما تقدم ذكره من المصادر :
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، للمقرى .
Conde : Hist. de la Dominacion de los Arabes en Espana.
H. Ch. Lea : History of the Moriscos.

الفصل الثامن

الفتـــح العـــثمانى

فى رواية ابن إياس

كانت مصر من بين فتوح الدولة العثمانية ، أعظمها وأيسرها ، ففى « مَرْج دابق » غنم بنو عثمان تراث الدولة الإسلامية الذى تكدس فى الشام ومصر مدى تسعة قرون ، وسحقوا دولة السلاطين الزاهرة ، وهى ما تزال تحتفظ بكثير من سالف بأسها وبهائها ، وانتزعوا رسوم الخلافة العباسية بعد ما اتشحت بها مصر عصوراً طويلة . وكان مصير مصر يضطرب فى كفة القدر قبل ذلك بأكثر من قرن ، ومن المحقق أنها كانت قبلة لأطماع بنى عثمان منذ اشتد ساعدهم ونما سلطانهم ، وأشرفوا من هضابهم على حدود مصر الشمالية ، وهى يومئذ قاصية الشام ؛ فكانت مصر تثير جشع أولئك الغزاة بخصبها وغناها ونعمائها . وما كان فتح بنى عثمان لمصر أو على الأقل محاولتهم لهذا الفتح ، لتُرجأ إلى عام «مرج دابق» لولا أن عاصفة هائلة هبت على العالم الإسلامى قبل ذلك بأكثر من قرن ، فكادت تكتسح جميع الدول الإسلامية ، ولولا أنها انقضت بالأخص على مجد بنى عثمان الفتىّ فكادت تسحقه فى المهد ؛ ففى أنقرة أصاب تيمورلنك دولة بنى عثمان الناهضة بضربة شديدة (سنة ١٤٠٢ م) بعد أن اجتاح فى طريقه كل الأمم الإسلامية من سمرقند إلى الشام ، فخبا ظمأ الفتح الذى شهر بنو عثمان سيفه حيناً ، وشغلوا مدى نصف قرن آخر باصلاح شؤونهم وإتمام أهبتهم لفتح القسطنطينية . ومنذ محمد الفاتح عاد سيل الفتح العثمانى يتدفق نحو الشمال ، ونحو الجنوب ، وعادت مصر قبلة الفاتحين .

ولم تنج مصر أيضا من بطش الفاتح التترى ، فقد انقض تيمورلنك قبيل ذلك على بلاد الشام ، فافتتحها وعاث فيها أشنع عيث ؛ ولم تنجع أهبة سلطان مصر وسيره إلى لقاء الفاتح شيئاً فى تلافى النكبة ، ولم تهدأ العاصفة إلا حينما ارتد الفاتح من تلقاء نفسه ، وسار لقتال بنى عثمان . ولو كان تيمورلنك يعنى بالفتوح

المستقرة لكانت مصر بلا ريب إحدى غنائمه ، بل هنالك ما يدل على أنه كان يعتزم فتح مصر بعد الشام ، لولم تتخذ الحوادث مجرى آخر وتدفعه نحو الشمال . على أن مصر تأثرت أيضاً بتلك النكبة التي سحقت الشام حصنها من الشرق ، وشغلت حيناً بتحصين قواعدها ، وإصلاح أهباتها .

هذا ، وبينما كانت مصر تختتم يومئذ عصورها المجيدة ، وتنحدر ببطء إلى طور جديد من الإنحلال ، وتجنح إلى حياة فتور ودعة ؛ هي أثر عصور طويلة من السلام والعيش الناعم ، إذا بالدولة العثمانية الفتية الناهضة ، تفيق من نكبتها بسرعة ، وتفتتح قسطنطينية ، ثم توغل في الفتح شمالا وشرقاً . وكان شبح هذا الخطر الجديد يلوح لمصر قبل وقوعه بأعوام طويلة . ومنذ أوائل القرن العاشر الهجرى (أوائل القرن السادس عشر) كانت الجيوش العثمانية تهدد الشام من الشمال والشرق . وكانت مصر من جانبها واثقة في منعتها ، فكانت كلما لاح هذا الخطر ، تهم لدفعه في أهبات جزئية محلية . غير أن ثقة مصر في منعتها ، وربما في حسن طالعها ، واستسلامها إلى نوع من قدر الحوادث ، كانت أعظم أسباب النكبة . فقد لبثت مصر آمنة هادئة ، حتى اتخذ الفاتح كل أهبته ، وسار سلطان مصر للقائه في أقصى حدوده الشمالية تاركاً من ورائه حكومة مفككة العرى ، وقواعد غير محصنة ، وعمالا ذوى أطماع وكيد ، فكانت المفاجأة الهائلة في « مرج دابق » ، وكان زوال مُلك مصر وسيادتها ، وكان بدء رقها ، وفاتحة ذلتها مدى عصور طويلة ، ذوى فيها مجدها التالد ، وركدت فيها كل نواحي عظمتها السالفة ، وانحدرت إلى شر ما تنحدر إليه أمة عظيمة من ضروب الإنحلال الفكرى والاقتصادى والاجتماعى .

ذلك أن مصر الإسلامية لم تعرف رغم ما توالى عليها في عصور الاضطراب والفتنة ، من الخطوب والمحن ، نكبة أعظم من الفتح العثمانى ، ولم تعرف حكماً أتعس وأمر من حكم الدولة العثمانية الذاهبة . وإذا كانت فتوح الوندال والبربر والهون تبقى على ممر الأحقاب مضرب الأمثال في الشناعة والهول ، وإذا كانت آثارها المعنوية تقدر دائماً بمعيار ما حطمت من صروح المدنية الرومانية ، وما قتلت من مجتمعات أوربا نصف المتحضرة ، فان الغزاة الترك كانوا ، كما سنرى ، أشد وندالية وفظاعة ، إذا ذكرنا فروق العصور والمدنيات ، وإذا قدرنا مدى

الضربة التى أصابت الإسلام والأمم الإسلامية من جراء الفتح العثمانى .

والحقيقة أن فتح الترك للأمم العربية والإسلامية لم يكن إلا تتمة لأعمال السفك والتخريب الهائلة التى بدأها هولاكو وبرابرته التتار بسحق الدولة العباسية والمدنية الإسلامية ، فى بغداد فى منتصف القرن الثالث عشر ، واستأنفها تيمورلنك فى أواخر القرن الرابع عشر . بيد أن الفتح العثمانى كان باستقراره أعمق أثراً من الوجهة المعنوية ، وأشد تقويضاً للمدنية الإسلامية ، من الفتوح التتارية المؤقتة .

* * *

كانت حوادث هذا الفتح الذى سلخت مصر فى غمره وظلماته ثلاثة قرون سود ، مادة لتأملات مؤرخ مصرى ، قضى أن يشهد المحنة ، وأن يختتم بأخبارها تاريخه الذى بدأه بتدوين سيرة ما قطعته مصر الإسلامية من عصور الرياسة والمجد . كان محمد بن أحمد بن إياس سليل أسرة شركسية ، ظهرت فى مراكز الرياسة ، فى مصر والشام ، منذ منتصف القرن الثامن ، واتصلت بالبلاط القاهرى اتصالا قوياً . ولد بالقاهرة سنة ٨٥٢ هـ وتوفى بها سنة ٩٣٠ (١٤٤٨ - ١٥٢٣م) . ودرس على جماعة من أعلام عصره ولا سيما جلال الدين السيوطى . وسار فى أثر هذه المدرسة التاريخية المصرية الزاهرة ، التى جنحت من التعميم إلى التخصيص ، ورأت أن تعنى قبل كل شيء بتاريخ مصر والإفاضة فيه ، والتى افتتحها المقريزى أعظم أساتذتها بخططه وآثاره الخالدة ، وبرز فيها أبو المحاسن بن تغرى بردى والسخاوى . نشأت وازدهرت ثم تضاءلت فى القرن التاسع (القرن الخامس عشر) . غير أنها وهبت تاريخ مصر الإسلامية أكبر وأنفس مجموعة من الموسوعات والوثائق ، وامتازت بالأخص بتدوين حوداث عصرها بطريق المشاهدة . وقد نشأ ابن إياس فى أواخر عهدها ، فسار على تقاليدها من تدوين تاريخ مصر ، ولكنه لم يوهب كثيراً من كفاياتها الباهرة ، سواء من حيث الطرافة ، أو الإفاضة أو البيان . ولو لم يقدر لابن إياس أن يشهد حوادث الفتح العثمانى وأن يدونها ، لما كان لأثره عن تاريخ مصر كبير قيمة أو أهمية ، لأنه ليس إلا صورة مصغرة من جهود أسلافه ، مجردة من كل ما يميزها من الدقة والمتانة وعميق البحث .

غير أن ابن إياس لم يرد على ما يظهر أن يكتب تاريخ مصر كله بنفس الإفاضة التى يتميز بها القسم الأخير من هذا التاريخ ، فبينما نراه يجمل تاريخ الفتح الإسلامى

والدول الإسلامية الأولى ، وبينما يتناول تاريخ دول المماليك الأولى بشيء من التوسع ، إذا به ينقلب إلى الإسهاب والإفاضة منذ بدء القرن التاسع ؛ فإذا كانت أواخر هذا القرن ، وهو العصر الذى عاش فيه ابن إياس ووعى صوره وحوادثه ، ألفيته يجعل من تاريخه نوعاً من السجل اليومى ، لا يفوته أن يدون فيه كثيراً من الحوادث الخاصة فضلا عن العامة[1] . أما حوادث الأعوام القلائل التى سبقت الفتح العثمانى ، وحوادث الفتح ذاته ، ثم الأعوام القلائل التى تلته ، فإنها تستغرق معظم مجهود المؤرخ ، وتملأ منه أكثر من مجلدين كبيرين .

وفى هذا القسم الذى يدون فيه ابن إياس حوادث عصره ، وبالأخص حوادث الفتح العثمانى ، وما تقدمه ، وما تلاه ، تبدو أهمية مجهوده واضحة ، ففيه نجد وثيقة فريدة ، تكمل سلسلة الوثائق المتوالية التى تركها لنا المقريزى ، فابن تغرى بردى ، فالسخاوى ، كل عن حوادث عصره ؛ وبذا نستطيع أن نظفر بسيرة قرن بأسره من تاريخ مصر ، ترويه المشاهدة الشخصية . وهى مرحلة ذات أهمية وظواهر خاصة ، لأنها تفصل بين مصر الظافرة المستقلة ، وبين مصر المغلوبة المستعبدة . ومن المحقق أن حوادثها تنم عن كثير من العوامل والظواهر السياسية والاجتماعية والأخلاقية ، التى دفعت بمصر يومئذ إلى طريق الإنحلال ، ومهدت إلى سقوطها فريسة هينة فى يد الظافر ، وإلى استكانتها عصوراً طويلة تحت نيره المضطرب .

نشأ ابن إياس كما قدمنا فى النصف الأخير من القرن التاسع فى مدينة القاهرة ، غير أنه لم يظهر فى مجتمعها الفكرى كما ظهر أسلافه وأساتذة «مدرسته» . ولم يبد براعة خاصة فى فرع بعينه من العلوم والآداب . وقد يرجع ذلك إلى أن الدرس العام كان ظاهرة التفكير فى عصره . فقد كان أستاذه السيوطى يأخذ بقسط وافر

(١) مرجعنا فى هذا الوصف هو النص الذى أخرجته مطبعة بولاق سنة ١٣١٢ هـ من تاريخ ابن إياس المسمى « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » . ولكن المستشرق كاله (Kahle) الذى قارن نص مطبوع بولاق بما يوجد من تاريخ ابن إياس بخطه بمكتبة الفاتح باستانبول – وهو أربعة أجزاء – يعتقد أن معظم المخطوطات التى انتهت إلينا من تاريخ ابن إياس ، إنما هى منتخبات منه فقط ، لأنه بينما نرى فيها الإجمال المخل فى تاريخ بعض السنين ، إذا بنا نجد التوسع والإسهاب فى البعض الآخر . هذا إلى أنه يوجد تباين كبير بين نص مطبوع بولاق ، وبين نص مخطوط استانبول سواء من حيث المدى والترتيب والصحة إلى حد أن الإنسان قد يتساءل عما إذا كان الأمر يتعلق بكتاب واحد (راجع مقدمة المستشرق كاله الألمانية فى الجزء الرابع من بدائع الزهور الذى نشر متمماً لنص مطبوع بولاق ، ص – ٢) والذى سوف نتحدث عنه بعد .

من جميع نواحي العلوم والآداب فى عصره ، ولكن شتان ما بين الذهنين . ومال ابن إياس بالأخص إلى درس التاريخ والجغرافيا ، وعالج نظم الشعر . ولكنه لم يكن مؤرخاً عظيما ، ولا جغرافياً محققاً ، ولا شاعراً مجيداً . وكان بيانه يقصر بالأخص عن أداء المهمة الكبيرة التى أخذها على نفسه؛ فهو يكتب تاريخه بأسلوب ضعيف مفكك، ويلوذ بتكرار النعوت والألفاظ كلما أعوزته حاجة التعبير ، ويلجأ إلى العامية فى كثير من الأحيان . وهو ما يرجع بلا ريب إلى ضعف أصيل فى بيانه ، أكثر مما يرجع إلى انحطاط البيان فى عصره ؛ فإن معاصريه ابن تغرى بردى ، والسيوطى ، والسخاوى كتبوا التاريخ وغيره بلغة قوية وبيان متين . كذلك لا نجد فى مباحث ابن إياس ، سواء ما تعلق منها بجغرافية مصر وخططها وتاريخ نيلها ، مما أودعه كتاب « نشق الأزهار » الذى أشرنا إليه من قبل[1] ، كثيراً من التعمق أو الطرافة ، وكل ما هنالك أن ابن إياس يقتبس من المتقدمين من مؤرخى مصر ، مثل ابن عبد الحكم ، والكندى وابن زولاق والقضاعى والمسبحى وابن وصيف شاه والمقريزى وغيرهم . أما الجديد فى تاريخه عن مصر فليس إلا ما كتبه عن عصره ، وبالأخص عن حوادث الفتح العثمانى وما تقدمه وما تلاه . وقد لبثت هذه الرواية التى يتركها ابن إياس عن حوادث عصره ، فيما انتهى إلينا من مخطوطات مؤلفه ، عصراً ، ناقصة تتخللها ثغرة كبيرة ، هى حوادث خمسة عشرة سنة من أول شوال سنة ٩٠٦ إلى آخر سنة ٩٢١ هـ ، (١٥٠٠ — ١٥١٥ م) وهى مدة سلطنة السلطان قانصوه الغورى آخر ملوك مصر المستقلة . ولكن البحث الحديث ظفر بها فى مخطوطين : أحدهما بمكتبة باريس الوطنية ، والآخر فى لننجراد ، وظهرت أخيراً إلى الضياء فى مجلد ضخم[2] . وفيها يتناول

(١) راجع صفحة ٦٥ من هذا الكتاب .

(٢) نشر هذا المجلد بعد طول احتجابه بعناية جمعية المستشرقين الألمانية (Deutsche Morgenlaen-dische Gesellschaft) ؛ وقام بتحقيقه وبإخراجه الأستاذ باول كاله (paul Kahle) ، الأستاذ بجامعة بون ، بمعاونة الأستاذ محمد مصطفى مدرس العربية بها ، والأستاذ سوبرنهايم ، فى مجلد فى خمسمائة صفحة من القطع الكبير (استانبول سنة ١٩٣١) . وصدره الأستاذ كاله بمقدمة بالألمانية قارن فيها النصوص المختلفة التى وصلتنا من مؤلف ابن إياس . والمرجع فى نشر هذا الجزء الذى افتقدناه حيناً من تاريخ ابن إياس مخطوطان : أولهما محفوظ بمكتبة باريس الوطنية (رقم ١٨٢٤) ، ويحتوى على تاريخ مصر من سنة ٨٩١ — ٩١٢ هـ ، ومنقول عن نسخة المؤلف الأصلية فى سنة ١١٢٧ هـ .

ابن إياس عصر السلطان الغورى منذ بدايته ، بإسهاب وإفاضة ، ويدون حوادثه شهراً فشهراً ، ويوماً فيوماً تقريباً ؛ ويتحدث عن كل ما يتعلق بالسياسة والحرب والبلاط والحكومة ، والأمن والقضاء ، والوظائف ، والشؤون المالية والاقتصادية ، ويتتبع بالأخص علائق البلاط القاهرى بالبلاط العثمانى . ويبدو جلياً من روايته أن بلاط القاهرة ، كان يشعر بأن خطر الفتح التركى لمصر غدا قريب الإنقضاض ، ويصانع بلاط قسطنطينية ما استطاع سبيلا إلى ذلك[1]. وكان سلطان الترك سليم الأول من جانبه يخادع سلطان مصر ويهادنه ويراسله[2]. على أن بلاط القاهرة لم يخدع ولم يطمئن . بل كان الغورى دائب الأهبة والاستعداد . ولكن الإنحلال كان يسود شؤون مصر يومئذ ، وكانت الثورات الداخلية تفت فى نظمها وأهبتها . وكان الفساد يقضم أسس نظمها العامة سواء فى الإدارة أو القضاء[3]. ويتحدث

= وعنوانه «بدائع الأمور فى وقائع الدهور ، فى أخبار الدولة (كذا) الملك الأشرف قانصوه الغورى الأشرفى » . والثانى محفوظ بالمتحف الأسيوى بلننجراد (رقم ٤٦) ، ويحتوى على تاريخ مصر من سنة ٩١٣ — ٩٢١ هـ . وموصوف بأنه الجزء العاشر من تاريخ ابن إياس ومنقول عن نسخة المؤلف سنة ١١٢٧ هـ . ويبدأ هذا القسم الجديد من تاريخ ابن إياس — وقد وصف « بالجزء الرابع » من كتاب بدائع الزهور فى حوادث الدهور — من حيث انتهى الجزء الثانى من نص نسخة بولاق — أعنى من شوال سنة ٩٠٦ هـ وينتهى بذى القعدة سنة ٩٢١ هـ ، ومن ثم يتصل بالجزء الثالث من نسخة بولاق الذى يبتدئ بأول سنة ٩٢٢ هـ ، وينتهى إلى سنة ٩٢٨ هـ ، وهو نهاية التاريخ . هذا ، وقد نشر نص جديد لهذا القسم من تاريخ ابن إياس ، قام باخراجه أيضاً الدكتور باول كاله وزميلاه ، ووصف بأنه « الجزء الخامس » من تاريخ ابن إياس (استانبول سنة ١٩٣٢) متضمناً لتاريخ مصر فى نفس الفترة (٩٢٢ — ٩٢٨ هـ) . بيد أنه توجد بين النصين ، نص مطبوع بولاق ، ونص المجلد الجديد ، فروق كثيرة ، سواء من حيث الاستيعاب أو المدى أو الترتيب .

وقام العلماء الثلاثة بعد ذلك بنشر ما أسموه « بالجزء الثالث » من تاريخ ابن إياس (سنة ١٩٣٦) متضمناً لتاريخ مصر من سنة ٨٧٢ هـ (أعنى منذ السنة التى انتهى فيها أبو المحاسن بن تغرى بردى فى تاريخه « النجوم الزاهرة ») إلى سنة ٩٠٦ هـ ، وهو ما يقدمه إلينا الجزء الثانى من مطبوع بولاق ابتداء من سلطنة الأشرف قايتباى (ص ٩٠) وذلك مع فروق كثيرة فى النص .

وقد أسدت جمعية المستشرقين الألمانية ، وأسدى العلماء الثلاثة ، بالعمل على إخراج هذه المجلدات الثلاثة ، ولا سيما « الجزء الرابع » الذى يحتوى على الجزء الفاقد من « بدائع الزهور » خدمة جليلة إلى البحث فى تاريخ مصر الإسلامية .

(١) بدائع الزهور — ج ٤ ص ٢٨٩ .

(٢) بدائع الزهور — ج ٤ ص ٢٠٠ و ٣٨٤ .

(٣) بدائع الزهور — ج ٤ ص ٢٤٩ و ٢٥٦ و ٢٥٧ و ٢٦٤ .

ابن إياس عن مقدمات الفتح ، ويذكر كيف أن أميراً مصرياً ، نقم على السلطان. وفر إلى قسطنطينية ، ونقل إلى سليم الأول أخبار مصر وأحوالها ، وأطلعه على قوتها وأسرار دفاعها ، وحدثه عما يسودها من الاضطراب والضعف . ثم يقول : « فعندئذ طمعت آمال ابن عثمان بأن يملك مصر والله تعالى غالب على أمره » ، مما يدلى بأن المجتمع القاهرى كان يشعر بدنو النكبة وانقضاضها(١).

* * *

وفى هذا القسم من روايته ، أعنى تدوين حوادث عصره ، وهو يشمل زهاء نصف قرن ، من أواخر القرن التاسع إلى سنة ٩٢٨ هـ ، يبدى ابن إياس نوعاً من الطرافة والبراعة ، ويبدى بالأخص دقة فى الملاحظة ، ومقدرة لا بأس بها فى تحليل الأنفس والعواطف . وقد يرجع ذلك من بعض الوجوه إلى سير الحوادث نفسها وإلى المفاجآت والوقائع الغريبة التى قدر للمؤرخ أن يشهدها فى خاتمة حياته ، فهى التى تغذيه خلال روايته بما يلاحظ وما يعلق . ونستطيع بالأخص أن نستخرج من رواية ابن إياس خلال المجتمع المصرى فى هذا العصر ، وأن نتعرف هذا المجتمع المستهتر الطروب فى بعض أثوابه الحقيقية ، وأن نقرأ فى سلوكه وتصرفاته كثيراً من عواطفه وميوله وبوادر نفسه ، وأن نقف على صور شائقة من عاداته وأحواله الاجتماعية . وهذا ما تعرضه رواية الحوادث ذاتها . ولكن لابن إياس فضلا فى ذلك ، هو أنه يعنى فى كثير من الأحيان بتدوين بعض أحوال الحياة الخاصة ، وتتبع آثار الحوادث فى نفس الشعب وطبقاته الإجتماعية المختلفة ؛ فنرى فى روايته ، طبقة الأمراء والأرستقراطية تتحكم فى سائر الطبقات اجتماعياً واقتصادياً ، ولا تبحث إلا عن تحقيق أهوائها ورفاهيتها ، عاش الناس أم هلكوا ؛ ونشعر بوحى القضاة وغيرهم من رجال الدين واضحاً فى سياسة السلاطين ، كما نراهم سند السلاطين فى إباحة المصادرة ونهب الأرزاق والأموال ، وإصدار ما يحقق أهواءهم من الفتاوى والأحكام ؛ ونرى الطبقة المتوسطة منكمشة لا تكاد تأخذ بقسط فى مجرى الحوادث . أما الطبقة الدنيا أو العامة فنراها صاخبة فائرة ، تظهر فى طليعة كل اضطراب ، ولكنها كعادتها تهدأ وتختفى أمام القوة . ويتتبع

---

(١) بدائع الزهور – ج ٤ ص ٤٧١ و ٤٧٣ .

ابن إياس حركات العامة بصفة خاصة ، فيصف سلوكهم ونزعاتهم وعواطفهم من غضب ورضى ومرح واكتئاب ، فى نبذ ممتعة كثيراً ما تثير الابتسام .

أما نظم السياسة والحكم والتشريع والإدارة ، فيعرضها ابن إياس فى سياق روايته خير عرض، فيشرح لنا كيف كان يلى السلطان العرش ، ويباشر الحكم بنفسه أو على يد خاصته وأمرائه . وكان نظام البلاط والحكومة يومئذ من أغرب النظم الملوكية التى عرفت ، يمتزج فيه التشريع والتنفيذ والقضاء، وسلطات الحرب والمالية ، كلها فى صعيد واحد ؛ وكانت مناصب القضاء الأعلى ، وهى أربعة ، لكل مذهب من المذاهب الأربعة منصب يملؤه قاض للقضاة ، تعتبر من الوجهة النظرية أرفع مناصب الدولة ، ويلحق بها منصب المحتسب العام . ولم تكن ثمة وزارة وإنما كانت الهيئة التنفيذية مزيجاً من عدة مناصب كبيرة ، يملؤها الأمير الكبير ، وأمير المجلس ، والأمير اخور ، والأمير الداوادار الكبير ، والاستادار. وكاشف الكشاف ، وأمير السلاح[1] . وكان اختصاص هذه الوظائف يتقلب ويختلف باختلاف السلاطين . ويتتبع ابن إياس هذه التقلبات بعناية ، ويذكر أسماء القضاة والوزراء والأمراء والنواب وغيرهم من كبراء الدولة فى كل حكم . ونرى مما يذكر إلى أى حد كانت دولة المماليك الشراكسة تمعن فى المركزية والاستئثار بالسلطات ، فلم يكن بيد المصريين من مناصب الدولة سوى القضاء فى الغالب ؛ ونرى كيف كانت المناصب سلعة تباع وتشترى ، ويتجر فيها السلطان والأمراء والقضاة ؛ وكيف كانت الحقوق والأموال ، بل الأرواح فى كثير من الأحيان ، معلقة على نزعات العسف والتحكم والهوى .

ويستعمل ابن إياس فى رواية الحوادث والأوامر العامة لغة الدواوين أو اللغة الرسمية ، كما أنه يستعمل العبارات والأساليب التى كانت سائدة فى ذلك العصر ، فى التعبير عن كثير من شؤون الحياة الإجتماعية ، وفى تصوير كثير من العادات

(١) لا يتسع المقام لأن نشرح اختصاص كل من هذه المناصب بالتفصيل ، ولكننا نذكر فقط أن المحتسب العام يسهر على تنفيذ القوانين (الشريعة) ويضرب على أيدى المنتهكين لأحكامها فهو كالنائب العام فى عصرنا من بعض الوجوه . والأمير اخور هو ناظر الاصطبلات والركائب الملكية ومتولى جميع أمورها . والداوادار هو المتولى تبليغ الرسائل السلطانية ثم كانت له بعد ذلك الولاية والعزل ، والاستادار متولى أمر البيوت السلطانية (ناظر الديوان الخاص) . وأمير السلاح كوزير الحربية إليه شؤون الجيش . وكاشف الكشاف كوزير الداخلية إليه مرجع كشاف الأقاليم أو مديريها .

والأحوال . وهذا وجه طريف فى روايته ، فهو لا يلجأ إلى أسلوبه وعباراته الخاصة حيثما كانت هنالك لغة رسمية أو عبارات ذائعة متداولة . فنراه مثلا يتحدث دائماً عما «يرسمه» السلطان من الأوامر ، وعمن «يرسم» بشنقهم أو توسيطهم من الكبراء أو العامة ، وعمن يقضى بإقامتهم فى الترسيم (الإعتقال أو الحجز) لديون أو جرائم ؛ ويذكر فى مواضع كثيرة كيف كان السلطان أو الوالى أو المحتسب يشهر فى القاهرة « المناداة بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء » كلما حدثت فتنة أو سرى إلى الناس جزع أو انزعاج ، ويورد الأوامر والنداءات فى ذلك وغيره بألفاظها الرسمية ؛ وكيف كان ينذر المخالفون دائماً ، « بالشنق بلا معاودة » . كذلك يصف لنا حياة البلاط والمواكب السلطانية وغيرها من المواكب العامة ، وكيف كان السلطان يشق القاهرة ، « فتفرش له الشقق الحرير فى الطريق وترتفع له الأصوات بالدعاء والنصر ، وتنطلق له النساء بالزغاريت من الطيقان » ويشير دائماً إلى شؤون العصر وعاداته الإجتماعية فيصف الحفلات والأعراس والجنائز الشهيرة ، فى عبارات واحدة دائماً كقوله عن حفلة زواج شهيرة : « فكان هذا العرس من الأعراس الحافلة ، قيل اجتمع فيه من المغنيات خمس وعشرون رئيسة ، ومدوا فيه أسمطة حافلة، من الأطعمة الفاخرة ، وصنعوا فيه شموعا مزهرة بين وشامات ، وكان من المهمات المشهورة» . وهكذا . وهى لغة العصر الإجتماعية يوردها ابن إياس دائماً فى مواطنها إلى جانب اللغة الرسمية . ويصف ابن إياس أيضاً الخلع الملوكية ، وثياب الأمراء ، والقضاة والجند ، والخاصة والعامة ، وما يعتورها من تحوير وتغيير ؛ كذلك يصف التقلبات الاقتصادية من غلاء ورخاء ؛ وتغييرات النقد وآثارها فى المعاملات . وعلى الجملة فإنه يصور لنا فى سياق روايته ، مجتمع عصره سواء فى الحياة العامة أو الخاصة ؛ أو فى الخلال والعادات ، والميول والأهواء ، تصويراً قوياً شائقاً .

٢

كانت حوادث الفتح العثمانى آخر ما دون قلم ابن إياس ؛ فهو يصل فى روايته حتى خاتمة سنة ٩٢٨ هـ (١٥٢٢م) . ونحن نعرف أن المؤرخ توفى بعدئذ بقليل (سنة ٩٣٠ هـ) . ورواية ابن إياس عن حوادث الفتح العثمانى هى كما قدمنا أهم وأنفس ما فى أثره ، وإن كان بيانه لم يسبغ عليها كل مايجب من دقة وقوة .

فهو يترك لنا عن هذه الحوادث الشهيرة ، الحاسمة فى تاريخ مصر وتاريخ الإسلام ، سجلا يومياً مسهباً ، يستند إلى تحقيق المعاصرة والمشاهدة . وهو لا يمهد فيه إلى الحوادث ، ولا يعنى بربطها ، بل يدونها مرسلة كما وقعت ؛ ويحصى آثارها إحصاء من رأى وسمع . وما كان لابن إياس أن يمهد أو يكثر التعليق فى رواية انقلاب مفاجئ صعقت مصر لحوادثه السريعة المدهشة ، وقضت من بعده حيناً بين التصديق والتكذيب ، والرجاء واليأس . وكل ما هنالك أن ابن إياس يطلق العنان لشعوره وعواطفه ، بالاستناد إلى الحوادث دائماً ، فنراه يحمل على السفاكين والظلمة فى عبارات شديدة وأحياناً مؤثرة ، ويغتبط بمصرعهم ؛ ويعنى بالتبسط والإفاضة فى سرد فظائع الترك وآثام الفاتح ، ويشيد ببطولة طومان باى آخر الزعماء المدافعين عن حرية مصر ، ويبكى مصرعه ومصرع أعوانه وجنده ، ويرسل عبارات التأثر أو السخط أو الغضب أو الإشفاق كلما عن له ذلك . على أن قصور بيانه كثيراً ما يعجزه عن أن يسبغ على هذه البوادر النفسية كل ما يجب من القوة والوضوح . وهذا القصور فى البيان ينتقص كثيراً من قيمة الرواية التى يخلفها لنا ابن إياس عن حوادث الفتح العثمانى . كان ابن إياس بحاجة إلى بيان كبيان جيبون(١) ليستطيع إخراج الصور التى يقدمها إلينا فى أثوابها الرائعة ، وليصف لنا فظائع الترك فى القاهرة ، وما جنوا على الأنفس والأموال والنظم ؛ كما وصف جيبون بقلمه الجبار فظائعهم فى قسطنطينية ، وما ارتكبوه فيها يوم افتتاحها من شنيع السفك والإثم ، وما جنوا على الحضارة البيزنطية بقية أعظم الحضارات الخالدة . غير أن ابن إياس لم يكن مصوراً بارعاً للحوادث ، ولم يكن بالأخص ناقداً قوى التعليل ، يقرأ فى الحوادث غير نواحيها المادية . ولكن كثيراً من الإفاضة ، وقليلا من التأمل ، وطرفاً من الملاحظة القوية ، تعوض عن هذا النقص فى كثير من المواقف ، وتقدم إلى الناقد مادة لا بأس بها .

وقد بينا كيف أن مصر كانت ترتجف لشبح هذا الفتح قبل وقوعه ، وكيف أن المؤرخ كان يستشعر النكبة . ولكن مصر لم تكن تتوقع أن يسحق استقلالها ومجدها فى لمحة صاعقة . فكانت «مرج دابق» مفاجأة مروعة ، ذهلت لها مصر

---

(١) إدوارد جيبون Gibbon المؤرخ والفيلسوف الانكليزى الشهير (١٧٣٧ – ١٧٩٤) ، مؤلف كتاب « اضمحلال وسقوط دولة الرومان » Decline and Fall of the Roman Empire .

وصعقت . ويبدو أثر هذا الروع واضحاً فى أول صرخة تبدر من المؤرخ فى ذكر النكبة إذ يقول : « وفى يوم السبت سادس عشر شعبان أشيع خبر هذه الكائنة العظيمة التى طمت وعمت وزلزلت لها الأقطار »[١] . ولا غرو فقد خرج السلطان الغورى ، إلى شمال الشام قاصية الحدود المصرية ، بجيشه المزهر ، ليرد عادية الغزاة عن مصر ، فكانت « مرج دابق » قبراً له وقبراً لحريات مصر . يقول المؤرخ : « وزال ملك الأشرف الغورى فى لمح البصر فكأنه لم يكن فسبحان من لا يزول ملكه »[٢] . ويفيض فى تفاصيل الواقعة الهائلة التى نشبت بين الغزاة ، وبين الجيش المصرى فى « مرج دابق » فى الخامس والعشرين من شهر رجب سنة ٩٢٢ هـ (أغسطس سنة ١٥١٦ م) ، وما أوقعه الغزاة بعسكر مصر من سفك ونهب ؛ ويصف صدى النكبة فى القاهرة وكيف « قام نعى السلطان فى ذلك اليوم ونعى الأمراء والأعيان الذين قتلوا . وصار فى كل حارة وزقاق وشارع من القاهرة صراخ وبكاء . . . ورجت القاهرة ، وضجت الناس واضطربت الأحوال وكثر القيل والقال »[٣] . ثم يقف المؤرخ قليلا ليصف الغورى وخلاله ويعدد مثالبه ومآثره ؛ وينظم فى ذلك قوله :

طالعت تاريخ الملوك فلم أرى ... فيما سمعت حوادثا مما جرى
لا زالت الأيام يبدو فعلها ... بعجائب وغرائب بين الورى
لكن هذى وقعة ما مثلها ... تسبقت لسلطان ولا متأمرا
والأشرف الغورى كان مليكنا ... لكنه قد جار فينا وافترى
أعماله ردت عليه بما جنى ... والدهر جازاه بأمر قدرا

ويختتم ابن إياس حديثه عن الغورى وعن عصره وأعماله بإيراد زجل طويل مؤثر لصديقه بدر الدين الزيتونى ، وهو من أشهر أدباء هذا العصر ، وفيه يصف النكبة ، ويرثى الغورى فى مقاطيع مبكية نقتبس منها ما يأتى :

غربت شمس دولة الغورى ... وابن عثمان نجمو طلع ساير
وبهذا رب السما قد حكم ... والفلك دار ولم يزل داير

* * *

---

(١) بدائع الزهور — ج ٣ ص ٤٥ .
(٢) بدائع الزهور — ج ٣ ص ٤٧ .
(٣) بدائع الزهور — ج ٣ ص ٥٢ — ٥٣ .

والعجائب فى قتلة الغورى ‏ راح برجلو لقتلو خاطر
وحسبنا كل الحساب إلا ‏ ما جرى لوما مرّ بالخاطر
دمعة العين منى على الغورى ‏ من دماها تجرى لحزنى عين
أرتجى فى الناس عين تساعدنى ‏ من صباحى حتى تغيب العين
كان عليه ترقب زمان ملكو ‏ والسعاده حتى أصابو عين

* * *

ذى العساكر شبهتها روضة ‏ فيها أغصان فرسان عليها زهور
واللبوس من الحديد تحكى ‏ ورد أحمر بين الرياض منثور
والإمارة تحكى شجر مثمر ‏ فى رياض نشرو غدا عاطر
والمدافع ترمى سفرجل كبار ‏ ولّ رمان يحكى من الفحول فاخر
كم أسلى قلبى على الغورى ‏ وأقلوا يا قلب اتفكر
كل حادث بأمر القديم راحل ‏ والإقامة للأول الآخر

* * *

يا الذى جا يسمع عقود نظمه ‏ خذ وحرر عنّو بديع نقلوا
وإن أتى لك من يطلب التاريخ ‏ والوقائع عن الملوك قُلّو
غربت شمس دولة الغورى ‏ وابن عثمان نجمو طلع ساير
وبهذا رب السما قد حكم ‏ والفلك دار ولم يزل داير(١)

ويتتبع ابن إياس حركات الغزاة بإفاضة منذ « مرج دابق » حتى قدومهم إلى القاهرة فى أواخر ذى الحجة سنة ٩٢٢ هـ (ديسمبر سنة ١٥١٦) . ويصف أهبة السلطان طومان باى لمقاومة الفاتح ، بحماسة ، وينوه « بهمته العالية » فى إعداد وسائل الدفاع ، ويجيد شرح الوقائع الهائلة التى نشبت متعاقبة بين الجيش التركى وعلى رأسه سليم الأول ، وبين الجيش المصرى وعلى رأسه طومان باى والمماليك ، وكيف عبس القدر لمصر وجيشها ، فهزم طومان باى مراراً فى أنحاء القاهرة وضواحيها ؛ ولكنه استمر فى دفاعه جلداً مستبسلا حتى انفض عنه معظم أنصاره وجنده ، ففر إلى الصعيد يجمع هنالك أشتات جيشه وأهباته . وانقض الغزاة البرابرة على القاهرة كالضوارى المفترسة ، فأوقعوا فى سكانها السفك الذريع ،

(١) راجع هذه القصيدة المبكية بأكلها — ج ٣ ص ٦٤ — ٦٨ .

وأمعنوا فى الآدميين قتلا وعيثاً وهتكاً ونهباً ، ودامت هذه المذبحة الهائلة أياماً أربعة من ثامن المحرم سنة ٩٢٣ (أوائل فبراير سنة ١٥٩٧) . ويصفها ابن إياس « بالمصيبة العظمى التى لم يسمع بمثلها فيما تقدم من الزمان » ويقول : « إن الجثث كانت مرمية فى الطرقات من باب زويلة إلى الرميلة ، ومن الرميلة إلى الصليبة ، إلى قناطر السباع ، إلى الناصرية ، إلى مصر العتيقة » ويقدر القتلى بأكثر من عشرة آلاف ، ويقدر من قتل من المماليك فقط بثمانمائة . ولكن هذا التقدير متواضع جداً ، إذ يقدر البعض ضحايا هذه الجريمة الشائنة بخمسة وعشرين ألفاً . ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك حتى أمر سليم الأول بإعدام الأمراء المماليك ، وكان قد احتال عليهم ووعدهم بالأمان حتى ظهروا ، وعددهم أربعة وخمسون أميراً وقائداً. وقبض على نسائهم وفرض عليهن الغرامات الفادحة . ثم كانت الموقعة الأخيرة والفاصلة فى السادس من ربيع الأول (أبريل سنة ١٥١٧) بين الغزاة ، وجيش طومان باى ؛ فان هذا الأمير الجلد الشجاع عاد بقواته على مقربة من الجيزة يحاول مرة أخرى إنقاذ الوطن من براثن الوندال ، ولكن القدر ظل على عبوسه له ، فهزم للمرة الخامسة ، وغاض كل أمل فى إنقاذ حريات مصر واستقلالها ، وظفر الفاتح بعد ذلك بطومان باى ، وأمر بإعدامه ، فشنق على باب زويلة أمام أعين ذلك الشعب الذى كان مليكه قبل ذلك بأشهر قلائل ، والذى أحبه وقدر خلاله . ويرثيه المؤرخ فى قوله : « صرخت الناس عليه صرخة عظيمة ، وكثر عليه الحزن والأسف . وكان شجاعاً بطلا تصدى لقتال ابن عثمان وثبت وقت الحرب بنفسه ، وفتك فى عسكر ابن عثمان وقتل منهم ما لا يحصى ، ووقع منه فى الحرب أمور لم تقع من الأبطال العناترة ... وقاسى شدائد ومحناً وحروباً وشروراً وهجاجاً ... ولم يسمع بمثل هذه الوقعة فيما تقدم من الزمان أن سلطان مصر شنق على باب زويلة قط ، ولم يعهد مثل هذا .

لهفى على سلطان مصر كيف قد ولى وزال كأنه لن يذكرا[1]

ولبث سليم الأول فى القاهرة زهاء ثمانية أشهر ، يذيق وجنده ، المصريين أشنع ألوان السفك والظلم والمصادرة ، ويجمع من تراث مصر وثرواتها الفنية كل ما وصلت إليه يده ، ويخرب المساجد والآثار الخالدة لينتزع منها نفائسها الفنية ،

(١) بدائع الزهور — ج ٣ ص ١١٥ .

ويبعث بها إلى قسطنطينية ؛ ويقبض على أكابر مصر وزعمائها ، وعلمائها ، ورجال المهن والفنون فيها ، ومهرة الصناع والعمال ، ويحشدهم أكداساً فى السفن ويبعث بهم إلى قسطنطينية ؛ وكان فى مقدمة هؤلاء المتوكل على الله آخر خلفاء بنى العباس بمصر وأفراد أسرته ، وجماعة كبيرة من الأمراء والقواد والقضاة . وكان الفاتح يرمى بذلك إلى غرضين : الأول تجريد مصر من أكابرها وزعمائها ليحطم بذلك عصبيتها ، ويقتل قواها المعنوية ؛ والثانى نقل تراث مصر الفنى والفكرى والصناعى إلى قسطنطينية . ويقول ابن إياس فى ذلك : « وكانت هذه الواقعة من أبشع الوقائع المنكرة التى لم يقع لأهل مصر قط مثلها » ويعقد فصلا خاصاً يذكر فيه أسماء كل من نفى إلى قسطنطينية من أكابر مصر وأعيانها ومفكريها وفنانيها[1] ، ويختتم هذه الوقائع كلها بقصيدة طويلة من نظمه هذا مطلعها :

نوحوا على مصر لأمر قد جرى   من حادث عمت مصيبته الورى

زالت عساكرها من الأتراك فى   غمض العيون كأنها سنة الكرى

ويفيض المؤرخ فى أعمال الفاتح وجوره ، وما أصاب شعب مصر من بطشه وعسفه حتى مغادرته مصر ، ثم يتتبع أخباره بعد ذلك حتى وفاته عام ست وعشرين وتسعمائة (١٥٢٠ م) ، ويترجمه بهذه المناسبة ، ويرثيه بأبيات من نظمه[2] .

ومن الغريب أن ابن إياس يبدى فى عواطفه نحو الفاتحين تردداً واضطراباً ، فبينما يحمل على سليم الأول ، ويعدد جرائمه ومثالبه فى حق وطنه ، إذا به يلقبه بالملك المظفر ، ويترحم عليه حين يذكر نبأ وفاته ، ويدعو بالنصر لولده وخلفه سليمان . ومن الصعب أن نضبط عواطف المؤرخ فى هذا الموقف ، وفى كثير

---

(١) بدائع الزهور ج ٣ ص ١١٩ .

(٢) تستوقف النظر هنا إشارة بدرت من المؤرخ ، فهو يحيل القارى فيما ارتكبه سليم الأول فى مصر إلى كتاب له يسميه بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، وذلك فى قوله : « ومن أراد أن ينظر ما وقع منه بالديار المصرية فلينظر إلى الجزء الخامس من تاريخنا « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » (ج ٣ ص ٢٣٤) ووجه التساؤل هنا ، هو أن مؤلف إياس فى تاريخ مصر ، وهو الذى ندرسه فى هذا الفصل ، يسمى بهذا الاسم أعنى « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » فهل تكون هذه التسمية خطأ ، وهل يكون «بدائع الزهور » هذا مؤلف آخر لابن إياس غير الذىوقع فى يدنا وعرف بهذا الاسم ؟ على أنا نرجح أن « بدائع الزهور » الذىيشير إليه المؤرخ إنما هو المطول لمؤلفه ، لأن النص الذى نشرته مطبعة بولاق قد نقل كما قدمنا عن مختصرات فقط لتاريخ ابن إياس .

غيره ؛ ومن الصعب أيضاً أن نتعرف حقيقة المؤثرات التى ربما دفعت قلم المؤرخ عما قد يخالف حقيقة عواطفه ؛ فلعله وهو كما رأينا ينحدر من أصل شركسى أو تركى ، يتأثر هنا بنوع من عصبية الجنس . ومن جهة أخرى ، فقد كان ابن إياس يدون روايته فى عهد اضطراب وفتنة ، وربما كان هذا التردد بين المديح والذم ، نوعاً من حرية التقدير عند ابن إياس ، فهو مثلا لا يحجم عن الحملة على مواطنيه ووصفهم بأنهم « ليس لهم عقول يصدقون بالمحالات الباطلة » .

هذه هى رواية ابن إياس عن حوادث الفتح العثمانى ، وهى وثيقة تستمد نفاستها ، رغم ضعف بيانها ، من المعاصرة والمشاهدة . بيد أنه يجب ألا نبالغ فى مدى هذه المشاهدة ، فان ابن إياس لم يكن جندياً يخترق الصفوف ، ولم يكن من رجال الدولة أو القادة . والظاهر أيضاً أنه كان قليل الطواف والتنقل فى تلك الأيام العصيبة التى دون حوادثها ، فهو مثلا لم يحاول أن يرى سليما الأول رغم إقامته فى القاهرة عدة أشهر ؛ وهو لذلك يعتمد فى وصف شخصه على صديق له رآه . ولا غرو فقد كان ابن إياس فى ذلك الحين شيخاً يجاوز السبعين ، وربما لحقته أو صاب المرض . غير أن ابن إياس كان أديباً ومفكراً كبيراً ، يتصل بأكابر عصره ، وكان فى وسعه أن يتحرى من المصادر والجهات المطلعة ، وكان يشهد بعينه كثيراً من المناظر والآثار المادية لما يدون من الحوادث ، ومن ثم كانت أهمية روايته ونفاستها . بل إن المؤرخ لا يملك نفسه أن يهتف لنفسه فى خاتمة مؤلفه ، وأن يملق نفسه بأنه « وقع له فيه من المحاسن ما لم يقع لغيره من المؤرخين » ، وأن :

« تاريخنا بهجة المجالس　　　يطرب من لفظه المجالس
سماعه للورى سرور　　　يشرح صدراً لكل عابس »

أما نحن فنرى فى رواية ابن إياس ، وما يسرده من حوادث هذا الفتح الوندلى ، وفى ذلك الاستشهاد الطويل المروع الذى عانته مصر تحت النير التركى الغاشم ، درساً قومياً خالداً عميق الأثر ؛ ومثلا حياً ساطعاً لسياسة السفك والتخريب الآثمة ، التى وصمت إلى الأبد ذكرى الوندال والهون والتتار ، ومن إليهم من الشعوب البربرية الغازية ؛ ونبراساً مستنيراً لفهم نفسية هذه الشعوب الهدامة ، وتقدير مجدها الذى لم يقم إلا على اجتياح الشعوب والمدنيات الزاهرة .

الفصل التاسع

مصر فى خاتمة القرن السابع عشر

كما رآها العلامة عبد الغنى النابلسى

ليس فى تاريخ مصر الإسلامية أغمض من العصر التركى ، بل نستطيع أن نقول إن ليل الإسلام ، وليل الأمم العربية والإسلامية كلها ، يبتدئ بابتداء العصر التركى . وبينما نرى تاريخ مصر الإسلامية زاهراً وضاء قبل الفتح التركى ، إذا بستار كثيف من الغموض والظلمات ينسدل من بعده على هذه العصور المجيدة ، وإذا بالانحلال والفساد والفوضى تغمر ذلك المجتمع الزاهر الذى لبث قروناً يسطع خلال العصور الوسطى . وفى هذا المرحلة الغامضة المؤسية من تاريخ مصر ، لا نظفر بكثير من المواد أو المصادر التى تلقى كبير ضوء على المجتمع المصرى ، ولايدون المؤرخ غير تعاقب الولاة الترك ، ولا يكاد يروى لنا شيئاً من الأحداث العظيمة ، أو الحوادث الشائقة ، اللهم إلا فى أواخر هذا العصر ، حينما تستيقظ الحركة القومية المصرية من سباتها الطويل ، وينزع الزعماء المماليك إلى تحطيم نير الأجنبى ، ثم تمهد الحملة الفرنسية لانهيار الحكم التركى ، وبزوغ العصر الحديث

بيد أننا نستطيع أن نتتبع أحوال المجتمع المصرى فى تلك المرحلة على يد جمهور من الأدباء والرحل الذين وفدوا على مصر فى تلك العصور سواء من الشرق أو الغرب . وقد انتهت إلينا طائفة من مشاهداتهم التى دونوها فى رحلاتهم ، وهى وثائق لها قيمتها فى الكشف من بعض نواحى المجتمع المصرى فى هذا العصر ثم هنالك أنفس آثار هذه المرحلة اطلاقاً ، وهى مذكرات الجبرتى التى تلقى أعظم ضياء على تاريخ مصر والمجتمع المصرى ، فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر .

وقد رأينا أن نستعرض مشاهدات أولئك الرحل كلما سنحت الفرص ، وأن نستخرج من آثارهم ما يفيد فى تعرف أحوال المجتمع المصرى فى تلك المرحلة . وسنبدأ فى هذا الفصل باستعراض رحلة علامة وأديب دمشقى وفد على مصر فى

خاتمة القرن السابع عشر ، وترك لنا عن رحلته فى مصر أثراً يدون فيه بعض الملاحظات المفيدة عن المجتمع المصرى فى ذلك العصر .

ذلك الرحالة هو الفقيه والعلامة الصوفى الشهير عبد الغنى النابلسى ، وهو شخصية غريبة تستحق الدرس . بيد أننا نكتفى هنا بترجمته بإيجاز . فهو عبد الغنى ابن إسماعيل بن عبد الغنى بن إسماعيل بن أحمد النابلسى الحنفى الدمشقى النقشبندى القادرى . وينعت بشيخ الإســلام وأستاذ الأساتذة . ولد بدمشق فى سنة ١٠٥٠ هـ (١٦٤٠ م) ، ودرس القرآن والحديث والفقه والنحو ، وقرأ على أعظم شيوخ العصر فى دمشق ، وانتظم منذ فتوته فى الطريقة القادرية ، ثم الطريقة النقشبندية . وانكب على قراءة الأدب الصوفى ولا سيما آثار محيى الدين بن عربى ، وتولى التدريس حيناً بالجامع الأموى ؛ وحمله تيار التصوف فى شبابه إلى نوع من الشذوذ والهيام ، فلزم داره مدى أعوام ، وأطلق شعره حتى تدلى على كتفيه ، وأطلق أظافره ، وصارت تعتريه نوبات من الذهول حتى ظن أنه جن ، ورماه خصومه بالزندقة ، واشتدت الحملة عليه ، ولكنه تغلب على خصومه ، وضاعفت المحنة هيبته وشهرته . وكان مغرماً بالسياحة ، فسافر إلى استانبول أو دار الخلافة كما كانت تسمى يومئذ ، سنة ١٠٧٥ هـ (١٦٦٤ م) ، ومكث بها حيناً ، ثم طاف بالشام وثغوره ، ورحل بعد ذلك إلى مصر والحجاز ، وانقطع للتدريس منذ سنة ١١١٥ هـ ، وهو فى الخامسة والستين من عمره ، وأقام فى أواخر حياته بالصالحية على مقربة من دمشق ، وعلا قدره وطار صيته ، وتوفى سنة ١١٤٣ هـ (١٧٣٠ م) ، وقد أربى على التسعين من عمره ، ودفن بالصالحية ، وقبره يعتبر مزاراً يتبرك به إلى اليوم .

وكتب النابلسى عدة كبيرة من الكتب والرسائل فى التفسير والحديث والفقه والتصوف ، وقد اشتهر بالأخص ببديعيته فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى المسماة « نسمات الأسحار ، فى مدح النبى المختار » . وله شرح لديوان ابن الفارض ، ومنظومة فى تاريخ ملوك بنى عثمان . ودون رحلة عن الشام ومصر والحجاز فى سفر كبير أسماه « الحقيقة والمجاز » وبلغت مؤلفاته ورسائله أكثر من مائة ، اشتهر الكثير منها فى أنحاء العالم الإسلامى(١) .

---

(١) راجع فى ترجمة عبد الغنى النابلسى وذكر مؤلفاته : سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر (ج ٣ ص ٣٠ وما بعدها) . وكذلك الجبرتى ج ١ ص ١٥٩ .

كانت أمنية الحج باعث الرحلة الكبيرة التى قام بها عبد الغنى النابلسى سنة ١١٠٥ هـ (١٦٩٣ م) فى الشام ومصر والحجاز ، وهو يخصص لهذه الرحلة كما قدمنا سفراً خاصاً عنوانه « الحقيقة والمجاز فى رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز » ولدينا منه بدار الكتب نسخة خطية جميلة»[1] ، وينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام ، يخصص القسم الأول منه لرحلة الشام وفلسطين ، والثانى للرحلة المصرية ، والثالث لرحلة الحجاز . ويدون النابلسى رحلته بطريقة اليوميات ، فيذكر تنقلاته وزياراته ومشاهداته ، ويستطرد فى أحيان كثيرة إلى ذكر النبذ التاريخية والأدبية . وقد بدأ رحلته من مدينة دمشق فى غرة المحرم سنة ١١٠٥هـ (٢ سبتمبر سنة١٦٩٣) وطاف أولا بمدن الشام وثغوره ، ووصل إلى الحدود المصرية حسبما يذكر فى يومياته ، فى اليوم الثالث بعد المائة من بدء الرحلة ، وذلك فى ١٤ ربيع الثانى سنة ١١٠٥ ، ودخل مدينة القاهرة من باب الشعرية فى ٢٤ ربيع الثانى (أواخر ديسمبر سنة ١٦٩٣) وهو يحييها بإعجاب وحماسة ، كما حياها من قبل جميع الأعلام الوافدين عليها من المشرق والمغرب ، ونزل ضيفاً على صديقه الشيخ شاهين ابن فتح الله حيث أفرد له داراً خاصة ملاصقة لداره ، ورتب له بها كل ما يلزم لراحته ورفاهيته . وكان أول من استقبله من أعيان مصر ، عميد السادة البكرية السيد زين العابدين البكرى ، فزاره بداره الواقعة على بركة الأزبكية . ويشير النابلسى إلى فخامة هذه الدار ، وروعة مجلسها المنيف المطل على البركة ، ويصف البركة الشهيرة « ذات الروح والريحان التى فيها نفحة من نفحات الجنان » ، ثم يصف الحمام المجاور لدار البكرية ، وبه جناح خاص لا يدخله سوى السيد . وقد دعاه إليه ، وتمتع بالاستحمام فيه . وكان والى مصر التركى يومئذ على باشا خازندار واليها من قبـــل السلطان أحمد خان (١٦٩٠ — ٩٤) ، فاستصحبه السيد البكرى لزيارته بمنزله بالقصر العينى المطل على النيل ، وكانت لمضيفه السيد شاهين علاقة صداقة بالوزير (الوالى) فكان يدعوه لمنادمته ، ويذهب النابلسى معه إلى مجلس الباشا ، فيقضيان فى زيارته أوقاتاً طويلة .

وزار النابلسى المحكمة وقاضيها التركى عارف أفندى ، وأعجب بضخامتها وبساتينها اليانعة . وزار مراد بك المصرى ، وهو من أعيان الصناجق المصرية ،

---

(١) تحفظ هذه النسخة برقم ٢٤٤ جغرافيا .

بقصره الفخم فى « سبيل علام » على قيد ساعتين من القاهرة . وينعته « بفخر الأكارم والأماجد » . وقد أعجب النابلسى بفخامة مجالس أعيان المصريين وبذخها وحسن روائها ، وكانت تجهز بالأنوار الساطعة من قناديل وشموع ، وتطلق فيها مباخر العود والعنبر ،وينتظم فيها أهل الفن ، ويوقعون نغماتهم الساحرة على الجنك والعود والرباب ، وتنشد فيها القصائد الغراء ، وبالجملة فقد كانت مجالس السحر والطرب والسمر الرفيع .

ويصف النابلسى جزيرة الروضة وجمالها ، والمقياس وعجائبه ، وجامع عمرو وفخامته ، ثم قلعة الجبل ، وقد كانت مركز الوزير التركى « الوالى » ، وبها ديوان العساكر ، ويصف لنا المؤرخ بئر « الحلزون » الشهيرة ، التى أنشأها السلطان الغورى لاستخراج الماء من أعماق الأرض ، وقد شهد البقر تدور فيها على عمق سحيق ، وكان بالقلعة يومئذ عدة من السرايات والجوامع والمساجد والحمامات وكأنها مدينة مستقلة ، وأبراجها العظيمة مما يلفت الأنظار ، وكان بها مصنع خاص لعمل الكسوة النبوية ، وعمل السجاد للحرم الشريف .

ثم يحدثنا الرحالة عن الجامع الأزهر ، وعن شيخه وهو يومئذ الشيخ منصور لمنوفى الشافعى الضرير ، وكان يكثر من زيارته ، ويجتمع بأساتذته وطلابه ، ويستمع لبعض ما يلقى فيه من الدروس . ويقول لنا النابلسى إن طلبة الأزهر وجوه فى إلقاء بعض دروس فى الحديث ، فاعتذر إليهم ، وكانوا يجتمعون حوله ، ويلتمسون بركته، وهو يبكى تأثراً .

وكان الرحالة كثيراً ما يمر فى غدواته وروحاته بباب زويلة، وقد كان يومئذ مخرج القاهرة القديمة من الجنوب ، ولم يفته أن يصف محلة زويلة وما كان يجتمع بها يومئذ من أرباب الملاعب والسمياء ، وهم طائفة المهرجين والحواة الذين لم ينقرض نسلهم إلى يومنا .

على أن أهم ما عنى به الرحالة هو زيارته للقرافه ومزاراتها ، وقد كانت الفسطاط ما تزال مجمع المقابر والمزارات الفخمة ، تتوسطها مقبرة الشافعى الخالدة ، وكان النابلسى كما رأينا من أقطاب الصوفية الذين تستهويهم ذكريات القبور والمزارات المشهورة ، ومن ثم نراه يفيض فى وصف زياراته للقرافة ، ومقابر الفسطاط التاريخية ، ولا سيا مقبرة الشافعى ، وهو ينوه بعظمتها وسحرها ،

ويترحم لمن يأتى ذكرهم من العلماء والأولياء ، ثم يصف زيارته لمزار وليه المصطفى ابن الفارض بجامع القرافة ، كما يصف لنا حلقات الذكر الصوفى الذى تنشد فيه القصائد والأناشيد المؤثرة ، ويقول لنا إنه شهد الأولياء أحياناً يأخذهم التأثر ، فيمزق بعضهم ثيابه ، أو يدوس الناس هائماً على وجهه لا يلوى على شيء .

ولبث النابلسى بالقاهرة ثمانين يوماً حتى اقترب موعد السفر إلى الحج ، فقابل أمير الحاج المصرى إبراهيم بك ، واستشاره فى خير الوسائل للسفر الأمين ، وبذل أمير الحج له ما استطاع من النصح والمعونة ، وأعد النابلسى عدته للسفر ، وودع أصدقاءه فى مظاهرة مؤثرة ، وغادر القاهرة فى السادس من رجب (سنة ١١٠٥) فى ركب من المصريين والشاميين ، وغادرها من باب الشعرية كما دخلها ، وودع الوزير خارج القاهرة بقصره بالعادلية . وإلى هنا تنتهى رحلته المصرية .

وإذا كان النابلسى لم يعن كثيراً بدراسة أحوال المجتمع المصرى يومئذ ، ولم يقدم إلينا عنه بيانات شافية ، فإنه يقدم إلينا بيانات وملاحظات لها قيمتها فى دراسة المجتمع المصرى فى خاتمة القرن السابع عشر ، ولعل أنفس ما فيها أقواله عن معالم القاهرة ومعاهدها ، فهذه الأقوال فى ذكر أبواب القاهرة ، وبركة الأزبكية وجزيرة الروضة ، والمزارات الشهيرة وغيرها ، مما يفيد فى تعرف خطط القاهرة فى هذا العصر ، وهى تعتبر حلقة فى مجموعة الآثار التى لدينا عن الخطط . ثم إن أحاديثه عن أعيان القاهرة وعن مجالسهم ، من الصور التى لها قيمتها فى تعرف مجتمع هذا العصر . ولنذكر أن العصر الذى يحدثنا عنه النابلسى يسبق بداية العصر الذى يحدثنا عنه الجبرتى بنحو خمسين عاماً فقط ، ومن ثم فنى وسعنا أن نصل بين المواد المشتركة فى هذين الأثرين ، فى دراسة المجتمع المصرى فى القرن الثامن عشر .

الفصل العاشر

مصر فى أواخر القرن الثامن عشر

كما يصفها الرحالة سـافارى

كانت مصر خلال العصور الوسطى كعبة لطائفة كبيرة من الرحل والباحثين ، يفدون عليها من المشرق والمغرب ، تجذبهم عظمتها وآثارها وعلومها وفنونها . وقد ترك لنا كثير من هؤلاء الرحل آثاراً قيمة عن مصر وأحوالها فى مختلف العصور . ونستطيع أن نذكر من هؤلاء ، ابن حوقل ، وعبد اللطيف البغدادى ، وابن بطوطة ، والبلوى ، وابن خلدون ، من الرحل والعلماء المسلمين. ومركوبولو ، ودى چوانفيل ، وبيترو مارتيرى من الرحل الغربيين. ولم ينقطع ورود هذا الرهط من الرحل بعد الفتح العثمانى ؛ بل نلاحظ بالعكس أن الرحل والباحثين الغربيين يفدون على مصر منذ القرن السابع عشر فى فترات متقاربة ، ويضعون عنها المؤلفات والبحوث المطولة . ولدينا منهم فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ثبت حافل ، ولدينا من آثارهم مجموعة نفيسة من الوثائق والصور عن مصر فى هذه الفترة . وإذا كان العصر العثمانى من أغمض عصور التاريخ المصرى وأشدها ظلاماً ، فإن هذه المجموعة من آثار الرحل الغربيين ، تعتبر أهم مراجعنا فى دراسته وتصويره .

بيد أنه مما تجدر ملاحظته هو أن القرن الثامن عشر ، كان بالنسبة للدولة العثمانية ، فترة انحلال وضعف ، فقد كانت قواها العسكرية تنهار تحت ضربات روسيا القوية ، وكانت الاضطرابات والمتاعب الداخلية تقوض من صرحها القديم الشامخ . وكانت مصر فى ذلك الحين قد أخذت تتحرك من سباتها الطويل ، وتترقب الفرص لتحطيم ذلك النير الغاشم ، الذى يعصف بقواها المادية والروحية منذ قرنين . وفى منتصف القرن الثامن عشر ، استطاع زعماء مصر ، بقية الأمراء من المماليك الشراكسة ، أن يستردوا نوعاً من الاستقلال المحلى ، وأن يبسطوا حكمهم الفعلى على مصر ، وأن يجعلوا سلطة الدولة العثمانية اسمية رمزية فقط . وتعاقب

فى حكم مصر منهم عدة ، بدأت بابراهيم بك ورضوان بك ، ثم على بك الكبير فمحمد بك أبى الذهب ، فمراد وإبراهيم . على أن هذا الحكم الداخلى المستقل ، كان نوعاً من المغامرة التى لا تستند إلى قوة مادية يخشى بأسها ، أو تأييد شعبى حقيقى ، وكانت مصر عاجزة عن مواجهة الأخطار الخارجية دون معاونة الدولة العثمانية . ففى تلك الفترة التى انهارت فيها قوى الدولة العثمانية ، والتى تركت مصر فيها مفتحة الأبواب دون حماية حقيقية ، نرى ثبتاً من الرحل الغربيين يفدون عليها فى فترات متقاربة ، ويدرسون أحوالها وشئونها بعناية ودقة ؛ وكان جل هؤلاء الرحل من الفرنسيين والإنجليز . فهل كان مقدمهم إلى مصر فى تلك الظروف أمراً عرضياً ؟ وهل كانوا طلاب سياحة وثقافة ودرس فقط ؟ أم كانوا طلائع الاستعمار الغربى المتوثب يومئذ ، قدموا إلى مصر يجوسون خلالها ، ويتفقدون شئونها وأسرارها تمهيداً لمشاريع يجيش بها هذا الاستعمار ؟ يلوح لنا أن هذه الرحلات والدراسات المستفيضة ، لم تكن بريئة كل البراءة ، ولم تكن بعيدة كل البعد عن وحى الاستعمار ومشاريعه ، ولقد ألفى الاستعمار فى هذه الدراسات كل ما يرغب فى معرفته عن مصر ، وعن أحوالها الاقتصادية والسياسية وبالأخص عن قواها الدفاعية . وفى خاتمة القرن الثامن عشر دبر الاستعمار الأوربى أول مشاريعه لافتراس مصر ، وجاء بونابرت إلى مصر تحدوه أحلام إمبراطورية عظيمة ، كان يعتقد أنه يستطيع أن يتخذ مصر قاعدة لتحقيقها .

وكان فى مقدمة الرحل الذين قدموا إلى مصر قبل الفتح الفرنسى بقليل رحالة ومستشرق فرنسى ، ترك لنا عن مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، أثراً من أنفس الآثار وأقيمها . وكان هذا الرحالة العلامة هو : كلود إتيان سافارى (Savary) الذى قدم إلى مصر فى سنة ١٧٧٦ م ، تحدوه أحلام مشرقية باهرة . وكان مولده فى ڤترى سنة ١٧٥٠ ، ودرس دراسة جامعية حسنة فى رِن وباريس ، وكان فى السادسة والعشرين من عمره حينما اعتزم الرحلة إلى المشرق ، يجذبه بهاء المشرق وروعته . وقضى فى مصر ثلاثة أعوام طاف خلالها أرجاء الديار المصرية من شرقها إلى غربها ، ومن شمالها إلى جنوبها ، وزار جميع معالمها ومعاهدها وآثارها ، ودرس جميع أحوالها وشئونها ومجتمعاتها ، ودرس اللغة العربية والدين الإسلامى ، ثم زار الجزر اليونانية ، وعاد إلى فرنسا سنة ١٧٨١ ، بعد غيبة دامت خمسة

أعوام ، ووضع عن رحلته ودراساته فى مصر طائفة من الرسائل المستفيضة ملأت ثلاثة مجلدات ونشرت بين سنتى ١٧٨٥ و ١٧٨٩ ، ثم نشر ترجمة حسنة للقرآن ، وأتبعها بكتاب فى تفسير قواعد الدين الإسلامى تحت عنوان **Morale de Mahomet** وترجم بعض قصص ألف ليلة وليلة إلى الفرنسية ، ووضع أجرومية للغة العربية والعامية ظهرت بعد وفاته . وتوفى فى باريس سنة ١٧٨٨ ، وهو دون الأربعين .

* * *

كان ساڤارى إذاً رحالة من طراز خاص ، أعدته مواهبه ومعارفه للقيام بدراسات حسنة فى بلاد المشرق . فقد درس اللغة العربية ، وعرف تاريخ المشرق ، وعرف كثيراً عن الإسلام والشريعة الإسلامية ، ومن ثم كانت رسائله عن مصر تمتاز بطابع من الدقة ، لانجده فى كثير من الكتب والدراسات المماثلة . وهو يقدم إلينا هذه الرسائل تحت عنوان **Lettres sur L'Egypte** ، ويصف لنا محتوياتها فيما يأتى : « بها وصف لخلال أهل مصر القديمة والحديثة ، ووصف لنظم الدولة ، وأحوال التجارة والزراعة ، وغزو القديس لويس لدمياط منقول عن چوانڤيل والروايات العربية ، ومعها خرائط جغرافية » . ويهدى ساڤارى كتابه إلى « صاحب السمو أخى الملك ... لما أسبغه عليه من مؤازرة مكنته من نشر رسائله ، وإنه لشرف عظيم أن يتوجها باسم مولاه ... » . ويوجه رسائله إلى هذا الأمير أخى الملك ، وقد كان ملك فرنسا يومئذ هو لويس السادس عشر ، وأخوه الدوق دورليان . ويبدو مما كتبه ساڤارى فى رسالته الأولى ، أن الأمير المشار إليه هو الذى نصحه عند سفرة ، أن يدرس أحوال المجتمعات التى اعتزم زيارتها ، وخلالها ، وعاداتها ، ولغاتها .

وقد كان لآثار مصر الفرعونية وذكرياتها القديمة فى نفس ساڤارى أعظم الأثر ، وهو يعرب لنا فى مقدمته عن عظيم إعجابه بذلك التراث الباهر ، ويقول لنا : « إن من يرى الآثار التى تحتفظ بها مصر يستطيع أن يتصور أى شعب هذا الذى تحدت صروحه أحداث الزمن . فهو لم يكن يعمل إلا للخلود ، وهو الذى أمد هوميروس وهيرودوت وأفلاطون بكنوز معارفهم التى أسبغوها على بلادهم . وإنه لمن الأسف أن العلم لم يستطع بعد أن يكشف عن أسرار النقوش الفرعونية (الهيروغليفية) التى تغص بها هذه البلاد الغنية . فمعرفة هذه الأسرار تلقى ضياء

على التاريخ القديم ، وتبدد الظلمات التى تكتنف عصور التاريخ الأولى » . وقد تحققت أمنية سافارى بعد ذلك بقليل ، إذا كتشف حجر رشيد ، ووقف العلم على أسرار اللغة الفرعونية ، وبدأت البحوث الأثرية بين الأطلال والآثار الفرعونية تكشف تباعاً منذ أوائل القرن التاسع عشر ، عن روعة هذه المدنية الفرعونية الباهرة ، التى ما زالت هياكلها وآثارها العظيمة ، مدى العصور مثار الإعجاب والإجلال والتقدير .

* * *

يبدأ سافارى رسائله عن مصر من الإسكندرية فى ٢٤ يوليه سنة ١٧٧٧ ، بعد أن مكث فى مصر أكثر من عامين ، ويوجهها جميعاً إلى هذا الأمير الذى يهدى إليه كتابه . ويستهلها بوصف جامع لجغرافية مصر ، ثم وصف بديع لمدينة الإسكندرية وآثارها الرومانية ، ويستعرض بعد ذلك حوادث الفتح العربى ، ودخول الإسكندرية فى ظل الحكم الإسلامى ، ويعطف على قصة مكتبة البطالسة الشهيرة ، وينقل خرافة إحراقها بأمر عمر عن بعض الروايات العربية . ويبدو مما يكتبه سافارى أن الإسكندرية كانت فى أواخر القرن الثامن عشر ، لا تزال تحتفظ بقسط من عظمتها القديمة وتجارتها الزاهرة ، برغم الأحداث الكثيرة التى مرت بها . وكان مما أثار اهتمام الرحالة بنوع خاص ، منظر عمود السوارى ، وما يحيط به من الأسرار المغلقة ، والمسلات التى كانت تسمى يومئذ « إبرة كليوباترة » والمقابر الرومانية أو كما يسميها مدينة الأموات .

ولم يفت سافارى أن يلاحظ آثار الفتح العثمانى المخربة ، فهو قد درس تاريخ مصر الزاهر فى عهد الدول الإسلامية ، واستطاع أن يقدر مما شهده يومئذ من أحوال مصر ، تلك النتائج المحزنة التى انتهت إليها بعد قرنين ونصف من حكم غشوم عاسف جاهل . وهو يقول لنا بحق ، إن الفتح التركى كانت خاتمة لمجد مصر ، وأن حكم الباشوات قضى على العلوم والآداب ، وخرب التجارة والصناعة والزراعة ، وأسبغ حجاباً من العفاء الشامل على كل ما كان لمصر الإسلامية من عظمة ورخاء .

ثم ينتقل سافارى من الإسكندرية إلى رشيد ، ويقضى بها ردحاً من الزمن ، ويصف لنا رشيد وأهلها ، وأحوالها الإقتصادية والاجتماعية فى عدة رسائل شائقة

ويقول لنا إن الحياة فيها ساحرة مغرية ، وإن لأهلها أزياء خاصة ، وأنهم يقصون الشعر ، ويرسلون اللحى . ثم يقصد بعد ذلك إلى القاهرة فى مركب شراعى ، ويخترق فرع رشيد ماراً ببعض القرى الشهيرة يومئذ مثل برمبال ومحلة أمير ويصف لنا هذه الرحلة البطيئة الشائقة ، ويصف لنا بالأخص منظر القرويات على الشاطئ ، وكيف يهرعن إلى النهر لأخذ الماء وغسل الثياب ، والاستحمام أحياناً ، وكيف شهد كثيراً منهن يسبحن فى النهر نحو المركب ، وهن يصحن « يا سيدى هات ميدى »[1]، ويقول لنا فى لغة شعرية ، إنهن يسبحن فى كثير من الظرف ، وإنهن يتمتعن بأجسام رشيقة ساحرة ، وبشرة سمراء بديعة .

وفى هذه المواطن وأمثالها ، تبدو براعة سافارى الوصفية ، وتبدو قوة بيانه ، والواقع أن سافارى يكتب بأسلوب رفيع ، سواء من الناحية العلمية أو الناحية الأدبية ، ولا يفوته أن يقدم إلينا خلال وصفه كثيراً من المقارنات التاريخية والأدبية الشائقة ، وهو من هذه الناحية يتفوق على كثير من الرحل الذين كتبوا عن مصر ، كما أن رسائلة تمتاز كما قدمنا بطابعها العلمى الدقيق .

وسنرى عند ما يتم سافارى رحلته النيلية ، ويصل إلى مدينة القاهرة أى صور قوية شائقة يقدمها إلينا هذا الرحالة العلامة عن حياة العاصمة المصرية والمجتمع المصرى فى أواخر القرن الثامن عشر ، وسنرى أى وثيقة نفيسة تقدمها إلينا رسائله ، عن تاريخ مصر السياسى والاجتماعى والاقتصادى ، فى هذه الفترة المضطربة التى تعز مصادرها ووثائقها .

٢

أشرف سافارى على القاهرة بعد رحلة ممتعة فى النيل ، فلم ترقه العاصمة ، ولم تبهره مناظرها ، كما بهرته مناظر الإسكندرية . ذلك أن القاهرة التى كانت خلال العصور الوسطى أعظم مدن الإسلام ، انتهت فى أواخر القرن الثامن عشر إلى مدينة متواضعة تحيط بها التلال والخرائب . ويصف لنا سافارى خطط العاصمة المصرية يومئذ ، وضيق شوارعها وأزقتها ؛ ولكن القاهرة كانت مع ذلك تلفت النظر بمساجدها الثلاثمائة ، وقلعتها التاريخية المنيفة . ويقدم إلينا سافارى عن القلعة

---

(١) الميدى عملة صغيرة من نقود هذا العصر .

وعن أبنيتها وسكانها صورة شائقة ، فيقول لنا إنها فقدت مناعتها القديمة منذ اخترع الديناميت ، وأن لها مدخلين تحرسهما ثلة من الانكشارية وستة مدافع منصوبة نحو مسكن « الباشا » . ذلك أن الانكشارية يمالئون البيكوات المصريين ، والبيكوات هم الذين يملون إرادتهم على الباشا . وفى داخل القلعة قصر سلاطين مصر السالفين ، قد غلب عليه العفاء والخراب ، ولكن بقيت منه عدة أعمدة فخمة وجدران زاهية ؛ وفى أحد أبهائه المهجورة تصنع الكسوة النبوية التى يحملها أمير الحج كل عام . ويسكن الباشا بناء كبيراً يطل على « قره ميدان » ، ويعقد الباشا الديوان ثلاث مرات فى الأسبوع فى غرفة الديوان الشاسعة ، وقد خضبتها دماء البيكوات المصريين ، الذين فتك بهم الباب العالى قبل ذلك بأعوام قلائل . أما اليوم فهم سادة مصر ، وليس لممثل السلطان أية سلطة فعلية ، وإنما هو أداة فى أيديهم يحركونه طبق أهوائهم ، بل هو سجين فى القلعة لا يستطيع أن يغادرها دون إذنهم . أما الانكشارية فيسكنون فى قصر صلاح الدين ، وقد بقيت منه أطلال تدل على عظمته السابقة ، وأربعون عموداً من الجرانيت الأحمر ؛ وإلى جانبه توجد منظرة عالية تشرف على القاهرة ، يرى منها منظر المدينة الرائع بميادينها ومآذنها وحدائقها . وهنا لا يتمالك سافارى نفسه من أن يصيح : « إن المطل من هذه المنظرة لتأخذه نشوة من التأملات اللذيذة » ولكن تغشاه فى الحال كآبة ، فيقول لنفسه : « إن هذه البلاد الغنية التى كانت عصوراً ملاذ العلوم والآداب والفنون ، يحتلها اليوم شعب جاهل بربرى يسومها سوء الخسف ؛ أجل إن الطغيان ليسحق بنيره الحديدى أجمل بلاد العالم ؛ والظاهر أن شقاء الإنسان يزداد بنسبة ما تقدمه الطبيعة لإسعاده ... » .

هكذا يقدم لنا سافارى ذلك المنظر المحزن ، منظر مصر الإسلامية وقد أودى الحكم التركى الغاشم بكل عظمتها وبهائها السابقين .

* * *

ويصف لنا سافارى ثغر بولاق الذى كان مدخل القاهرة يومئذ ، ومرساه الضخم الذى يغص بمئات السفن ، وما به من الخانات التى خصصت لسكنى التجار الأجانب وتخزين بضائعهم . وفى مياه بولاق أيضاً كانت ترسو سفن النزهة البديعة التى يتخذها البيكوات وغيرهم من الأكابر للنزهة والسمر فى النيل

أيام الصيف الحارة ، ولا سيما فى الليالى المقمرة . ثم يصف الرحالة بعد ذلك جزيرة الروضة والمقياس ، ويستعرض تاريخ مقاييس النيل وقصة وفائه . وهنالك فى الروضة على مقربة من المقياس ، كانت ثمة طائفة من القصور الفخمة التى خصصها البيكوات للتنزه فيها مع حريمهم ، وهى منعزلة تحيط بها الرياض الفيحاء ، ولا يسمح لإنسان بالاقتراب منها ، ولا سيما حينما يوجد بها حريم الأمراء .

أما الحياة الاجتماعية المصرية فيخصها ساڤارى بكثير من عنايته ، ويفرد لها عدة رسائل شائقة ؛ وهو يصف المصرى بالكسل ، ويقول لنا إن الجو يؤثر فى عزيمته ، ومن ثم فإنه يميل إلى الحياة الهادئة الناعمة ، ويقضى يومه فى عمله وفى منزله ، ولا يعرف المصرى صخب الحياة الأوربية وضجيجها ، وليست له أذواق أو رغبات مضطرمة . ونظام العائلة المصرية عريق فى المحافظة ، فرب البيت هو السيد المطلق ؛ ويربى الأولاد فى الحريم ، ويدينون للوالد بمنتهى الخضوع والطاعة والاحترام ، ويعيش أفراد الأسرة جميعاً فى منزل واحد ، ويتمتع الوالد بكل مظاهر التكريم والإجلال ولاسيما فى شيخوخته . ويجتمع أفراد الأسرة حول مائدة الطعام جلوساً على البسط ؛ وبعد الغذاء يأوى المصريون إلى الحريم حيناً بين نسائهم وأولادهم ؛ وفى المساء يتريضون فى النيل فى قوارب النزهة ، ويتناولون العشاء بعد الغروب بنحو ساعة . وهكذا تجرى الحياة على وتيرة واحدة. ويشغف المصرى بالتدخين ، ويستورد الدخان من سورية ويخلط بالعنبر . وللتدخين أبهاء خاصة منخفضة يجتمع فيها السيد مع مدعويه ؛ وبعد انتهاء الجلسة يأتى الخادم بقمقم تحترق به العطور ، فيعطر للمدعوين لحاهم ، ثم يصب ماء الورد على رؤوسهم وأيديهم .

والمرأة المصرية ماذا كانت أحوالها فى ذلك العصر ؟ يقول لنا ساڤارى إنها كانت كالرقيق لا تلعب أى دور فى الحياة العامة ؛ وإذا كانت المرأه الأوربية تسيطر على العروش ، وتقود الآداب والعادات ، فإن دولة المرأة فى مصر لا تتعدى « الحريم » ولا علاقة لها بالشئون العامة . وأعظم أمانيها أن تنجب الأولاد ، وأهم واجباتها أن تعنى بتربيتهم . والحريم هو مهد الطفولة ومدرستها ، وفيه يربى الأولاد حتى السابعة أو الثامنة . كذلك يعنى النساء بالشئون المنزلية ، ولا يشاركن الرجال فى الظهور ، ولا يتناولن الطعام معهم إلا فى فرص خاصة ،

ويقضين أوقات الفراغ بين الجوارى والغناء والسمر ؛ ويسمح لهن بالخروج إلى الحمام مرة أو مرتين فى الأسبوع . وهنا يصف لنا سافارى حمامات القاهرة ، ومناظر الاستحمام والزينة ، وكيف يشغف النساء بالذهاب إلى الحمام مع جواريهن ، وهنالك يقضين أوقاتاً سعيدة بين مجالى التزين واللهو ، ويستمعن فى الأبهاء الوثيرة إلى الغناء وقصص الحب .

وتستقبل المرأة زوارها من النساء بأدب وترحاب ، ويحمل الجوارى القهوة ، ويدور الحديث والسمر ، وتقدم أثناء ذلك الفاكهة اللذيذة ، وعند الانتهاء من تناولها ، تحمل الجوارى قماقم ماء الورد فيغسل المدعوات أيديهن ، ثم يحرق العنبر وترقص الجوارى . وفى أثناء هذه الزيارات النسوية لا يسمح للزوج أن يقترب من الحريم ، إذ هو مكان الضيافة الخاصة ، وهذا حق تحرص المصريات عليه عليه كل الحرص . وقد ينتفعن به أحياناً لتحقيق أمنية غرامية ، إذ يستطيع العاشق أن ينفذ إلى الحريم متنكراً فى زى امرأة ، فاذا لم يكتشف أمره فاز ببغيته ، وإذا اكتشف أمره كان جزاؤه الموت . والمرأة المصرية مفرطة فى الحب والجوى ، مفرطة فى البغض والانتقام ، وكثيراً ما تنتهى الروايات الغرامية بفواجع مروعة .

وتوجد طبقة خاصة من نساء الفن هى طبقة القيان أو « العوالم » ، وهؤلاء العوالم يمتزن بالذلاقة ومعرفة الشعر والمقطوعات الغنائيـــة ، ولا تخلو منهن حفلة ، وتقام لهن منصة يغنين من فوقها ، ثم ينزلن إلى البهو ويرقصن فى رشاقة ساحرة ، وأحياناً يبدون فى صور مثيرة من التهتك ، ويدعون دائماً فى كل حريم ، وهنالك يروين القصص الغرامية ، ويخلبن الألباب بذلاقتهن ورشاقتهن وفصاحتهن .

وهكذا يحدثنا سافارى بإفاضة عن الحياة الاجتماعية المصرية فى أواخر القرن الثامن عشر ، ولأحاديثه فى هذا الموطن قيمة خاصة ؛ فهى أحاديث باحث مطلع درس وشهد بنفسه ، وملاحظات عقلية مستنيرة ، تمتاز باتزانها ودقتها فيما تلاحظ وفيما تصف وتعرض .

* * *

وأخيراً يصف لنا سافارى آثار هليوبوليس والجيزة ؛ ويقدم لنا عن الأهرام وأبى الهول صوراً شعرية ساحرة ، ويستعرض مختلف الروايات عن أصلها وبنائها منذ هيرودوت إلى عصره ، ويصف لنا منفيس (منف) وأطلالها ، ويحدثنا عن الجيزة

وخططها وتاريخها ، وعن الفسطاط ومعالمها وكنائسها وآثارها ، كل ذلك بإفاضة ممتعة ، تتخللها مقارنات وملاحظات تاريخية قيمة ؛ ثم يحدثنا بعد ذلك عن رحلته فى دمياط وضواحيها ، وكيف تتبع فى رحلته سير حملة القديس لويس الصليبية منذ نزولها فى دمياط وسيرها بعد ذلك حتى مدينة المنصورة . ويقدم إلينا خلاصة تاريخية لهذه الحملة الشهيرة مشتقة من المصادر الإسلامية ومذكرات دى چوانڤيل مؤرخ الحملة وأحد شهودها .

وإلى هنا تنتهى رسائل ساڤارى عن الوجه البحرى ومدينة القاهرة والحياة الاجتماعية المصرية . وهذه الرسائل تشغل الجزء الأول من مؤلفه عن مصر ، وهى أهم وأقوم ما فى المجموعة . أما بقية الرسائل ، وهى تشغل الجزءين الثانى والثالث ، فيخصصها ساڤارى لوصف رحلته فى الوجه القبلى ، ووصف مدنه وآثاره وواحاته ، ثم وصف الجو والإقليم والزراعة والتجارة ، وديانة المصريين القدماء وآلهتهم ، والنيل وخواصه الأزلية ؛ وهذه الرسائل تحتوى كثيراً من البحوث والملاحظات القيمة ، بيد أنها لا تقدم إلينا جديدا يعتد به ، ولذا اكتفينا بالإشارة إليها .

* * *

هذه خلاصة شاملة لرسائل العلامة المستشرق ساڤارى عن مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، وهى رسائل لا شك فى قيمتها وأهميتها . وإذا استثنينا مذكرات الجبرتى ، فإن رسائل ساڤارى تعتبر أنفس وثيقة من نوعها عن أحوال مصر فى هذه الفترة المظلمة من تاريخها ؛ وتبدو قيمة هذه الرسائل بنوع خاص فيما تقدمه إلينا من صور الحياة الاجتماعية المصرية بإفاضة لا نجدها فى أية مصادر أخرى ؛ فهى من هذه الناحية وثيقة ذات أهمية خاصة . وقد كانت بحوث ساڤارى بلاريب مصدراً من أقوم المصادر التى انتفع بها علماء الحملة الفرنسية فيما بعد ، حينما وضعوا موسوعتهم الشهيرة فى « وصف مصر » بعد ذلك بنحو ربع قرن[1] .

---

(١) اعتمدنا فى استعراض رسائل ساڤارى على الطبعة الكاملة من رسائله التى ظهرت سنة ١٨٨٥ فى ثلاثة أجزاء ؛ واعتمدنا فى نقل ترجمته الشخصية على معجم لاروس الكبير .

الكتاب الثالث

صور من الأدب المصري

الفصل الأول

حلقات الأدب

فى الفسـطاط

كانت مدينة الفسطاط منذ القرن الثانى الهجرى مركزاً للتفكير والآداب ، يحج إليه كثير من أعلام المشرق ، وكانت مصر قد أخذت تتبوأ مكانتها الفكرية والأدبية بين الأمم الإسلامية ، منذ استقرت شئونها السياسية فى ظل الدولة العباسية . ولم تكن مصر منذ افتتحها الإسلام أكثر من ولاية تابعة للخلافة . ولكنها كانت بين ولايات الخلافة أشدها احتفاظاً بشخصيتها وألوانها القومية . وكانت منذ البداية تأخذ بنصيبها فى بناء صرح التفكير الإسلامى ، ولكنها كانت تشق فى هذا الميدان طريقها الخاص ، وكانت منذ الفتح مركزاً هاماً للسنة والرواية ، ويحتشد فيها جماعة كبيرة من الصحابة الذين اشتركوا فى الفتح والتابعين الذين عاصروهم[1] . وفى القرن الأول أيضاً وضعت بذور الحركة الأدبية فنمت وأزهرت بسرعة ، حتى أنه يمكن القول إن مصر كانت منذ القرن الثالث قد كونت أدبها العربى الخاص . ولم يأت القرن الرابع حتى كان هذا الأدب يتميز بخواصه المصرية القوية مما عداه من تراث التفكير العربى فى المشرق والأندلس .

وكانت الفسطاط عاصمة الإسلام فى مصر منذ قيامها عقب الفتح سنة ٢١ هـ (٦٤١ م) حتى منتصف القرن الرابع . وقد قامت بجوارها مدينتا العسكر والقطائع دهراً[2] ، ولكن العسكر كانت مركزا للإمارة والإدارة فقط . وكانت القطائع وهى مدينة بنى طولون مدينة بلاط فقط ، أما الفسطاط فكانت قلب الإسلام النابض فى مصر ، ومهد التفكير والآداب فى تلك العصور . وحتى بعد

---

(١) يفرد ابن عبد الحكم فصلا طويلا لذكر الصحابة الذين دخلوا مصر وروى أهل مصر عنهم (فتوح مصر وأخبارها ص ٢٤٨ وما بعدها) .

(٢) مدينة العسكر أقامها الجند العباسيون حسبما تقدم فى الكتاب الأول فى شمال الفسطاط سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) ومدينة القطائع أنشأها أحمد بن طولون بجوار الفسطاط مما يلى الشمال أيضاً سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) .

أن قامت القاهرة المعزية سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) لم تفقد الفسطاط أهميتها الفكرية والأدبية ، بل لبثت بعد ذلك عصوراً تشتهر بحلقاتها ولياليها الأدبية . وكانت هذه الحلقات والليالى الأدبية من محاسن الفسطاط ، يشيد بأهميتها وجمالها أدباء المشرق والمغرب الوافدين على مصر . وكانت فى الواقع نوعاً من الأبهاء الأدبية Salons يجتمع فيها الأدباء والشعراء للقراءة والسمر ، والجدل والمساجلة ، وكانت مهاد اللقاء والتعارف بين الأدباء المحليين والنزلاء الوافدين من عواصم الإسلام الأخرى.

وقد بدأت هذه الحلقات الأدبية فى الفسطاط منذ القرن الأول . ولكنها كانت فى بدايتها دينية فقهية ، وكانت لها أهميتها فى تمحيص السُّنة والرواية . وكانت تجمع بين جماعة من أقطاب الفقهاء والحفاظ والمحدثين الذين يعتبرون فى الطبقة الأولى بين فقهاء الإسلام ورواة السنة ، مثل يزيد بن حبيب ، والليث بن سعد ، وعبد الله بن وهب[1] ، ثم الشافعى وأصحابه . ثم اتخذت هذه الحلقات طابعاً أدبياً ، فكان يمزج فيها بين الكلام والأدب ، وكان معظم فقهاء هذا العصر أدباء أيضاً يأخذون من الأدب بحظ وافر ، ولبعضهم فى النثر والشعر براعة خاصة .

ونستطيع أن نذكر من هؤلاء الإمام محمد بن إدريس الشافعى قطب الشريعة وحجة التشريع ، فقد كان أيضاً أديباً مبرزاً له فى الشعر والنثر محاسن وروائع ، وكذلك آل عبد الحكم الذين نذكرهم بعد ، وأبو بكر الحداد قاضى مصر ، والحسن بن زولاق المؤرخ ، فقد كان هؤلاء جميعاً من كبار الفقهاء والأدباء ، وكان الفقه والحديث والأدب تمتزج معاً فى مجالسهم وأسمارهم . ولعل أبهى حقبة فى هذه الحلقات الشهيرة فى تاريخ الفسطاط مستهل القرن الثالث الهجرى . ففى ذلك الحين كان الإمام الشافعى نزيل الفسطاط ، وكان مدى الأعوام التى قضاها بمصر منذ قدومه إليها فى أواخر سنة ١٩٨ هـ (٨١٣ م)[2] ، حتى وفاته فى رجب سنة ٢٠٤ هـ (٨١٩ م) قطب الحركة الفكرية فيها ؛ وكعبة الصفوة من فقهائها وأدبائها ، بجذبهم إليه غزير علمه ورفيع أدبه ، وبارع خــلاله .

---

(١) توفى يزيد بن حبيب سنة ١٢٨ هـ ، والليث بن سعد سنة ١٧٥ هـ ، وعبد الله بن وهب سنة ١٩٧ هـ .

(٢) هذه هى رواية الكندى (أمراء مصر ص ١٥٤) ، ولكن ابن خلكان يقول إن مقدم الشافعى إلى مصر كان فى أوائل سنة ١٩٩ هـ (ج ١ ص ٦٦) ورواية الكندى أرجح فى نظرنا .

وكانت حلقات الفسطاط الأدبية شهيرة قبل مقدمه ، ولكنه أسبغ عليها بهاء وسحراً وروعة . وكان أبوتمام الطائى الشاعر الأكبر إذا صحت الرواية عن مقدمه إلى مصر صبياً ، واشتغاله بسقى الماء فى المسجد الجامع ، يغشى هذه المجالس الأدبية فى حداثته ، وفيها تفتحت مواهبه الأدبية والشعرية ، والظاهر أنه كان طبقاً لهذه الرواية يقيم فى الفسطاط فى خاتمة القرن الثانى أو فاتحة القرن الثالث أعنى فى نحو الوقت الذى كان فيه الشافعى نزيلها[1] . وكان أشهر هذه الحلقات أو الأبهاء حلقة بنى عبد الحكم ، وهم أسرة مصرية نابهة كثيرة المال والوجاهة[2] أنجبت عدة من كبار الفقهاء ، منهم عميد الأسرة عبد الله بن عبدالحكم المصرى ، وهو من أقطاب الفقه المالكى ، وأولاده محمد وسعد إبنا عبد الحكم وكلاهما فقيه ومحدث كبير ، وعبد الرحمن بن عبد الحكم أقدم مؤرخ لمصر الإسلامية[3] . وقد كان بنو عبد الحكم منذ القرن الثانى أعلام الفقه والتفكير والأدب فى مدينة الفسطاط ، وكانت دارهم كعبة العلماء والأدباء ، ومنتدى للدراسات والأسمار الأدبية الرفيعة ، وكانت حلقاتهم العلمية والأدبية تجذب أكابر العلماء الوافدين على مصر من مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، فلما قدم الإمام الشافعى إلى مصر كان بنوعبد الحكم أول من استقبله ، وأكرم وفادته ،وأمدته الأسرة النابهة بالمال ، ونظمت له سبل الإقامة والدرس ، وكانت أول من انتفع بعلمه وأدبه[4]، وبث مقدم الشافعى فى آداب الفسطاط روحاً جديدة ، واشتهرت مجالسه وحلقاته الفقهية والأدبية ، وكانت حقبة علمية أدبية زاهرة (١٩٨ — ٢٠٤ هـ) .

وكانت حلقات المسجد الجامع إلى جانب الحلقات الخاصة ، أشهر المجتمعات العلمية والأدبية العامة ، وكان المسجد الجامع أو جامع عمرو منذ إنشائه سنة ٢١ هـ (٦٤١ م) قلب الفسطاط الفكرى ، وكانت تعقد فيه مجالس القضاء الأعلى ، كما كانت تعقد مجالس الفقه والأدب الخاصة . وصحن المسجد الجامع شهير فى تاريخ الفسطاط الأدبى ، وقد كان مدى قرون ندوة فكرية أدبية جامعة ، وكانت

---

(١) راجع ابن خلكان فى ترجمة أبى تمام (ج ١ ص ٣١٢) .

(٢) ابن خلكان فى ترجمة عبد الله بن الحكم (ج ١ ص ٣١٢) .

(٣) توفى عبد الله بن عبد الحكم سنة ٢١٤ هـ وتوفى ولده عبد الرحمن سنة ٢٥٧ هـ وابنه محمد سنة ٢٦٩ هـ .

(٤) ابن خلكان (ج ١ ص ٣١٢) .

بين جدرانه توجه حركة التفكير والآداب فى مصر الإسلامية . ويبدو مما كتبه مؤرخو الفسطاط فى هذا العصر أن هذه الحلقات كانت دورية ، وكانت منظمة برغم صفتها الخاصة ، وأنها كانت تعقد كل يوم تقريباً فى المسجد الجامع . ولكن الظاهر أن أهمها ما كان يعقد فى عصر يوم الجمعة ؛ وأن مجالس الجمعة كانت تعتبر كموسم أسبوعى يغص المسجد فيه بجمهرة الفقهاء والأدباء والقراء والنظارة ؛ وفيها كانت البحوث الكلامية والمناظرات الأدبية والمطارحات الشعرية والرواية التاريخية ، تنظم فى حلقات فرعية أو متعاقبة[(١)] .

وكانت هذه الحلقات الأدبية الشهيرة تتأثر بتطور السياسة والأهواء السياسية والدينية ، إذ كانت موئل التفكير والدعوة إلى مختلف المذاهب الفقهية الأدبية . ففى سنة ٢٢٦ هـ مثلا أمر محمد بن أبى الليث قاضى قضاة مصر تنفيذاً لرغبة الخليفة الواثق بالله ، بالقبض على جميع الفقهاء والمحدثين والأدباء باسم الامتحان فى مسألة خلق القرآن وهى المعروفة بالمحنة ، فملئت السجون بالمنكرين لخلقه من العلماء والأدباء ، وأغلق المسجد الجامع فى وجه المالكية والشافعية ، وفضت حلقاتهم العلمية والأدبية ، ومنعوا من زيارة المسجد ، ومن بث آرائهم ونظرياتهم[(٢)] ، وأخذ بنو عبد الحكم فوق أخذهم بالمحنة ، بتهمة أخرى ، هى تبديد أموال طائلة أئتمنوا عليها من على بن عبد العزيز الجروى ، وهو زعيم خارج تغلب حيناً على بعض نواحى مصر ثم أخمدت ثورته ، واتهم بالخيانة ، وقضى بمصادرة أمواله ، فاتهم بإخفائها بنو عبد الحكم ، وقبض عليهم وعذبوا ، واستصفيت أموالهم أداء لما قضى به ، وتوفى بعضهم فى السجن (سنة ٢٣٧ هـ) ثم أفرج عنهم بعد ذلك ، ولكن هذه المحنة ذهبت بوجاهة الأسرة النابهة وجاهها وهيبتها[(٣)] فاضمحل نفوذ هذه الأسرة ، وتضاءلت أهمية هذه الحلقات الأدبية الباهرة التى اشتهرت بتنظيمها وعقدها زهاء نصف قرن . وفى نفس هذا العام أمر الحارث بن مسكين قاضى

---

(١) راجع فى الإشارة إلى حلقات عصر الجمعة فى المسجد الجامع — ابن زولاق فى كتاب سيبويه المصرى (ومنه مخطوط بدار الكتب يرجع إلى القرن الرابع الهجرى) ، وقد نشر (القاهرة ١٩٣٣) ص ٢٢ — ٢٥ .

(٢) الكندى تسمية قضاة مصر — ص ١٢٧ .

(٣) الكندى — كتاب القضاة — ص ١٣٧ و ١٣٨ .

القضاة بمطاردة الفقهاء الحنفية والشافعية ، وإخراجهم من المسجد الجامع ، وقطع أرزاقهم وحظر اجتماعاتهم(١) .

وهكذا شتت شمل المجتمع الفكرى فى الفسطاط حيناً ، وانزوت حلقاتها الأدبية الزاهرة حتى منتصف القرن الثالث ، ولكنها عادت فانتظمت وازدهرت واستعاد المسجد الجامع هدوءه وسكينته ، ووردت حرية الاجتماع والدرس . وجاءت الدولة الطولونية (٢٥٤ — ٢٩٢هـ) (٨٦٨ — ٩٠٥ م) فازدهرت فى ظلها الآداب والفنون . وكان أحمد بن طولون أميراً مستنيراً يحب العلوم والآداب ، ويرعاها بتعضيده وحمايته ، ويجل مجالس العلم وحلقات الأدب(٢). وكانت الفسطاط ومسجدها الجامع أيضاً مثوى الحلقات والمجالس العلمية والأدبية فى هذا العصر ، لأن مدينة القطائع التى شيدها ابن طولون ، لم تكن كما قدمنا سوى مدينة بلاط وبطانة . ونبغ فى هذه الحقبة القصيرة عدد كبير من الأدباء والشعراء ، وبكت دولة الشعر دولة بنى طولون عند ذهابها أيما بكاء ، فقال شاعرها سعيد القاص من قصيدة طويلة رائعة :

طوى زينة الدنيـــا ومصباح أهلها ... بفقد بنى طولون والأنجم الزهـــر
وفقـــد بنى طولون فى كل موطن ... أمرّ على الإســـلام فقداً من القطر
تذكرتهم لمـــا مضـــوا فتتابعـــوا ... كما ارفضّ سلك من جمان ومن شذر
فمن يبك شيئاً ضاع من بعد أهـــله ... لفقـــدهم فليبك حزناً على مصـــر
ليبك بنى طولون إذ بان عصـــرهم ... فبورك من دهـــر وبورك من عصر

وفى أوائل القرن الرابع ، كانت الفسطاط تضم جماعة كبيرة من أقطاب المفكرين والأدباء ، وكانت أبهاؤها ومجالسها الأدبية حافلة زاهرة . فى تلك الفترة اجتمع زعماء التفكير والأدب ، أبو القاسم بن قديد الأزدى ، وتلميذه أبو عمر الكندى مؤرخ الولاة والقضاة ، وأبو جعفر النحاس المصرى الكاتب والشاعر ، وأبو بكر الحداد قاضى مصر ، وأبو القاسم بن طباطبا الحسينى الشاعر ، وأبو بكر بن محمد بن موسى الملقب بسيبويه المصرى ، والحسن بن

(١) الكندى — كتاب القضاة — ص ١٢٤ .
(٢) ابن خلكان — ج ١ ص ٦٩ .

زولاق المؤرخ الأشهر[1] وكثيرون غيرهم ، فكان لاجتماع هذه الصفوة العلمية والأدبية البارزة فى هذه الفترة أثر كبير فى ازدهار الحركة الفكرية بمصر فى أوائل القرن الرابع ، فكانت حلقات الأدب فى أوج نشاطها ، وكان المسجد الجامع يومئذ جامعة حقة يموج بهذه الاجتماعات العلمية والأدبية الشهيرة . وكانت دولة التفكير والأدب فى بغداد قد أخذت فى الضعف والاضمحلال ، وأخذت مصر تتأهب للقيام بدورها فى رعاية التفكير الإسلامى ، فى المشرق . وكان بنو الإخشيد محمد بن طغج وولداه أنوجور وعلى ، ثم وزيرهم الخصى النابه كافور ، مدى دولتهم التى استمرت زهاء ثلث قرن (سنة ٣٢٤ — ٣٥٨ هـ) (٩٣٥ — ٩٦٩ م) حماة للعلوم والآداب . وقد انتهى إلينا من آثار الحسن بن زولاق المؤرخ ، أثر هام يلقى ضياء على تاريخ الحركة الأدبية المصرية فى هذا العصر ، وهو كتاب « أخبار سيبويه المصرى » وهو أبو بكر بن موسى الذى سبقت الإشارة إليه ، وقد كان صديقاً لابن زولاق وزميلا له فى الدرس على ابن الحداد[2] . وكانت له أخبار وملح ونوادر أدبية طريفة عنى ابن زولاق بجمعها فى هذا الكتاب .

وفى دار الكتب نسخة خطية وحيدة من هذا الأثر لا ريب أنها من أقدم المخطوطات العربية التى وصلت إلينا ، بل لقد انتهينا فى تحقيق شأنها إلى أنها أقدم مخطوط أدبى مصرى وصل إلينا ، وأنها من آثار عصر الفسطاط ذاته ، وبخط ابن زولاق نفسه .

وفى أثر ابن زولاق هذا إشارات كثيرة إلى حلقات الفسطاط الأدبية فى عصره ، أعنى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى . ويبدو من سياق كلامه أن المسجد الجامع كان مثوى لأهم هذه الحلقات وأشهرها ، وأنها كانت كما قدمنا دورية منتظمة تعقد على الأغلب فى عصر يوم الجمعة ، وتجمع بين الفقهاء والأدباء ، وينعقد فيها الجدل الكلامى ، والحوار الأدبى والشعرى . والظاهر أيضاً أن هذا الجدل أو الحوار كان ينتهى أحياناً إلى بعض ما ينتهى إليه فى عصرنا

(١) توفى ابن قديد سنة ٣١٢ هـ وأبو عمر الكندى سنة ٣٥٠ هـ وأبوجعفر النحاس سنة ٣٣٨ هـ وأبو بكر الحداد سنة ٣٤٥ هـ وابن طباطبا الحسينى سنة ٣٤٥ هـ وسيبويه المصرى سنة ٣٥٨ هـ والحسن ابن زولاق سنة ٣٨٧ هـ .

(٢) راجع السيوطى — حسن المحاضرة — ج ١ ص ٢٥٤ .

من مرارة واتهام وتراشق ، وأن بعض المفكرين الأحرار كانوا ينقمون من عصرهم ما ننقم من عصرنا أحياناً من اعتداء على حرية الرأى والبحث ، وأن بعضهم كان يرمى بتهم المروق والإلحاد ، إذا أطلق لنفسه حرية البحث والرأى ، على نحو ما يشير إليه سيبويه المصرى فى قوله من قصيدة أوردها ابن زولاق :

أما سـبيل اطراح العـلم فهـو على ... ذى اللب أعظم من ضرب على الراس
فان سـلكت سـبيل العلم تطلبـه ... بالبحث أُبت بتكفير من النـاس
وإن طلبت بـلا بحث ولا نظـر ... لم تضح منـه على إيقـان ايناس
وانبـذ مقالة من ينهـاك عن نظـر ... نبـذ الطبيب لداء القرحة الآسى(١)

وهذه ظاهرة فكرية خطيرة يسجلها الشاعر المصرى على عصره ، أعنى أوائل القرن الرابع (حول سنة ٣٢٠ — ٣٤٠ هـ) ، وهى تدل على أن الجدل العلمى والأدبى ، كان يرتفع يومئذ إلى مرتبة الإيمان والعقيدة أحياناً ، وينحدر أحياناً أخرى إلى درك التراشق والمهاترة . كذلك هنالك فى قول الشاعر ما يدل على أن بعض المفكرين والأدباء ، كانوا يؤثرون الصمت على الجهر بآرائهم خيفة الاتهام والوقيعـة .

وقد كانت حلقات المسجد الجامع بلا ريب أهم الحلقات الأدبية العامة ، ولكن هناك فى أقوال ابن زولاق ما يدل على أنها كانت تعقد أيضاً فى بعض المساجد الأخرى . فمثلا كان الشاعر الأكبر أبو الطيب المتنبى الذى وفد على مصر سنة ٣٤٦ هـ (٩٥٧م) ليستظل بحماية بنى الإخشيد ، يجلس فى مسجد يعرف بمسجد ابن عمروس ، وهناك يجتمع إليه الأدباء والشعراء ؛ وكانت حلقة المتنبى بلا ريب من أهم مجالس الشعر والأدب والفلسفة فى هذا العصر(٢) . هذا وأما عن الحلقات والأبهاء الخاصة فيشير ابن زولاق إلى المجالس العلمية والأدبية التى كان يعقدها محمد بن طغج (الإخشيد) وولده أنوجور(٣) ، ثم مجالس الوزيرين أبى الفضل جعفر بن الفرات ، والحسين بن محمد الماردانى(٤) . والظاهر أن هذه المجالس والحلقات الأدبية ، كانت يومئذ من تقاليد الحياة الرفيعة ، وكانت نوعاً من الترف

(١) راجع هذه القصيدة بأكلها فى كتاب أخبار سيبويه المصرى (المطبوع) ص ٢٠ .
(٢) راجع كتاب أخبار سيبويه المصرى ص ٤٤ و ٤٥ .
(٣) أخبار سيبويه ص ٣٦ .
(٤) أخبار سيبويه ص ٣٤ و ٣٩ .

الذى يأخذ به الأمراء والعظماء والأسر الكبيرة ، فإن لهم جميعاً على نحو مابيناً فى سير الأبهاء الأدبية فى تلك العصور أكبر نصيب وذكر ، ويرجع إليهم فى إقامتها ورعايتها أكبر الفضل .

* * *

لبثت الفسطاط عاصمة الإسلام فى مصر منذ قيامها سنة ٢١ هـ (٦٤١ م) حتى سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) . وفى ذلك العام كان الفتح الفاطمى ، وكان قيام القاهرة المعزية التى وضعت خططها الأولى فى شعبان سنة ٣٥٨ ، ونشأت القاهرة بادئ بدء مدينة ملكية فقط لتكون قاعدة للدولة الجديدة ومنزلا للخلافة الفاطمية ، ونشأ جامعها الأزهر الذى أسس بعد قيامها بأشهر قلائل (جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ) مسجداً للإمامة الجديدة فقط . ومضى زهاء نصف قرن قبل أن تبدو العاصمة الجديدة فى شىء مما تميزت به بعد ذلك بين الأمصار الإسلامية ، من عظمة وروعة وبهاء ، وقبل أن يبدأ الجامع الأزهر تاريخه الأدبى الباهر . ولكن ظلت الفسطاط بعد ذلك عصوراً تحتفظ بمكانتها الأدبية ، ولبثت حلقاتها ولياليها الأدبية شهيرة بين أدباء المشرق والمغرب . وبدأ الجامع الأزهر ينافس المسجد الجامع فى حلقاته ومجالسه الأدبية منذ عهد الخليفة العزيز بالله ، إذ استأذن وزيره الشهير يعقوب بن كلّس فى سنة ٣٧٨ هـ أن ينظم بالأزهر على نفقته بعض مجالس القراءة والفقه . وفى خاتمة القرن الرابع ، فى عهد الحاكم بأمر الله ، أنشئت دار الحكمة بالقاهرة ونظمت مجالسها ، فكانت مثوى للمجالس العلمية الكلامية والفلسفية الحرة .

ولسنا نتحدث عن القاهرة ومكانتها العلمية والأدبية بين الأمصار الإسلامية فى العصور الوسطى ، ولا عن أزهرها الذى غدا فيما بعد أعظم جامعة إسلامية ، كذلك لسنا نتحدث عن دار الحكمة ومجالسها الشهيرة التى كانت تتخذها الخلافة الفاطمية أداة لتحقيق دعوات دينية وفلسفية غامضة ، فذلك ليس من موضوعنا . وإنما نتتبع تاريخ الفسطاط الأدبى ، بعد قيام القاهرة ، منافستها العظيمة الفتية .

فقدت الفسطاط أهميتها السياسية والرسمية ، ولكنها احتفظت عصوراً أخرى بأهميتها الاجتماعية والأدبية . وفى فترات كثيرة كانت تتفوق على القاهرة بطابعها الأدبى . وهذا ما يشيد به بعض أدباء المشرق والأندلس الوافدين على مصر فى

عصور مختلفة . ومن هؤلاء أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي الذى وفد على مصر فى أوائل القرن السادس الهجرى[1] فى عهد الأفضل شاهنشاه . ودرس الحركة الفكرية والأدبية فى مصر يومئذ ، وكتب عن مصر رسالته الشهيرة المعروفة « بالرسالة المصرية » ، وفيها يتحدث عن مصر ونيلها وآثارها ، وعن علمائها وأدبائها وشعرائها ومجالسهم واجتماعاتهم ، مما يدل على أن الفسطاط كانت ما تزال مركزاً هاماً للحركة العلمية والأدبية . ووفد ابن سعيد الأندلسى إلى مصر بعد ذلك بنحو قرن ، نحو سنة ٦٣٧ هـ (١٢٤٠ م) ، ولبث بها أعواماً طويلة يدرس شئونها وأحوالها ، فإذا بالفسطاط ما تزال تحتفظ بأهميتها الأدبية ، وإذا بها ما تزال مثوى للأدباء ومركزاً لأبهاء الأدب ، وإذا لياليها الأدبية ما تزال شهيرة . ويفرد ابن سعيد فى كتابه « المغرب فى حلى المغرب » فصلا كبيراً للفسطاط عنوانه : « كتاب الاغتباط فى حلى الفسطاط »[2] يتحدث فيه عن المدينة وزيارته لها واجتماعاته بأدبائها ، ولا سيما شاعرها الكبير جمال الدين أبى الحسن الجزار ، أشهر شعراء مصر فى هذا العصر ، وما لقيه من كرم وفادته ، وشهده من رائع أدبه ، وقد كان الشاعر الكبير يومئذ ، على ما يظهر شاباً فى عنفوان شاعريته لأنه توفى بعد ذلك بنحو أربعين سنة فى (٦٧٩ هـ - ١٢٨٠ م)[3] وهو صاحب الأرجوزة التاريخية الشهيرة المسماة « بالعقود الدرية فى الأمراء المصرية » وفيها يستعرض ذكر أمراء مصر وملوكها منذ عمرو بن العاص إلى الملك الظاهر بيبرس[4] ، وكانت الفسطاط قد عادت يومئذ فاستردت كثيراً من بهائها السالف وأهميتها الاجتماعية القديمة ، بسبب قيام المدينة الملكية الجديدة التى أنشأها الملك

---

(١) توفى أمية بن أبى الصلت الأندلسى سنة ٥٢٩ هـ ، وقد نشرت الرسالة المصرية محققة بعناية الأستاذ عبد السلام هارون ضمن سلسلة « نوادر المخطوطات » (المجموعة الأولى) ، ويراجع ما ورد فيها عن علماء مصر وأدبائها وشعرائها (ص ٤٠ - ٥٦) .

(٢) راجع هذا الكتاب فى مجموعة الكتب التى يضمها كتاب « المغرب فى حلى المغرب » لابن سعيد الأندلسى . ومنه أربع مجلدات مخطوطة بدار الكتب هى الوحيدة منه . وليست متصلة ولا متناسقة لأنها جزء من الكتاب الأصلى فقط (رقم ٢٧١٢ تاريخ) . وقد نشر المستشرق تالكفست منه قسماً هو « كتاب العيون الدعج فى حلى بنى طنج » .

(٣) راجع ترجمة جمال الدين الجزار فى السيوطى - حسن المحاضرة - (ج ١ ص ٢٧٣) . وقد أورد له ابن سعيد أيضاً ترجمة فى « المغرب » فى المجلد الثانى من المخطوط الورقة ١٤١ .

(٤) نشرت هذه الأجوزة برمتها فى حسن المحاضرة (ج ٢ ص ٤١) .

الصالح فى جزيرة الروضة المقابلة للفسطاط (سنة ٦٣٨ هـ) واتخاذها قاعدة للسلطنة ، وانتقال البلاط والحاشية إليها ، وسكن كثير من الأمراء والكبراء بالفسطاط فى الضفة المقابلة لنهر النيل ، وهو ما يشير إليه ابن سعيد فى قوله : « وقد نفخ روح الاعتناء والنمو فى مدينة الفسطاط الآن لمجاورتها للجزيرة الصالحية (جزيرة الروضة) ، وكثير من الجند قد انتقل إليها للقرب من الخدمة ، وبنى على سورها جماعة منهم مناظر تبهج الناظر » .

ويشير ابن سعيد فى كتابه السالف الذكر إلى ليالى الفسطاط واجتماعاتها الشائقة فى الليالى القمرية ، وأشهرها ما كان يعقد فى القرافة مما يلى المقطم فى قبة الإمام الشافعى التى كانت قد أنشئت على قبره . وكان المسجد الجامع قد عفت أهميته شيئاً فشيئاً مذ قام منافسه القوى ، الجامع الأزهر ، وغيره من المساجد والمدارس الجامعة بمدينة القاهرة ، ولكنا نراه ما يزال حتى القرن السابع مثوى للأدب واجتماعاته ، برغم عفائه وقدمه ونسيان أمره ، وكانت تعقد فى عرصاته حلقات للقراءة والدرس ، وهو ما يشير إليه ابن سعيد أيضاً خلال وصفه للمسجد الجامع فى منتصف القرن السابع . بيد أن هذه الحلقات لم تكن من الأهمية والرونق والانتظام مثلما كانت عليه فى القرون الأولى ، يوم كان المسجد الجامع مجتمع الأمراء وأقطاب التفكير والأدب ، بل وكانت يومئذ أقرب إلى الصبغة المدرسية . ومع ذلك فقد بقى للمسجد الجامع حتى ذلك العصر كثير من ذكرياته الأدبية المجيدة ، وبقى كعبة الأدباء والشعراء يجتمعون فيه كلما سنحت فرص الاجتماع لعقد الأسمار والمطارحات الأدبية . وإليك نموذجاً لهذه الاجتماعات الشهيرة أورده ابن فضل الله العمرى فى موسوعته الكبيرة « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » فى حديثه عن المسجد الجامع :

« حكى على بن ظافر الأزدى ، قال : روى لى أن الأعز أبا الفتوح بن قلاقس ، وابن المنجم اجتمعا فى منار الجامع فى ليلة فطر ظهر بها الهلال للعيون ، وبرز فى صفحة بحر النيل كالنون . ومعهما جماعة من غواة الأدب الذين ينسلون إليه من كل حدب . فحين رأوا الشمس فوق النيل غاربة . وإلى مستقرها جارية ذاهبة ، وقد شمرت للمغرب الذيل . واصفرت خوفاً من هجمة الليل ، والهلال فى حمرة الشفق . كحاجب الشائب أو زورق الورق . فاقترحوا عليهما أن يصنعا

فى ذلك الوقت النزيه ، على البديه . فصنع ابن قلاقس :

انظر إلى الشمس فوق النيــل عارية … وانظر لما بعــدها من حمرة الشفق
غابت وأبقت شعاعاً منــه يخلفهــا … كأنما احترقت بالمــاء فى الغــرق
وللهــلال ، فهــل وافى لينقــذها … فى أثرها زورق قد صيغ من ورق ؟

وصــنع ابن المنجم :

يارب ســامية فى الجو قمت بهــا … أمد طرفى فى أرض من الأفــق
حيث العشــية فى التمثيــل معــركة … إذا رآها جبــان مات للفــرق
شمس نهــارية للغــرب زاهيــة … بالنيــل مصفرة من هجمة الغسق
وللهــلال انعطاف كالســنان بدا … من سورة الطعن ملقّى فى دم الشفق

« وحكى على بن ظافر أيضاً ، قال : أخبرنى ابن المنجم الصواف بما معناه قال ، صعدت إلى سطح الجامع بمصر فى آخر رمضان مع جماعة ، فصادفت به الأديب الأعز أبا الفتوح بن قلاقس ، ونشو الملك على بن مفرج بن المنجم ، وشجاعا المغربى ، فى جماعة من الأدباء . فانضممت إليهم . فلما غابت الشمس وفاتت ، اقترح الجماعة على ابن قلاقس وابن المنجم أن يعملا فى صفة الحال . فكان ما صنعه نشو الملك :

وعشى كأنمــا الأفق فيــــه … لا زورد مرصــع بنضــــار
قلت لمــا دنت لمغــربهــا الشمـ … ـس ولاح الهــــلال للنظــار
أقرض الشرق صنوه الغرب دينا … را فأعطى الرهين نصف سوار

وكان الذى صنعه ابن قلاقس :

لا تظن الظــلام قد أخــذ الشــمـ … ـس وأعطى النهــار هــذا الهلالا
إنما الشرق أقرض الغــرب دينــا … را فأعطــاه رهنــه خلخــالا(١)

ونحن نعرف أن الشاعر المصرى الإسكندرى الأشهر ابن قلاقس ، كان من شعراء النصف الأخير من القرن السادس الهجرى (٥٣٢ - ٦٠٧ م) وكذلك ابن المنجم من شعراء هذا العصر . وإذن فقد كان المسجد الجامع ، حتى أوائل القرن السابع ، منتدى لأكابر الأدباء والشعراء ، وكانت الفسطاط لا تزال شهيرة

---

(١) مسالك الأبصار (طبع دار الكتب) ج ١ ص ٢١٠ و ٢١١ .

بلياليها وحلقاتها الأدبية ، حتى بعد ذلك بنحو نصف قرن على نحو ما يشير إليه ابن سعيد الأندلسى .

* * *

ومنذ أواخر القرن السابع الهجرى نرى الفسطاط تفقد أهميتها الاجتماعية والأدبية شيئاً فشيئاً ، ونرى المسجد الجامع وقد غمره النسيان والعفاء ، وقلما نظفر فى سير القرن الثامن بما ينبئ عن مكانة الفسطاط أو أهميتها الاجتماعية أو الأدبية . بل نرى الفسطاط فى هذا العصر تنتهى إلى ضاحية متواضعة لمدينة القاهرة ، ونرى القاهرة تغمر بعظمتها وبهائها وأهميتها العلمية والأدبية ، عاصمة الإسلام الأولى فى مصر . ونراها مثوى كل حركة فكرية أو أدبية . ونرى الجامع الأزهر كعبة العلماء والأدباء لا فى مصر وحدها ، بل فى العالم الإسلامى كله ، على أن مؤرخ الآداب فى مصر الإسلامية لا يسعه — حين يعالج تاريخ الآداب فى عصور الإسلام الأولى — إلا أن يلاحظ أهمية الدور الكبير الذى أدته الفسطاط وحلقاتها ولياليها الأدبية ، وأداه مسجدها الجامع فى تطور الحركة الفكرية والأدبية فى مصر .

الفصل الثاني

من آثار الحسن بن زولاق

سيبويه المصري وشخصيته الأدبية الفريدة

أساتذة الرواية المصرية الإسلامية فى عصر الفسطاط ثلاثة ، هم : عبدالرحمن بن عبد الحكم(1) ، وأبوعمر الكندى(2) ، والحسن بن زولاق ، عاش الثلاثة متعاقبين ، واتصلت جهودهم فى وضع العصر الأول من تاريخ مصر الإسلامية ، فكتب ابن عبد الحكم روايته فى منتصف القرن الثالث الهجرى ، وكتب الكندى فى أوائل القرن الرابع ، واستأنفها ابن زولاق وحملها حتى أواخر هذا القرن ، فكانت جهودهم خاتمة الرواية عن عصر الفسطاط ، وما شهدته مصر فى تلك الحقبة من الانقلابات السياسية التى انتهت بفتح الفاطميين لمصر ، وإنشاء القاهرة المعزية لتكون مقر الخلافة الفاطمية . وابن زولاق هو أبو محمد الحسن بن إبراهيم ابن الحسين بن الحسن بن زولاق الليثى المصرى . ولد بالفسطاط فى شعبان سنة ٣٠٦ هـ (٩١٩ م) ، وتوفى فى ذى القعدة سنة ٣٨٧ (٩٩٧ م) . ونشأ فى مهاد العلم والدرس ، فى أسرة نبغ فيها أكثر من عالم ومفكر ، ودرس الفقه على أبى بكر بن الحداد ، أعظم أئمة عصره ، وتخصص فيه حتى نعت « بالفقيه » . ودرس الرواية التاريخية على أبى عمر الكندى ، ثم خص كأستاذه تاريخ مصر بدرسه وبحثه . وقد نشأ ابن زولاق فى عهد الدولة الإخشيدية ، وشهد فى فتوته ما تعاقب يومئذ على مصر وحكوماتها من حوادث وقلاقل ، ثم شهد بعد ذلك فى كهولته ذهاب ملك بنى الإخشيد ، وافتتاح الفاطميين لمصر ، وقيام الدولة الفاطمية ، ونشأ بالقاهرة عاصمة الإسلام الجديدة فى مصر ، واختار أن يكون مؤرخ هذه المرحلة من تاريخ مصر الإسلامية . ومع أننا لم نتلق سوى القليل من تراث ابن زولاق ، فإن ما انتهى إلينا من آثاره يدل على أن مجهوده

---

(1) فى كتابه « فتوح مصر وأخبارها » .

(2) فى كتابيه « تسمية قضاة مصر » و « تسمية ولاة مصر » .

التاريخي ، يمتاز عن مجهود أسلافه ، بكثير من البراعة ، واستكمال الرواية ، وحسن التنسيق .

ومن الأسف أننا لم نتلق من تراث ابن زولاق التاريخي قطعة كاملة ، ولم يصلنا كاملا من آثاره غير رسالة أدبية لاعلاقة لها بمجهوده التاريخي . على أننا تلقينا مع ذلك من آثاره التاريخية على يد المؤرخين اللاحقين قطعاً وشذوراً كثيرة[1] ، فيها ما يكفى للإحاطة بمجهود المؤرخ ، وتقديره والحكم عليه ، كما أنها من أهم مصادر التاريخ المصرى فى عصر بنى الإخشيد ومستهل الدولة الفاطمية .

وهذه الرسالة الأدبية هى كل ما وصلنا كاملا من آثار ابن زولاق ، وهى بالرغم من كونها ليست تاريخاً بالمعنى المفهوم ، فإنها مع ذلك تقدم إلينا مادة تاريخية هامة من الحركة الأدبية والأحوال الإجتماعية بمدينة الفسطاط فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، وقد سبق أن أشرنا إليها ، وإلى محتوياتها بإيجاز فى الفصل السابق .

وتسمى هذه الرسالة « بكتاب أخبار سيبويه المصرى » . وقد وصلت إلينا فى مخطوط قديم نادر تحتفظ به دار الكتب المصرية (رقم ٣٥٤ تاريخ) ، وهو يقع فى ست وثلاثين لوحة من القطع الصغير ، ويحتوى المخطوط بعد ذلك على عدة أوراق أخرى لا علاقة لها بالكتاب الأصلى .

وموضوع أثر ابن زولاق هذا ، هو سيرة أديب مصرى معاصر له ، كان من زملائه وأصدقائه ، وهو المشار إليه فى عنوان الكتاب باسم « سيبويه المصرى » ولكن ذلك ليس اسمه الحقيقى ، وإنما هو لقب أطلق عليه واشتهر به . وهذا الأديب هو ، كما ترجمه ابن زولاق فى كتابه ، « أبو بكر محمد بن موسى بن عبد العزيز الكندى الصيرفى المعروف بسيبويه . ولد بمصر سنة أربع وثمانين ومائتين ، وتوفى فى صفر سنة ثمانى وخمسين وثلثمائة وسنه أربع وسبعون سنة »[2].

---

(١) من ذلك مانقله ابن سعيد فى كتاب « المغرب » وهو الفصل المعنون « بكتاب العيون الدعج فى حلى بنى طغج » فإن هذا الفصل منقول برمته عن كتاب « سيرة الإخشيد » لابن زولاق كما هو مذكور فى الديباجة . وكذلك ينقل المقريزى « فى خططه » وفى كتاب اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء ، شذوراً كثيرة عن ابن زولاق .

(٢) المخطوط المشار إليه ص ٤ — وفى النسخة المطبوعة منه ص ١٧ .

وذكره السيوطى بين فقهاء الشافعية ، فقال : هو « أبو بكر محمد بن موسى ابن عبد العزيز الكندى المصرى يعرف بابن الجبى ، نسبة إلى جبة ، موضع بمصر ، يلقب بسيبويه ، وكان شاعراً فصيحاً ، أخذ عن ابن الحداد ، وكان يتظاهر بالاعتزال ولد سنة أربع وثمانين ومائتين ، ومات فى صفر سنة ثمان وخمسين وثلثمائة »(١) .

وقد كان سيبويه هذا ، بلا ريب ، شخصية كبيرة ، محترمة ، وكان يشغل فى مجتمع الفسطاط العلمى والأدبى منزلة مرموقة ، غير أنه كان بلا ريب أيضاً شخصية غريبة ، وكان فى أخلاقه شذوذ وغرابة . فأما منزلته العلمية والأدبية فيصفها ابن زولاق فى قوله : « وكانت فى سيبويه خلال تشبه صفات المتقدمين والمتصدرين . كان يحفظ القرآن ، ويعلم كثيراً من معانيه وقراءته ، وغريبه وإعرابه وأحكامه ، عالماً بالحديث وبغريبه ومعانيه ، وبالرواة . وقد كتب عن أحمد بن شعيب النسائى ، وإسحق بن ابراهيم المنجنيق ، وأبى جعفر الطحاوى وغيرهم . ويعرف من النحو والغريب ما لقب بسببه « سيبويه » . ويعرف صدراً من أيام الناس والنوادر والأشعار . وتفقه على قول الشافعى . وجالس أبا هاشم القدسى الفقيه ، وجالس أبا بكر محمد بن أحمد الحداد وتتلمذ له ، وتكلم فى الزهد وألفاظ الصالحين متصدراً فيه ، وتكلم فى علم السماع . عف الفرج ، متنسكاً ، جمعت فيه ألفاظ الورعين والمتزهدين والواعظين ، وأخبار الصالحين ، وأدوات المتأدبين ، وفكاهة المنادمين .

« بلغ من ذلك حتى جالس أنوجور بن الإخشيد أمير مصر ، وجالس الحسين محمد الماردانى وزير مصر أيضاً ، وواكلهما ونادمهما ، وانتهى فى الجدل والكلام ، وأخذ علم الاعتزال عن أبى على بن محمد بن موسى القاضى الواسطى ، وكان وجه المتكلمين بمصر »(٢).

وليس أدل من هذه الصورة التى يرسمها لنا ابن زولاق على سمو المنزلة العلمية والأدبية ، التى كان يتبوأها سيبويه المصرى فى مجتمع عصره ، على أن الذى عنى به ابن زولاق بنوع خاص ، من أخبار صديقه وزميله ، هو ما تعلق

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٧ .

(٢) المخطوط ص ٥ ، والمطبوع ص ١٧ و ١٨ .

بشذوذه وغريب أطواره . وهو يضعه فى صف « عقلاء المجانين » الذين يشير إليهم فى فاتحة كتابه ، وإلى من كتب عنهم كالمدايني وابن أبى الدنيا ، ثم يقول فى هذا الصدد ما يأتى : « وكان عندنا بمصر رجل يعرف بسيبويه ، فوق هؤلاء الذين ذكرهم المدايني وابن أبى الدنيا ، لو كان بالعراق لجمع كلامه ، ونقلت ألفاظه ، ولو عرف المصريون قدره لجمعوا عنه أكثر مما حفظوه . وسئلت أن أجمع من كلامه ما أقدر عليه ، مما حفظته عنه ، وما بلغنى عنه ، فعملت كتابى هذا بصفته ، وما كان يحسنه حسب ما قدرت عليه وبالله التوفيق » . ثم يذكر ترجمته حسبما قدمنا ، وأن وفاته كانت فى صفر سنة ثمانى وخمسين وثلثمائة « قبل دخول القايد جوهر إلى مصر بستة أشهر ، وتأسف عليه لما ذكرت لهأخباره ، وقال لو أدركته لأهديته إلى مولانا المعز صلوات الله عليه فى جملة الهدية .

« وكان أبوه شيخاً صيرفياً يكنى أبا عمران أعرفه ، وأعرف لابنه سيبويه هذا معه قصصاً أذكرها فى كتابى هذا ... » .

والواقع أن ابن زولاق يقص علينا طائفة كبيرة من نوادر سيبويه ، وأخباره مع الأمراء والوزراء والكبراء ، ويقدم إلينا شيئاً من نثره ونظمه ، ويصف لنا مواقفه فى حلقات الدرس والأدب ، ومنها ما تلقاه من سيبويه نفسه قبل وفاته ، ومنها ما تلقاه من زملائه وأساتذته ، ومنها يبدو أن سيبويه المصرى ، كان ذهناً حراً جريئاً ، وأنه كان يكافح فى سبيل حرية الرأى ، ويجاهر بآرائه فى شجاعة وتحدى ، على نحو ما يؤيده شعره الذى قدمنا منه أبياتاً فى الفصل السابق ، لمناسبة اضطرام الخصومات فى حلقات الفسطاط الأدبية(١).

وإن ابن زولاق ، ليقدم إلينا خلال استعراضه لسيرة سيبويه ونوادره الأدبية ، كثيراً من التفاصيل والحقائق عن سير الحياة العقلية فى هذا العصر . ويمكننا أن نقول ، إن الكتاب يقدم إلينا فى جملته صورة قوية صادقة من الأدب المصرى الإسلامى فى عصر الفسطاط المتوسط ، تلقى كثيراً من الضياء على خواص الأدب وحلقاته فى هذا العصر ، وتقدم لمؤرخ الآداب المصرية الإسلامية فى هذا الموضوع مادة نفيسة جداً .

* * *

(١) راجع ص ٢٤٤ من هذا الكتاب .

ونود بعد أن بينا موضوع الكتاب ، أن نذكر كلمة عن المخطوط الذى يحتويه . ذلك أن لهذا المخطوط فى نظرنا ، ووفقاً للبحوث التى أجريناها ، قيمة أثرية كبرى ، خصوصاً وقد سجلت على صفحة عنوانه عبارة : « بخط ابن زولاق وجمعه » .

فإلى أى عصر ترجع كتابة المخطوط ؟ وهل يمكن أن نكون أمام أثر من خط ابن زولاق نفسه ؟ .

إن المخطوط يلفت النظر بقدمه ، وبلى ورقه ، وقدم خطه ، غير أنه لايحمل تاريخ كتابته أو توقيع كاتبه ، كما هو الشأن فى كثير من المخطوطات العربية . ويجب أولا أن نعين تاريخ تأليف الكتاب ، فقد توفى مؤلفه ابن زولاق كما قدمنا فى ذى القعدة سنة ٣٨٧ هـ ، وتوفى أبو بكر محمد بن موسى الملقب بسيبويه ، وهو الذى يتضمن الكتاب سيرته وأخباره فى صفر سنة ٣٥٨ هـ ، ولما كان تاريخ هذه الوفاة قد ذكر فى فاتحة الكتاب ، فلابد أن يكون الكتاب قد وضع بعد هذا التاريخ ، ثم إن ابن زولاق يقول لنا عقب ترجمته لسيبويه ، إنه « توفى قبل دخول القائد جوهر إلى مصر بستة أشهر ، وتأسف عليه لما ذكرت له أخباره ، وقال لو أدركته لأهديته إلى مولانا المعز صلوات الله عليه فى جملة الهدية » . والمعز ، هو المعز لدين الله الفاطمى ، أول الخلفاء الفاطميين بمصر ، والدعاء بالصلاة عليه ، يفيد أنه كان قد توفى وقت وضع الكتاب . وقد توفى المعز لدين الله فى ربيع الثانى سنة ٣٦٥ هـ . والقائد جوهر الصقلى ، هو مولى المعز ، وقائد جيوشه ، وفاتح مصر من قبله ، وإشارة ابن زولاق تفيد أنه كان وقتئذ على قيد الحياة . وقد توفى جوهر الصقلى سنة ٣٨١ هـ ، وبذا يكون الكتاب قد وضع بعد سنة ٣٦٥ هـ ، وقبل سنة ٣٨١ هـ ، أعنى فى خلافة العزيز بالله ثانى الخلفاء الفاطميين بمصر .

أما عن كتابة المخطوط ذاته فلدينا الأدلة المادية الكافية على أنها ترجع تحقيقاً إلى القرن الرابع الهجرى ، أعنى إلى عصر الفسطاط . وقد رجعنا إلى التحقيق والمقارنة بعدد من مخطوطات ووثائق أخرى بدار الكتب ترجع تحقيقاً إلى عصر الفسطاط لأنها تحمل تواريخ كتابتها . وانتهينا من هذه المقارنة إلى أنه يوجد بين هذه الوثائق ، وبين مخطوطنا مشابهات كثيرة واضحة ، سواء فى شكل الكتابة

العام ، أو رسم الأحرف ، أو قواعد الإملاء وغيرها .

ولدينا فوق ذلك دليل آخر هو أن المخطوط يحمل فوق صفحة عنوانه اسمين لعظيمين كانا يمتلكانه ، أحدهما يوسف بن أحمد الدمشقي ، وقد ذيل باسمه ما كتبه ترجمة موجزة لابن زولاق . وقد كان من أكابر الحفاظ ، وكان وزيراً للملك الصالح ونائباً للسلطنة فى أواسط القرن السابع . والثانى هو أحمد بن عبد القادر ابن مكتوم القيسى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ ، وقد كان من أكابر علماء عصره . وامتلاك هذين الرجلين العظيمين لهذا المخطوط ، وفى هذه العصور المتقدمة ، شاهد آخر بنفاسة المخطوط وعراقته .

وعلى ذلك فإنا نستطيع أن نقول بطريق التحقيق ، إن هذا المخطوط إنما هو تحفة أثرية من آثار القرن الرابع الهجرى وآثار عصر الفسطاط ، هذا فضلا عما ترجح لدينا بطريقة تدنو إلى اليقين ، ووفقاً لدلائل وأسانيد أخرى ، أن هذا الأثر النفيس هو بخط مؤلفه الحسن بن زولاق : كتبه نحو سنة ٣٧٠ إلى سنة ٣٨٠ هـ[١] .

---

(١) نشرنا فى هذا الموضوع بحثاً مستفيضا مؤيداً بصور الوثائق المخطوطة المقارنة بجريدة السياسة الأسبوعية (ملحق جريدة السياسة رقم ٢٧٨٥ الصادر فى ٢٩ ابريل سنة ١٩٣٢) . وقد قام بتحقيق هذا المخطوط النفيس ونشره الأستاذان محمد إبراهيم أسعد وحسين الديب (القاهرة سنة ١٩٣٣).

الفصل الثالث

قصة غـــرام فاطمية

تقدم إلينا صحف القصور الإسلامية طائفة من القصص الغرامية الشائقة التى امتزجت بسير الخلفاء والسلاطين . بيد أن هذه القصص المشرقية ، بالرغم من ألوانها المشجية المؤسية أحياناً ، لا تحمل دائماً ذلك الطابع الروائى العنيف الذى يبدو فى قصص الحب فى القصور الغربية . ويرجع ذلك أولا إلى روح العصور ، وثانياً إلى تباين الخلال والنظم الاجتماعية . ففى القصور الإسلامية ، كان يغلب دائماً ذلك التحفظ ، الذى يسبغ ستاراً من الصمت والكتمان، على حوادث وسير لا تحمد إذاعتها ، وتتقى آثارها بين الكافة . وكان نظام التسرى الذى يعمر قصور الخلفاء والسلاطين بأسراب الجوارى الحسان من مختلف الأمم والأجناس ، يحول دون اضطرام هذه العواطف والنزعات العنيفة ، التى كثيراً ما تضطرم فى قصور الغرب ، وتحمل فى طريقها عروشاً أو تؤثر فى مصاير أمم ومجتمعات . ومن النادر أن نرى فى التاريخ الإسلامى جارية أو خليلة ، حظية خليفة أو سلطان ، تسيطر على أقدار الدولة ومصايرها ، بمثل ما كانت تسيطر غانية مثل پومپادور أو دوبارى على أقدار فرنسا فى عهد لويس الخامس عشر ، أو نرى ملكاً وإمبراطوراً عظيماً كإدوارد الثامن ، يهجر أعظم العروش وأجلها قدراً ، فى سبيل حب ليس فيه من الروعة والجمال ، ما يتناسب مع روعة التضحية التى أقدم عليها .

بيد أننا نظفر فى صحف القصور الإسلامية مع ذلك ببعض السير الغرامية العجيبة ، التى تطبعها ألوان روائية تذكى الخيال إلى الذروة . ولولا أن الرواية الإسلامية تحجم فى كثير من الأحيان عن الإفاضة فى تلك السير الشائقة ، وتكتفى بإيراد الروايات الموجزة عنها ، لكان لنا منها تراث روائى ساحر ، لا يقل فى روعته وجماله وتباينه، عما تقدمه إلينا قصص الحب الغربية الشائقة .

مثال ذلك قصة الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله وحبيبته البدوية ، فهى

فى الواقع نموذج ساحر من ذلك القصص الغرامى الذى يصلح بموضوعه ومناظره وألوانه ، موضوعاً لمسرحيات من الطراز الأول فى سحرها وروعتها .

ولى الآمر بأحكام الله الخلافة وهو طفل فى نحو السادسة من عمره سنة ٤٩٥هـ (١١٠٢ م) ، رفعه إليها أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه وزير أبيه الخليفة المستعلى ، وجده المستنصر من قبل ، والمتغلب على الدولة والمستأثر بسلطانها . ونشأ الأمير فى كنف هذا الوزير الطاغية ، كما ينشأ جميع الأمراء الذين ليس لهم من الملك غير رسومه ومظاهره ، محجوباً فى قصره ، مغموراً بأنواع الملاهى والمسرات ، بيد أنه مع ذلك كان طموحاً ينزع إلى السلطان والبطش ، فلما بلغ أشده ،وشعر بوطأة المتغلب عليه ، أخذ يتربص به ،حتى استطاع أن يدبر مصرعه ، وقتل الأفضل سنة ٥١٥ هـ ، وتولى مكانه المأمون البطائحى ، وقبض مثل سلفه على السلطة بقوة وحزم ، فلم يلبث أن لقى نفس مصيره ، فقتل فى سنة ٥١٩ هـ ؛ واستأثر الآمر عندئذ بكل سلطة ، وأطلق العنان لأهوائه وإسرافه وبذخه . وكان الآمر مرحاً ، مضطرم النفس والأهواء ، مشغوفاً بحياة اللهو والطرب ، وافر السخاء والبذل ، يعشق البذخ الطائل ، وكان يهيم بالجوارى والحسان ، لا يطيق الحياة دون حب وهوى ، وكان يشغف بفتيات البادية بنوع خاص ، وله مع إحداهن قصة غرام مؤثرة تنقلها إلينا الرواية فى ألوان ساحرة ، فكأنما تقرأ فيها ، كما تذكر الرواية ذاتها ، فصلا من فصول ألف ليلة وليلة ، أو ما يشابهها من القصص العجيب المغرق .

كان الآمر يهيم كما قلنا بفتيات البادية ، ويرسل فى أثرهن رسله وعيونه ، يجوبون البوادى والنجوع ، ويبحثون عن روائع الجمال الساذج فى ثنايا الخيام ، وفى مهاد البداوة النقية ، فنقل إليه بعضهم أنه عثر ببعض أحياء الصعيد ، بجارية عربية هى مثال رائع للجمال العربى ، آية فى الحسن والرشاقة والظرف ، أديبة شاعرة ، وافرة الذكاء والسحر . وإلى هنا تبقى القصة عادية ليس فيها ما يثير الدهشة . بيد أن الرواية تجنح بعدئذ إلى نوع من القصص الرائع ، فتقول لنا إن الخليفة الآمر لما سمع بخبر هذه الفتاة البارعة فى الحسن وفى الجمال ، أراد أن يراها بنفسه قبل أن يتخذ فى شأنها أى إجراء ، فتزيا بزى الأعراب ، وغادر قصره بالقاهرة ، وسار إلى الصعيد ، وأخذ يتجول بين الأحياء حتى وقف على حيها ،

واستطاع أن يتصل بأهلها دون أن يعرفوه ، وأن يظفر برؤيتها ، وتأمل محاسنها ، فما أن رآها حتى اضطرمت جوانحه بحبها ، وأسرع بالعودة إلى القاهرة ، وقرر فى الحال أن يخطب هذه الفتاة التى تيمته حباً ، وأن يتزوج بها ، وبعث الآمر إلى أهل الفتاة برغبته ، فبادروا إلى تحقيقها فرحين مغتبطين ، وأرسلوا بالفتاة إلى القاهرة ، حيث حملت إلى القصر ، وغدت فى الحال زوجة للخليفة ، وسيدة البلاط الفاطمى .

وإلى هنا ينتهى أول فصل فى القصة ، وهو فصل لا تنقصه عناصر الخيال الممتع . ثم أن فتاة البادية العالية — وكان هذا اسمها — بعد أن سكنت إلى حياة القصر الباذخة حيناً ، وأفاقت من دهشتها الأولى ، أخذت تشعر بثقل هذه الحياة الناعمة على مافيها من متاع ونعماء وترف مستمرة ، وتبدو لها جدران القصرالعالية ، وأبهاؤه الفخمة ، كأنها ظلام السجن ، وأخذت تحن إلى فضاء القفر الشاسع ، وهوائه النقى الساذج ، كما تحن الطيور فى أقفاصها إلى فضاء السماء ، أو كما تحن الأسود المعتقلة إلى أحراجها وأدغالها ، رغم ما تتمتع به فى سجنها من وافر العناية . فلما رأى الخليفة الآمر ما أصاب حبيبته من الاكتئاب والوحشة ، دفعه الخيال إلى أن يلتمس لها متعة الفضاء التى تنشد على طريقته الملوكية ، فأمر أن يقام لها على النيل فى جزيرة الفسطاط (الروضة) منتزهاً عظيماً ، يضم بستاناً ساحراً وأجنحة ملوكية بديعة ، وسمى هذا المتنزه الرائع الذى لبث مدى حين من محاسن الدولة الفاطمية « بالهودج » ، فكان للتسمية مغزاها فى التشبيه بالهودج الذى هو خباء السفر فى البادية ، وأنس روح البدوية الهائم مدى حين إلى الرياضة فى «الهودج » ، والتمتع بمناظره الرائعة ، ونسماته العليلة ، بيد أنها لم تنس قط وهج القفر ، وسحر الفلاة .

وإليك فصلا ممتعاً آخر من تلك القصة الغرامية الرفيعة . لقد ظفرت «العالية» بغزو قلب صاحب الخلافة والعرش ، وغدت سيدة القصر والبلاط ، ولكن ذلك لم يكن منتهى آمالها وسعادتها . ذلك لأن قلبها البدوى المضطرم ، كان يخفق منذ أيام البادية بهوى فتى من بنى عمومتها يدعى ابن مياح ، ربيت معه فى الحى منذ الطفولة ، وكان فتى رقيق الخلال وافر السحر ، فلما حملت إلى قصر الخليفة لم تخمد فى قلبها جذوة حبه ، ولبثت فى قصرها تتجه بخيالها إليه . وفى ذات يوم

هزها الشوق إليه فبعثت إليه من قصر الخلافة بهذه الأبيات :

يا ابن مياح إليــك المشتكى ... مالك من بعدكم قد ملكا
كنت فى حبى مطاعاً آمــراً ... نائلا ما شئت منكم مدركا
فأنا الآن بقصر موصــــد ... لا أرى إلا حبيبــاً ممسكا
كم تثنينا بأغصـــان اللـــوا ... حيث لا نخشى علينــا دركا
وتلاعبنــا برملات الحمى ... حيثما شــاء طليق ســلكا

وتقول الرواية ، فأجابها ابن مياح بهذه الأبيات :

بنت عمى والتى غــذيتهــا ... بالهــوى حتى علا واحتبكا
بحت بالشكوى وعندى ضعفها ... لو غدا ينفع فيها المشتكى
مالك الأمر إليك يشــتكى ... هالك وهو الذى قد هلكا
شأن داود غـــدا فى عصرنا ... مبدياً بالتيه ما قد ملــكا

ثم تقول الرواية : ووقف الخليفة الآمر على سر هذه المراسلة ، وقرأ أبيات ابن مياح ، فقال لو أنه لم يسىء إلىّ فى البيت الرابع ، لرد الجارية إلى حبه وزوجها منه .

وأثارت هذه القصة نفس شاعر معاصر من بنى طىء يدعى طراد بن مهلهل ، فنظم أبياتاً ينحى فيها على الآمر باللائمة ويخاطبه بما يأتى :

ألا بلغوا الآمــر المصطفى ... مقــال طراد ونعم المقــال
قطعت الأليفين عن ألفــة ... بها سمر الحى بين الرجــال
كذا كان آباؤك الأكرمون ... سألت فقل لى جواب السؤال

فغضب الآمر حينما وقف على هذا الشعر ، وقال جواب السائل قطع لسانه على فضوله ، وبعث فى طلب طراد فى أحياء العرب ، ففر منه واختفى .

ولبث الآمر بعد ذلك أعواماً ، يطلق العنان لأهوائه ، وينعم إلى جانب حبيبته العالية ، ويتردد معها إلى متنزه « الهودج » . وكان الآمر يثير سخط فريق من الزعماء ورجال الدولة بما جنح إليه من تمكين النصارى من مناصب الثقة والنفوذ ، وما كان يمعن فيه من اللهو والبذخ والاستهتار بالرسوم والتقاليد . ففى ذات يوم من أيام ذى القعدة سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) ركب من القصر كعادته إلى « الهودج » للتنزه ، فلما وصل إلى رأس الجسر الموصل إلى الهودج ، وثب عليه قوم قد كمنوا

له ، وأثخنوه طعناً بخناجرهم ، فحمل جريحاً إلى قصر اللؤلؤة على مقربة من مكان الجريمة ، ولكنه لم يلبث أن توفى ، ولم يجاوز الخامسة والثلاثين .

وكان الآمر بأحكام الله شاعراً مجيداً ، وله نظم قوى مؤثر ، فمن نظمه قوله :

دع اللوم عنى لست منى بموثق   فلا بد لى من صدمة المتحقق
وأسق جيادى من فرات ودجلة   وأجمع شمل الدين بعد التفرق

* * *

تلك هى قصة الآمر بأحكام الله مع حبيبته العالية ، وهى قصة تجمع بين حقائق التاريخ ومتاع القصة ، ولا ريب أن الرواية قد أسبغت عليها حواشى وألواناً خلابة ، مصدرها الخيال الشائق . بيد أنها تحتفظ مع ذلك بطابعها التاريخى . ولقد عرج كثير من كتاب المسرح عندنا على بعض الوقائع والمآسى التاريخية واتخذوها موضوعاً لمسرحياتهم ، بيد أنها قلما تتمتع بذلك الطابع الروائى الخلاب الذى تتمتع به قصة الآمر بأحكام الله مع حبيبته العالية . ألم يقف أحدهم بتلك القصة الفاطمية الشائقة التى وقعت بمصر فى خلافة تنثر من حولها آيات الفخامة والبذخ الرائع ؟ إن صحف التاريخ الإسلامى تقدم إلينا كثيراً من القصص الرقيق المؤثر ، فهلا فكر كتاب المسرح فى ورود هذا المنهل الغزير ، والاقتباس من طرائفه . وإن المسرح المصرى ليبدو أروع وأبدع ، وأوفر سحراً وفتنة ، إذا استطاع كتابنا أن يتحفوه ببعض هذه المناظر القوية الشائقة التى تبذ فى ألوانها ، وفى روعتها وبهائها ، كثيراً مما ينقلون إلينا من تراث المسرح الغربى[1].

---

(١) راجع خطط المقريزى (بولاق) ج ١ ص ٤٨٥ .

الفصل الرابع

معـــارك قَلَمِيّة مصـــرية

فى القرن التاسع الهجرى

« تطبع نهضة الأدب فى مصر اليوم نزعة إلى إيثار المباحث الغربية ، وإهمال الآداب القومية ، وقلما يتطلع كتابنا إلى الماضى وتراثه ، بفكرة أنه لا يضم ما يشوق ويثير الاهتمام ، وهم يخطئون فى هذا الاعتقاد أشد الخطأ ، فللآداب المصرية ماض باهر ، وفى تراثها من المحاسن والطرائف والمواقف الشائقة ، ما يجب أن يثير فى عصرنا أشد الاهتمام . وها نحن نتناول فى هذا الفصل أحد هذه المواقف الطريفة الشائقة فى الأدب المصرى فى القرن الخامس عشر ، عسى أن يكون نموذجاً يحفز كتابنا إلى العناية بمباحث الأدب القومى » .

يتبوأ النقد الأدبى فى الحركة الفكرية أسمى مكانة ، وله فى تطور التفكير والكتابة أكبر الأثر . وتلقى المعارك الفكرية والقلمية فى وسائل النشر الحديثة وبالأخص فى الصحافة والطباعة أداة قوية للنضال والجدل ، وإحداث آثارها المنشودة فى التنويه بالنبوغ والابتكار والبراعة ، أو محاربة العبث والادعاء والخطل . ومن الصعب أن نتصور النقد ، دون الطباعة والصحافة ، يغزو دوائر التفكير والأدب ، ويحدث فيها مثل هذه الآثار . غير أن المعارك القلمية والفكرية كانت أيضاً قبل الطباعة والصحافة ، ظاهرة قوية فى سير الحركات الأدبية ، وكانت تنشب أحياناً قوية ملتهبة ، فتحدث أكبر الأثر ؛ وتطبع التطور الأدبى بطابعها العميق .

وقد شهدت الحركة الفكرية فى مصر فى القرن التاسع الهجرى (أو القرن الخامس عشر الميلادى) طائفة من هذه المعارك الأدبية المضطرمة . وكانت الحركة الأدبية فى مصر يومئذ فى ذروة الازدهار والقوة ، يحمل لواءها جمهرة كبيرة من زعماء التفكير والكتابة . ويكفى أن تعلم أن ابن خلدون ؛ والمقريزى ، وابن حجر ، والعينى ، وابن تغرى بردى ، والبقاعى ، والسخاوى ، والسيوطى [1]

(١) توفى ابن خلدون سنة ٨٠٨ هـ ، والمقريزى سنة ٨٤٥ ، وابن حجر سنة ٨٥٢ ؛ والعينى —

اجتمعوا جميعاً ؛ واجتمعت جهودهم الفكرية والأدبية فى هذه الحقبة من تاريخ مصر الأدبى . وكان اضطرام المنافسة بين أعلام التفكير والأدب يومئذ ، سواء فى ميدان التفوق والنبوغ ؛ أو فى تحصيل ما تسبغه الزعامة الأدبية من النفوذ والجاه والرزق ، يقوى نزعة الجدل والنقد . فنرى منذ فاتحة القرن التاسع هذه النزعة واضحة فى أدب هذا العصر ، ماثلة بالأخص فى انقسام المجتمع القاهرى الأدبى إلى شيع وطوائف ، تنحاز كل شيعة أو طائفة إلى زعيم معين أو جناح معين من الزعماء ، فتؤيد جهوده الأدبية ؛ وتناجز خصومه فى ميدان الجدل . وكانت حلقات الأدب تفيض يومئذ بصور من هذه الخصومة ، التى كثيراً ما كانت تحدث أثرها فى الشئون العامة . مثال ذلك ما حدث بين ابن خلدون والبساطى من منافسة شديدة على منصب قاضى قضاة المالكية ؛ إذ كان يشغله كل منهما بضعة أشهر ، ثم يسقط بسعى خصمه وسعى الجناح الذى يؤازره من الفقهاء والأدباء[١] ، وما حدث من تنافس بين المقريزى وبدر الدين العينى على منصب المحتسب العام حيث تبادلاه مراراً بالتعاقب وكل تؤازره فى ذلك عصبة من الأنصار والتلاميذ[٢] . وما حدث من منافسات لا حصر لها بين جمهرة الأدباء والكتاب فى هذا العصر على ولاية القضاء والإفتاء والتدريس وكتابة الدواوين ، والتقرب من الأمراء والخاصة ، مما نراه ماثلا فى تواريخ هذا العصر وسيره وتراجمـــه .

على أن النقد الأدبى فى مصر اتخذ فى القرن التاسع سبيلا آخر ، هو سبيل التراجم المعاصرة ؛ فتجد منذ بداية هذا القرن زعماء التفكير والكتابة يعنون بترجمة أقرانهم ومعاصريهم فى معاجم مستفيضة . وفى هذه التراجم يُطلق العنان للنقد الأدبى بصورة قوية لم يعرفها الأدب المصرى من قبل . وكثيراً ما يغشى الغرض وقصد الانتقاص هذه التراجم ، فنجد فيها الحملات القوية المتبادلة بين أقطاب الكتاب والمتنافسين ، كل يجرى قلمه فى معجمه بما شاء فيمن شاء من أساتذته أو أقرانه ومعاصريه ، ولدينا من معاجم الترجمة المعاصرة فى هذا القرن

= سنة ٨٥٥ ، وابن تغرى بردى سنة ٨٧٤ ، والبقاعى سنة ٨٨٥ ، والسخاوى سنة ٩٠٢ ؛ والسيوطى سنة ٩١١ .

(١) راجع حسن المحاضرة للسيوطى (طبع مصر سنة ١٣٢٠ هـ) — ج ٢ ص ١٢٣ .

(٢) التبر المسبوك للسخاوى (بولاق) ص ٣٧٧ .

سلسلة متصلة الحلقات ؛ بدأها المقريزى بمعجمه ، درر العقود الفريدة[١] ، وابن حجر ، بالدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة[٢] ، والأول عام فى موضوعه ، ولكنه يتناول طائفة كبيرة من معاصرى المقريزى وأساتذته وأقرانه ؛ والثانى خاص بأعيان القرن الثامن لغاية خاتمته ، ومنهم طائفة من معاصرى المؤلف . ثم يليهما أبو المحاسن ابن تغرى بردى فى معجمه ، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى[٣] ، الذى يبدأ فيه تراجم الأعلام منذ المعز أيبك التركمانى زوج شجرة الدر وملك مصر ، أعنى منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى إلى منتصف القرن الخامس عشر ، أعنى إلى عصره ؛ وفيه أيضاً تراجم طائفة كبيرة من معاصرى المؤرخ وأساتذته وأقرانه . وفى التراجم المعاصرة لهؤلاء المؤرخين ، تهب روح من النقد ؛ ولكن يطبعها الاعتدال والرفق ، وأكثر ما تميل إلى التصوير والتقدير دون الهجوم والانتقاص ، ولكن هذه الروح تنمو بعد ذلك وتشتد ، فإذا كانت أواخر القرن التاسع ، بلغت حد الاضطرام وغدت معارك قلمية ملتهبة . وزعيم هذه المعارك الأدبية الشهيرة ومثير ضرامها ، هو شمس الدين السخاوى المحدث والمؤرخ والناقد البارع ، ولد بالقاهرة سنة ٨٣١هـ ، وتوفى بالمدينة المنورة سنة ٩٠٢ (١٤٢٨-١٤٩٧م) . وظهر منذ منتصف القرن التاسع بين أعلام هذا العصر ، ولبث زهاء نصف قرن فى طليعة الحركة الفكرية والأدبية ، يتزعم جناحاً قوياً منها ويطبعه بطابعه . ولا يتسع المقام هنا للاحاطة بجهود السخاوى الأدبى ، ولكنا نريد أن نستعرض طرفاً من كفايته النقدية ، ولمحة من تلك العاصفة الهائلة التى أثارها بقلمه فى دوائر التفكير والأدب ، وجعلت من المجتمع القاهرى الأدبى أحزاباً وشيعاً ، تتبادل أمر الحملات والتهم ، وتبث إلى الروح الأدبى نزعة إلى الثورة والعنف لم يعرفها قط من قبل .

كان السخاوى ينظر إلى مجتمع الأدب فى عصره بمنظار ثاقب ، وكانت

(١) لم يصل إلينا من « درر » المقريزى سوى قطعة صغيرة .

(٢) ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب منقولة عن نسخة بخط المؤلف ، ولكنها ناقصة فى بعض أجزائها (رقم ١٠٢ تاريخ) . وقد نشر فى الهند (حيدر اباد) ومصر .

(٣) حصلت دار الكتب على نسخة فتوغرافية من « المنهل الصافى » فى ثلاثة مجلدات ضخمة (رقم ٣٣٥٥ تاريخ) وقد بدىء بنشره . وصدر منه المجلد الأول بعناية دار الكتب .

الترجمة عنده أكثر من رواية : كانت أداة للتصوير والتقدير ، وكان النقد الذى تحتويه هذه الترجمة أكثر من مديح عادى أو تجريح مبتذل ، فالسخاوى إذ يترجم ، يذهب فى مناحى التصوير القوى كل مذهب ، ويبدى فى تقديره فنوناً من الابتكار المدهش ، فالسخاوى إذ يمتدح فانه يمتدح بمقدار ، ويضن بهذا الثناء الجزاف الذى ينبو عن الدقة والذوق الحسن ، ولكن السخاوى إذ يجرح فإنه يغلو فى كثير من الأحيان ، وتطبع نقده نزعة قوية إلى الانتقاص والهدم ، بل تحمله هذه النزعة أحياناً بعيداً عن مواطن الرزانة والدقة ، وتنم لديه عن حفيظة تضطرم ، وغيرة لاذعة ، وتحامل ظاهر .

وهذه النزعة الهدامة تسيطر على قسم كبير من أثره الضخم « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » الذى ترجم فيه أكابر هذا القرن منذ بدايته . والضوء اللامع أثر فريد فى بابه ؛ لا من حيث موضوعه ولكن من حيث فنه وأسلوبه ، ففيه يرتفع السخاوى ، رغم مايحفزه من شغف التجريح والهدم ، إلى أسمى ضروب الابتكار والبراعة فى التصوير والتحليل والعرض ، وفيه يستحيل النقد الأدبى من الرواية المجردة إلى فن حقيق ، ويتخذ الأسلوب النقدى صبغة محدثة شبه علمية . كان السخاوى متقدماً عن عصره بمراحل ، وكان فى القرن التاسع الهجرى أو القرن الخامس عشر الميلادى ، يقوم بنفس الدور الذى قام به سانت بيف Sainte Beuve[1] ، النقادة الفرنسى فى أواسط القرن التاسع عشر فى النقد الأدبى . وكما أن سانت بيف تناول مجهود أقرانه وكتاب عصره ، بالتحليل العميق ، وغالباً بالنقد اللاذع . وكما أنه كان فى فصوله الشهيرة « حديث الاثنين » Causeries du Lundi فناناً قوى التصوير ؛ ولكن صارم الوطأة قليل العطف ، كثير التنقيب عن مواطن الضعف ؛ فكذا تناول السخاوى فى « الضوء اللامع » مجهود أقرانه ومعاصريه وأساتذته وتلاميذه بنوع من التحليل الدقيق ، والتصوير البارع ، ولكن نزعة الهدم تغلبه فى أحيان كثيرة ، فيغدو خبيثاً شديد الوطأة

---

(١) سانت بيف ، كاتب وشاعر ونقادة فرنسى كبير ، ويعتبره البعض أعظم النقدة الأدبيين فى العصر الحديث . ولد سنة ١٨٠٤ وتوفى سنة ١٨٦٩ . ودرس الطب ، ولكنه مال إلى الأدب وظهر منذ حداثته بقوة الجدل والملاحظة ودقة التصوير والنقد . وكان صارماً شديد الوطأة فى ملاحظاته ، ومعظم كتاباته فى النقد الأدبى ، وأعظمها جميعاً فصوله الشهيرة المعروفة بحديث الإثنين **Causeries du Lundi** وهى نماذج باهرة للنقد الأدبى الفائق وتقع فى خمسة عشر مجلداً .

لاذع التجريح ، ظاهر التحامل . وكما أن سانت بيف كان أستاذ النقد الأدبى فى عصره ، وكان يقود الحركة الأدبية من هذه الناحية ويطبعها بطابعه القوى ، ويصول بقلمه المرهف على كتاب عصره ، فكذا كان السخاوى محرر النقد الأدبى فى عصره ، بل هو فى نظرنا أستاذ النقد فى الأدب المصرى كله . وكان مدى نصف قرن يتزعم جناحاً قوياً من الحركة الأدبية ويطبعه بطابعه القوى ، ويشخن بقلمه طعناً فى معظم أقرانه ومعاصريه . وأخيراً نرى عاطفة الزهو والاعتداد بالنفس تجمع بين الرجلين ، فسانت بيف يقول عن فصوله النقدية أعنى « حديث الاثنين » أنها « كانت إشارة بعود الآداب » كأنه لم تكن ثمة قبل سانت بيف آداب حقيقية ، ولا كان نقد صحيح . وأما السخاوى فيجعل نفسه أستاذ عصره ، وحكماً على أكابر عصره ، له الكلمة الأخيرة فيما يقضى به من مديح وتزكية ؛ أو تجريح وانتقاص ؛ وإليك ما يقول فى مقدمة الضوء اللامع :

« ولكنى لم آل فى التحرى جهداً ، ولا عدلت من الاعتدال فيما أرجو قصداً ، ولذا لم يزل الأكابر يتلقون ما أبديه بالتسليم ، ويتوقون الاعتراض ، فضلا عن الإعراض عما ألقيه والتأثيم ، حتى كان العز الحنبلى والبرهان بن ظهيرة المعتلى يقولان ، إنك منظور إليك فيما تقول ، مسطور كلامك المنعش للعقول . وقال غير واحد ممن يعتد بكلامه ... من زكّيته فهو العدل ، ومن مرّضته فالضعيف المعلل ... بل كان بعض الفضلاء المعتبرين يتمنى الموت فى حياتى لأترجمه بما لعله يخفى عن كثيرين »[1].

بهذا الزهو وهاته الكبرياء يتقدم السخاوى إلينا بمجهوده . ومثل هذه التقدمة يعتبر فى عصرنا غلواً وإغراقاً ، بل يعتبر غروراً مذموماً وسفاهة مرذولة . ولكنا نستطيع أن نلتمس عذراً للسخاوى فى روح عصره الأدبى ، وقد كان كما رأينا يضطرم بعوامل التنافس والحقد والغيرة والجدل الملتهب ، وقد أثار هذا الروح فى كتاب ذلك العصر نوعاً من الزهو والاعتداد بالنفس لم ينفرد به السخاوى . فالسيوطى مثلا لم يجد بأساً من أن يقول عن نفسه فى ترجمته « ورزقت

---

(١) راجع مقدمة « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » ومنه نسختان فتوغرافيتان بدار الكتب المصرية الأولى رقم ٦٧٥ تاريخ والثانية رقم ٦٢٦ تاريخ ، وقد طبع « الضوء اللامع » فى القاهرة فى اثنى عشر مجلداً (مطبعة القدسى سنة ١٣٥٣ — ١٣٥٥ هـ) .

التبحر فى سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة . والذى أعتقده أن الذى وصلت إليه من هذه العلوم السبعة سوى الفقه ، والنقول التى اطلعت إليها لم يصل إليه ولم يقف عليه أحد من أشياخى فضلا عمن هو دونهم ... ولوشئت أن أكتب فى كل مسألة ، مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ، ومداركها ونقوضها وأجوبتها ، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها ، لقدرت على ذلك من فضل الله . . . »[١].

ونستطيع من جهة أخرى أن نغتفر للسخاوى كثيراً من هذا الميل الواضح إلى الزهو والاعتداد بالنفس ، فمن حق السخاوى أن يشمخ بمكانته الأدبية ، وأن يتبسط فى الاعتزاز بها والتدليل عليها . فالسخاوى ذهن كبير جرىء ، وقلمه ريشة فنان ماهر ؛ وشعلة مضطرمة من التصوير القوى والنقد اللاذع ، الهدام فى كثير من الأحيان . وإذا كان السخاوى يغلو فى مهاجمة كثير من أعيان قرنه ، فليس من ريب فى أن المجتمع الأدبى ، قد شعر يومئذ بشدة وطأة هذا القلم الذى ينزع إلى القسوة والخصومة ، والتنقيب عن الهنات والسقطات ، أكثر مما ينزع إلى استجلاء الفضائل ، بل شعر المجتمع الأدبى أن السخاوى يقدم فى أثره الضخم أعنى « الضوء اللامع » نوعاً جديداً من التصوير والتقدير ، يجب أن يحسب حسابه ، وأن تتقى آثاره . وقد أحدث السخاوى بكتابه ثورة فى دوائر الأدب ، تجاوب صداها ، لا فى مصر وحدها ، ولكن من قاصية الشام إلى قاصية بلاد العرب ، وكانت شهرة السخاوى الأدبية ذائعة فى دمشق ومكة ، ذيوعها فى القاهرة[٢]. وكم من خصومة كانت تضطرم حول ما يرسله هذا القلم الجرىء من سهام الانتقاص والتجريح . وكم من هيبة علمية متينة خدشها ؛ وكم حقد آثاره . ولو كانت المبارزة جائزة فى عرف هذه العصور ، لنشبت بين السخاوى وبين معاصريه مبارزات لانهاية لها ، كما انتهى سانت بيف إلى مبارزة بعض خصومه ، ولسال الدم نتيجة لهذا النضال القلمى الملتهب . ولكن القلم قام مقام السيف ، كما سنرى ، فى هذه المعارك الأدبية الفريدة .

---

(١) راجع ترجمة السيوطى لنفسه فى حسن المحاضرة — ج ١ ص ١٥٧ .

(٢) راجع « الضوء اللامع » القسم الأول — ج ١ ص ٣٨ و ٤٠ و ٨٤ و ٨٥ و ٨٨ ففيها ما يؤيد أن السخاوى طاف ، ودرس بالشام ، ومكة والمدينة ، وكان له فيها أقران وتلاميذ .

والسخاوى مبتكر وافر التنوع والطرافة فى تصويره ، سواء فى المديح أو القدح ، وله فى ذلك صور وعبارات تلفت النظر ، ويمتاز بها على جميع كتاب التراجم . مثال ذلك قوله فى وصف بعض الكبراء : « كان خيراً ، ديناً ، صيناً ... عنده حشمة وملوكية ، عاقلا ساكناً مائلا إلى العدل والعفة عن أموال الناس ؛ كثير الرياسة » . وقوله فى ترجمة بعض الفقهاء « وقد درس وصنف وأفتى وحدث وروى ، ونظم ، ونثر ، وتعب وتعقب ، وخطب ، ووعظ ، وقطع ، ووصل وقدم وأخر ... هذا مع الفصاحة والبلاغة ؛ وحسن العبارة المقتضية للأنظار ... ولطف العشرة والظرف والميل إلى النادرة واللطف ؛ ومزيد الزكاء والتفنن ، وسرعة البديهة التى يتضح بها البين ، وطراوة النغمة ، والاعتراف بالنعمة والطبع المستقيم الذى لا يميل غالباً لدنى ولا لئيم ... »[1] ، ثم قوله فى معرض التحريح فى ترجمة أحد الأدباء الوافدين على القاهرة : « وما انشرح الخاطر للاجتماع به مع شدة حرصى على لقاء الغرباء والوافدين واختبار أحوالهم ، وأنه رآه « متصنعاً شريداً فى أكثر كلامه ذا ترهات وألفاظ منمقة ، فيها من التناقض ما يحقق أن أكثرها مما اختلق ، لا يروج أمره إلا على ضعفاء العقول »[2] ، « وفى الضوء اللامع » عشرات من أمثال هذه الصور متنوعة متباينة ؛ تصور مناحى الكفاية ؛ وبوادر الضعف ، فى صيغ طريفة قوية ، وتشهد لمصورها بمقدرة نقدية فائقة .

وأشد ما يبرز السخاوى فى ميدان النقد والتجريح ، فهو عندئذ نقادة لا يجارى ، وعندئذ يغدو صارماً شديد الوطأة ، كثير الخبث ، شغوفاً بالهدم ، ينقب عن مواضع الضعف بمثابرة مدهشة ؛ حتى أنك تلمس فى أحيان كثيرة أثر هذا الشغف فى تتبع السقطات والهنات مما يرغم على إيراده من المآخذ التافهة السخيفة أحياناً ، كلما أعوزته مادة الهجوم والانتقاص . وأحياناً يجد السخاوى فى الخلال والظروف الشخصية منفذاً للطعن ، وهنا يلجأ بخبث إلى النقل عن آخرين ، فيما لا يريد أن يتحمل هو مسئوليته ، لشعوره بضآلة هذا السلاح فى الحط من الأقدار ، فهو مثلا يقول فى ترجمة ابن خلدون بعد أن حمل على خلاله

(١) الضوء اللامع فى ترجمة ابراهيم الكركي – القسم الأول المجلد الأول ص ٧٢ وما بعدها وهى ترجمة ضافية قوية .

(٢) الضوء اللامع فى ترجمة ابراهيم أبو الصفا العراقى المقدسى – القسم الأول المجلد الأول ص ٨٩

وكفاياته : « وقد ترجمه جماعة فقال الجمال البشبيشي ، إنه في بعض ولاياته تبسط بالسكن على البحر وأكثر من سماع المطربات ، ومعاشرة الأحداث ، وتزوج امرأة لها أخ أمرد ينسب للتخليط ؛ فكثرت الشناعة عليه »[١] . ويقول في ترجمة البقاعي نقلا عن النويري : « أنه من أفجر عباد الله ... ليس يأمن من وقع بصره عليه ، على مال ولا عرض بل ولا نفس شغفته بالشهرة . ومشقة للعلو . وعنده جرأة باللسان مفرطة ، وقلبه ممتلىء مكراً وحسداً ، وله في كل من ذلك حكايات تسود الصحائف وتبيض النواصي ؛ ما سكن بلداً إلا أقام بها شروراً وشحنها فجوراً »[٢] . ويقول في ترجمة السيوطي : « لم أزل أعرفه بالهوس ومزيد الترفع حتى على أمه حتى كانت تزيد في التشكي منه »[٣] . وأمثال هذه الحملات والمطاعن الشخصية كثيرة في الضوء اللامع ... وهي ترجع على الأغلب إلى أحد عاملين . إما شغف السخاوي بهدم عبقرية ممتازة وشهرة وطيدة ؛ كما هو الشأن في الحملة على ابن خلدون، وإما إلى خصومات ومنافسات شخصية ؛ كما هو الشأن في الحملة على البقاعي والسيوطي .

وهذه النزعة القوية إلى الهدم تحمل السخاوي بعيداً ، فهو لايكاد يترك شخصية ممتازة في القرن التاسع إلا هاجمها وحاول تجريحها . ولا يكاد يستثني من ذلك إلا بعض شيوخه وأصدقائه . وفي أحيان كثيرة يلجأ السخاوي إلى النقد الأدبي الخطير ، ويحاول تعزيز أقواله ودعاويه ، بتعداد الأخطاء والسقطات المعينة . وله في ذلك مواقف قوية كثيرة ، خصوصاً في ميدان « الكلام » والحديث والإسناد ، والتجريح والتعديل ؛ وأحياناً في ميدان التاريخ ، فقد كان السخاوي محدثاً بارعاً ، ومؤرخاً كبيراً . غير أنه يلجأ في أحيان كثيرة أيضاً إلى الحملات العامة ، والتهم الجزاف ، والمطاعن اللفظية . وهو يستر ضعف هذه الحملات التي لا تستند غالباً إلى أساس علمي ونقد صحيح ، بقوة تصويره وبراعة افتتانه . مثال ذلك حملته على ابن خلدون شيخ الاجتماع والفقه التاريخي ، ومحاولته أن ينتقص من علمه وعبقريته ، وأن ينكر نفاسة مقدمته في عبارات عامة ، وجدل

(١) الضوء اللامع المجلد الثاني القسم الثاني ص ٣٦٨ .

(٢) الضوء اللامع المجلد الأول القسم الأول ص ١٢٨ .

(٣) الضوء اللامع المجلد الثاني القسم الثاني ص ٣٠٥ .

مضطرب[١] ، ثم حملته المرة على تقى الدين المقريزى ، أعظم مؤرخى مصر الإسلامية ، وأستاذ المدرسة التاريخية المصرية فى القرن التاسع ، وهى حملة شهيرة فى تاريخ المعارك الأدبية فى هذا القرن . فقد حمل السخاوى على المقريزى فى الضوء اللامع بشدة ورماه بضعف الرواية والغرض ، ثم التحريف والسقط ، وحاول فى جرأة أن ينسبه إلى الاختلاس ، فاتهمه بأنه سرق « خططه » الشهيرة من مؤرخ معاصر له ، هو شهاب الدين الأوحدى . وجد فى نسبة هذه التهمة إليه أينما استطاع ، فكررها فى كتابه « التبر المسبوك » ، ثم فى كتابه « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ »[٢] ، وهو يصوغ هذه التهمة الخطيرة فى لهجة قاطعة ، ولكن فى جدل مضطرب ، شأنه كلما هاجم شخصية يشعر بقوتها ورسوخ هيبتها ؛ ولكن يحفزه مع ذلك شغف الهدم إلى تجريحها . ويحاول فى نفس الوقت أن يعتصم بثوب الاعتدال والنزاهة فيتردد بين المديح والذم ؛ ويشعر القارئ بما ينوه به من كفايات المقريزى ، أنه حكم عدل لا يحدوه الهوى . وقد عرضنا إلى حملة السخاوى هذه على المقريزى ، وفندناها بإسهاب فى هذا الكتاب ، عند حديثنا عن « خطط المقريزى »[٣] ، فلا حاجة إلى التكرار هنا .

كذا يحمل السخاوى على شخصية ممتازة أخرى من معاصريه ؛ ونعنى أبا المحسن بن تغرى بردى مؤرخ مصر ومؤرخ النيل ، ومؤلف « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر القاهرة » ؛ وغيره من الآثار والوثائق الجليلة فى تاريخ مصر الإسلامية ، ويحاول أن ينتقص من مجهوده التاريخى والأدبى الباهر ، حينما يشيد به فى خبث حين يصف خلاله فيقول : « وبالجملة فقد كان حسن العشرة تام العقل ، إلا فى دعواه فهو حمق ، لطيف المذاكرة حافظاً لأشياء من النظم ونحوه ، بارعاً حسبما كنت أتوهمه فى أحوال الترك ومناصبهم وغالب أحوالهم ، منفرداً بذلك لا عهد له بمن عداهم ، ولذلك تكثر فيه أوهامه وتختلط ألفاظه وأقلامه ، مع سلوك أغراضه وتحاشيه عن مجاهدة من أدبر عنه بإعراضه ، وما عسى أن يصل إليه تركى ». ثم

---

(١) راجع ترجمة ابن خلدون فى « الضوء اللامع » - المجلد الثانى . القسم الثانى ص ٣٦٧ وما بعدها .

(٢) الضوء اللامع فى ترجمة المقريزى - المجلد الأول القسم الثالث ص ٥٣٣ . وفى التبر المسبوك (بولاق) ص ٢١ ، وفى الإعلان بالتوبيخ (المطبوع) ص ١٣١ .

(٣) يراجع هذا الكتاب ص ٥٦ - ٦٢ .

يقول عن كتبه : « وفيها الوهم الكثير والخلط الغزير مما يعرفه النقاد » ، ويحاول بعد ذلك أن يعدد له بعض الأخطاء والسقطات(١).

على أن أشد ما فى هذه الخصومات والمعارك الأدبية اضطراماً وطرافة ، هو خصومة السخاوى مع اثنين من أكبر أقرانه ومعاصريه ، هما البقاعى والسيوطى. فقد لقى السخاوى فيهما خصمين شديدين لا يصبران على كبريائه وتجنيه . وقد اضطرمت بينه وبينهما معارك قلمية ملتهبة ، ورد كل منهما عليه هجومه وحملاته ، وقد كان بينهما وبين السخاوى صداقة وزمالة ؛ ولكن روح الحسد والتنافس الذى كان يعصف يومئذ بمجتمع مصر الأدبى ، على نحو ما بينا من قبل، لم يلبث أن سمم هذه العلائق التى نمت بين الكتاب الثلاثة فى حلقات الدرس ، فاستحالت إلى خصومة ، اضطرم أوارها بين السخاوى وزميليه . وكانت المعارك الأولى بين السخاوى والبقاعى . وكان البقاعى سورياً وفد من الشام على القاهرة كعبة العلوم والآداب يومئذ وظهر فى مجتمعها الأدبى ؛ وكان شخصية جريئة ممتازة ، والظاهر أيضاً أنه كان كثير الخبث والدس يخشى لسانه وقلمه ، وكان طبيعياً أن يصطدم مع ذهن قوى مضطرم كالسخاوى ، يتزعم يومئذ جناحاً قوياً من المجتمع الأدبى . ولسنا نعرف ظروف الخصومة بين الرجلين ، ولكن البقاعى ، وضع حوالى سنة ٨٨٠ هـ معجماً لترجمة شيوخه ومعاصريه أسماه : « عنوان الزمان فى تراجم الشيوخ والأقران »(٢) ، وكان السخاوى ممن ترجم فى هذا المعجم ، ولكن البقاعى يبدى فى ترجمة خصمه منتهى الخبث ، فيخصص له بضعة أسطر فقط ، مع أنه يفيض فى تراجم آخرين ممن لم يبلغوا مرتبة الأعلام . وفى هذه الأسطر القليلة يحاول البقاعى أن يضرب مجد خصمه الضربة القاضية ، فيقول عنه :

وحضر إملاء شيخنا شيخ الإسلام (يريد الحافظ بن حجر) صغيراً ، وكان من جيرانهم ، فحبب إليه الحديث ؛ فلازم مجالسه ودروسه ، وكتب كثيراً من مصنفاته بخطه ، وأقبل على السماع فسمع الكثير جداً ، وقرأ بنفسه ، ودار معنا على الشيوخ ، وكتب الطباق ، ولولا أنه لا يعرف العربية ، لكانت قراءته حسنة ،

---

(١) راجع ترجمة أبى المحاسن بن تغرى بردى فى الضوء اللامع ، ونقلت فى كتاب النجوم الزاهرة (دار الكتب) فى ديباجة الجزء الأول .

(٢) ومنه نسخة فتوغرافية فى أربع مجلدات بدار الكتب رقم ١٠٠١ تاريخ .

وما زال يمارس الأجزاء والكتب ، حتى مهر فى العالى والنازل فى مدة يسيرة ، وصار يشار إليه بين أهل الفن ... »[١] .

وهذا كل ما قال البقاعى فى ترجمة السخاوى ، فهو فى نظره « لا يعرف العربية » « ولا يحسن القراءة » ، وهو لا يستحق أن يترجم فى أكثر من بضعة أسطر ، مع أن السخاوى كان علم الأعلام يومئذ ؛ وكان قد تسنم ذروة الزعامة الراسخة فى الحديث والتاريخ والأدب . ثم سنحت الفرصة للسخاوى ، ليرد فى معجمه هجمات خصومه ؛ فترجم البقاعى كما ترجمه ، ولم يوجز مثله ، بل أطلق العنان لنفثاته اللاذعة ، ومزق ذكرى خصيمه — وكان قد توفى يومئذ — فى عدة صفحات ، تفيض بمر المطاعن والمثالب . يصفه فى مستهلها بقوله :

« صاحب تلك العجائب والنوائب والقلائل والمسائل المتعارضة المتناقضة ... دخل بيت المقدس ثم القاهرة لاستفتاء على أهلها ، وهو فى غاية من البؤس والقلة والعرى . . . ، وما علمته أتقن فناً ، ولا بلغ مرتبة العلماء ، بل قصارى أمره إدراجه فى الفضلاء ، وتصانيفه شاهدة بما قلته ... » .

ثم يقول : « وكنت ممن سمعت بقراءته ، وسمع بقراءتى ، واستفاد كل منا من الآخر ، على عادة الطلبة فى ذلك ، وترجمنى فى معجمه ؛ ووقائعه كثيرة وأحواله شهيرة ؛ ودعاويه مستعيدة ، أهلكه التيه والعجب وحب الشرف والسمعة ، مع رميه الناس بالقذف والفسق والكذب ، وذكر الألفاظ التى لا تصدر من عاقل ، وأمور متناقضة وأفعال سيئة وحقد تام » .

ونقل فى حقه عن النويرى تلك العبارات المثيرة التى قدمناها ، وهى : « أنه من أفجر عباد الله ... ليس يأمن من وقع بصره عليه على مال له ولا عرض ولا نفس ، شغفته بالشهرة ومشقة للعلو ، وعنده جرأة باللسان مفرطة ، وقلبه ممتلىء مكراً وحسداً ، وله فى كل من ذلك حكايات تسود الصحائف ، وتبيض النواصى ، ما سكن بلداً إلا أقام بها شروراً وشحنها فجوراً » .

ثم يرميه بعد ذلك بالهوى والغرض ، ويتهمه بأنه كان يغير فى تراجم معجمه كلما ساقه الغرض أو المصلحة لذلك ، ويعدد له كثيراً من الأخطاء والمتناقضات[٢]

---

(١) عنوان الزمان — نسخة دار الكتب الفوتوغرافية . ج ٣ ص ٥٦٥ .

(٢) راجع ترجمة « ابراهيم البقاعى » فى الضوء اللامع — المجلد الأول — القسم الأول — ص ١٢٣ — ١٣٣ .

وتنم لهجته فى ذلك كله ، عن حقد دفين لذلك الذى اجترأ على مقاومته ، وحاول أن ينتقص من قدره .

* * *

وثمة نفثة مضطرمة أخرى للسخاوى فى حق تلميذه وصديقه ، ثم منافسه وخصيمه القوى جلال الدين السيوطى . فقد كانت بين الرجلين معارك قلمية ملتهبة ، اهتزت لها مجتمعات الأدب يومئذ ، واتخذت سبيلها الرسمى فى الترجمة المتبادلة ، ثم فى غير الترجمة أيضاً من الرسائل والكتابات . وكان اضطرام هذه هذه المعارك يرجع بنوع خاص إلى ما كان بين الرجلين من اشتراك فى ميدان البحث ونواحيه . فقد كان كلاهما محدثاً كبيراً يدعى زعامة الحفظ والحديث فى عصره ، وكلاهما مؤرخ وأديب ، وقد اصطدما غير مرة فى ميدان بحث واحد ، وخاضا فى أكثر من موضوع واحد ، ونسب كلاهما صاحبه إلى النقل منه ، وإلى الاختلاس والتزييف . ويجب أن نذكر أن تهمة الاختلاس الأدبى هذه من خواص حملات السخاوى ، رددها فى كتبه غير مرة فى حق جماعة من أكابر قرنه ، وفى مقدمتهم المقريزى كما قدمنا . والظاهر أنها كانت أيضاً من خواص النقد الأدبى والمعارك الأدبية فى هذا القرن . وقد كان التراشق بهذا الاتهام عماد الخصومة بين السيوطى والسخاوى . ويستهل السخاوى ترجمته للسيوطى بالإشارة إلى أيام صداقتهما فى قوله :

« ولازمنى « أى السيوطى » دهراً ، وكتب إلى فى نثر طويل : « وقد تطفلنا على شمول سخائه ، وأنخنا ركاب شدتنا ، برحاب رجائه » ومدحنى بغير ذلك من نظم ونثر ، كما بينته فى موضع آخر ... ، ثم يقول :

ثم انجمع « أى السيوطى » ، وخاض فى فنون ... واختلس حين كان يتردد إلى مما عملته كثيراً « كالخصال الموجبة للضلال » و « الأسماء النبوية » ... وما لا أحصى ، بل أخذ منى كتب المحمودية وغيرها من التصانيف المتقدمة التى لا عهد لكثير من العصريين بها فى فنون ، فغير فيها يسيراً ، وقدم وأخر ، ونسبها لنفسه . وأول ما أبرز جزء له فى تحريم المنطق جرد من مصنف لابن تيمية ، واستعان بى فى أكثره ، فقام عليه الفضلاء ، بحيث كفه العلم البلقينى عنه ، وأخذ ما كان استكتبه به فى المسألة . ولولا تلطفى بالجماعة لكان ما لا خير فيه .

وكذا درس جمعا من العلوم بجامع ابن طولون ... » .

ثم يعود إلى تهمة الاختلاس فيقول عن كتب السيوطى « ومنها ما اختلسه من تصانيف شيخنا » ، ويذكر أسماء عدة كتب ينسب لها هذا الوصف ، ثم يقول : « وليته إذ اختلسها لم يمسخها ؛ ولو نسخها على وجهها لكان أنفع » .

ثم يعدد له أكاذيب وأخطاء ، ويقول : « ولو شرحت أمره لكان خروجاً عن الحد . وبالجملة فهو سريع الكتابة ، لم أزل أعرفه بالهوس ومزيد الترفع حتى على أمه ، حتى كانت تزيد فى التشكى منه »[١] .

وقد نشط السيوطى إلى رد حملات خصمه بمثل شدته واضطرامه ، فحمل على السخاوى فى رسالة مثيرة لاذعة أسماها : « الكاوى على تاريخ السخاوى »[٢] وفيها يقول :

« ما ترون فى رجل ألف تاريخاً ؛ جمع فيه أكابر وأعياناً ، ونصب لأكل لحومهم خواناً ، ملأه بذكرى المساوئ وسلب الأعراض ، وفوق فيه سهاماً على قدر أغراضه والأغراض هى الأعراض . جعل لحم المسلمين من جملة طعامه وإدامه ؛ واستغرق فى أكلها أوقات فطره وصيامه ، ولم يفرق بين جليل وحقير ؛ ... وامتد حتى إلى العلماء الأعلام ؛ وقضاة القضاة ومشايخ الإسلام . وهو على ذلك حقير نقير ، لا نسبه فى الأنساب عالى ؛ ولا حسبه إذا فوت الأحساب غالى ؛ ولا يزداد إلا جهلا على كر الأيام والليالى ؛ وقد عرى من أثواب العلم ، وتجرد من لباس الحلم ، لا يفهم حكمة ولا يحرر كلمة . وتشامخ مع ذلك بأنفه ... الخ » .

ثم يرمى السيوطى خصمه بجهل أحكام الشريعة واللحن ، وضعف الرواية فى الحديث وفى التفسير ، ويعدد له فى ذلك أخطاء ومواقف ويقول :

إن السخاوى جـاهل متمخرق لا يرعوى عنـد الصواب إذا أثر
فاذا أشرت إلى كـذوب أحمق فالى السـخاوى فهو كذاب أشر

ويرد عليه تهمة الاختلاس فيقول : « وغالب ما ألفه فى فن الحديث والأثر مسودات ظفر بها فى تركة الحافظ ابن حجر » ، ويختتم بقوله :

---

(١) الضوء اللامع — المجلد الثانى القسم الثانى ص ٣٠٢ — ٣٠٦ .

(٢) توجد من هذه الرسالة نسخة خطية فى دار الكتب ضمن مجموعة ، وهى فى عدة صفحات رقم ١٥١٠ أدب .

« فالواجب على كل مسلم أن يطرح تاريخ هذا الرجل طرحاً (يريد الضوء اللامع) ولا يصغى إليه قدحاً ولا جرحاً ، ويمسح أثره ما استطاع مسحاً ، ويتركه ومن ترجمهم إلى أن يردوا القيامة معه متخاصمين ، وينصفهم الحق سبحانه منه ، لأنه الحكم العدل الذى ينصف المظلومين من الظالمين ، ويصبح هو وأهل طريقته على ما سطروه فى أعراض الناس نادمين » .

ولم يقف السيوطى فى الحملة على السخاوى عند ذلك ، بل عاد فى كتابه « نظم العقيان » فكرر الحملة عليه والتنديد بمعجمه ، فقال فى ترجمته :

« وانتقى وخرج لنفسه ولغيره مع كثرة لحنه وعريه من كل علم ، بحيث أنه لا يحسن فى غير الفن الحديثى شيئاً أصلاً . ثم أكب على التاريخ فأفنى فيه عمره وأغرق فيه عمله ، وسلق فيه أعراض الناس ، وملأه بمساوئ الخلق وكل ما رموا إن صدقا وإن كذبا ، وزعم أنه قام فى ذلك بواجب وهو الجرح والتعديل ، وهذا جهل مبين ، وافتراء على الله ، بل قام بمحرم كبير وباء بوزر كبير ، كما أشرت إليه فى مقدمة هذا الكتاب ، وإنما نبهت على ذلك لئلا يغتر به أو على ما فى تاريخه من الإزراء بالناس خصوصاً العلماء »[1] .

وهكذا كان التراشق اللاذع بين السخاوى وخصومه ، وهكذا كانت المعارك الأدبية تضطرم بمصر فى القرن التاسع ؛ فتذهب فى النيل والهدم إلى أبعد الحدود ، ولا تقف عند حد من الكرامة أو الخلال الشخصية المحضة . ولقد تجاوب صدى هذه المعارك بعيداً ؛ ولبثت ماثلة فى الأذهان بعد وفاة مثير ضرامها بمدة طويلة ، حتى أن ابن إياس لم يحجم بعد ذلك بنحو ثلاثين سنة أن يشير فى تاريخه رغم إشادته بمقدرة السخاوى ونبوغه إلى معجمه بقوله :

« وألف تاريخاً فيه أشياء كثيرة من المساوئ فى حق الناس »[2] ، وابن إياس يردد فى ذلك قول أستاذه السيوطى ، ولكن فى قوله ما يدل على الأثر العميق الذى خلفته حملات السخاوى المرة فى مجتمع عصره .

لقد كان السخاوى لاذعاً متحاملا فى كثير من المواقف ، وكانت تحمله نزعة

---

(١) نظم العقيان فى أعيان الأعيان طبع نيويورك صفحة ١٥٢ .

(٢) تاريخ ابن إياس – بدائع الزهور – ج ٢ ص ٣٢ .

الهدم فى أحيان كثيرة ؛ بعيداً عن مواطن الاعتدال والرزانة والنزاهة . وكثيراً ما يضطرم بروح خصومة تتلظى لما لايسيغ من ضروب النبوغ والعظمة ، ولكن مهما كان من تحامل السخاوى وشطط قلمه ، وصرامة نفسه ، فهو عبقرية بارزة ممتازة ، وذهن عظيم يفيض ابتكاراً وطرافة ، وجنان رائع جرىء ، وفنان مبدع . وهو بلا ريب نقادة بارع قوى النفثة ، بل هو فى نظرنا إمام النقد الأدبى فى آداب مصر الإسلامية .

الفصل الخامس

الروايات الكنسية والنصرانية

وقيمتها كمصادر للتاريخ الإسلامى

وفقت دار الكتب المصرية منذ أعوام طويلة للحصول على نسخة مصورة من أثر كنسى هام له قيمته فى تاريخ مصر الإسلامية ، هو مجموعة من سير بطاركة الكنيسة القبطية منذ نشأتها حتى منتصف القرن السابع الهجرى . وقد كان للمجتمع القبطى دائماً شأن يذكر فى تاريخ مصر الإسلامية ، وكان للكنيسة القبطية دائماً علائقها الرسمية مع الحكومات الإسلامية . ومع ذلك فإن الرواية الإسلامية لم تفسح مجالا كبيراً لبحث هذه العلائق وتمحيصها ، ولم تعن بالأخص بأن تشرح لنا وجهة النظر الكنسية فى مختلف العصور شرحاً وافياً ، ولم تفطن دائماً إلى الاستفادة من الآثار والمصادر النصرانية ، فى تفهم أحوال المجتمع النصرانى وزعامته الروحية .

ومن ثم كانت أهمية الآثار النصرانية التى تعنى بعصور من تواريخ الأمم الإسلامية . فنى هذه الآثار نستطيع أن نفهم بوضوح موقف الكنيسة وموقف أوليائها حسبما يصوره لنا كتابها ودعاتها ، ونستطيع بمراجعة أقوالهم وتعليقاتهم أن نقف على كثير من الحقائق التى لم تعن الرواية الإسلامية بشرحها واستيعابها . وكتاب سير الآباء البطاركة الذى أشرنا إليه من تلك الآثار ، التى تلقى ضوءاً على موقف الكنيسة القبطية ، وموقف الشعب القبطى الشقيق وأحواله فى مصر خلال العصور الوسطى ، وهى ناحية لها بلا ريب قيمتها وأهميتها فى تاريخنا القومى .

وتنقسم النسخة المصورة التى حصلت عليها دار الكتب من الأثر الذى أشرنا إليه والتى نقلت عن مخطوط باريس إلى قسمين ، أولهما كتاب سير الآباء البطاركة الذى وضعه الأنبا ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين فى عهد المعز لدين الله الفاطمى فى تاريخ بطاركة الإسكندرية ، وهذا الأثر معروف ومتداول ، لأنه طبع منذ أكثر من ستين عاماً بعناية الآباء اليسوعيين . وقد عرفته الرواية الإسلامية

منذ عصور ، وانتفعت به أحياناً فيما نقلته من أنباء الكنيسة والبطاركة . وقد كان الأسقف ساويرس من أكابر الأحبار والمفكرين أيام الدولة الإخشيدية وأيام المعز لدين الله ، وكان أسقفاً لمدينة الأشمونين التى كانت من مدائن الصعيد الزاهرة يومئذ . وتشيد الرواية الكنسية بعلمه وأدبه ومكانته الروحية والاجتماعية، وتحدثنا عن صلاته بالمعز لدين الله ، ومحاوراته الدينية والكلامية معه ، وتعدد لنا كتبه وآثاره الأدبية والتاريخية . ويتناول ساويرس فى كتابه سير بطاركة الإسكندرية منذ القديس مرقص منشئ هذا الكرسى حتى البطريرك أفراهام بن زرعة السريانى الذى رسم بطريركاً لليعاقبة سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) فى أوائل عصر العزيز بالله ، وقد ورد فى مقدمة هذا القسم إشارة إلى طريقة وضع هذا الأثر وتأليفه نصها : « هذه السيرة جمعها واهتم بها من كل مكان الأب الجليل أنبا ساويرس بن المقفع أسقف مدينة الأشمونين ، ذكر أنه جمعها من دير أبو مقار ودير نهيا وغيرهما من الديارات ، وما وجده فى أيدى النصارى منها أجزاء مفرقة أنفق فيها أعواماً طويلة حتى بلغ عمره الثمانين »(١).

على أن هذا القسم المتداول ليس هو المقصود بالذات فى هذا التعريف والتعليق ، وإنما نقصد بالأخص إلى التعريف بالقسم الثانى من الأثر الكنسى ، وهو الذى يشغل المجلدين الثالث والرابع من مخطوط باريس الذى نقلت عنه نسخة دار الكتب المصورة . فهذا القسم الذى لم ير الضياء بعد يحتوى على سير الآباء البطاركة المصريين ، منذ أوائل الدولة الفاطمية الى سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) أعنى إلى نهاية عصر الملك الكامل . وقد نسب هذا الأثر بجملته فى فهرس مكتبة باريس الوطنية إلى ساويرس بن المقفع ، وهى نسبة ظاهرة الخطأ لأن ساويرس توفى فى أوائل عهد العزيز حوالى سنة ٣٧٠ هـ ، فليس من المعقول إذن أن ينسب إليه ما تضمنه الأثر الكنسى بعد هذا التاريخ . وظهر أثر هذه النسبة جلياً فيما كتبه العلامة المستشرق سلفستر دى ساسى عن الحاكم بأمر الله فى كتابه عن الدروز ، إذ ينقل كثيراً مما ورد فى الأثر الكنسى عن عصر الظاهر ولد الحاكم وعن عصر المستنصر بالله ولد الظاهر ، منسوباً إلى ساويرس بن المقفع (٢).

(١) فى ديباجة سير الآباء البطاركة (طبعة اليسوعيين) .

(٢) سلفستر دى ساسى **Religion des Druses (p. 417 et suiv.)** ، ومما يلاحظ أن هذا =

وقد أتيحت لنا فرصة لدراسة هذا الأثر الكنسي ، واستقصاء مصادره ومساق واضعيه ، فانتهينا إلى هذه الحقيقة ، وهى أن الجزأين الثالث والرابع من المخطوط ليست لها علاقة بمؤلف أسقف الأشمونين ، بل هما أثر مستقل بذاته ، ذُيل بهما الأثر الأصلى لأنهما فى نفس موضوعه ، وهو استئناف سير البطاركة من حيث وقف ساويرس . ويسمى هذا الأثر الملحق باسم آخر هو « سير البيعة المقدسة » . ولم يقم بتأليفه ووضعه مؤلف واحد ، بل تعاقب فى وضعه وكتابته عدة من الأحبار المتعاقبين ، فتولى كتابة القسم الخاص بعصرى العزيز والحاكم مثلا ، قس معاصر يدعى الأب ميخائيل « كاتب السنوديقا بكرسى مار مرقص » (البطريركية) كما يقول لنا ذلك خلال الكتاب . وكتب سيرة الأنبا فيلاتاوس البطريرك الثالث والستين ، وهو معاصر العزيز بالله ، ثم الأنبا زخاريا البطريرك الرابع والستين ، وهو معاصر الحاكم بأمر الله ، وأورد الكتاب خلال حديثه كثيراً من الأقوال والروايات الهامة من الحاكم وحياته العامة والخاصة ، وعن حوادث العصر المدهشة . وكتب سير البيعة المقدسة أيام الظاهر والمستنصر قس يدعى « موهوب بن منصور بن مفرج الإسكندرانى الشماس » ويقول لنا : « إنه جمع سيرهم وكتبها واستخرجها من دير أبو مقار بوادى هبيب وذلك سنة ٨٠٦ للشهداء » الموافقة لسنة ٤٨٠ هـ . وكتب فى أيام المستنصر وبعده قس آخر يدعى يوحنا بن صاعد بن يحيى المعروف بالقلزمى . وهكذا حتى أواخر الدولة الفاطمية . وهنا يقول لنا كاتب هذا القسم أنه سيتم سير الآباء ، وأنه بدأ بما شاهده فى عصره وخصوصاً أيام زوال الدولة الفاطمية ، وقيام الدولة الأيوبية . وهنا يميل الكاتب إلى التبسط فى سرد أحداث العصر ، ولا يتقيد بالناحية الكنسية ، بل يفيض فى سرد الحوادث جملة ، ويتحدث عن السلطنة وعن سيرها وأعمالها ، ويسير فى ذلك على أثر ترتيب السنين القبطية أو سنى الشهداء حتى سنة ٦٣٥ هـ أو نحو ٩٥٠ للشهداء ، حتى نهاية عصر الملك الكامل ناصر الدين .

ولقد نوهنا فى بداية هذا الفصل بأهمية أمثال هذه الآثار الكنسية فى شرح موقف الكنيسة من الخلافة أو السلطنة ، وشرح وجهات نظرها فيما يتصل بها من

= العلامة هو الذى وضع فهرس الكتب العربية لمكتبة باريس الوطنية ووقع فى هذا الخطأ ، الذى تابعه فيه البحث الحديث بنسبة الأثر كله إلى ساويرس بن المقفع .

الحوادث والشئون . وتبدو أهمية الرواية الكنسية بنوع خاص فى العصور التى تضطرم فيها فورات اضطهاد ضد الكنيسة والمجتمع النصرانى ، أو تتجه السياسة الإسلامية إلى الضغط عليهما لظروف وعوامل خاصة ، كما حدث بمصر فى عصر المأمون ، وفى عصر الحاكم بأمر الله ، وأيام الحروب الصليبية ، فهنا تبدو الرواية الكنسية متنفساً حقيقياً للتعبير عما يخالج الكنيسة ورعاياها من العواطف والآراء نحو المجتمع الإسلامى ؛ وقد تحمل الرواية الكنسية فى هذه المواقف على المبالغة والإغراق فى أحيان كثيرة ، ولكنها تحتفظ مع ذلك بأهميتها وقيمتها فى إيضاح كثير من النقط أو المواقف التى تغضى عنها الرواية الإسلامية أو ترى فيها آراء أخرى .

ولا تقف أهمية الرواية الكنسية عند ذلك الحد . فنى بعض الأحيان ، وفى عصور السكينة والسلام ، تغدو الرواية الكنسية مصدراً قيما لاستعراض الحوادث التى تعنى بها . وفى القسم الأخير من « سير البيعة المقدسة » يبدو الكاتب مؤرخاً لا غبار عليه ، ويتبسط فى شرح الحوادث والشئون العامة فى أواخر الدولة الأيوبية ويقدم عنها رواية لا بأس بها .

ونرى أن نشير بهذه المناسبة إلى أنه توجد إلى جانب هذه الروايات الكنسية التى تعنى بناحية خاصة من تاريخ مصر الإسلامية ، لم تعطها الرواية الإسلامية دائماً حقها من العناية ، طائفة من الروايات النصرانية التى تتبوأ مقامها الحق بين مصادر التاريخ الإسلامى . فلدينا مثلا تاريخ سعيد بن بطريق ، بطريرك الإسكندرية الذى يصل فى كتابته حتى سنة ٣٢٦ ﻫ . وتاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى الطبيب والمؤرخ ، وقد كتبه ذيلا على تاريخ ابن بطريق ، ووصل فى كتابته حتى أواخر عهد الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمى ، وعنى فيه عناية خاصة بأخبار الحاكم وشخصه وحوادث عصره . وتاريخ المكين بن العميد المسمى بتاريخ المسلمين ، الذى يستعرض فيه أخبار الخلافة والسلطنة حتى أواخر القرن السادس الهجرى . وتاريخ ابن العبرى المسمى بمختصر تاريخ الدول الذى يصل فيه بروايته حتى أواخر عصره أعنى إلى أواخر القرن السابع الهجرى . فهذه الآثار التى كتبها كتاب ومؤرخون من النصارى ، وإن كانت تميل فى معظم الأحيان إلى أن تخص أخبار الكنيسة والمجتمع النصرانى بأعظم قسط من عنايتها ، تحتفظ

دائماً بقيمتها كمصادر لتواريخ العصور التى عنيت بها . وتمتاز هذه الآثار بميزة خاصة ، هى أنها تعنى عناية فائقة بتاريخ الدولة البيزنطية ، باعتبارها حامية الكنيسة الشرقية ، وتفيض فى تتبع أخبارها وعلائقها بالأمم الإسلامية إفاضة دقيقة ممتعة ، وهذه ناحية لم تخصها الرواية الإسلامية دائماً بما يجب من عناية ، بل هى تعتمد غالباً فى تناولها على هذه الروايات النصرانية ، مثال ذلك أن ابن خلدون يعتمد على ابن العميد فى معظم ما كتبه عن أخبار الدولة الرومانية والدولة الشرقية (البيزنطية) . ويرجع السر فى ذلك إلى أن أغلب الكتاب النصارى كانوا يعرفون السريانية واليونانية واللاتينية أحياناً ، ومن ثم كان اتصالهم بالمراجع الأجنبية وانتفاعهم بها .

وهكذا نرى أن الروايات الكنسية والنصرانية العربية بوجه عام ، فضلا عن قيمتها وأهميتها الخاصة فى سرد أخبار الكنيسة والمجتمع النصرانى ، وشرح مواقفهما فى مختلف العصور والمناسبات ، حقيقة بالدرس والمراجعة كمصادر قيمة لعصور معينة من التاريخ الإسلامى ، تلقى ضوءاً على كثير من نواحى الصلة والعلائق بين الشرق والغرب والنصرانية والإسلام .

الفصل السادس

خواص مصرية مميزة

للأدب العـــربى فى مصر

يشعر الذين يد رسون الأدب العربى ، أن الأدب المصرى الإسلامى ، يتميز بخواص تجعله شعبة قائمة بذاتها فى تراث الأدب العربى . وقد نشعر بمثل هذا الشعور إذا قارنا الآداب العربية فى مختلف العصور ومختلف الأمم الإسلامية ؛ فالأدب الأموى ، والأدب العباسى ، والأدب الأندلسى ؛ هذه كلها تتميز بمميزات خاصة بها ، ترجع إلى روح العصور والدول والمجتمعات التى ازدهرت فى ظلها . ولكن الطابع الخاص الذى اتخذه الأدب العربى فى مصر لا تقف عوامله عند هذا الحد ؛ بل يرجع إلى عوامل محلية أخرى ، تجعله من حيث الخواص واللون ، أشد ظهوراً وقوة . وقد بدأت مصر تسبغ على الأدب العربى هذا اللون الخاص فى عصر مبكر جداً ، فمنذ القرن الثالث الهجرى نشعر بأثر العوامل المصرية المحلية فى طرق التفكير والكتابة ، وفى الشعر والنثر ، ونرى هذا اللون المصرى الخاص يقوى ويشتد بتقدم العصور ، ويصل ذروة قوته منذ القرن الخامس الهجرى ، ثم ينساب إلى آداب الأمم العربية المجاورة ، أعنى فلسطين وسوريا ، والحجاز ، فيحدث فى تطورها الأدبى أثراً ظاهراً . وقد كانت هذه الأمم الشقيقة فى الواقع جزءاً من مصر فى معظم الدول الإسلامية ، وكانت مجتمعاتها متأثرة فى هذه العصور بمؤثرات المجتمع المصرى . وهذه الخواص القوية التى تميزت بها الآداب العربية فى مصر ، ترجع إلى عوامل كثيرة : أولها وأهمها ما يتمتع به المجتمع المصرى منذ عصر الفراعنة ، من حيوية غريبة كانت دائماً تغلب كل ما هو أجنبى ، وتطبعه بطابعها القوى ، فنرى آثارها ماثلة فى العهدين اليونانى والرومانى ، رغم ما كانت تتمتع به كل من اليونان ورومة من حضارة عظيمة . وقد كان أثر هذه الحيوية أقوى وأشد فى المجتمع الذى أقامه الإسلام فى مصر ؛ لأن الفاتحين العرب تلقوا فى مصر تراث حضارة عظيمة ، ولم تكن الحضارة الإسلامية قد تفتحت بعد ، وتلقى المجتمع الإسلامى فى مصر

منذ عصره الأول ، كثيراً من ظواهر المجتمع المصرى الذى غلبه واستولى عليه ، وتمثلت الروح المصرية فى الآداب العربية منذ بدء تكوينها . وثانى هذه العوامل التى أثرت فى توجيه الآداب العربية فى مصر ، هو استطالة عصور السيادة العربية والمصرية الإسلامية ، واتصالها منذ أوائل القرن الأول للهجرة إلى أوائل القرن العاشر الهجرى ، أعنى تسعة قرون كاملة ؛ وفى هذه الآماد الطويلة المتصلة استمرت الآداب العربية تستكمل فى مصر تطورها وازدهارها ، فى ظل مجتمع واحد متماثل فى روحه وطبائعه هو المجتمع المصرى ؛ خاضعة لنفوذ هذا المجتمع ؛ وميوله ، ومؤثراته ، وطرق توجيهه . وثالث هذه العوامل ، هو موقع مصر الجغرافى وجوها الخاص ، ونيلها الخالد وروعة مناظره الطبيعية ، ودوره فى حياة مصر من الخصب والنماء ، ثم توسط مصر بين الشرق والغرب ، وكونها لبثت عصوراً طويلة تقبض منذ الحروب الصليبية ، على زمام الدبلوماسية الإسلامية فى البحر المتوسط ، وتتصل بأممه أكبر اتصال ، وتتبادل معها مؤثرات العمران والحضارة الإسلامية فى مصر ؛ وما كان للحروب الصليبية ذاتها من آثار قوية فى اضطرام الروح القومية المصرية ، وفى إذكاء العزة المصرية ؛ إذ كانت مصر فى هذه الحروب حصن الإسلام وحاميه من عدوان النصرانية ، والحاجز الصلد الذى تتكسر عليه فورات هذه الحروب البربرية . ورابع هذه العوامل ، آثار البيئة الشعبية المصرية فى تطور الأدب العربى ، وهى آثار قوية ترجع إلى عصر الفراعنة ذاته ، وما زالت منها إلى اليوم آثار حية ، فى تقاليد الطبقات العامة ، ومعتقداتها ، وأمثالها .

هذه العوامل مجتمعة أسبغت على الأدب العربى فى مصر لوناً مصرياً عميقاً ، يتميز به عما عداه من تراث التفكير العربى ، فى المشرق والمغرب . وإذن فقد نما الأدب العربى فى مصر مصرياً ، وترعرع وازدهر مصرياً ، تطبعه وتوجهه المؤثرات الطبيعية والاجتماعية قبل غيرها . وهذه ظاهرة يلاحظها كل من درس هذا الأدب على ضوء المقارنة بينه وبين تراث الأدب العربى فى الأمم الإسلامية الأخرى . وقد كان للذهن المصرى أيضاً نصيب كبير من الفضل والابتكار فى أحداث هذه الظاهرة ، بما ابتدعه من صنوف وطرائق خاصة فى التفكير والأدب . وفى أحيان كثيرة يتولى الذهن المصرى مركز الإرشاد والقيادة

فى هذا الميدان . ومن المسلم به أن مصر لبثت تتولى قيادة التفكير العربى فى المشرق عصوراً طويلة ، منذ اضمحلت رياسة بغداد الفكرية أعنى منذ أوائل القرن الخامس الهجرى ، فلما اضمحل شأن الإسلام فى الأندلس ، ولم يبق منه سوى قبس صغير فى مملكة غرناطة ؛ كانت رياسة الآداب العربية فى العالم الإسلامى كله لمصر ، منذ القرن السابع إلى القرن العاشر . وكانت دمشق تنافس القاهرة أحياناً ، ولكن القاهرة كانت تبهر بضوء تفكيرها وآدابها فى تلك العصور كل ضوء آخر فى العالم الإسلامى ، وكانت تجذب إليها أعلام المفكرين والأدباء من كل صوب ، وكثيراً ما كانت تنفث إليهم أثرها ، فنرى فى كتاباتهم أثر هذا الطابع المصرى الخاص . على أن مصر لم تقف فى مضمار التفوق الفكرى عند هذا الحد ، فقد وفق الذهن المصرى منذ القرون الأولى للهجرة إلى ابتداع صور فريدة فى الأدب العربى ، نسج على منوالها كتاب المشرق والأندلس فيما بعد . وقد أخرجت مصر فى الشعر والنثر والنقد الأدبى شخصيات فريدة من حيث خواصها وطرائقها ، قلما تماثلها شخصيات أخرى فى تراث الأدب العربى .

وفى وسعنا أن ندلل على هذه الطرافة وهذه الصور المبتكرة فى الأدب العربى المصرى ، بأدلة وأمثلة لا حصر لها ، وقد تناولنا الكثير منها فى بحوث مختلفة . ولكنا نكتفى هنا بالإشارة الموجزة إلى طرف من ذلك ، فمنذ منتصف القرن الثالث للهجرة ابتدع المؤرخون المصريون لأنفسهم طريقاً فريداً فى الرواية الإسلامية ، ورأوا فى التاريخ أكثر من رواية ، وبينما كان الرواة الأوائل فى المشرق كالواقدى والبلاذرى وابن قتيبة ، يقفون فى الرواية الإسلامية عند سيرة الفتوحات والأقوال والأفعال الشخصية ؛ إذا بالرواة المصريين يقرنون هذه الرواية بصور من تاريخ العمران والسياسة والإدارة والقضاء ، رأوها ذات أهمية خاصة . ومنذ القرن الثالث ظهرت هذه الصور المبتكرة فى الرواية المصرية ، فكتب ابن عبد الحكم المصرى تاريخ الخطط والآثار ؛ وتاريخ القضاة إلى جانب أخبار الفتوحات . وكتب أبو عمر الكندى بعده بنحو قرن تاريخ مصر ، وتاريخاً مستقلا للقضاء المصرى ، وتاريخ مصر الإدارى منذ الفتح الإسلامى حتى منتصف القرن الرابع ؛ وتوسع فى تاريخ الخطط والآثار . وكان الرواة المصريون أول من ابتدع هذه الصور فى الرواية الإسلامية ، وهم بالأخص أول من جعل

من تاريخ الخطط والآثار فناً فى التاريخ مستقلا بذاته ، وانتهى على يدهم إلى نوع من تاريخ الحضارة والعمران ، وعنهم أخذ كتاب المشرق والأندلس هذه الصور. وقد أسبغ الرواة المصريون فوق ذلك على جهودهم لوناً قومياً عميقاً ، فخصوا بمعظم جهودهم تاريخ مصر وأخبارها وشئونها ؛ واتخذ الشعر والنثر فى مصر صوراً خاصة أيضاً ، فظهر شعراء وكتاب مصريون من طراز خاص ، لهم فى التفكير والأسلوب والتصوير طرائق خاصة . فمن الصعب مثلا أن نجد بين شعراء العربية أمثال بهاء الدين زهير أو جمال الدين بن نباته الشاعرين المصريين ، وقلما نجد مثلا أستاذاً فى النقد والتصوير الأدبى مثل شمس الدين السخاوى ، أو مؤلفا فى التراجم وافر الابتكار والروعة النقدية مثل معجمة « الضوء اللامع » ، أو مؤرخاً ساحراً جلداً مثل المقريزى ، بل لانجد فى الآداب التاريخية العربية كلها مؤلفاً يضارع « خطط المقريزى » فى قيمته الاجتماعية والحضارية . وكذلك قلما نجد ، كتاب موسوعات عظام مثل القلقشندى والنويرى . والخلاصة أنك حيثما استعرضت تراث مصر الأدبى ، ألفيت كثيراً من هذه الشخصيات التى يتميز تفكيرها وأسلوبها بمميزات خاصة وطابع مصرى عميق .

نريد بهذا العرض الموجز أن ندلل على حقيقة ما زالت تغمط حقها ؛ وهى أن الميراث الأدبى لمصر الإسلامية ، إنما هو رغم عروبته وروحه الإسلامى ، أدب مصرى فى كثير من المعانى ، ولا شك فى أن هذه الصبغة المصرية الخاصة تغلب على أدبنا منذ استأنفت مصر نهضتها الأدبية فى أواخر القرن الماضى . ويكفى أن نقارن طرائق الكتاب المصريين وأساليبهم ، فى أية ناحية من نواحى التفكير أو التصوير أو النقد ، فى الشعر أو النثر ، فى العصر الأخير ، بطرائق وأساليب الكتاب فى البلاد االعربية الأخرى ، لنرى الفرق فى الروح والخواص والذوق ظاهراً .

ولا شك أن الأدب العربى يتخذ فى هذه الأمم الشقيقة أيضاً صبغته المحلية القومية . ولكنا نعتقد أن هذه الصبغة المحلية الخاصة لم تكن فى عصر من عصور الأحياء الأدبى أقوى منها فى مصر ، سواء من حيث الخواص والانطباع بالمؤثرات والعوامل المحلية ، أو من حيث الطرافة والابتكار . ومن الخطأ أن نجعل هذه الصبغة القومية للأدب المصرى موضع الريب والجدل ، فالقومية بالمعنى الذى

شرحناه ظاهرة قديمة لتراثنا الأدبى ، ظهرت قوية مذ نما هذا الأدب وترعرع ، ولزمته خلال العصور . وإذا كان انطباع الأدب المصرى بهذا الطابع الخاص يرجع من وجوه كثيرة ، إلى ما قدمنا من العوامل والمؤثرات ؛ فإنه يرجع أيضاً إلى نوع من الإلهام الذى يصعب ضبطه وتحديده : هذا الإلهام الذى يوحيه الشعور القومى ؛ فقد ألهم الذهن المصرى إلى أن ينفث المصرية إلى ثمرات تفكيره وافتنانه منذ عصور الإسلام الأولى ، واستطاع أن يخلق لمصر من تراث الإسلام والعربية تراثاً قوى المصرية . وما يزال الذهن المصرى إلى يومنا يسبغ هذا الطابع المصرى العميق على آدابنا .

الفصل السابع

حركة الترجمة والتأليف

فى قرن من تاريخ مصر الحديث

كان للترجمة فى نهضتنا الفكرية الحديثة أكبر الأثر ، بل نستطيع أن نقول إن القرن الماضى كان بالنسبة لحركتنا الفكرية عصر ترجمة ونقل ، وما تزال الترجمة تؤدى فى حركتنا الفكرية دوراً هاماً لا يقل عن دور التأليف والإنشاء .

ولم يمثل عنصر الترجمة فى الحركة الفكرية المصرية قبل الحملة الفرنسية . ذلك أن مصر كانت خلال العصر التركى محرومة من الاتصال بالعالم الخارجى ، ولم تكن اللغة التركية ، وهى اللغة الأجنبية الوحيدة التى كانت معروفة يومئذ ، أكثر من لغة رسمية تستعمل فى الدواوين ، ولم تكن قط بالنسبة لمصر مصدر أية نهضة أو حركة ثقافية ، ولم يلفت تراثها الأدبى أو آثارها المختلفة أنظار المفكرين والكتاب المصريين إلا فى القليل النادر . فلما قدمت الحملة الفرنسية إلى مصر ، واتخذت الترجمة أداة للتفاهم بين الفاتحين والمصريين ، وترجمت الأوامر والمنشورات الصادرة من القيادة الفرنسية إلى اللغة العربية ، وترجمت البعثة العلمية الفرنسية بعض كتب وفصول من العربية إلى الفرنسية ، اتجهت الأنظار نحو الترجمة ، وأخذت ترى فيها أداة للمعرفة والثقافة . بيد أن الترجمة فى هذا العصر كانت أشد مايكون سقماً وبعداً عن روح اللغة الأصلية ، ولم تكن أكثر من تعبير ركيك عن المحتويات والمقاصد . وقد أورد لنا الجبرتى فى تاريخه عدة نصوص مترجمة للأوامر الفرنسية ولمحاكمة سليمان الحلبى قاتل الجنرال كليبر ، تدل على مبلغ ما كانت عليه الترجمة يومئذ من الغموض والضعف والابتذال .

كان هذا بدء عصر الترجمة فى الحركة الفكرية الحديثة . بيد أن الترجمة لم تعد أداة حقيقية للثقافة والمعرفة إلا بعد ذلك بنحو ثلث قرن ، حينما عنى محمد على بإرسال البعثات العلمية المتوالية إلى الخارج ، وأنشئت مدرسة الألسن . ويرجع الفضل فى إنشاء هذه المدرسة الشهيرة إلى العلامة رفاعة بك رافع الطهطاوى زعيم

مدرسة الترجمة فى مصر الحديثة . فقد أدرك هذا المفكر الكبير قيمة النقل والترجمة فى فى تكوين الثقافات الناشئة ، واقترح على محمد على إنشاء مدرسة لتعليم الآداب والحقوق واللغات الأجنبية . وبذا قامت مدرسة الألسن (سنة ١٨٣٦) وتولى إدارتها رفاعة بك نفسه . وكانت تعلم فيها الفرنسية والإنكليزية والإيطالية والتركية ، وهى اللغات التى كانت لها أكبر الصلات بعلائق الدولة الخارجية السياسية والاقتصادية والعلمية . وبعد ذلك بعامين أو ثلاثة أنشىء قلم للترجمة من خريجى المدرسة . وكان رفاعة بك نفسه قد ترجم أثناء دراسته بباريس عدة رسائل وكتب فى التاريخ والجغرافيا والفلك والسياسة نذكر منها : (١) نبذة فى تاريخ الإسكندر (٢) نبذة فى الميثولوجيا ، يعنى جاهلية اليونان (٣) أصول الحقوق الطبيعية التى يعتبرها الإفرنج أصولا لأحكامهم (٤) نبذة فى علم الصحة (٥) قطعة من كتاب ملتبرون فى الجغرافيا (٦) نبذة فى علم الهيئة (٧) قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر . واشتغل رفاعة بك بعد عوده إلى مصر بالترجمة والتأليف ، فألف عدة كتب فى التاريخ والأدب والرياضة والطبيعيات . ومن كتبه التاريخية كتاب فى سيره الرسول عنوانه « نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز » وكتاب فى تاريخ مصر عنوانه « أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل » . ومن مؤلفاته الأدبية : « مباهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية » . وترجم عدة كتب أخرى منها قصة فنيلون الخالدة « تليماك » وقد سماها « مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك » و « تعريب القانون المدنى الفرنسى المعروف بالكود » ، وهو من أجل آثار الترجمة فى هذا العهد . ويقال إن رفاعة بك ترجم كتاب « روح القوانين » لمونتسكيو ، ولكنه لم يطبع ولم يوجد بين أوراقه . هذا إلى مؤلفات ومترجمات أخرى لايتسع لذكرها المقام .

ومما يروى فى تقدير محمد على للترجمة كوسيلة للثقافة وترقية الحركة الفكرية أنه حين عاد أعضاء البعثة الأولى إلى مصر استقبلهم فى مجلسه بالقلعة ، وأعطى كلا منهم كتاباً بالفرنسية فى المادة التى تخصص فيها ، وأمرهم بنقل هذه الكتب إلى العربية ، وأمر بإقامتهم فى القلعة ، وألايسمح لهم بمغادرتها حتى تتم الترجمة ، فصدع الطلبة بالأمر ، وترجموا هذه المصنفات التى عهد إليهم بها ، وطبعت بعد مراجعتها وتنقيحها ، ثم وزعت على المدارس الأميرية للانتفاع بها .

وقد ترجم كثير من أعضاء البعثات العلمية الأخرى فى هذا العهد ، كتباً فى مختلف العلوم والفنون وأخرجتها جميعاً مطبعة بولاق ، ومنها طائفة حسنة فى التاريخ والأدب .

وكان لقلم الترجمة الذى أشرنا إليه شأن عظيم فيما بعد فى بث الرغبة فى الترجمة وفى تقوية أساليب النقل والاقتباس ، ومع أنه ألغى مدى حين ، فإنه أعيد فى أوائل عهد أسماعيل ، وأسندت رآسته إلى رفاعة بك نفسه ، وعين فيه طائفة من المترجمين الأقوياء ولا سيما فى الفرنسية والتركية . وكان لهذا القلم أعظم فضل فى نقل مجموعة القوانين الفرنسية إلى العربية ، وهى مهمة جليلة اضطلع بأعبائها رفاعة بك وعدة من تلاميذه النوابغ ، مثل محمد قدرى باشا وصالح مجدى بك ، وعبد الله أبو السعود أفندى ، وقد كان لهذه الترجمة فضل عظيم فى المعاونة على وضع القوانين الجديدة ، وهى التى لبثت دعامة لنظامنا القضائى الحديث ، أكثر من ثلثى قرن .

حركة التأليف

وقد بدأنا بالتحدث عن حركة الترجمة فى القرن الماضى قبل التحدث عن التأليف ، لأن الترجمة كانت نواة لحركة التأليف الحديثة ، وكانت أول غرس نجنى الآن ثماره فى نهضتنا المعاصرة ، بل لسنا نبالغ إذ نقول إن القرن التاسع عشر كان بالنسبة لحركتنا الفكرية الحديثة عصر ترجمة ، وأن هذا العصر لايزال ممتد إلى هذا اليوم ، وذلك بالرغم من التقدم العظيم الذى أحرزته حركة التأليف ، وأن الترجمة لا تزال عنصراً جوهرياً فى صرح ثقافتنا الحاضرة . بيد أن حركة التأليف قد نشأت أيضاً نشأتها المستقلة ، وظهرت ثمارها منذ أواخر القرن الماضى ، وكان للثورة العرابية أثر واضح فى بعثها وإذكائها . ذلك أن الثورات والمحن القومية تشحذ الفكر والقلم دائماً ، وقد ظهر أثر الثورة العرابية بنوع خاص فى الشعر والكتابة والسياسة ، فكان البارودى ومحمد عبده وسعد زغلول وعبد الله نديم قادة الفكر والقلم فى هذه الفترة ، وظهر فى تلك الفترة عدة من المؤلفات الأدبية والتاريخية القوية ، واستأنفت الحركة الفكرية سيرها الذى قطعته الحوادث وبدت طلائع نهضة جديدة فى الآداب العربية ، وظهر فى الإنتاج الأدبى يومئذ عنصر قوى من الأدب المبتكر ، وأخذت فى نفس الوقت

عناصر الثقافة الغربية الجديدة ، تحدث أثرها فى إنتاج الجيل الجديد . فمن زعماء الأدب العربى الصميم يومئذ ، على مبارك والبكرى والمويلحى ، وعلى يوسف ، وحفنى ناصف ، وغيرهم ممن جنحت أساليبهم إلى القديم وروعته . ثم تفتحت النهضة وهبت عليها روح الجديد بشدة ، وظهرت جمهرة من خاصة المفكرين ممن تأثروا فى تفكيرهم وثقافتهم بالأساليب الغربية ، مثل قاسم أمين ، وعمر لطفى ، وإسماعيل صبرى ، ولطفى السيد ، وفتحى زغلول وغيرهم ممن يطلق عليهم زعماء المدرسة الحديثة . وظهرت أول مرة بالعربية طائفة من المؤلفات والكتابات القوية ، التى تحررت من كثير من أغلال القديم ، سواء فى اللفظ أو المعنى ، وظهرت روح التجديد قوية بارزة فى موضوعاتها وتفكيرها وأساليبها ، ولم تلبث هذه الروح الجديدة أن حملت فى طريقها كل شىء ، وغدت أقوى دعامة فى صرح النهضة الفكرية التى نعيش فى ظلها اليوم .

والآن ، إلام انتهت حركة التأليف والترجمة ؟ لقد سارت الحركة الفكرية فى العشرين عاماً الأخيرة بسرعة وقوة معاً ، وبلغ التأليف مرحلة باهرة حقاً ، كما بلغت الترجمة مستوى عالياً من القوة والإجادة . ونستطيع أن نقول إن المكتبة العربية قد أحرزت فى عصرنا أعظم ثروة أدبية ظفرت بها منذ القرن العاشر الهجرى ، أعنى منذ الفتح التركى . فأما عن التأليف فقد ظهرت فى الفترة الأخيرة طائفة كبيرة من الكتب القيمة فى مختلف الفنون ، من الأدب والتاريخ والقانون والفلسفة والاجتماع والطب وغيرها . ومن العبث أن نحاول أن نخص بعضها بالذكر فى هذا المقام ، فهى كثيرة لا تقع تحت حصر ، ويكفى أن نقول إن كثيراً منها يضارع مثيلاتها من الكتب الغربية القيمة ، من حيث القوة والطرافة والدقة العلمية . وإذا كانت ثمة ناحية لا يزال التأليف العربى المعاصر قاصراً فيها فهى الناحية العلمية المحضة ، وسوف نضطر إلى الاعتماد على الترجمة فى هذه الناحية حيناً آخر . وأما عن الترجمة فمن الإنصاف أن نقول إننا ما زلنا نعتمد عليها إلى حد كبير فى إنتاجنا الأدبى . وقد ترجمت فى العصر الأخير طائفة كبيرة من روائع الأدب الغربى ، وامتازت ترجماتها بدقة النقل وروعة البيان ، كما ترجمت طائفة كبيرة من الكتب الطبية والفنية . بيد أنه يمكن أن يقال أيضاً إن الإسراف فى الاعتماد على الترجمة ينحدر أحياناً إلى نوع من التهافت والإسفاف فى نقل الأدب

الركيك الغث ، ثم إن الترجمة لم تبلغ بعد من الناحية الفنية كل ما يجب أن تبلغه من دقة فى النقل ، وبراعة فى البيان ، ومحافظة على الروح الأصيل .

وقد كان من أثر العوامل الثقافية الجديدة فى حركتنا الأدبية المعاصرة ، أن اتجهت الأذهان إلى معالجة صنوف جديدة من الأدب ، فبذلت محاولات فى سبيل كتابة القصة المحدثة لا تزال فى طورها الوليد ، وألفت قطع مسرحية للمسرح العربى ، وظهر ذلك الأثر الجديد أيضاً فى تطور الشعر الحديث ، وفى طرق التفكير وأساليب الكتابة . بيد أنه مما يبعث إلى الغبطة أن حركتنا الأدبية فى نفس الوقت الذى تضطرم فيه بالروح الجديدة وتستق ما شاعت من تراث التفكير الغربى ، تحتفظ دائماً بكيانها المستقل ، وطابعها القومى الأصيل[1] .

---

(١) كتب هذا الفصل فى سنة ١٩٣٧ . وقد قطعت حركتنا الثقافية ، سواء فى الترجمة أو فى التأليف فى الثلاثين عاماً الأخيرة مراحل جديدة من التقدم ليس هذا مقام التحدث عنها .

بيان فهرسى

عن الكتب الفاقدة التى تناولها البحث

وذكرها من عدمه فى معجم كشف الظنون

تناولنا خلال الكلام عن « الخطط فى تاريخ مصر » ، ذكر كثير من الكتب التى تبحث فى موضوع الخطط المصرية ، ولم نتلقاها فيما تلقينا من تراث مصر التاريخى ، ومن بينها آثار هامة جامعة . كذلك أشرنا إلى كتب أخرى لمؤرخى الخطط فى غير موضوع الخطط ، ولكنها تلقى ضياء عليه ، بما تميزت به من عصور ومراحل معينة فى تاريخ مصر الإسلامية . وقد فقدت هذه الآثار وتلك ، ولم يصلنا من معظمها سوى شذور اقتبسها الكتاب المتأخرون ، الذين وصلت إلينا آثارهم وبالأخص المقريزى ، ونبهنا إليها فى مواضعها ؛ كما أننا لم نعرف عن بعضها سوى الاسم . وقد تعقبنا ذكر هذه الآثار الضائعة فى تاريخ مصر الإسلامية حيثما استطعنا فى كتب المتأخرين . ورأينا هنا أن نتعقبها أيضاً فى أعظم فهرس جامع لتراث الآداب العربية ، ونعنى به كتاب « كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون » لحاجى خليفة التركى . وقد ولد حاجى خليفة باستانبول سنة ١٠١٧ هـ وتوفى بها سنة ١٠٦٧ (١٦٠٨ - ١٦٥٧ م) ، فهو قد عاش فى عصر متأخر ، بعد أن استقر الفتح العثمانى فى مصر بأكثر من قرن ، وانتهت الثورات والفتن التى كانت الآداب تختنق فى غمارها ، وتفتقد الآثار . وطاف حاجى خليفة عواصم العالم العربى أثناء حياته العسكرية ، فزار بغداد ، وحلب ، ودمشق ، وحج إلى مكة ؛ وانتفع بالبحث والدرس فى مكاتب إستانبول ، التى كانت يومئذ أكبر مستودع للكتب والآثار العربية . ولكنه لم يزر القاهرة ، ولم تتح له فرصة الدرس فى مكاتبها ومجموعاتها . وليس من المحقق أن حاجى خليفة قد شهد شهود العين جميع الآثار التى يذكرها فى معجمه ، بل هنالك ما يدل على أنه اعتمد بالأخص فى ذكرها على المطالعة والنقل ، فهو يقول فى مقدمة

كتابه : « وقد ألهمني الله تعالى جمع أشتاتها (أى العلوم) ، وفتح على أبواب أسبابها ، فكتبت جميع ما رأيته فى خلال تتبع المؤلفات ، وتصفح كتب التواريخ والطبقات » . ومع ذلك فإن ذكر حاجي خليفة لكتاب أو أثر معين ، قد يتخذ فى كثير من الأحيان دليلا على وجوده فى عصره ، أعنى فى القرن الحادى عشر الهجرى أو السابع عشر الميلادى ، وقد يشجع على تتبعه ، والبحث عنه فى مظان وجوده . لذلك رأينا أن نبين هنا ما تناوله حاجى خليفة فى « كشف الظنون » بالذكر والإشارة ، من الآثار الفاقدة التى ورد ذكرها فى « الكتاب الأول » من كتابنا أعنى كتاب « الخطط فى تاريخ مصر » ، سواء كانت فى موضوع الخطط ذاته ، أو لكتّاب الخطط على العموم .

ولنلاحظ بادىء بدء أن حاجى خليفة يكتفى فى ذكر « الخطط » وآثارها الهامة ، بنقل ما أورده المقريزى عنها فى مقدمته ، فيقول :

« خِطط مصر ، وهى جمع خطة بمعنى محلة أو بلد لأنه يخط عند التحديد . وأول من صنف فيه أبو عمر محمد بن يوسف الكندى . ثم القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعى المتوفى سنة ٤٥٤ ، سماه « المختار فى ذكر الخطط والآثار » . ثم كتب تلميذه أبو عبد الله بن بركات النحوى المتوفى سنة ٥٢٠ . ثم كتب الشريف محمد بن إسماعيل الجوانى المتوفى سنة ... وسماه « النقط بعجم ما أشكل من الخطط » . ثم كتب القاضى تاج الدين بن عبد الوهاب بن المتوج ، وسماه « إتعاظ المتأمل ، وإيقاظ المتغفل » ، فبين أحوال مصر إلى حدود سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، قد دثر بعده معظم ذلك . ثم كتب القاضى محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر ، وسماه « الروضة البهية الزاهرة ، والخطط المعزية القاهرة » . ثم صنف الشيخ تقى الدين بن عبد القادر المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ ، كتاباً مفيداً ، وسماه « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » أحسن فيه وأجاد ، وهو المشهور المتداول الآن . ولهذا الكتاب ترجمة بالتركية عملها بعض العلماء للأمير إبراهيم الدفترى سنة ٩٦٩ ... »[1].

---

(١) كشف الظنون – طبعة المستشرق فليجل Fluegel – ج ٣ ص ١٦٠ – ١٦١ ، وهى الطبعة التى نشير إليها هنا . وظاهر أن حاجى خليفة ينقل من المقريزى (الخطط – ج ١ ص ٤) بالنص . ولكنه فقط ، يقدم ذكر كتاب ابن المتوج على ذكر كتاب ابن عبد الظاهر ، وهو تحريف فى النقل .

وهذا بيان بالكتب الفاقدة التي ورد ذكرها أو لم يرد في «كشف الظنون» مما ذكرنا ودرسناه في مواضعه :

الكنـــدى :

كتاب الخطط — ذكر في ج ٢ ص ١٤٦ و ج ٣ ص ١٦٠
كتاب أخبار مسجد أهل الراية الأعظم — لم يرد ذكره .
كتاب الجند العربى — لم يرد ذكره .
كتاب الخندق والتراويح — لم يرد ذكره .
كتاب الموالى — لم يرد ذكره .

ابن زولاق :

تاريخ مصر — ذكر في ج ٢ ص ١٠٢
كتاب الخطط — ذكر في ج ٢ ص ١٤٨
سيرة المعز لدين الله — لم يرد ذكره .
سيرة الإخشـــيد — لم يرد ذكره .

المســـبحى :

تاريخ مصر أو أخبار مصر — ذكر في ج ٢ ص ١٤٧ و ١٤٨

القضـــاعى :

المختار في ذكر الخطط والآثار — ذكر في ج٢ ص ١٤٦، و ج ٣ ص١٦٠ ، و ج ٥ ص ٤٣٦ .

ابن بركات النحوى :

كتاب الخطط — ذكر في ج ٢ ص ١٤٦ ، و ج ٣ ص ١٦١

الجـــوانى :

النقط بعجم ما أشكل من الخطط — ذكر في ج٢ ص١٤٦ ، وج٣ ص ١٦٠

ابن عبد الظـــاهر :

الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة — ذكر في ج٢ ص ١٤٧ ، و ج ٣ ص ١٦١ و ٤٩٩
سيرة الملك الظاهر أو السيرة الظاهرية — ذكر في ج ٣ ص ٦٤١

ابن وصيف شـــاه :

تاريخ مصر — لم يرد ذكره .

ابن المتـــوج :

إيقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل — ذكر فى ج ١ ص ١٥١ ،و ج ٢ ص ١٤٦ و ج ٣ ص ١٦٠

ابن دقمـــاق :

كتاب الإنتصار — ذكر فى ج ١ ص ٤٤٧ ، ووصف بأنه كبير فى عشر مجلدات ، وذكر أيضاً فى ج ٢ ص ١٤٩

الأوحـــدى :

كتاب الخطط — لم يرد ذكره .

أحمـــد الحـــنفى :

الروضة البهية ، تلخيص كتاب المواعظ والاعتبار المقريزية — لم يرد ذكره .

ابن ســـعيد الأندلسى :

كتاب المغرب فى أخبار [أهل] المغرب — ورد ذكره فى ج ٢ ص ١٠٣ و ١٥١ ، و ج ٥ ص ٤٩٨ و ٥٥٦

عبد اللطيف البغـــدادى :

كتاب أخبار مصر [الكبير] — ذكر فى ج ١ ص ١٩٠ و ١٩١ ، و ج ٢ ص ١٤٩

هذا ما ذكره صاحب كشف الظنون ، وما لم يذكره من الآثار الفاقدة التى تناولناها خلال بحثنا . وذكر هذه الآثار لا يدل حتما على أن صاحب كشف الظنون قد عاينها ورآها ، فيدل بذلك على أنها كانت موجودة متداولة حتى أواخر القرن الحادى عشر الهجرى . على أن ذكرها من جهة أخرى يدل على أنها كانت إلى ذلك العصر حية فى الأذهان ، ماثلة فى البحث والمراجعة ، مما يرجح وجودها أو العلم به . وقد رأينا أن كثيراً منها يرد ذكره فى كتب بعض المؤرخين المتأخرين مثل السخاوى والسيوطى ، فى معرض الإسناد والمراجعة ، مما يدل على أنها

كانت حتى أوائل القرن العاشر موجودة متداولة . فالمرجح أنها كانت أيضاً موجودة فى القرن الحادى عشر . واعتقادنا أن الأمل لم يقطع نهائياً من وجودها ، فقد يظفر البحث الحديث من آن لآخر بشىء منها ، مقبوراً فى ظلمات بعض المكاتب والمجموعات الخاصة ، بعد أن يئس من الظفر بها فى المكاتب العامة .

وقد عثر البحث الحديث بآثار فى تاريخ مصر ، كانت قد غاضت آثارها وضاع الأمل فى وجودها ، مثل كتاب تسمية الولاة وكتاب تسمية القضاة للكندى ، وجزء من كتاب « المقفى » والنسخة الكاملة لكتاب « اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء » للمقريزى ، وبعض أجزاء من النسخة الأصلية المطولة لتاريخ ابن إياس وغيرها .

ثبت المصادر

كتاب فتوح مصر وأخبارها ، لابن عبد الحكم .

كتاب تسمية ولاة مصر ، للكندى .

كتاب تسمية قضاة مصر ، »

كتاب فتوح الشـــام ، للواقدى .

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، للمقريزى

السلوك لمعرفة دول الملوك ، »

إتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، »

إغاثة الأمة بكشف الغمة ، »

حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، للسيوطى .

الكاوى على تاريخ السخاوى ، »

الخطط التوفيقية ، لعلى باشا مبارك .

صبح الأعشى ، للقلقشندى .

مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى .

نهاية الأرب ، للنويرى .

كتاب المغرب فى حلى المغرب ، لابن سعيد الأندلسى .

المسالك والممالك ، لابن حوقل .

رحلة ابن جبير .

رحلة ابن بطوطة .

الإنتصار لواسطة عقد الأمصار ، لابن دقماق .

وفيات الأعيان ، لابن خلكان .

فوات الوفيات ، لابن شاكر الكتبي .

طبقات الشافعية للسبكى .

عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، للعينى . (مخطوط) .

معجم البلدان ، لياقوت الحموى .

أخبـــار مصر ، لابن ميسر .
تاريخ ابن خـــلدون (كتاب العبر) .
تاريخ الكامل لابن الأثير .
رفع الإصر عن قضاة مصر ، لابن حجر العسقلانى .
الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ، لشمس الدين السخاوى .
التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، للسخاوى .
الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ، للسخاوى .
تحفة الأحباب ، للسخاوى الصغير .
الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية لمحمد عبد الله عنان .
سير الآباء البطاركة لساويرس بن المقفع .
تاريخ أبى صالح الأرمنى .
عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، للجبرتى .
أخبار سيبويه المصرى ، لابن زولاق (القاهرة ١٩٣٣) .
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، لابن تغرى بردى
المنهل الصـــافى ، لابن تغرى بردى .
كتاب الإفادة والاعتبار ، لعبد اللطيف البغدادى .
عجائب المقدور فى أخبار تيمور ، لابن عربشاه .
الحقيقة والمجاز فى رحلة بلادالشام ومصروالحجاز لعبد الغنى النابلسى (مخطوط).
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى .
بدائع الزهور فى وقائع الدهور (بولاق) لابن إياس .
الأجزاء الرابع (استانبول سنة ١٩٣١) والخامس (استانبول سنة ١٩٣٢) والثالث (استانبول سنة ١٩٣٦) من تاريخ ابن إياس (بدائع الزهور) المنشورة بعناية الدكتور پاول كاله وزملائه .
كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، لحاجى خليفة .

Archivo de la Corόna de Aragón (Barcelona).
Amari : Condizioni degli Stati Cristiani delli Occidente
Butler : The Ancient Coptic Churches of Egypt.
Boccaccio : Das Dekameron.
Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis.
Condé : Historia de la Dominacion de los Arabes en Espana.
Daru : Histoire de Venise.
Derenbourg : Les Manuscrits Arabes de l'Escurial.
Description De L'Egypte.
Encyclopédie de L'Islam.
Finlay : Greece under the Roman Empire.
" Byzantine Empire
Gibbon : Decline and Fall of the Roman Empire.
Irving : Conquest of Granda.
Journal of the Royal Asiatic Society.
H. Ch. Lea : History of the Moriscos.
Machiavelli : Historia Fiorentine.
Memoirs of the Crusades (Trans. Marzials).
W. Pertsch : Die Orientalischen Handschriften der Herzoglichen Bibliothek zu Gotha.
Prescott : History of Ferdinand and Isabella of Spain.
Savary : Lettres sur L'Egypte (Paris 1885).
Sismondi : History of the Italian Republics.
Wuestenfeld : Geschichte der Fatimiden.
" : Geschichte Schreiber der Araber.

فهرست الموضوعات

الكتاب الأول

الخططَ فى تاريخ مصر

وتاريخ مصر القاهرة

الكتاب الثانى

فى تاريخ مصر الإسلامية ـ

صفحة

الكتاب الثاني

في تاريخ مصر الإسلامية — ٢

صفحة

الكتاب الثالث

صور من الأدب المصرى

فهرست الكتب والرسائل

د - ر

س - ع

ف - ك

م - ى

فهرست القبائل والطوائف والدول

فهرست البلدان والأماكن

ل - م

ن - ى

فهرست الأعلام

س - ع

ف – ل

م - ى

كتب أخرى بقلم مؤلف هذا الكتاب
موسوعة الأندلس الكبرى

دولة الإسلام فى الأندلس من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية (جزءان)
دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى
عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس (جزءان)
نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين
الآثار الأندلسية الباقية فى أسبانيا والبرتغال

* * *

تراجم إسلامية شرقية وأندلسية
ابن خلدون - حياته وتراثه الفكرى
مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام
الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية
تاريخ الجامع الأزهر
لسان الدين بن الخطيب
الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (٤ جزء)
ريحانه الكتاب ونجعة المنتاب للسان الدين بن الخطيب (٢ جزء)

* * *